واسيني الأعرج



سوناتا لأشباح القدس

رواية



دار الآداب

سوناتا لأشباح القدس

... **هوجيت كالان، جمانة الحسيني، مريم بان، وعلا حجازي**[1]، هذه الآلام من جراحاتكن الخفية ومن صرخاتكن المكتومة. شكرًا على كل شيء. ما يزال في ألوانكن الطفوليّة بعض الأمل على الرغم من تعميم المحرقة وانتقالها إلى كل حواسنا الهشّة.

واسيني

١ - Huguette Caland, Jumana el-Hosseini, Meryam Ben, et Ola Hijazi.

واسيني الأعرج

سوناتا لأشباح القدس

رواية

دار الآداب - بيروت

سوناتا لأشباح القدس

واسيني الأعرج/روائي جزائري

الطبعة الأولى عام 2009

ISBN 978-9953-89-080-7

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

«إن الألوان القديمة أصبح لها بريق حزين في قلبي. هل هي كذلك في الطبيعة، أم أنّ عينيّ أصبحتا مريضتين؟ ها أنا أعيد رسمها كما أقداح النار الكامنة فيها. في قلب المأساة ثمّة خطوط من البهجة أريد لألواني أن تظهرها ....».

فانسون فان غوخ، الرسالة الأخيرة إلى أخيه ثيو (١٨٩٠)[١]

«إنّ اللون هو ذلك الأسر الرقيق الممتع، بما في ذلك تعبيره عن أشدّ اللحظات مأساويّة».

جمانة الحسيني، فنانة فلسطينيّة

«أرفض جازماً أن أسلّم بفكرة أنّ الإنسان ليس أكثر من قطعة خشب رثّة في مهبّ نهر الحياة، تحوطها العواصف من كلّ الجهات. كما أرفض أن أسلّم بفكرة أنّ مآل الإنسانيّة المفجع هو ليل العنصرية المظلم والحروب، بدل نور الفجر والسلام والأخوّة».

مارتن لوثر كينغ[٢]، خطاب أوسلو ١٠ ديسمبر ١٩٦٤

١ ـ Vincent Van Gogh, Lettres à Théo

٢ ـ Martin Luther King

وصايا أمّي

أنا لم أر القدس إلا ثلاث مرّات في حياتي:

* الأولى،

عندما انتابني جدّي من أمّي «سيدي بومدين لمغيث الأندلسي» وأنا في غفوة على الجهة الأخرى من ساحل البحر الميت. كان واقفًا عند رأسي، يتمادى بعينيه بعيداً نحو الضفاف المقابلة، قبل أن يمدّ يده اليمنى في الفراغ اللذيذ لتحطّ في عمق كفّه فراشة بآلاف التدرُّجات والألوان. نظرتْ إليه مليًّا بعينيها الصغيرتين ثم نامت ولم تستيقظ أبداً. حاول إيقاظها بنعومة ولكنَّها استمرّت في إغفاءتها. أدرك سرّ الإشارة من عمق العلامة. لا أدري ماذا حدث له لحظتها، ولكنّي رأيته يتضوَّر ألمًا ويمسح عرقًا تصبّب على جبينه فجأة. لم يقل شيئًا. كانت الفراشة ما تزال نائمة. جرّني وراءه وهو يسرع الخطى نحو حيّ المغاربة

في عمق القدس، ليبني في نهاية المسلك، وراء حائط البراق، مقامًا جليلاً نام في حضنه بعد أن تعطّر ولبس برنسه بألوانه الزاهية، ولم يستيقظ أبداً. في الأيام التي تلت، عندما زاره الذين عرفوا سرّه، لم يجدوا أثراً له. استغرب الجميع هذا الرحيل المفاجئ لرجل أحبّ القدس حتّى صار لا يرى غيرها في الدنيا. قيل بعد سنوات من هذه الحادثة، إنَّه غضب ممّا كان يسمع من تمزّق أهل المدينة الذين تآلفوا عبر القرون. حتى أنَّ هناك من سمعه يقول: الفلسطينيون، مسلمين كانوا أو مسيحيين أو يهوداً، تألّموا كثيراً على هذه التربة، حتى أصيبوا بأقاصي الآلام المضنية، قبل أن يصلوا إلى شهوة المنتهى. ولهذا تتقاتل الأقوام ويظلون هم أوفياء لعقد الأنبياء الذين مرّوا على هذه الأرض. وقيل إنَّه امتطى دابّته، وفي رواية أخرى، فراشته، ورحل عن المدينة التي خذله أهلها، بدون أن يلتفت وراءه، باتجاه بلاد المغرب ليموت للمرّة الأخيرة على مداخل مدينته الأندلسية التي كانت تملأ رؤاه كلّما ضاقت سبل الدنيا عليه.

* الثانية،

كنت في أوبّرا لاسْكالا بميلانو، قبل سنوات، أعزف لاترافياتا على البيانو، في حفل تكريميّ لماريا كالاس، عندما انتابتني أمّي، مي (أو مريم كما سمّاها جدّي عند ولادتها) التي سرقها الموت منّي قبل الأوان. نحن نخطئ دومًا حينما نظن أنَّ الذين نحبّهم معصومون من الموت. فقد شعرت يومها بالألم نفسه الذي انتاب جدّي على حين غفلة، فانكفأت في عزلتي على بيانو ريشاردسن، عازف هارلم الكبير،

الذي ورثته أمّي عن خالتها دنيا، وأغمضت عيني وعزفت أخيراً السوناتا التي استعصت عليَّ زمنًا طويلاً. ولا أدري إلى اليوم كيف حضرت المقطوعة التي قضيت زمنًا أبحث عنها بدون أن أعثر على استقامتها المرجوة. رأيت لحظتها أمّي وراء ضباب الموت. رأيتها بعينيّ هاتين اللتين لن تمسَّهما النار كما تقول مي، وهي تعبر شوارع المدينة، المندسَّة خلف نثار الأجساد ورائحة البارود. تدور في الحارات زاوية زاوية، وبابًا بابًا: الحرم القدسيّ الشريف، قبّة الصخرة، المسجد الأقصى، باب الرحمة، حارة الشرفة وحارة اليهود في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة، وحارة المغاربة مع باب المغاربة، ثمّ حارة الأرمن وباب النبيّ داوود وجبل الزيتون، وحارة النصارى في الجزء الشمالي الغربي من المدينة وكنيسة القيامة والباب الجديد، وحارة السعدية وحارة باب حطّة. كنت خائفًا عليها من جملة ظلّت تردِّدها على مسمعي: حذار من أن تصبح مثل الجرس المعلّق في كنسية مهملة، كلّما مسّته يد تداعى ألمًا ثم هدأ على أنينه وحزنه الأول. كانت تركض بلا توقّف وراء الفراشات، في حيّ المغاربة وهي تصيح مثل أرخميدس، في غمرة عرس من الألوان: وجدتها... وجدتها... سألتها: ماذا وجدت يا يما؟ قالت وهي تكاد لا تعير اهتمامًا لكلامي من كثرة انتشائها بالفراشات التي غطّتها كليًّا: الألوان يا يوبا... ألوان القدس... تصوَّر... وجدتها مجتمعة كلُّها في جناحي فراشة. فهمت ليلتها لماذا كان اللون هو انشغال أمّي الأول والأخير. كان حياتها. وحتى عندما ماتت، فهي لم تمت ولكنَّها انتفت داخل الألوان التي اشتهتها.

* الثالثة والأخيرة،

عندما خرجت في ذلك الصباح الباكر باتّجاه مطار ج. ف. كندي وسافرت نحو أورشليم، أرض لم أعرفها من قبل ولم تعرفني، إلاّ من خلال روايات جدّي وأمّي، محمّلاً بثلاث جرّات رخاميَّة صغيرة مليئة برماد أمّي المعجون بنوار البنفسج البرّي كما اشتهت، وسيل من الوصايا المكتوبة. لم أضيِّع أيّة لحظة. بعثرت محتويات الجرة الأولى في نهر الأردن. كان الخلاء موحشًا ومخيفًا. لم أسمع وأنا على حافّات النهر إلا همهمات غامضة تشبه إلى حدّ بعيد نعيق البوم مختلطًا بخرير المياه الهاربة ورائحة الموتى. أورثتني هذه اللحظة الكثير من الخوف، على الرغم من أنَّ الشيخ الطاعن في السنّ، مرافقي المجرب والعالم بالبلاد وأهلها ولغتها، طمأنني كثيراً. لم أجد صعوبة في نثر الرماد، فقد ساعدني فصل الشتاء إذ كان سطح المياه مرتفعًا. ثم مددت يدي نحو وصيّتها الأولى التي كانت في جرابي، وقرأتها بصوت عالٍ كما وعدتها: يا نهر الأردن، يا صرخة الأنبياء المكتومة، الباحثين عن مأوى لهم في تدفّقك الأبدي، لقد جئتك بألمي وذاكرتي متحدِّيَة كل الفواصل والحدود، فخفّف من وطأة الحرائق التي تأكلني وتأكل كلّ منْ اشتهى هذه الأرض فأحبّها حتى أحرقته كما تحرق الفراشات النبيلة. يا نهر الأردن، كن سخيًّا فقط كما تعوَّدتَ عندما يعبرك الطيِّبون الذين لا رفيق لهم إلا خيباتهم ومنافيهم وأفراحهم المسروقة. **الجزء المتبقّي من محتويات الجرّة زرعته في طريق قادني نحوه مرافقي الشيخ الطاعن في السنّ، الذي كان يعرف القدس القديمة زاوية زاوية، وحارة حارة، وعائلة**

عائلة، وكأنَّ خريطة المدينة القديمة كلّها ارتسمت في ذهنه أبديًّا. كنت أبعثر رماد أمي المعجون بنوار البنفسج البرّي، كمن يزرع حقلاً ميتًا بسماد الروح، من حيّ المغاربة الذي أصبح امتدادًا للحيّ اليهوديّ، حتى مقام سيدي بومدين لمغيث. أوقفني عسكريّ إسرائيليّ وسيم، مدجّج بالأسلحة، عند حائط البراق وقال لي: ماذا تفعل: قلت: أخطّ طريق أمّي حتى حائط البراق ومقام جدّها الأول. ابتسم. لا بدّ أن يكون قد ظنني مجنونًا، ثم قال: أنت في مواجهة حائط المبكى ولا يوجد في عمقه، كما ترى، أيّ مقام؟ ثم سألني من أين؟ أخرجت جوازي من جرابي وقدَّمته له. هزّ رأسه وقال بابتسامة عريضة بلّدَتْ قليلاً من محيّاه الجميل: أميركان؟ welcome...welcome أعاد لي الجواز، ثم التفت إلى شأنه يحرس المصلّين ويلعب بحزام سلاحه. أنهيت عملي حتى وصلت مقام جدّي الذي لم يعد اليوم له أيّ أثر، وقرأت فاتحة الغياب عليه كما سلَّمتها لي أمّي وهي تلحّ على وقوفي باستقامة عندما أواجه جدّي الأندلسي: باسمك يا جدّي الذي سرقته أندلسه الغائبة، يا فاتحة الروح العالية، أتلبّس الآن بالمكان الذي شيَّدت عليه عوالمك حيث لن تمسَّك يد قاتلة ولن يطالك نفس كريه. فما يزال في الروح يا جدّي، شيء اسمه رائحة الأرض الأولى. عدت إليك لأنّي وقعت بين هلاكين، لا استطعت العودة نحوك وتنفّس تربتك والموت في حضنك، ولا تمكّنت من نسيانك والالتفات نحو مقابر الأراضي التي احتضنتني. وبعد يومين من الدوران ومساعدة الدليل، وجدت قبر عائلة أمي التي كان الشيخ يعرف البعض منها. قبر جدّتي لم تكن به أيّة

إشارة خاصّة، سوى ما خطّ على حجرة قديمة بالطباشير: إنا للّه وإنا إليه راجعون. هنا تنام المخلصة لربّها وأهلها، ميرا بنت الحاج سليمان المغربي... كنت سعيداً أنّني عثرت عليه لأنّ الكثير من المقابر أزيحت من أمكنتها وبُنيت عليها بنايات ودوائر حكوميّة بحجّة أنّها قديمة وأنّ ضواحي القدس ضاقت. مددت يدي نحو الكتابة وحاولت بأحد أصابعي محو أحد حروفها، فامّحى بدون أيّ مجهود. وقبل أن أتساءل كيف استمرّت هذه الكتابة الهشّة كل هذا الزمن، قرأ الشيخ الطاعن في السنّ حيرتي، فقال: هل تعلم يا ابني، أنّ حارس المقبرة لا يفعل شيئًا آخر غير هذا، منذ أكثر من نصف قرن، لا يعمل إلا على إعادة الكتابات. كلّما سقطت سيول المطر، أو هبّت رياح رمليّة عاتية وامّحت العلامات والآثار، عَبَرَ القبور القديمة، قاطعًا كلّ المسالك بدون استثناء، وأعاد تخطيط أسماء القبور التي بلا شواهد جديدة، لكي لا تموت أبداً. ويشكر اللّه أنّ الناس أصبحوا اليوم يضعون شواهد، يتنافسون في أناقتها، مكتوبة ومحفورة على قبورهم ممّا سهّل من مهمّته. قلت لمرافقي نؤجّل ذر الرماد للغد لأنّ الشمس طلعت وأمّي ألحّت على وضع الجرّة في الظلمة الأولى من الفجر الجديد، إذ تكون شهية الأموات مفتوحة للسماع كما كانت تقول لها أمّها. ثم سألته عن قبر يوسف، قال: يوسف من يا ابني؟ قلت: لم أسأل أمّي. لم يستطع الشيخ الطاعن في السنّ أن يكتم ضحكته وهو يتّكئ على شاهدة عالية لقبر منسيّ. أخذني من يدي وأراني أكثر من عشرين قبراً بالإسم نفسه. قلت له: هذا يكفيني، فالمسألة رمزيّة لا أكثر. ونثرت فوقها كلّها بعضًا من

الرماد المتبقي من الجرّة الثانية ثم قرأت الوصيّة التي كانت هذه المرّة محفوظة في عمق صدري مخافة أن أنساها أو يصيبها البلل من جرّاء الأمطار التي بدأت تتساقط : وأنت يا يوسف، حبيبي الصغير وروحي المجنونة، إذا كنت من سكّان هذه المدينة الصامتة، التفت نحو شجرتنا الأولى، الزيتونة القديمة المليئة بالحكايات والرسومات، لينا أختي، غادرت المكان ولن تحرسنا بدءاً من هذه اللحظة. ستجد معلّقة عليها، أصداء أوّل وآخر قبلة لنا. هذا كل ما استطعنا فعله في غفلة من سنّنا. فلا أنت ارتكبت معي إثم الطفولة الأولى، ولا أنا وجدت العمر لغوايتك كما اشتهيت أن أفعل. نم حبيبي، الدنيا لم تكن عادلة معنا، ربما لأنَّها لم تكن لنا أصلاً. **في فجر اليوم التالي، وضعت عند رأس قبر جدّتي ميرا، الجرّة الرخامية الصغيرة التي كُتب عليها اسم أمي بالحرف النافر المذهّب : مي بنت ميرا. وختمت عليها صورتها التي طليت بمادة بريقية حافظة، فتحوّل الإناء إلى إيقونة جميلة. ثبّتُّ الجرّة جيِّداً. وأنا أُخرج الورقة من جيبي لقراءة الوصية، انتبهت فجأة إلى أنَّ مي لم تذكر اسم والدها. لم أتساءل لماذا، لأنِّي عرفت أنَّ قلب أمّي كان مجروحًا حتى وهي تموت. لم تكن أمّي تعرف أشباح والدها ولا أسرار يارا التي خرجت من غيمة هاربة لم يكن أحد يعيرها اهتمامًا. قرأت** : ألبسيني يا ميرا، يا يمّا، ودثّريني برحمك التي لم يجفّ ماؤه. وحدك بقيت جليلة مثل مريم التي أحببتها بجنون وكأنَّك من ذريتها على الرغم من ظلم العيون الهمجيَّة. ها أنا ذي يا يمّا قد عدت إليك ولا شيء معي إلا بقايا رماد العمر وأسئلتي المعلّقة. بك كنت أنا، وبدونك عشت

وحيدة. عذراً يا يمّا، لم أشبع من وجهك ولا من حليبك. عذراً لأنّي تركتك وحيدة أمام الموت البارد وهربت بجلدي نحو مكان لم أعلم أنّه كان موتاً آخر ملفوفاً في قطرة نور.

وضعت بعض النقود على القبر، عملاً بنصيحة الشيخ الطاعن في السنّ، قال لي إنّها لخدّام المقبرة لأنّهم يعيشون على الصدقات التي تُترك لهم، على شواهد القبور. بها يشترون حاجيات التنظيف من فؤوس ورفوش ومناجل وطباشير للكتابة.

ونحن نهم بالخروج، صاح الشيخ بأعلى صوته ملتفتاً صوب الزاوية الشرقية للمقبرة:

ـ يوسي... يا يوسي... وينك يا بوي؟ أعرف أنّك هنا، ليس بعيداً عنّا. اخرج وخلّصنا. مرّ على قبر آل سليمان المغربي، تركنا لك شويّة مصاري، مشان تشتري الطباشير ومستلزمات تنقية المقبرة من الأعشاب الضارة وعشاءك. يا اللّه يا يوسي، ورجيني حالك. يا اللّه يا بوي... بيكفي ملعنة...

كانت الشمس قد بدأت في نشر أشعتها الأولى عندما خرج حارس المقبرة من عمق النباتات البرية المنداة، وأشر لنا مبتسماً، من بعيد، بيده أن نعم، ثم اتّجه نحو قبر جدّتي ورماد أمي. قوّة الضوء محت كلّ ملمح من ملامحه، فبدا لي كالشبح يسرح بين القبور.

عند بوّابة المقبرة بالضبط، عندما هممت بالخروج، سمعت صرخته التي مزّقت صمت المكان وهزّتني من داخلي، كانت تشبه عواء

ذئب داخل عزلة ضارية: يا الله لماذا تخلّيتَ عنّا جميعًا، ألم يكفك ما فعلتَه بي وبها؟ ثم التفت نحو الفراغ وغرق في نشيج طويل قبل أن يواصل: أهذه أنت الآن تعودين؟ لماذا؟... لماذا فعلتِ كل هذا يا مي؟ حرام عليك. كنتُ سعيداً في هبلي ويقيني أنّكِ ضعتِ في بحر الظلمات؟ أيّ ريح هبت عليكِ يا ابنة أمّي؟ أيّ نار أكلتكِ وأيّ زمن ابن كلب ساقكِ نحو التيه؟ أردت أن ألتفت وأركض نحوه وأبوس يديه وقدميه وأترجّاه أن يصمت، وأعتذر منه لأنّي أيقظته من غفوته التي دامت أكثر من نصف قرن، لأنّي شعرت بنداء غريب في داخلي وبأنّي ارتكبت جرمًا في حقّ صمته، ولكنَّ الشيخ الطاعن في السنّ نبَّهني بحدّة أوقفت حماسي: لا تفعل، أرجوك لا تفعل، إنَّها بداية نوبات يوسي الذي فقد كلّ شيء حتى عقله منذ نكبة ٤٨ ولا رهان لديه إلا التذكير بالأموات. يوسف، أو يوسي كما يسمِّيه جميع القدسيين، سيدخل بعد قليل في حالة جذب، يستحضر فيها أمواته وامرأته التي سرقها منه قتَلةُ النكبة. لا تلتفت أرجوك. امش بسرعة. لكنّ صراخ الرجل زاد تمزُّقًا ووضوحًا: أهذه أنت يا مي تعودين رمادًا في جرّة من رخام إلى أرض الأشباح؟ لقد سُرِق كلّ شيء حتى ما احتسبناه طفولتنا، فلماذا عدتِ يا الله؟ كنت مرتاحًا بدونك. كيف تعدّيتِ على خلوتي ولم تمنحيني فرصة الموت كما أشتهي؟

أصبت بحالة ذعر داخلية تشبه الرجفة التي أحسستها وأنا أنحني على مياه نهر الأردن لبعثرة رماد مي على الماء، وشممت الرائحة نفسها. كرَّر الشيخ الطاعن في السنّ تحذيره عندما لاحظ حيرتي: أنت غريب على هذه الأرض، من الأحسن لك أن لا تلتفت، فيوسف في حالة

فقدان العقل ولا أحد يدري تبعات النوبة التي تنتابه الآن والتي قد تستمرّ معه شهراً بكامله. هو هكذا دائماً كلّما شعر بقرابة روحية مع الميت، خصوصاً إذا كان امرأة.

لم أتوقَّف ولكنّي زدت ركضًا وراء الرجل الطاعن في السنّ. عندما التفتُّ للمرة الأخيرة، رأيت يوسف يعانق الزيتونة العالية بمحاذاة المقبرة، ويبكي. كنت خائفًا من صدفة غريبة كانت تشتعل في داخلي، تشبه الحقيقة التي ارتسمت فجأة في رأسي. حاولت أن لا أصدّق أيّ شيء، فلم تكن لديَّ أيّ رغبة في حمل أشباح أمّي التي قتلتها ونخرتها وحوَّلتها إلى شجرة ميتة. كنت خائفًا من يوسي لأنَّه كان يشبه، بشكل مفجع، يوسف المختوم في كراسة أمّي النيلية، ويحمل نداءات طفولتها الغامضة نفسها ورائحتها نفسها.

اليوم، أشياء كثيرة تغيَّرت. الدنيا نفسها صارت شيئًا آخر. بعدما هدأت كلّ الآلام والتأمَتْ بعض الجروح ونسيت صرخة يوسي المفزعة التي صاحبتني مدّة طويلة في أحلامي وكوابيسي، وانتهيت من تدوين حدادي كما اشتهيت، أصبحت لا أرى شيئًا سواها في قمّة ألقها كما في سنوات تفتّحها الأولى. كلّما أغمضت عينيّ المتعبتين من مشقّة الموسيقى والعمل الدائم، رأيت مي تقوم من بقايا رمادها كطائر الفينيق، وتتحوَّل إلى فراشات لا متناهية خطّت على أجنحتها دوائر لا حصر لها، وألوان بمذاق البرتقال واللوز، كلّما نزل الليل، أضاءت مدينة اللّه اليتيمة، أورشليم، المنكفئة على عزلتها وجبروت صمت موتها المتواتر.

يوبا

الفصل الأول

عطش البحر الميت

- ١ -

لاترافياتا. . .[١]

أغمض عينيه مرّة أخرى. حاول أن ينسى كلّ شيء وأن لا يتذكّر إلا ملامح وجهها المضيئة وعينيها الممتلئتين بالحياة قبل أن تنطفئا.

فجأة اختلط أنين ماريا كالاس بأزيز محرّكات الطائرة التي انطلقت على مدرج مطار ميلانو مالبينسا[٢] بسرعة كالسهم، قبل أن تترك وراءها الأرض التي كانت ملتصقة بها منذ لحظات، وتغوص شيئًا فشيئًا في الفضاءات العالية مخترقة كتل الغيوم المتراكمة، لتجد نفسها تعوم في فراغ حليبي تخترقه من حين لآخر ألوان نيليّة مرتبكة.

١ ـ La Traviata أوبّرا للموسيقي الإيطالي غويسيبي فردي، وأدّت دورها الأساسي (فيوليتا) السوبرانو ماريا كالاس.

٢ ـ Milan Malpensa (Aeroporto internazionale de Milano Malpensa)

«ـ ما معنى أن تكون عازفًا كبيرًا وتخفق في إزالة الهمّ عن أقرب كائن في حياتك؟ أدرك الآن أنَّ عطبي الكبير كان هناك لأنِّي لم آخذ موضوع الموت بجديَّة... أيّ شجن محيّر وأيّ جنون انتاب فردي غويسيبي وهو ينسج أوبرا لاترافياتا بأنينها الغريب؟ أيّ صرخة مجروحة كانت تملأ قلبه عندما أغلق عينيه على ذاكرة رمليَّة مبعثرة، وترك دمه يسيح صافيًا كالفجر وهو يُخرج صرخته العميقة المحبوسة بين أتربة الروح المنهكة؟».

اعتدل يوبا في مقعده ثم تحسَّس من جديد السمّاعة وقلم الرصاص الموضوع على أذنه اليُمنى الذي كان يدوّن به النوتات الموسيقيَّة الهاربة في رأسه المتعب. أغمض عينيه قليلاً لكي لا يرى شخصًا آخر غير أمه، ولا يسمع شيئًا سوى ذاك الأنين الذي كان يأتي من بعد سحيق محمّلاً بالصرخات المكتومة والسعادات الصغيرة التي تتهاوى، حتى قبل أن تشرق كالفقّاعات الصابونيَّة التي ينشئها الأطفال، ثمّ يركضون وراءها، وعندما يلقون القبض عليها تنطفئ في أيديهم الناعمة.

«ـ مي؟ يمَّا ... من أين لك بكل هذا البذخ الجميل من الألم والأشواق التي دُفنت في عزّها؟ لماذا لم أنتبه طوال السنوات الماضية إلى أنَّ عطبي كان هناك. بالضبط هناك حيث الطفولة المسروقة، الأشواق المسروقة، المدينة المسروقة... والذاكرة المنتهكة والحبّ المقتول؟ لماذا لم أعر كرّاستها النيليَّة، قبل أن تودِّع خريفها الأخير، الاهتمام الذي يليق

بها؟ هل هو الخوف من اللون المرّ الذي علق برؤوس أصابعها؟ أو بكلّ بساطة، الخوف من التسليم بموتها النهائي بعد سنوات من افتقادها وكان ما يزال شوقي إليها كما في اللحظة الأولى، عندما ألصقتني بصدرها، وأنا أبحث بعينين مغلقتين عن الحلمة التي ملأت فمي حليبًا دافئًا؟...».

لاترافياتا...

تحسَّس يوبا أذنيه مرّة أخرى. كان الصوت صافيًا. ترك نَفَسه ينساب في عمق بيل كانتو... bel canto واسترجاع ملامح فيوليتا كما بدت له في العرض الأول بباريس، بفصوله الثلاثة. فيوليتا أوسيا لاترافياتا (1853) Violetta Ossia la Traviata، اسمها الأصلي، التي كتبها للأوبّرا فرانشيسكو ماريا بيافي عن رواية سيّدة الكاميليا، لألكسندر دوما الابن. بدا له صوت ماريا كالاس نقيًّا كحجرة ماس نادرة وشجيًّا في نواحه. شعر بأنَّ السوبرانو يحتاج في لا ترافياتا إلى جهد استثنائي ليتمكَّن من أدائها على أحسن وجه. ماذا لو لم تحدث تلك الصدفة الشتويَّة الجميلة؟ تمتم يوبا وهو يسترجع بعض صفائه. ماذا لو لم يكن غويسيبي صاحب ٣٩ سنة، موجوداً في باريس في شتاء ١٨٥٢ مع معشوقته الكانتاتريس غويسيبينا ستريبوني؟ لو لم يشاهد عرض لاترافياتا الأوّل في باريس في ٢ فبراير ١٨٥٢؟ العشق سيِّد الخلق. ماذا لو لم يكن في حالة حبّ عليا حوّلته إلى فراشة هشّة وفتحت حواسّه على القلق الأقصى؟ أليست فيوليتا إلاّ الوجه الآخر لحرقة غويسيبينا التي كانت تملأه؟ مثل فيوليتا، تركت غويسيبينا كلّ شيء حتى ابنيها

من أجل معشوقها الذي رأت فيه بداية الحياة ومنتهاها. فيوليتا المريضة بالسلّ ظلّت مشدودة إلى عودة عشيقها ليدركها لحظات قبل النهاية وتذهب هي نحو الموت السعيد مغمّضة العينين. عند نهاية العرض كان غويسيبي فردي ممتلئًا بالأشواق وخفيفًا كريشة. خرجا إلى شوارع باريس ممتلئين بالنور. نظرت غويسيبينا إلى عينيه، قبّلته ولم تقل شيئًا ولكنَّها دفنت رأسها تحت معطفه قبل أن يذوبا في أنوار المدينة، وبدأت تنصت إلى دقّات قلبه التي كانت قد فقدت كل اتّزان لها. عرفت أنَّ اشتعالاً من الألوان والأصوات والإيقاعات كان يملأ دماغ غويسيبي فردي الذي فتح بموت فيوليتا، الطريق أمام أوبّرا بوتشيني لكي تقول فجيعة النهايات، لم تكن تهمّه الفتوحات بقدر انشغاله بجنونه وهبله وحبّه الذي لم يقاوم اندفاعاته إلاّ بالموسيقى.

صافيًا كان نحيب ماريا كالاس، يتدفّق جريحًا داخل الشرايين الجافّة. شيء من الخوف يتملّك الجسد في شكل هزّات داخليَّة باردة، لكنَّه سرعان ما يذوب شيئًا فشيئًا داخل نداءات الروح الممزَّقة إلى ملايين الشظايا الدقيقة، التي لا تنتهي. أيّ حنين وأيّ شوق يحترق الآن؟ تساءل بصوت خفي ذاب في الأعماق. أيّ قلب يتدفّق اللحظة ويواجه عري الدنيا بدون أن يندثر ويتمزَّق إلى ملايين القطع الهائمة في الفراغ؟

عدَّل يوبا السمّاعة في أذنيه مرّة أخرى، لكي لا يخسر الاستثناءات الإيقاعيَّة الساحرة التي كانت تتناهى إلى مسمعه في هدهدة طفوليَّة تصعب مقاومة ألقها.

غـاب أزيز الطائرة ذات المحـرّكـات النفّـاثة نهـائيًّـا، مخلِّفًـا وراءه تدفُّقًا ناعمًا من الأصوات التي كان أنين ماريا كالاس يعلو عليها كلّها. صافية كانت، جميلة ودافئة كحضن مومس مجروحة. كانت نداءاتها الغامضة تتصاعد عاليًا بدون أن تفقد ألقها ونعومتها، كأنّها تستنجد بسماء فقدت نشيد غيمها ولونها الأول. سلسلة من الأنّات المتلاحقة التي لا حدّ لشوقها وشكواها.

عندما استقام مسار الطائرة في السماء، عدّل مرة أخرى من قعدته حتّى لا يضيّع أيّة حركة من لاترافياتا التي كانت تملأه بجبروت حضورها الدائم. تساءل في أعماقه، كيف وجد نفسه في لاسكالا(١) دي ميلانو المليئة بأصداء الذين عبروا قبل زمن، هو الذي لم يغادر نيويورك منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ التي كادت أن تسحبه نحو حرائقها، لولا الصدفة والأقدار الغريبة التي دفعت به نحو قبر أمّه في الثلاثاء ذاته، وغرقه في طريق مليء بالضباب. فقد رفض بأدب كل الدعوات التي وُجّهت له باستثناء زيارته للقدس تلبيةً لوصايا أمّه لذرّ رمادها في المدينة المقدّسة ومقابرها ونهر الأردن، وميلانو استجابة لدعوة لاسكالا وحبّه لماريا كالاس الذي لم يستطع دفعه ومقاومته؟

«ـ هي الدعوة الوحيدة التي لم أستطع رفضها: **لاسكالا، ذاكرة ماريا كالاس**. تمتم يوبا، لم أخرج من نيويورك إلاّ منذ أقلّ من أسبوع لا لشيء سوى لأنّ بي رغبة كبيرة للنسيان وللتمادي في الأشواق

---

١ ـ **La Scala de Milano**

الغائبة. أو ربما هربًا من شيء غامض يشبه العجز. الأحداث الأخيرة حوَّلت اليقين إلى شكوك والشكوك إلى يقين. لقد أصبحت نيويورك سجنًا كبيرًا فَقَدَ حتى طعم الإحساس به؟ كانت تعشق الحبق الأندلسي والنوار الأشبيلي ونواح ماريا كالاس التي كانت ترى في حياتها أحزان الشرق المكسور، حتى ألبستني الإحساس نفسه وصرت أراها في عينيها كلَّما انتابتها إرباكات الوحدة والخوف من الموت، أو حبّ الحياة بنهم كبير. ربما كان بين ماريا وبين مي شبه ما اسمه الأرض المفقودة؟ الأشواق المسروقة والجسد الضال؟ أمّي خسرت والدي ولم ترد أن تسجنه بحبّها بعد أن ضيّعت كلّ شيء حتى والدها، وماريا كالاس فضَّلت أن تموت داخل العزلة وكراهية أمّها وغيرتها المجنونة، مقابل أن لا توقف جنون أوناسيس الذي جاء ليموت مثل عصفور الجنّة عند رجليها، في مدينتها التي اختارتها لعزلتها، لا يحمل من غناه الفادح إلا بطّانيَّة صغيرة حمراء، أهدتها له في إحدى المناسبات الخاصة: هو ذا أوناسيس، اختار أن ينطفئ في باريس بعد أن فقد كلّ شيء حتى ابنه وأمل الحياة. يمّا مي؟ ياه كم تبدو الكلمات مثقلة بأمطار الأيام الماضية؟ لكلمة يمّا طعم مغاير، عندما نتجاوز الطفولة الأولى. نتشبَّث بها ربما لأنَّنا نشعر كأنَّنا كبرنا بسرعة لم نتخيَّلها، أو أنَّ الموت سيسرق منّا أعزّ ما نملك ولن يهمّه في النهاية غضبنا أو رضانا».

كانت الطائرة قد بلغت سقف توازنها وانطفأت أضواء ربط الأحزمة. أنين لاترافياتا ما يزال يملأ المكان الساكن. لأوّل مرة، منذ مدّة

طويلة، تبدو له السوناتا قريبة، على مرمى من ملمس أصابع يديه. لم يرها أصواتًا فقط ولكن نوتات متعاقبة ومنتظمة، رسمها قلم الرصاص الذي لم يغادر أذنه وأصابعه منذ أن دخل إلى مطار ميلانو المكتظّ بالمسافرين.

طوال الأيام الماضية لم ينم يوبا إلاّ قليلاً. لقد عزف في لاسكالا، لاترافياتا تخليداً لروح ماريا كالاس مع موسيقيِّين عالميِّين آخرين، ولم يشعر إلاّ بالسعادة التي كانت تغمره كلّما رأى في الصورة الخلفيَّة وجه ماريا وكأنَّها كانت تتبع إيقاعاته. تمنَّى أن تكون مي حاضرة ولكنَّها انسحبت بعد أن خلّفت بين يديه سوناتا لم تكتمل، كانت تحمل اسمها والكثير من الوصايا التي كان عليه قطع بحار الظلمات لتأديتها في وقتها، وبالشكل الذي أرادته مي. فقد شعر بشلل غريب في غيابها وهي العاشقة لكلّ ما يقرِّبها من الحياة ولألوانها التي لم تتركها حتى وهي تودِّع الحياة بحزن.

هو يتذكَّر جيِّداً أنَّه فاجأها ذات فجر وهي تدندن أغنية أندلسيَّة شجيَّة، قبل أن يذهب إلى عمله، في أوبّرا نيويورك، أغنية أجدادها الذين سُرقت أشواقهم ومدنهم الجميلة. كانت تعجن ألوانها بحثًا عن رسمها الهارب دائمًا، كما تعوَّدت أن تفعل دومًا، قبل أن تبدأ أيّ لوحة. عندما رأته ابتسمت، ثم صمتت كمن فوجئ على حين غرّة يرتكب إثمًا. حاول أن يداعبها كعادته، ولكن عينيها ظلّتا ملتصقتين بتفاصيل الألوان والخطوط التي كانت تنشئها. انكسر فجأة صوتها الجميل الذي ينساب مثل مياه الأنهار، عذبًا وصافيًا.

«ـ لماذا سكتِّ يا يمّا؟ غنّي كما تريدين. أريد أن أسمع صوتك الحنون كما لو أنَّ عمري سنوات قلائل لا أعرف فيها معاني الكلمات ولكن جراحاتها وأصداء موسيقاها. غنّي اللّه يسترك. أغنية جدّك الأندلسي؟

ـ صوتي كئيب. جدّي مات وشبع موتًا وآن له أن يرتاح من مذابح الأندلس وأن يريحني معه. كم أشتهي أن أزوره برفقتك، كم يبدو قريبًا منّي أكثر من أيّ زمن مضى. أشعر به يناديني نحو أرضه المفقودة... لا صوت لي. سأشوّه أغنية عزيزة على قلبي وهي ما تبقّى من ذاكرة سُرقت منّي.

ـ يمّا... جئت لأراك... واصلي فقط وكأنّي لست هنا.

ـ طيّب... سأدندن مثلما أعرف، ما دمت تلحّ على ذلك.

ـ أنت تتواضعين يا يمّا، مع أنَّ صوتك أكبر من كلّ شيء، لو عرفت الدنيا فقط كيف تنصفك وتركتك تهيمين في شوارع القدس وأنت صغيرة تتشبّعين من دروبها الضيّقة وتربتها الآجرّيّة وحجارتها الباردة صيفًا والدافئة شتاء، قبل أن تأخذك عاصفة مجنونة انتزعتك من أرضك ورمتك في منافي مدينة لم تتصوَّريها حتّى في الأحلام. كانت القدس هي بداية الدنيا ومنتهاها بالنسبة لك، ربما لكنت اليوم ديفا أو سوبرانو من أعظم ما أنجبت هذه الدنيا. أنا صادق يا يمّا فيما أقوله.

ـ تلك قصّة أخرى. لو كانت الدنيا دنيا. كان خالي غسّان مفتوحًا على الدنيا ومفتونًا بالموسيقى والسينما. كان يأخذني

بصحبته إلى سهرات القدس وأنا صغيرة. فاجأني يومًا وهو ينظر إلى وجهي. قلت له: شو فيه يا خالي؟ قال: اليوم سنزور صديقنا بولص شحادة. بتعرفي ليش؟ قلت بدون تفكير لأنِّي كنت أعرف علاقته به: حتى تسلّمه مقالة لينشرها في جريدته: مرآة الشرق. قال: لا. قال: لأنَّه سيستقبل اليوم السينمائي والموسيقار العالمي الإسباني خوسي ماجيكا. يريد أن يسمع شيئًا من الشرق وستغنّين أنت في السهرة مع ضيوف آخرين . قلت له: جدّو ما بيحب. قال وهو يضحك: جدّو في أعماقه بيموت في تحية كاريوكا والستّ بديعة مصابني وتمايل على صوتيهما وعلى رقصهما. وكلّ مساء يلتصق بإذاعة فلسطين **هنا القدس**، ليستمع إلى فرقتها الموسيقيَّة حتى يأخذه النوم. طمأنني خالي وأزال عقدتي الداخليَّة. أطلقت العنان، في ذلك المساء، لصوتي الناعم، وغنّيت سيِّد درويش الذي كنت أحفظ كلّ أغانيه من أمّي وخالي غسّان. وجُنّ جنون خوسي ماجيكا، ووعد بأن يبحث لي عن منحة للدراسة في كونسرفتوار في بريطانيا أو مدريد، ولكنَّ العائلة وقفت بحزم ضدّ ابتذال ابنتهم. تخيّل، الموسيقى ابتذال؟ ياه يا يوبا... كم نخطئ من المسالك المهمة ونظنّ أنفسنا في الطريق الصحيح؟ وعندما نصحو يكون قطار الدنيا قد مضى، فلا نلحق حتى لتوديعه.

ـ في أيّ شيء كانت ماريا أفضل منك؟ صوتك عندما يخرج من القلب يجرح حتى الميت في قبره قبل أن يورثه حسًّا عميقًا من الراحة الأبديَّة.

ـ أيّ مـبـالـغـة هـذه يا يوبا؟ يبـدو أنّي الليلة غـزوت حلمك وحوّلـت مسارك الصباحي نحو عـملك. إحسـاسك نبـيل يا روحي ولكنّه غير صحيح. لا يمكن أن نكون بكلّ هذه المهارة ونعيش خواء روحيًّا لا يُضاهى؟ طيِّب... ذنبك على جنبك... اسمع الأغنيـة إذن... لقـد كـانـت نشيـد جـدّي المهـزوم... هذا ما تبقّى من رحلة الثمانية قرون ونيف.

ليام تمرض وتبرا، والصبر هو دواها...

آه... يا أسفي على ما مضى.

من ذاك الزمان اللي فات وانقضى...

آه يا فرقة الديار، ديار الأندلس،

ما هانوا عليّ... ما هانوا عليّ...».

لا شيء الآن. حتى البنايات العالية التي كانت تبدو منتظمة كألعاب الأطفال، غابت نهائيًّا تحت كتل الضباب قبل أن يختبئ البحر بدوره. قبل لحظة كان الساحل ممتدًّا بعمق، مخترقًا سهول الماء والزرقة، مشكّلاً قوسًا جميلاً يضيق في نهاياته حتى ينغلق على نفسه. تضمحلّ المدينة الملوّنة بالزرقة والألوان الهشّة، حتى تغيب نهائيًّا تحت لمعان شعاع الشمس الناصع، الذي تسرَّب مخترقًا دكنة الغيوم الثقيلة من نوافذ الطائرة الدائريَّة الصغيرة. انتفى كلّ شيء ولم تعد إلاّ السماء شاهداً على الرحلة وصوت ماريا كالاس الذي كان يخترق ذاكرته المنهكة، بعد أن محا صوت المحركات النفّاثة التي كانت تملأ الفراغات اللامحدودة.

شعر يوبا بأشعة الشمس الصافية تمسح من على وجهه المتعب كلّ خطوط الإنهاك. في حركة لاشعوريَّة، مدَّ يده وأسدل غطاء النافذة قليلاً، فسادت سكينة لم تكن تخترقها إلاَّ الأحاسيس العميقة التي تجد لذّة للاستيقاظ في مثل هذه الحالات. عاودته من جديد أغنية قديمة تحت وقع نقرات القانون الناعمة والمتواترة، كانت مي تسمعها كلّما دخلت في موجة صمت وعجزت لغتها عن الإفصاح، حفظها في البداية بدون أن يعرف معانيها قبل أن يتعرَّف على كلّ تفاصيلها من أمّه.

«... مانيش منا... مانيش منا...

غير المانو(١) صابني...».

* * *

من جديد خطّ يوبا سلسلة من النوتات المتتالية من الحركة الأولى: الأداجيو(٢)، تمتم وهو يبحث عن أكثر الإيقاعات حنيناً. هذه هي الافتتاحية التي تجعل بقية الحركات تتدفّق بلا توقّف. كان قلم الرصاص بين يديه كأنَّه يؤدِّي رقصة صوفيَّة طليقة ويفتح أمامه الأبواب الثقيلة المغلقة، أبواب الموت التي كانت تفصل بينه وبين أمه:

«صدقني... وحياتك أشعر أنِّي معنيَّة بها بشكل غريب. إنَّها أغنية أحد أجدادي الذي لم يجد الوقت الكافي لتوديع مدينته، فحمل على ظهره ثقل أندلسه قبل أن يغمض عينيه وينطفئ في البرّية

---

١ ـ الحظ، القدر.

٢ ـ Adagio

ثم يندفن في عمق هول البحر. ربما فعل ما لم نستطع فعله. في هذه الأغنية شيء صعب يأتي من بعيد لا أستطيع مقاومته أبداً. هل جرّبت أن تُسرق منك مدينتك الوحيدة، بالضبط في اللحظة التي بدأت تعرفها فيها وتستنشق كلّ صباح عطر تربتها؟ أنا جرَّبت ذلك وأشعر بعنف الغياب. أطلب من اللّه صبحًا ومساء أن يحفظك من ذلك الإحساس المدمِّر، وأن يمنحك الصبر الكافي لكي تواجه خسارات المدن الفادحة ولا تضطرّ إلى مواجهة ما أحسّ به الآن. لا أحد في الدنيا في منأى عن فقدان منبته وتربته. ويبدو أنَّ قدرنا الكبير هو أن نتدرَّب باستمرار على الفقدان، ساعات في اليوم على الأقلّ مثلما نفعل مع الرياضة، لكي لا نموت قهراً.

ـ لكن يا يمّا... الزمن اليوم تغيَّر كثيراً... الحروب المدمّرة صارت وراءنا. البشريَّة بدأت تتعقَّل قليلاً على الرغم من غريزة التدمير.

ـ تظنّ ذلك يا يوبا؟ كلّ شيء على الأبواب، بالضبط على قاب قوسين أو أدنى، حتى أكثر الحروب فتكًا بالبشريَّة. إمكانات الخير والشرّ لم تتغيَّر كثيراً. بل إنَّ الإنسان أعطى لشروره أناقة وهندسة جديدة. المؤسسة صنعت مثقّفها الذي أصبح معمَّمًا. المثقّف المصاب بالعمى الكلّي، يتحدَّث عن المضرّات وفق منطق الهيمنة. زاوية نظر حادّة جدًّا لا ترى من الحقيقة الكليَّة إلاّ جزءها المضاء. المشكل ليس في الحقيقة ولكن في من يسلِّط الأضواء على أجزائها المظلمة».

يغمض يوبا عينيه لتفادي كلّ الجراحات وجمل أمّه التي تتوالى في رأسه كسلسلة لا تنتهي. تتوغّل فيه إيقاعات لاترافياتا ممزوجة بالأناشيد الجنائزيّة.

«ـ لا بدّ أن تلبس السوناتا لباس هذا الحداد وإلاّ... فلا معنى لوجودها».

تمتم يوبا قبل أن يندفن في صمته وحركات أصابعه التي لا تتوقّف مخترقة بقايا البياضات على الورق.

من الأعالي يبدو كل شيء عاديًا. يأتي الشتاء مرّة أخرى مبكرًا وينسحب الخريف قبل الأوان. شيء في نظام الطبيعة بدأ يهتزّ. هو ذا شهر النزيف حيث يبدأ الصمت وتبدأ الطبيعة في الإنصات لآلامها الداخليّة العميقة وتستعدّ للموت الذي يترصّدها في كلّ الأمكنة، متلذّذًا بهبلها الذي أصابها في العمق.

تمتم كلامًا كان يريد أن يقوله لأمّه ولكنّ ذهابها المبكر لم يمنحه أيّة فرصة لذلك. تساءل كيف لم يعرف طوال هذا الزمن أنّ مي كانت كلّما رسمت، أو حتى كلّما تكلّمت، تتألّم وتتمزّق. كلّ سنوات عمرها لم تحادث إلاّ بياض اللوحة والألوان ونزيفها وذاكرتها الجريحة والمقطّعة إلى آلاف الأجزاء الصغيرة التي كان يصعب عليها لمّها. كلّما رتقتها من جهة، تمزّقت من الجهة الأخرى.

«الفنّ يا يوبا، كانت ميّ تقول كلّما داهمتها موجة الأحزان المبهمة، جرح تخرج منه شلاّلات النور والآلام اللذيذة ولهذا نذهب

نحوه بسعادة غريبة مثل ثور الكوريدا الذي يركض نحو حتفه في الساحة وهو لا يدري ذلك، أو يدريه ولا يعيره اهتماماً لأنَّه لا يريد أن يعرف حقيقة النهايات التراجيديَّة التي تنتظره. ندمنه بعنف استثنائيّ كما نستهلك الأيّام بدون دراية منَّا بأنَّ كلّ خطوة نخطوها إلى الأمام هي زحف متواتر نحو قبر ينتظرنا في زاوية ما من هذه الأرض الضيِّقة. لو كنَّا ندري ذلك ونحن أطفال لما تمنّينا أن نكبر بسرعة لنمتلك حقّ العشق والحماقات السرّيَّة. الحياة رهان وليست مسلَّمة، نشدّ عليها يوميًّا بأسناننا لكي لا تفلت من بين أيدينا بغباء، فكلّ ما يحيط بنا يريد أن يسرقها منّا وأن يستغبينا. نعرف جيِّداً أنَّ الموت سيفلح يوماً في اختطافها منّا، ولكنَّنا نتضامن مع الحياة لكي نُبعد المسافة ونمدِّد الطريق ونصنع له الممرّات الكاذبة والمسالك لكي نحرفه عن المعبر الصحيح، ولكنَّه عندما يعثر على الطريق المؤدّي إلينا يقهقه من سذاجتنا ولا يرحمنا. بل لا يمنحنا ثانية واحدة لكي لا نذهب وحيدين ونودّع من نحب ومن يملأون قلوبنا، ويبكون كلّما سمعوا أنَّنا انسحبنا بصمت وإحساس بالخلوة الكبيرة التي لا سلطان لنا عليها».

«و لكن يا يمّا..».

يتمتم يوبا ثم يصمت نهائيًّا ويندفن في عمق الشعاع الذي تسرّب من الفجوة المتبقِّية من نافذة الطائرة. يرفع الغطاء من جديد. انسحبت كتل الغيوم الكثيفة. لا شيء من هذا العلوّ الشاهق إلاّ البحر، مرّة أخرى، الذي تكسوه غمامات من الزرقة الحليبيَّة المائلة نحو

ألوان نيليَّة مبهمة. كان يتمادى في جبروته وعزلته وغيّه وكبريائه على الأشجار التي بدت قبل لحظة وكأنَّها كانت تتعرَّى وتحاول عبثًا أن تتفادى رياحًا محمَّلة بالندى والرطوبة، وهي تهبّ وتتوقّف على مزاجها. تبدو الجبال التي تؤطّر حوّاف البحر من الأعالي، منكسرة ومبعوجة مثل الرايات المهزومة.

«... هذا هو بالضبط مفصل السوناتا التي تجسِّد أحلام مي وهي تفتِّش في جرحها عن لون لمدينتها المسروقة. الزرقة النيليَّة. أنتم لا تعرفون القدس جيِّداً... **القدس خبز اللّه وماؤه. مدينة تكفي الجميع، قلبها واسع، دينها كبير، إيمانها متعدِّد وأشجارها تغطّي كلّ العرايا ومراياها ليست عمياء وحيطانها ليست للبيع**. صرخة مي الدائمة كلَّما هاجمتها الذاكرة وانغلقت عليها سبل الدنيا. لم تكن بعيدة إلا بالقدر الذي يهزّ صمتها بشكل تستطيع تحمّله».

عندما انسحبت مبكراً، لم يتوقَّف الزمن ولكنَّها تركت السوناتا معلّقة بين أصابعي، وكأنَّ كلّ الرهانات كانت مرتبطة بنبض قلبها ووقع حركات أناملها وهي تتحرَّك على بياض اللوحة. يتألَّم يوبا. يتذكَّر جيِّداً أنَّ الموت عندما عثر على مخبأ مي لم يمهلها ثانية واحدة. ظلّت تداريه داخل الألوان وتتخفّى وراء الأشكال التي كانت تبدعها. كشّر بحقد في وجهها ولم يرحمها حتى في هشاشتها. عندما عرفت أنَّ مرضها الخبيث كان في مرحلة متقدِّمة من الخراب، صرخت طويلاً وهي تردِّد: ابن الكلب كيف لم أتفطّن له؟ كنت أحمل قنبلة موقوتة وأنا لا أعرف؟ كنت أواسي الآخرين وأشجِّعهم

وأنا لا أعرف مطلقًا أنَّه كان يسكنني؟ كان ينخرني من الداخل بشهيَّة الخائن الذي يعرف كلّ شيء ويتغاضى. يتذكَّر يوبا جيِّدًا أنَّه يومها أصرّ على مرافقة مي عندما صمّمت على التأكد مرّة أخرى من مرضها. فكَّرت في أن تخبر والدها في مدينة سياتل[1] حتى يستطيع أن يتحمَّل غيابها الأبديّ، هو الذي ظلّ يقاطعها منذ أن تزوَّجت من رجل لم يرده لها وكأنَّ عقليَّة الشرقي هي صخرته التي عليه أن يجرّها وراءه أينما رحل. في النهاية زارته بدون أن تخبره بمرضها. لأوّل مرّة تعطف عليه. فقد شعرت بأنَّه لم يكن مهيَّأً لاستقبال خبر يمكن أن يقتله. تخاصمت معه في كلّ شيء كالعادة، ثمّ عادت محمّلة بموته وبقراراته التي اتّخذها.

يتذكَّر جيِّدًا أنَّه استمع إلى آلامها ليلة كاملة وهي تسترجع قصّتها مع والدها الذي يحمل خروجه من القدس لعنة دائمة وذعرًا لا ينتهي. اندهش يوبا من شجاعتها وصبرها وقوتها:

«ـ يمّا...

ـ لا تحزن يا يوبا، لكل مسافة، مهما طالت، نهاية.

ـ هل تدرين يا يمّا بأنِّي كلَّما كبرت قليلاً شعرت بأنِّي أفتقدك كثيراً، ولا أدري من أين يأتي هذا الإحساس الغريب. كنت أظنّ بأنِّي كلّ يوم أشبع منك قليلاً، ولكنِّي أكتشف اليوم أنِّي لم أعرف كيف أملأ قلبي وذاكرتي بك، ولم أعرف أبدًا كيف أشبع من وجهك. يزداد

---

١ ـ Seattle

نهمي نحوك باستمرار وكأنّي أراك للمرة الأولى. أشعر كأنّي أخطأت طريقي نحوك يا يمّا، فأنسى أحيانًا حتى ملامحك الطفوليّة التي لم يفترسها المرض القاتل. لقد نسيت، كما يفعل عادة كلّ الأطفال الأشقياء المليئين باليقين الزائف، أن أسألك أسئلة كثيرة غابت عنّي من فرط غبائي بخلودك الأبدي. نظنّ عبثًا أنّ من نحبّ فوق قدر الموت. أشعر اليوم بك قريبة مني أكثر من أيّ زمن مضى. لكنّ وحدتك يا يمّا جاءت مبكرة وغير عادلة. جدّي حسن لم يفهمك جيّداً. كان يخاف عليك بالقدر نفسه الذي تخافين به عليه. ظلّ عبثًا يبحث عنك، وكلّما صار قريبًا منك شعر بالهوّة تزداد عمقًا واتّساعًا. كلّما تحدَّث عنك في غيابك، دفعني نحوك بقوّة لا سلطان لي عليها. يقول دائماً: **تلك ابنتي ولكننا نتشابه كثيراً ولهذا قليلاً ما نسمع لبعضنا البعض.** ثمّ يعود إلى الانكماش في أحزانه الشتويّة.

ـ يوبا، أنت تعرف أنّ الموت أقوى دائمًا، ونظنّ أنّ الذين نحبّهم عبارة عن تماثيل من ذهب، لن تنكسر أبداً. لكنّ الأقدار تنتظرنا حيث لا أحد يتوقّعها. الموت هكذا، عندما يدقّ على أبوابنا، علينا أن نلتفت صوب الحائط لكي لا نرى حصاده القاسي، وهذا ما يفعله البشر لكي يتمكّنوا من العيش قليلاً، بعيداً عن ظلّه وإن كان ظلّه فينا. لهذا لا نتفطّن لخرابه وهو يحدث فراغًا مهولاً من حولنا. فجأة نجد أنفسنا وحيدين كاليتامى نواجه سلطانًا طاغيًا لا طاقة لنا عليه. ثم يهزّنا من غفوتنا ليذكّرنا بأنّ لحظة غروبنا قد حانت. نلملم بقلق وعدم رغبة، وبقناعة أقلّ، أشياءنا العميقة وأشواقنا الصغيرة

استعداداً للرحيل النهائي. يبدو لنا، في لحظات السهو القليلة، كأنّنا فوجئنا بفجيعة لم نتهيًّأ لها بالشكل الذي يجعلها مستساغة. ثم نكزّ على أسناننا بأقصى قوّة ممكنة ونتمتم في أعماقنا الجريحة بخيبة النهاية. نستسلم. ليكن. هذا هو قدرنا. لنمض مع الذين يمضون أو يستعدّون لفعل ذلك بقدر من الكرامة.

ـ يا يمّا لماذا هذا الإصرار المتنامي على الحديث عن الموت؟ ما تزال الدنيا ماثلة بين أصابعك وفي عمق ألوانك.

ـ لا يا حبيبي؟ قل لماذا هذا الإصرار على قبول الأقدار بصعوبة قاسية، مثل الحيتان التي لا تعترف بموتها إلا عندما ينشب الموت أظافره القاسية في لحمها، فتنسحب نحو السواحل لترى النور والسماء للمرّة الأخيرة قبل انتحارها الجماعي. عندما صمّمت على الذهاب نحو والدي على الرغم من أنّي كنت أكره مدينة سياتل التي أكلت ضواحيها المصانع الكثيرة والأدخنة، كنت أتخيّله خيطي الأخير الذي يربطني بالحياة، لأقول له فقط ما يشغلني ويشجّعني لمواجهة موت جرّبه العديد من المرّات وخرج منه بالكثير من الحظّ، ولكنّي بعد يومين معه في شماله الحزين والبارد وميناءه الذي يتجشأ ملحًا، عدلت عن الإفشاء بآلامي، لأنّي خفت عليه منّي. هو كذلك كان هشًّا مثل غيمة، لا يتحمّل أيّ هزة عنيفة. أشعر أحيانًا أنّه سبقني نحو الموت نكاية فيَّ. لكي لا يراني ولا يبكيني. كنت أتحدّث معه بينما كان يثبّت نظره في عمق عينيّ، ثم باتجاه الميناء الذي أكل شبابه عندما دخل إلى هذه المدينة. لم يسألني ليلتها في المستشفى عن أيّ شيء

ولكنّي شعرت بأنّه كان يعرف سرّ مجيئي نحوه. قال بصفاء غير معهود: هل فكّرت في مكان دفني؟ ارتبكت. كدت أصيح: يابا أنا جئت أسألك عن ذلك. ولكنّي صمتُّ وضغطت على لساني حتى أدميته لكي لا أتكلّم. لا أدري كيف وجدت ردّي عليه: طول العمر يا بابا حسن... طول العمر. الأعمار بيد اللّه. لم يأبه لكلامي وكأنّه لم يسمعني أبداً. واصل بالبرودة نفسها، ملتفتاً نحو الفراغ وكأنّي لم أكن معه: الزمن القاسي علّمني نسيان فكرة العودة. لقد رُفِضَت كلُّ طلبات الدفن في القدس، تخيّلي! هل الأموات خطرون إلى هذا الحدّ؟ أشتاق لطفولتي وأصدقائي وحدائقي الجميلة ولكنَّ الزمن الذي سرق منّا أرضاً لم يمنحنا حتى إمكانية الحلم. منذ أكثر من خمس سنوات وأنا أعيش في هذا المستشفى. تعوّدت على نظامه وناسه. الناس هنا طيّبون للغاية. رأيت الكثيرين منهم يموتون بسبب الحروق العميقة والسموم التي تبثّها مصانع طائرات البوينغ والميناء والصناعات البحريّة والنقص الفادح للأعضاء البشريّة، والأمراض الفتّاكة التي تأكل الإنسان جزءاً جزءاً، بدون أن يتمكّن الطبّ من فعل أيّ شيء. سمعت الأطبّاء وهم يتحدّثون عن أمراض العصر التي ولّدها زماننا بكل صغره وأنانياته، وتلك التي نشأت داخل هذه المدينة منذ أن كانت منارة لشذّاذ الآفاق والباحثين عن الذهب، والخشب، وحتى صناعة الطائرات الحربيّة والمدنيّة. قلت للطبيب عندما فحصني ذات مرّة، بنبرة لا يبدو فيها أيّ قلق: هل ما يزال هناك ما يصلح في جسدي؟ ضحك: أنت صلب كشجرة صفصاف، أحسن من أيّ شابّ في مقتبل العمر. كان

يظنُّني أمزح معه. في اليوم الموالي عندما زارني كنت أوقّع بحضرته منح جسدي، بعد موتي، للمستشفى الذي أنا فيه. أشياء كثيرة في الجسد لم تكسرها الشيخوخة ولم يطأها الزمن، بما في ذلك هيكلي العظمي. عاش ما كسب، مات ما خلّى. هكذا يقول الأولون الذين اختبروا لعبة الحياة. لقد صغرت الأرض يا مي حتى صارت كخرم إبرة. مجرّد زفرة هاربة. رجل بلا أرض ولا قبر ولا جسد، حتى الذاكرة المثقلة بالهموم سأسحبها ورائي بكلّ أسرارها. أفضل لك وللجميع لكي يتمكّنوا من العيش في زمن لم يعد يحفل كثيراً بالظلم وبهم. لم يعد الخير والشر حقيقة ملموسة ولكن مجرد زاوية رؤية، بحسب القوة والموقع الذي نحتلّه. ماذا لو سأل الناس أنفسهم للحظة عن فعلهم؟ مشكلة القاتل المعتزّ بجبروته أنَّه لا يسأل نفسه أمام جشعه المتنامي.

ـ أشعر يا يمّا أنَّ جدي كان يحبّك، ولكنَّه ككلّ الرجال الشرقيّين، لا يعرف كيف يظهر حبّه لابنته أو حتى لزوجته؟

ـ حبّ من هذا النوع يا يوبا، قاس جدًّا، لم أعد قادرة على تحمّله، لأنَّه إذا لم يقتل، فهو يدمّر من الداخل. أنا مريضة بوالدي وهو مريض بي، وكلانا مريض بأرض سُرِقت من فراشه. لا أنا استطعت أن أتركه ولا هو استطاع أن يضرب صفحًا عنِّي وينسى أنَّه أنجبني وجاء بي نحو مدينة لا أنا اخترتها ولا هو اشتهاها. أعرف جيِّداً أنَّه لو خيّر للحظة واحدة، لاختار أن يموت على تربة القدس على أن يعيش داخل هشاشة مفرطة اسمها نيويورك أو سياتل. حاول العديد من المرّات أن يعود إلى القدس ولكنَّه لم يستطع أبداً. فقد مُنع حتى من التفكير في

ذلك. مات حاملاً ثقل أسراره وانكساراته المتواترة ولم أره. بعد شهر، سلّمني المستشفى حوائجه القليلة وبعض الصور ورسائل وقصاصة مقتضبة لم تكن بها إلا جملتان باردتان: **عذراً، لقد قسوت عليك يا مي. خذي ما تريدين من أغراضي، واتركي البقية لإدارة المستشفى المركزيّ، هناك من يحتاج إليها من فقراء سياتل.** تفحّصت الصور، لم يكن بها شيء مهمّ. صورة معروفة عن أحد مقاهي القدس في الحيّ القديم، صورة الشيخ الحسيني بهيئته الوقورة وطربوشه وعينيه الزائغتين. الأمير فيصل وهو يضحك من قلبه مع لورانس العرب، فوزي القاوقجي ببسمة العصفور المخدوع. الملك عبد اللّه الذي لا تبدو على ملامحه أيَّة تحوُّلات، كان وجهه صافيًا ونقيًّا لدرجة التسطّح والملوسة. ثم صورة لامرأة غربية شقراء، بوجه جميل وعينين تفيضان ذكاء. قلبت الصور الأخيرة في يدي باندهاش من نقاء وجهها الطفولي، كمن يشعر بشيء مبهم فيه لا يعرف كيف يتخلّص منه. لم أجد صعوبة في قراءة اسمها بالألمانيَّة: Eva Kraus Möhler ولم أستطع قراءة ما كتب على ظهرها بحروف ناعمة جدًّا لأنَّها كانت باللغة الألمانيَّة، ولا الرسالة الطويلة الملصقة على طرف الصورة بمسّاكة صغيرة صُدئت من كثرة الإهمال. في لحظة من اللحظات خفت منهما بدون أن أعلم السبب. لا أعتقد أنَّ والدي رجع لها أو حتى قرأها مرّة ثانية. لم أكن أعرف اللغة الألمانيَّة ولم تكن لديّ أيّة رغبة لمعرفة أسرارها. عبثًا بحثت في أشيائه، عن صورة أمّي وأخوالي وخالاتي وجدّي. على الأقلّ أمّي؟ تنهّدت بعمق الخيبة التي لبستني. انطفأت يومها صورة والدي في عينيّ بشكل نهائي، وكدت أجهش وأنا أحاول أن أتذكَّر

ملامحه الأخيرة التي هربت وقتها منّي وتحوّلت إلى مجرّد ضباب لم أستطع في أيّ يوم من الأيام تجميعه. وتبعثرت كلّ تفاصيله ولم أكمش منها أيّ جزء. أرجعت كل شيء إلى المستشفى، ولم آخذ من أغراضه إلاّ تلك الصورة والرسالة الملصقة بها. تردّدت كثيراً في أخذها قبل أن أُغمض عينيّ وأسحبها من يدي الممرضة التي كانت ستحرقهما. ليكن، سآخذهما، تمتمت بيأس لحظة لم أستطع مقاومتها. شيء واحد لم أفرط فيه من بين كلّ أغراضه: المعطف الخشن الذي جاء به أوّل مرة إلى هذه الأرض. كانت به روائح لم تمت. الغريب أنّي شممت آخر رائحة غزت أنفي وأنا أغادر بيروت، كانت تشبه رائحة القهوة المحمّصة، والسفينة التي كانت رائحتها تشبه الحمامات التركيّة النسائيّة في القدس. فقد اختصر عليّ المعطف ذاكرة نصف قرن من الألم. شممت فيه رائحة والدي كما اشتهيته، ونضاله وخوفه، ونظرته الحادّة للأشياء، وشجاعته، وبردّ نيويورك الأول، وهجرته مع أحد أصدقائه إلى سياتل للعمل، وملمس قطّتي أميرة، الناعم جدّاً عندما قطعت حواجز إليس أيلند بسرّيّة، وخوفي من فصلي عن أبي ليلتها وسعادتي الساذجة التي لا توصف بأنّي أنقذت بابا حسن من موت مؤكّد لأنّه كان مطارداً من فرق الهاچاناه والشتيرن والإرجون، العسكريّة في القدس».

ـ أعرف يا يمّا... أعرف كل هذا، فلماذا تعذّبين نفسك؟

ـ أوتظنّ يا يوبا أنّنا نعذّب أنفسنا لأنّنا نشتهي فعل ذلك؟ كنت أتمنّى أن أنسى كلّ تلك الأشباح ولا أُبقي من القدس إلا الذاكرة

التي أشتهي أن أراها، ولكنَّه طغيان الصور التي لا سلطان لنا عليها. الذاكرة ملعونة، تضعنا أمام جراحاتنا في الوقت الذي تشاء. لا تشغل بالك يا يوبا بكلّ هذه التفاصيل، وانتبه للحياة ولا تتركها تنزلق من بين يديك، فنحن لا نعيش إلا مرّة واحدة علينا أن نعرف فيها كيف نخطئ ونصحِّح الخطأ في الوقت نفسه. الموت ينتظر بفارغ الصبر فريسته الشهيَّة.

تغيَّر كلّ شيء. لم تكن مي قبل مرضها تفكِّر في شيء آخر غير الحياة، وفي ألوانها التي تنام على رؤوس أصابعها وتحفر في الأعماق بؤراً ضوئيَّة مثل ملايين الفوانيس الليليَّة.

كانت في ذلك الصباح المشوّش جالسة قبالة المرآة تمشّط شعرها، وتضحك من الشعر الأبيض الذي غزا رأسها وهو يلمع تحت الضوء الذي كانت تعكسه عليها المرايا بقوّة حادّة.

«ـ هل تدري يا يوبا أنَّ العلاقة مع الموت تردّنا إلى أحجامنا الصغيرة الحقيقيَّة. بابا حسن اختار قبره داخل مشرحة. تعب كثيراً. كان لا يعيش إلاّ في عمق التآكل اليوميّ على طريقته الخاصّة، ولا حلّ له لتوقيف هذا النزيف الذاتيّ المتواتر إلاّ رغوة الماضي التي أغرقته في فقاعاتها المتوالدة. كلّ مُثُله سقطت مثل المعبودات الصنميَّة: الشيخ الحسيني الذي راهن عليه في الثورة العربيَّة وكان حجر عثرة في وجه سياسة بريطانيا المتواطئة، تمكّن من الإفلات وغادر القدس في شهر أكتوبر ١٩٣٧ إلى لبنان. وهكذا أصبحت البلاد خاوية من أيّة مقاومة. ثم ترك صاحب السماحة لبنان في ٣٠ مارس من سنة ١٩٤٠

وسافر إلى إيران ثم تركيا، وبلغاريا قبل أن ينتهي به المطاف في أحضان هتلر. في ٨ مارس من سنة ١٩٤٥ هرب من ألمانيا إلى سويسرا، فأرجعته مكبّلاً إلى ألمانيا. لم يخف أبداً إعجابه بهتلر الذي كان فرصة نجاة لفلسطين من مخالب الحلفاء. الملوك العرب تواطؤوا مع رغبات الإنجليز. النازيّة التي جمّلتها له صديقته الجميلة إيفا كراوس موهلر من منطق عدوّ عدوّي صديقي، اندثرت بأدواتها نفسها. ومع ذلك يتذكّر جيّداً أنّه عندما نزل الألمان في طبرق تحت قيادة رومل، كان طبيب العائلة اليهودي، واسمه هرمون سيمون في حالة لا توصف من الخوف. قال له بابا حسن عندما زاره في بيته في شارع الملك جورج، وكان مرعوبًا هو وعائلته: تعال إلى بيتي يا سيمون. لن يمسّك أحد بأذى. وعرض عليه البقاء عنده في حالة ما إذا تمكّن الألمان من الدخول إلى فلسطين وتقاسم بيته معه هو وزوجته وابنته، لكن هرمون بعد أن شكره وباسه على رأسه اعترافًا، قال له: يا صديقي وحبيبي، مجبر أن أقول لك الحقيقة، فبيننا ملح وخبز ومحبّة كبيرة. أفضّل الموت على السقوط بين أيدي القتلة الألمان. وأشار إلى ثلاث إبر جاهزة بالسمّ له ولزوجته ولابنته. من حين لآخر يسألني بابا حسن عندما تصفو ذاكرته: يا ترى؟ هل ما يزال هرمون سيمون كما تركته، رجلاً طيّبًا متعايشًا بإنسانيّة عالية ومؤمنًا بأرض طيّبة هي لجميع الفلسطينيين، عربًا ومسيحيين ويهوداً؟ حتى فكرة التقسيمات المتتالية التي حاربها بابا حسن باستماتة، مع أبناء جيله، لم يعد أحد يذكرها، وذهبت فلسطين كلّها وهوّدت الأحياء والمدن التي ظلّت واقفة زمنًا. والمنفى

الذي اختاره، في شمال أميركا، عمق عقدته تجاه أرضه. أحيانًا أشكر اللّه أنَّه وضع في مسالكنا المتشعِّبة الموت لكي نجتهد في تفاديه قبل أن يقبض علينا في أبلد منعطف سهونا عليه فلم نأخذ حذرنا فيه.

ـ على الرغم من ذلك أشعر بشيء غريب ومرّ، يلتصق بالحلق يا يمّا. الموت لا يخيف كثيراً، مشكلتنا الكبرى هي أوّلاً مع الحياة.

ـ تمنَّيت أن أظلّ مثلك أفكِّر في مشكلات الحياة، فهي أغنى وأجمل وهي ما يعطينا الرغبة في الاستمرار. أمّا الموت فيجعلنا نتمنَّى أن نتفادى الصفوف الأولى من طابور المنتظرين الذين يستعدُّون للسفرة الأبديَّة. مع ذلك، لست حزينة كثيراً، فقد تركنا فيك أنا ووالدك بذرة ما من الجنون تجعلنا نستمرّ ونقهر الموت ولو موقّتًا، من خلالك. جميل أن تحسّ وأنت تنطفئ أنَّ شيئًا وراءك سيستمرّ ولا يهمّ مطلقًا إذا لم يستمرّ بعدك، هي فقط اللحظة الخاطفة التي تسرقك من الحياة يجب أن لا تذهب بك نحو العدميَّة والبلادة. ما يهمّ هو أن يترك الإنسان بذرة للحياة، أيّ بذرة، قد تستمرّ في غيره.

ـ مثلك يا يمّا، تنتابني أحيانًا رغبة ملحّة لتدمير كلّ ما بنيته لأنَّ به فجوات كثيرة عليَّ أن أملأها كلّ صباح عندما أفتح عينيّ ولست قادراً على ذلك، أو على الأقلّ لا أملك الطاقة التي تخوِّلني لفعل ذلك. الكسورات كبيرة وكثيرة، تغلق جهة، تنفتح لك الكوارث من جهة غير معلومة. ويبدو لي أنَّنا سنقضي العمر كلّه في البحث عن سدّ وترقيع الخرابات التي تحدثها فينا الأقدار الظالمة. لا أدري إذا كنت على حقّ أم لا. أحيانًا أشكرك لأنَّك وفَّرت عليّ تحمُّل

شظايا قنبلة موقوتة في وقت مبكّر، ولكنَّ عطفك الكبير لم يمنع قنبلتك من الانفجار لأنَّها فينا جميعًا. في ماذا كان يمكن أن يفكِّر طفل مثلي من أب من أصل ألماني ارتبط بأمّه الإيطاليَّة أكثر من ارتباطه بوالده، انتصر لتاريخ العرب ولثقافتهم ولأحجارهم، وأمّ ظلَّت عربيَّة على الرغم من غوايات نيويورك الجميلة؟ لو دخل لعبة مثل هذه فكيف سيتمكَّن من جمع شتاته؟ كنت أظنّ أنَّ الإنسان يمكنه أن يكون ملكًا للأرض كلّها وأنَّ عليه أن لا يتعلَّق بالجذور كثيراً كما علَّمتني. قلت إنَّ الجذور تجمّد الإنسان في مكانه لدرجة التعفُّن، ولكنِّي اليوم أشعر كأنَّ هناك حلقة مفقودة على الأقل ومن الصعب عليّ رتقها. أخشى أن أسكن البياضات القلقة طويلاً، وكلّما عجزت عن معرفة شيء ما التفتّ نحو الفراغ لشفاء غليلي من الغياب.

ـ أنا لست مقياسًا. أحمل تناقضات عصري كلّها. حذار يا يوبا أن تحمل وراءك الأشباح وتتركها تسطر حياتك. الذاكرة بقعة نور وليست شططًا دائمًا. ألم تقل قبل قليل إنَّ الحياة تستحقّ أن ننشغل من أجلها. وما تقوم به اليوم يا يوبا هو الحياة نفسها. لقد تعذَّب الناس كثيراً فقط ليثبتوا للآخرين أنَّ أجدادهم فيهم وأنَّ تاريخهم هو تفكيرهم. الحرب الحقيقيَّة ليست في الأصول ولكن في حاضرك الذي عليه أن يجعل منك مواطنًا كاملاً. ربما لست في وضعك ولكنِّي لست بعيدة عن أحاسيسك. أنت أميركي ولا تعرف شيئًا عن ماضيك السحيق إلا ما رُوي لك. حظّ كبير أن تكون لديك المسافة التي لم أحظَ بها لا أنا ولا جدّك. أنت تملك ما لا يملكه الكثيرون، عصب

الحياة. موسيقاك دليلك وليس شيئًا آخر. على الرغم من أشباحي الكثيرة، لم يمنعني أصلي العربي من الدخول إلى الكثير من البيوت الأميركيَّة والمتاحف. حظّنا في أميركا أنَّ كل الناس على الإيقاع نفسه، كلُّهم غرباء وأبناء هذه الأرض في الوقت نفسه. يحاول البعض أن يخلّ بهذا التوازن الاستثنائي، ولكنَّهم لن يختصروا هذه البلاد في دين أو إثنيَّة متفرِّدة وصغيرة. يجب أن تقاوم يا يوبا لكي يُقاس هذا البلد بعقلائه لا بمجانينه ومعتوهيه، حتى ولو كانوا في أعلى السلم.

ـ يبدو أنَّ حتى عقلاءه بدأوا يتحوَّلون بدورهم إلى مجانين.

ـ هذه قصّة أخرى أكثر تعقيداً... قصّة أخرى يا يوبا..».

أغمض يوبا عينيه قليلاً على كأس صافية من نبيذ إيطاليا الجبلي. لم يستطع أن يكتم ابتسامة شاردة عندما رقص قلم الرصاص مرّة أخرى بين أصابعه الناعمة، وهو لا يدري أنَّه كان بحركته هذه، يختم الدائرة الثانية من السوناتا:

«ـ مي... أينما كنتِ الآن يا أمّي، هذه كأسك... لك وحدك..».

رآها وهي ترسم ابتسامة مشرقة في عينيها وشفتيها الرقيقتين وتحني رأسها حياء عندما تكون ممتلئة وخجولة كما كانت تفعل قبل خمسين سنة عندما كان يمازحها صديقها يوسف.

«ـ شعلة من الذكاء كان يوسف. لا أتذكَّر إلا ردّة فعله الغريبة عندما كنت، وبغير قصد، أعكّر صفوه. فيصرخ في وجهي بصوته

الحـادّ مكـرِّرًا ثلاث مـرات: لماذا؟... لماذا؟... لماذا يـا مي فـعلـت كلّ هذا؟ قبل أن يعيد ترتيب الأشياء بنفسه كالرجل الكبير».
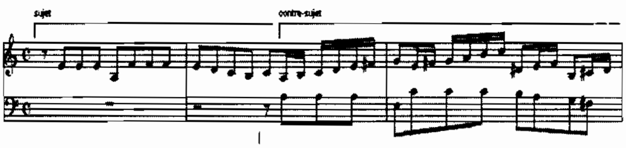
شعر يوبا بالنبيذ ينزل دافئًا ليتسرَّب في كلّ دمه. ثم ترك نفسه ينسـاب داخل نعـومة الاهتزازات الخفيفـة التي كـانت تحـدثهـا الغيوم العـاليـة في الطائرة. لا شيء كـان يوازي لحظة الانتـشـاء التي انتـابتـه وعبرته بشكل فجائي. شعر بنفسـه يمشي كنبيّ على كتل السحب القطنيَّة، ويتـراشق مع مي بالنجوم الهـاربة والغيـمات الصـغيـرة التي كانت تشبه الكرات الثلجيَّة المعجونة في الأكف الصغيرة.

فجأة اختـرق صوت المضيفة سكينته وتأوُّهات لاترافيـاتا التي كانت في حـركتها الأخيرة. كانت الوجوه القلقة كلّها ملتصقة بنوافذ الطائرة والرياح الخـارجـيَّة العـاصـفـة التي بدأت الطائرة تهـتـزّ لهـا هزًّا واضحًا، وسيـول الأمطار التي غطّت فجأة كلّ وجه نيـويورك وبحـرها وتمثال الحريَّة الذي كان يخرج من كتل الضـباب بيده قبل أن ينطفئ نهائيًّا وسط كثافة الرطوبة والضباب.

«ـ لقـد شـرعنا في النزول على مطار نيـويورك ج. ف. كندي، الرجاء أن تشدُّوا أحزمتكم وترفعوا ظهور مقاعدكم...».

لم يسـمع يـوبا البـقـيـة لأنَّه كـان قد اندفن في كـأس النبـيـذ الجبلي مرّة أخرى، وبدأت تلتمع أمامه العلامات الصغيرة والرموز التي كـان يرسمـها في شكل نوتات موسيـقيَّـة، على الورقة البيضاء. كانت كقطعان صغيرة من النمل وهي تلتصق بعضها بالبعض الآخر لدفع جـسم أثقل منهـا. ارتعش قلم الرصـاص، من جـديـد، بين

أصابعه بسرعة كبيرة ليرسم سلسلة جديدة من الدوائر والتعرُّجات التي لا تتوقّف، تميل، تنحني ثم تنزلق نحو الأسفل في تزاوجات مستمرّة متبوعة بتنويعات وتحويلات وتنميقات كثيرة. هذه اللحظة الحاسمة في السوناتة، في لافويقي[1] La Fugue. تمنح حرية كبيرة للموسيقي وتحدِّد الانتظام النهائي حيث تتناغم فيه الموضوعات وتتشابك بقوّة. تذكّر يوبا حركات سيباستيان باخ الذي كثيراً ما كان ينهي لافويقي بالانتظام نفسه خصوصًا عندما تكون السوناتا على وقع لا مينور : Johann Sebastian Bach BWV.895,2



لاحظ يوبا أنَّ الفاصل الأوّل للموضوع كان عبارة عن خماسيَّة نازلة (مي ـ لا) بينما حدث في الفاصل نفسه تحوّل إلى رباعيَّة نازلة (لا ـ مي) في الجواب. لكنَّ هذه التحويلات في الفواصل لم تغيِّر الشيء الكثير، لا في القرار ولا في الجواب ولكنَّه شعر بضرورتها للحفاظ على سلاسة الإيقاع. أصعب شيء في لافويقي هو تفادي الرتابة المتولِّدة عن تكرار الموضوع نفسه، تمتم وهو يصحِّح الإيقاعات الأخيرة.

«ـ المهم في الأخير هو الحفاظ على الهارمونيا وعلى ملكة التوقف عند الضرورة، والعمل على الخروج بأناقة قبل أن يصاب الجمهور بالضجر، لأنَّ أيّ تمديد سيكون وخيماً».

* * *

١ ـ الهرب والانسحاب، في اللغة اللاتينيَّة.

- ٢ -

على الرغم من الرياح القويَّة والضباب الكثيف والأمطار التي زادت حدَّتها، فقد حطَّت الطائرة على مدرج مطار ج. ف. كندي[١] في الكوينز[٢] بدون عناء كبير.

كان المطار مكتظًّا بالمسافرين والمنتظرين. ركض يوبا كأنَّه في سباق ضدّ الساعة. كانت تتقاطع في رأسه أصوات لاترافياتا، السوناتا التي أصبحت تتنفَّس فيه. نزل نحو الطابق الأرضيّ حيث موقف السيّارات. كان يعرف جيِّداً ما يجب عليه فعله قبل الدخول إلى بيته في عمق مانهاتن. بسرعة استلم سيارته لاندروفر ٤X٤، ولم يلتفت وراءه.

وهو يعبر شارع برودوي المتسرسب كثعبان أسطوري، الذي يشقّ نيويورك في صلبها مثل الجرح العميق، تذكّر بائع الزهور الذي كانت أمّه

---

١ ـ Kennedy International Airport (JFK)

٢ ـ Queens

تتوقّف عنده كلّما تعلّق الأمر بزيارتها لأهلها أو لأصدقائها، والذي أنقذه ذات يوم من هلاك أكيد. صدفة عجيبة منعته يومها من المرور على برجي المركز التجاري في مانهاتن، وفضّل زيارة قبر أمّه. دائمًا وردة حمراء وأخرى بيضاء محاطتان بباقة من البنفسج البرّي، تمامًا كما كانت تفعل دائمًا. منذ أن ماتت وهو يقوم بذلك مرّة واحدة في أوّل ثلاثاء من كلّ شهر. فجأة سمع صوتها يأتي من بعيد. كانت ملامحها واضحة، يظلّلها قليل من الحزن وحدّة الآلام التي كانت تخفيها عبثًا عنه:

«ـ أنت هو أنت يا يوبا، ابن أمّك بحقّ. لولا الموت لكانت الحياة ربما أجمل. لكنَّ الإحساس بوجوده معنا، باستمرار، يجعلنا نعيش كلّ شيء بعمق وكثافة كبيرين. لا تشغل بالك حبيبي. ادفن بعض رمادي بالقرب منك لكي تتذكّرني وأشعر بدفئك وحنانك، فأنت حائطي الأخير الذي يمكنني أن أتّكئ عليه لكي أطرد برودة القبر... كلّ الذين أحبّهم ذهبوا أو انفصلوا ولم تبق في نهاية المطاف إلا أنت. ادفن بعض رمادي حيث تشاء، لم يعد لي أهل هناك. وحتى لو عدت إلى فلسطين، سأضطرّ إلى قطع كلّ المعابر كأيَّة غريبة على الديار. يوميًّا لا أفعل إلا قراءة مسالك الذين عادوا إلى تلك الأرض. كلّ واحد يحكي آلامه التي لا يعرف وقعها إلا هو. ثم... من يتذكّر تلك الطفلة المهبولة، المجنونة على الألوان، التي كانت تركض وراء الفراشات لرسم أحلامها الغريبة وسرقة ألوانها؟ من يعرف تلك الصبيَّة التي اشتاقت أن تجلس في حِجر والدها وتداعب شعره كما يفعل جميع الأطفال، وعندما كبرت استحت أن تفعل ذلك لأنَّ والدها بدا لها غريبًا؟ من هي تلك الطفلة الصغيرة ذات الضفيرتين والشرائط الملوّنة التي لم تر غريبًا

يدقّ دارها أبداً إلاّ عندما رأت عسكر الإنجليز وهم يحاصرون بيتهم المقدسي عندما جاؤوا يفتّشون عن والدها؟ كانت وجوههم حمراء وأحذيتهم ثقيلة وأيديهم ناعمة كأيدي الصبايا. من يعير انتباهاً لتلك الشقيَّة الصغيرة التي أصبحت الابنة الشرعيَّة للحزن والخوف؟ لا أحد. لا أحد يعرفها. طانت جينوفييف[1] أو جينا كما كان الجميع يسمّيها اختصاراً، صديقة أمّي وأستاذة الرسم في القدس، ماتت بسكتة قلبيَّة، عرفتُ ذلك من والدي فيما بعد. ويوسف يكون قد تزوَّج ونسي كل شيء بما في ذلك وجهي الذي وضعه ذات يوم بين كفّيه، تأمَّله طويلاً حتى شعرت كأنَّه كان يريد أكلي، قبل أن يسرق قبلة منّي ويهرب ويختفي بعدها داخل حقول القمح، ثم وراء الزيتونة القديمة وينقش اسمي واسمه على جذعها. أو ربما يكون قد سرقه مرض ما مثل الذي يسرقني الآن، أو... ربما... يكون قد تخلّى طواعيَّة عن عقله لكي يستطيع أن يعيش؟ ما جدوى العودة إلى أرض لا تعرفك ولا تعني لها أيّ شيء، وتترك أرضاً يتنفَّس جلدك تربتها؟ أقول هذا الكلام وأنا لا أعرف سرّ هذا الحزن كلَّما انتابتني أرضي الأولى، مثل المرض العضال والخوف الذي لا نعرف له مصدراً، مع أنّي قضَّيت حياتي كلَّها في هذه المدينة في مقاومة هذه الفكرة التي تتجشَّأ بالأشباح. لا أطلب منك الشيء الكثير عندما أغيب. هذه اللوحة: **نيويورك، أوراق ميتة**، عزيزة عليّ. ضعها تماماً في الموقع الذي يليق بها حيث الظل والرطوبة الخفيفة لا تغطي منافذ النور. وتذكَّر تلك الطفلة التي صرخت مثلما صرخ أرخميدس عندما وجدت لونها الضائع... وجدتها... وجدتها...».

---

١ ـ Genevieve

عندما خرجت لاندروفر ٤X٤ من محوِّل الأتوستراد رقم ٦٧٨ باتجاه بولفار روكواي[١] وتركته بعد ربع ساعة، متوجِّهة نحو المقبرة، كانت الرياح التي تكنس الطرقات وتعرّي الأشجار قد بدأت ترفع الأوراق نحو الأعالي وتهزّ أشجار البلاطان التي تملأ نيويورك وتمنعها من راحة آخر الخريف الإجباريَّة.

في نيويورك كل شيء يأتي مغايراً للنظام العامّ.

نزل المساء يومها حتى قبل أن تنتفي الشمس من على أسطح نيويورك العالية. الرياح القويَّة التي هبَّت بشكل عنيف محمّلة بمياه البحر ورائحة بحيرة هودسون[٢] التي تقع على الطرف الغربي من المقبرة، حرّكت أشجار البلاطان العملاقة التي تحيط بمدخل القبور، بقوّة، ونظّفتها من الغبار الذي كثيراً ما يلتصق بها في مثل هذا الفصل ولا تزول إلا بالأمطار أو الرياح الموسميَّة.

كانت المقبرة هادئة ومستكينة، ولا شيء يحرِّك صفوها وصمتها الذي تحوَّل مع الزمن إلى لغة للفقدان، على الرغم من الخشخشات التي تخلّفها الرياح وهواء البحر وتداخل النباتات والجذوع في عمق بعضها البعض.

كلّ المقابر تتشابه عندما نعبر مداخلها لأول مرّة، أو بعد زمن طويل. فهي تورث إحساساً غريباً بالخوف والرهبة. في البداية نشعر بالبرودة في الظهر. تبدأ في شكل وجع في الرأس قبل أن يتسرَّب الألم

---

١ ـ Rockaway boulevard

٢ ـ Hudson

إلى بقيّة الجسد كلدغة أفعوان يتخفّى بين باطن الرجل ومسحة الحذاء. نتذكّر فجأة، نحن الذين أكلتنا الحياة، أنّنا لم نعد بعيدين كثيراً عن هذه الأبواب التي ستُفتح يومًا لاستقبالنا.

عادت الريح بعد هدوء لم يدم طويلاً، محمّلة هذه المرّة ببرودة ظاهرة أحسّ بها يوبا وهي تعبر جسده جافّة وحادّة. تدحرجت شجرات البلاطان التي تغطّي ممرّات المقبرة الداخليَّة قبل أن تعود إلى وضعها الطبيعي. تعالت أوراقها الصفراء، في سماء قلقة بدأت غيومها تنكسر وتنبعج هنا وهناك مثل رسومات أطفال لا تحترم أيّ مقياس فنّي.

مشى يوبا مثقلاً بأمّه باتجاه الطرف الجنوبي من المقبرة. توغَّل عميقًا. لم يتردَّد لحظة واحدة، فقد كان يعرف الأمكنة جيِّداً. منذ أن ذهبت مي، لم يتخلَّف يومًا واحداً عن زيارتها. كلّ صباح ثلاثاء، من بداية كلّ شهر، نزولاً عند رغبتها، يبكّر إليها قبل الذهاب إلى عمله. يمرّ على بائع الورد المفضَّل لديها، يشتري باقة ثم ينزل نحو قبرها. طقس شهري، مهما كانت الظروف الجويَّة، في المطر وفي الصحو. كان قبر مي كلّ يوم يولِّد شوقًا جديداً لزيارته. فجأة تذكّر ما قالته له مي وهي تبحث عن صفاء ذهني كفيل بأن ينسيها آلامها الداخليَّة:

«ـ زيارة القبور تعني في ثقافتنا محاربة النسيان الذي يأكل كلّ شيء، حبّ متبادل وحديث صامت مع الذين ينامون تحت التراب كليًّا أو جزئيًّا. لقد خففت عليك مشقَّته ويمكنك أن تنساني إذا شئت فلن تبقي المحرقة الشيء الكثير منّي، مجرّد ذرات دقيقة من غبار الرماد. بعد أن تنثرني على أرضي الأولى، إذا استطعت، احتفظ ببعض نثاري هنا،

ربما ملأ عليك هموم الوحدة القاسية. الأموات يجيبون ويتحدّثون، ولكن يجب أن ندرك المشاغل التي ظلّت عالقة بقلوبهم لكي نعرف كيف نحاورهم ونعمّق شهوة المجيء نحوهم باستمرار. ويوم تحسّ بأنّك تقوم بذلك من باب الواجب، يستحسن أن تُوقف الزيارات نهائيًّا. لا جدوى من زيارات الواجب، فهي تُؤذي الميت أكثر مما تعطيه فسحة إضافيَّة للحياة، وتبرّر بسخف ملل الزائر من رؤية قبر تعود عليه حتى تحوَّلت حركته مجرّد فعل آلي. أشبّه ذلك بالعلاقة الزوجيَّة عندما تفقد ألقها وتصبح رديفًا للعادة والحفاظ على الوجاهة الاجتماعيَّة السخيفة».

كانت المقبرة خالية، تعوم وسط غلاف حليبي من الضباب كان يضيّق الخناق بقوّة على شمس، من حين لآخر تحتفي بعرس الظهور قبل أن تختفي من جديد. بدا يوبا في لباسه الأسود كاختراق لهذا الصمت وهذه الحميميَّة البيضاء. كان كنقطة حبر صيني، عائمة على سطح بحر من الحليب. حركة غير محسوبة انزلقت من ريشة فنان عاشق مغرم برسم هبله وجنونه.

وقف قليلاً على حافّة القبر الذي دفن فيه بعض العظام الكلسيَّة التي احتفظ بها من الحرق، ولم تضف إلى بقيّة الرماد. لم يجد اللغة ولا الصلاة التي كانت تقولها أمّه كلّما وقفت على قبر أو حزنت أو حتى عندما تشعر بالوحدة القاسية. تقدَّم قليلاً وهو يحضن باقته: وردة حمراء وأخرى بيضاء محاطتان بباقة من البنفسج البري، كأنَّها آخر ما تبقّى من قصّة طويلة. سمع إيقاعات ومارشات متناسقة ونغمًا ناعمًا يأتي من زاوية صغيرة كان يحسّها تعبر المكان ولم يكن يراها. نغم يشبه الأنين.

هكذا تنشأ الموسيقى، من وجع قاسٍ ولامرئيّ، تمتم وهو يحاول أن يمنع دمعة انحدرت بغزارة. رأى جدّه الأندلسي وهو يخوض آخر معاركه الخاسرة في عالم لم يكن عادلاً. يمتطي حصانًا ويركض بسرعة قبل أن يتمزّق إلى آلاف القطع في المعبر الأوّل الذي يقود إلى مداخل غرناطة. رأى جدّته وهي ترمي بنفسها من أعلى طابق لتتحوَّل إلى طائر ملون بآلاف الألوان، يبحث بقلق، عن عش يضع فيه بيضه. تمنَّى لو كانت مي هنا لقصّ عليها كلّ ما سمعه في رحلته وأنَّ بابا حسن الذي لم يعرف كيف يحبّها، كان يحبّها بعمق ولم يتواصل معها يومًا، لأنَّها كانت تشبهه في كلّ شيء، ونسي أنَّها كيان منفصل عنه، وكان يشبهها ونسيت أنَّه قوة ناسفة قادرة على تدمير ذاتها قبل غيرها ولا تنحني أمام وجعها ووجع الآخرين، وأنَّ الموت وحده كان قادراً على أن يلاقي بينهما. يبدو أحيانًا أنَّ الموت نفسه فشل في ذلك. هو قدّم جسده لمشرحة باردة، وقدَّمت هي جسدها لفرن المحرقة الذي طحنها ولم يترك منها إلا العظام الكلسيَّة التي صارت شديدة البياض. هي لم تغفر له كذبته التي أودت بها نحو هوّة سحيقة لم تكن مهيَّأة لتحمُّلها، وهو كان يعرف الحقيقة ولكنَّه خبَّأها عنها ولم تغفر له حبّها ليوسف الذي تركته هناك مشدوهًا في جلسته الطفوليَّة ولم تسأله عنه أبداً. كان جرحها الأول يضاف إلى جرح أمّ لم تشبع من عطفها وحنانها. حتى الرسالة التي تلقّتها من يوسف بعد سنوات، عن طريق عناوين خالاتها التي كانت معروفة لدى الكثير من القدسيّين، لم تقرأها إلاّ بعد سنوات، عندما دخل الموت إلى فراشها، لأنَّها كانت تدرك جيِّداً ما كان يريد قوله. لم تردّ عليه أبداً. عندما سألها يوبا عن مغزى ذلك، قالت بشكل محذّر:

ـ احذر يا يوبا أن تنفخ النار في الأشياء الميتة. اترك الأشياء الجميلة تموت مثلما تشتهي وإلا ستعيش معلّقًا بين حاضر منفلت وذاكرة تضيّعك في دورتها ولا تمنحك إلا الألم. سترتمي في دوائر لا حدّ لها. أعتقد أنّي عندما ركبت في السفينة المتوجّهة إلى نيويورك، في بيروت، كان كل شيء قد انتهى ودفنت يوسف في مقبرة القلب، ولو عدت له لقتلته أو قتلني أو ربما كرهته وكرهني. عندما نواري التراب كائنًا نحبّه، يُستحسن أن نذكره بحب ونقنع أنفسنا بأنَّ الحياة مستمرّة بدونه، وأنَّ علينا أن نلتصق بقاطراتها الكبيرة. كان يوسف ضوءاً جميلاً في حياتي وكان يجب أن يظلّ كذلك. لولاه لما صنعت حياتي بالشكل الذي أردته واشتهيته. فقدانه وفقدان من أحبّ أغرقاني في بحر اللون. لخسارته كلّ الفضل في تحوُّلي إلى امرأة لا شيء يدهشها مثل الألوان.

ـ ربما كان يوسف يريد أن يراك. أن يستدرك زمنًا سُرق منكما. أن يلتقي بك فقط ليقول لك كم كان يفتقدك.

ـ تلك قصّة أخرى. كنت سأعيش على مأساته ومأساة خسارتنا. لم تكن لديَّ القوة لفعل ذلك... لا أعتقد أنَّ زمن الحبّ يُستدرك. كلّ ما تسرقه الدنيا منّا، يخرج من أيدينا وبلا رجعة. سؤالنا الحقيقي: هل في الشخص الذي كنّا نحبّه ما يشفع لنا بتذكّره بنعومة؟ هل ما زلنا قادرين على صنع زمن آخر نستطيع عيشه كما نشتهيه؟ كنت أعرف قدراتي جيِّداً وعلى يقين بأنّي لم أكن قادرة على تحمُّل شيئين قاسيين، دفعة واحدة: الحبّ المتأخِّر والمنفى. لا يا

يوبا... حذار. كلّ تفكير مستميت في الماضي هو خيانة للحاضر. لم أكن مستعدة للبقاء في الماضي. دخلت في زمن كان عليّ أن أواجهه بكلّ ما أوتيت من قوّة وصبر، وفعلت ذلك ولو أنَّ الثمن كان باهظًا في حياتي. اللقاء بوالدك كان من أجمل أقداري.

انحنى يوبا قليلاً ثم وضع الباقة على القبر، بالضبط بالقرب من الإناء الرخامي الذي كُتب عليه اسم مي وختمت صورتها على واجهته، مثل الإناء الذي وُضع على قبر أمّها في القدس. شعر فجأة بالرّعشة تدبّ في المربّع الصغير والشاهدة الرخاميَّة الأنيقة، وبنبض قلب مي بالحياة ثم بأصابعها المغمّسة في الألوان تتحرَّك. وحدها اليد كانت تختزل عمراً من الأشواق والخوف، هي نفسها اليد التي رسمت أجمل العلامات النمليَّة الصغيرة لتجعل منها عرسًا من الألوان هزّت سكان نيويورك في شتاءاتهم، ومنحتهم السعادات التي كانوا يتشوَّقون إليها. لقد كانت مي رسّامة بروكلين المحبوبة.

تدحرجت سلسلة من الكلمات لم يعرف مصدرها. كانت في البداية مرتبكة وغامضة ولكنَّها سرعان ما أصبحت واضحة. لا يتذكر من أيّ فجوة كانت تأتي ولكنَّه كان يسمعها. كانت كأنَّها تخرج من جرح القلب. ربما كانت للجدّ الذي لملم آلامه وانسحب على رؤوس أصابعه لكي لا يحدث أي ضجيج ولا يوقظ النيام أو المتعبين:

«ـ يكفي مي أنَّها وجدت ابنًا يقف على رمادها وبقايا عظامها بحبّ، ولم يُنسه الزمن وجودها الأبدي المستديم، وأبًا يحنّ إليها حتى وهو غاضب منها ومن نفسه، وألوانًا خطّتها في شكل رسومات ولوحات

أعطت الكثير من الزهو للعديد من العائلات في أميركا وخارجها. كانت، على الرغم من حزنها، نموذجًا للنجاح في هذه المدينة. يا حظّها أن تمنحها الأقدار كلّ هؤلاء المحبّين والعشّاق الذين يبحثون عنها فقط ليحيّوها أو ليشكروها على ما قدَّمته لهم من ألوان لا شيء يضاهيها إلا موهبتها الكبيرة. ماذا كان سيحدث لو بقيت طويلاً في رعاية أمّها وجينا في القدس؟ أيّ بهجة مضاعفة كانت ستخرج منها؟ كلّ يوم أزيد يقينًا أنَّ خياراتها كانت صحيحة، على العكس من مسالكنا الصعبة التي تصفعنا في كلّ لحظة بحماقاتنا وخساراتنا المتكرِّرة.

ـ ماذا يمكنني أن أفعله لأمّي غير هذا؟ ليست في حاجة إليّ، فقد قامت بكلّ شيء لوحدها حتى النفس الأخير، ولم تطلب منّي شيئًا يستحقّ الذكر. في نهاية المطاف نحن تحت وقع الأقدار على الرغم من إراداتنا الخارقة. كلّما قاومناها زدنا توغُّلاً في منطقها الغريب. كان شيء ما، أقوى منها ومنّا جميعًا، يقودها نحو هذه النهايات التي اشتهتها دائماً، هي أن تكتب وترسم حتى تستسلم لإغفاءة الموت.

ـ لا لذّة في الموت ولا قداسة فيه. أسوأ ما يمكن أن يحدث للكائن في رحلته. أمّك كانت هكذا، إما أن تُؤخذ ككلّ وتُقبل كما هي، أو تُرفض ككلّ. وكنت عاجزاً أن أقبل بها كما اشتهت أن تكون. وكانت رافضة أن تصغي لمآساتي العميقة التي لم تكن تهمّها إلاّ قليلاً.

ـ يا جدّي...

ـ اسمعني أولاً. كنّا بعيدين في كلّ شيء إلا في خفقات القلب، فقد كانت تنهض وتخفت في اللحظة نفسها وكأنّنا كنّا على

التوقيت نفسه. أمّك يا يوبا لم تكن امرأة عادية، وربما هذا مقتلها الكبير. لم تكن ترضى بالحلول الوسطى وإلا لكانت امرأة ناعمة ولاكتفت بالحياة المتواضعة التي يعيشها أغلبيَّة الناس.

ـ ألم يكن من الممكن يا جدّي أن تكون لكما مساحة وسطى تجعل من الحياة متعة صافية؟ ألا توجد في هذه الدنيا إلا التطرُّفات القاتلة؟ هل كان صعبًا عليك أن تسحبها نحو صدرك وتهمس في أذنها: أُحبك؟ كانت ستنهار بين يديك. هي أكثر هشاشة من أجنحة فراشة يا جدي».

فجأة ساد صمت مربك. التفت يوبا حوله، لم ير إلا أشجار البلاطان وهي تنحني ثم تقوم، في رقصة دائمة كانت تفرضها عليها الرياح القادمة من بحيرة هودسون الباردة. انطفأ الصوت نهائيًّا ولم يعد يجيب وكأنَّه كان مجرّد هزّة داخليَّة عابرة.

خلِّ البئر بغطاه يا يوبا. قالت له مي ذات مرّة. لا تتعب نفسك كثيرًا من البحث عن حقيقة هي في جوهرها مبتورة دائمًا. فلكلّ شخص حقيقته التي يصنعها من خوفه وأوهامه. نحن لا نذهب نحو الحماقة عشقًا فيها، ولكنَّنا نذهب نحوها لأنَّنا نرى فيها خلاصنا الأبدي. أشعر دائمًا بفداحة الخسارة التي لحقت بنا. كان يمكن لو منحتني الحياة المزيد من الوقت، لفعلت أكثر ممّا فعلته حتى الآن، وربما لوصلت إلى مصالحة عميقة بيني وبين مفقوداتي الكثيرة التي ضيّعتها في مسالك الحياة الصعبة، بما فيها والدي وتربتي التي صنعت قلبي وأصابعي.

رأى يوبا يومها، في عيني أمّه الصافيتين، مدينتها الهاربة وأحياءها ودروبها العربيَّة الضيّقة والقديمة. رآها وهي تقبض على يد والدها كي لا يهرب منها كما يفعل الصغار عندما يتشبَّثون بأيدي آبائهم للخروج معهم إلى الأسواق والضيافات. شعر كأنَّ الحياة لم تكن سخيَّة، لا مع جدّه ولا مع مي. هي تركت يوسف في دهشته الطفوليَّة يبحث عنها من بيت لبيت، وهو ترك أرضًا تموت وامرأة غريبة أحبّها لليلة واحدة على سرير مستشفى ألماني، ولكنَّها كانت كافية لسجنه، ولم يكن قادراً لا على النسيان ولا على العودة ولا حتى على الحياة، حاملاً على ظهره موت زوجة بسببه، وانخراط غير معلن في عرقيَّة مجنونة والركض بجنون صغّرته الحماقات المتتالية بين روما وبرلين. ظلّ متخفِّيًا في سرّه الكبير الذي صمَّم أن يسحبه وراءه باتجاه قبره.

«ـ أمّي ورثتني أجمل الأشياء بالرغم من كلّ شيء، وحزنًا مضاعفًا لا أُحسد عليه».

تمتم يوبا وهو يحاول أن يبعد عن ذهنه عبثيَّة الأقدار التي تأخذ امرأة لم تكن تطلب شيئًا آخر سوى الحياة. هي العبثيَّة نفسها التي دفعت بجدّه إلى أن يحلم بتحرير قلبه من كلّ ماضيه، قبل أن يندثر داخل مشرحة مزَّقت لحمه حتى العظم، لترمّم الذين كانوا على حوافّ الموت. غريب؟ كيف يمنح الإنسان الحياة للآخرين وهو متشوِّق إليها باستماتة؟

«ـ حبيبي، يمكنك أن تذهب الآن.

أتاه صوتها ناعمًا ودافئًا، من عمق التربة.

ـ كلّ شيء تمام. لم أعد أشعر بالبرد. يمكنك الذهاب، فأنت جدّ متعب.

تمتم وهو لا يدري إن كانت قد سمعته أم لا:

ـ بعض الوقت فقط يا يمّا... ريثما تنسحب تلك الغيمة التي تحبس أشعة الشمس عنك. كنتِ كلّما رأيتِ هذه الغيمة المظلّلة والمضلّلة، ارتسمتْ على محيّاك ابتسامة جميلة: هل تدري يا يوبا بأنَّ هذه المدينة مجنونة. تنتابها كلّ الفصول في اللحظة نفسها. ولهذا من الصعب عليك تثبيت صورة واقعيَّة لها. سأبقى هنا يا يمّا ولن أتحرَّك حتى تنسحب الغيمة وأرى أولى أشعة الشمس المختبئة خلفها..».

تذكَّر يوبا أنَّ كلّ لوحات مي هي محاولة تثبيت لمحيط ظلّ ينزلق من بين أصابعها كالرمل الناشف. يغلب على عملها الأصفر والأحمر والرمادي، ألوانها المفضَّلة. تختبئ من ورائها، بخجل، ظلال مدينة قديمة تّشبه القدس بقببها وكنائسها التي لا تكاد تظهر إلا رؤوسها التي لا بدّ أن يكون الزمن الذي مضى قد حوَّلها إلى أشباح تركض نحو الموت، تقتل كلّ من تصادفه في طريقها. ثم فجأة رأى، وهو في سهوه، الغيمة وهي تنسحب بهدوء تاركة شمساً دافئة تنفذ قليلاً بأشعّتها الملونة بين ثنايا أشجار البلاطان العملاقة وتضيء القبر.

هي ذي شمس مي. تمتم يوبا. الشمس الدافئة. شمس لا هي قاسية بأشعّتها ولا هي ميتة. شمس تمنح الحياة والدفء عندما يكفّ الذين نعرفهم عن فعل ذلك. كانت ألوانها هي دفئها الوحيد. وكثيراً

ما انغمست في مرثيَّة جدّها الأندلسي بحثًا عن شمس أخرى كانت كلّ يوم تزداد بعداً. مرثيَّة الاندثار. أحزان الذين غابت أفراحهم فجأة ووجدوا أنفسهم بالآلاف، بعد أكثر من ثمانية قرون، مصطفّين عند بوّابات العراء وبحر لم يكونوا يعرفونه بتاتًا. مجبرين كانوا، على الرحيل باتجاه أرض لم يروها إلا في الأحلام وحكايات التجّار والعابرين:

« . . . آه يا فرقة الديار،

ديار الأندلس. . . ما هانوا علي. . . ».

« ـ يوبا حبيبي، أنت ترهق نفسك أكثر من اللازم. صفرة وجهك زادت. يمكنك أن تذهب الآن. . . أنا مرتاحة أنك عدت بخير. . .

ـ يا يمّا أشتهي أن. . .

ـ كلّ شيء على ما يرام. يمكنك أن تعود على بيتك الآن » .

سمع صوتها مرّة أخرى يأتي منزلقًا من بين الأشجار وكثافة الألوان الكابية. انسحب بهدوء، باتجاه السيّارة، خارج أسوار المقبرة، بعيداً عن أشجار البلاطان العالية التي كانت تخسر أوراقها واحدةً واحدة، وتتعرَّى من غطاءاتها، وتقاوم الريح المحمّلة برطوبة نيويورك الثقيلة، وتحاول جاهدة أن تبقى واقفة، قبل أن تنحني أغصانها وأوراقها على القبور لتغطّيها من سأم الرياح وشطط الرعود.

* * *

- ٣ -

لم يكن أمر البحث عن الكرّاسة النيليَّة صعبًا.

فقد وجدها في عمق الصندوق الخشبيّ الصغير الذي انبعثت منه رائحة خشب الزيتون العتيق. كانت حيث وضعها في المرّة الأولى، في الزاوية المظلمة من الخزانة الحائطيَّة. لم تكن مهملة ولكنَّها كانت مخبَّأة بحيث لا يصادفها وهو يبحث عن أغراضه اليوميَّة. شيء واحد ظلّ يملأ ذاكرته، طوال هذه المدة، هو أن يتدرَّب، عبثًا، على تقبُّل موت مي وذهابها. كلَّما أراد فتح الصندوق، رنّت في رأسه كلمات مي: حذارِ من أن تضيف إلى حياتك شبحًا جديداً. أريد أن أكون مجرّد لمسة ريشة جميلة في حياتك، لونًا نادراً، كلَّما رأيته امتلأ قلبك بالنور، وصرخت من فرط السعادة: يا اللّه؟ من أين لك بكلّ هذا البهاء الجميل وهذا البذخ الاستثنائيّ؟ لأنِّي وقتها لن أذكِّرك بالموت بقدر ما أضع الحياة بين عينيك في رعشتها الأولى، دهشة الولادات.

ـ هذه هي إذن مدوّنة الحداد، كرّاسة أمي السحريَّة؟

ردَّد يوبا بصوت خافت. تأمَّل الكرّاسة قليلاً ثم شمّها. شعر بلذّة غريبة. رائحة الورق القديم التي تشبه أوراق الصحف عندما تنزل عليها الأمطار الموسميَّة.

«ـ لست أدري ماذا حدث فيّ. عاصفة مسّتني في الأعماق وهزّت كلّ نظامي. فقد أيقظ تكريم ماريا كالاس كلّ جراحاتي النائمة. عدت من لاسكالا وفي رأسي شيء واحد أن أوقظ من جديد كلّ حواس هذا البيت الذي أقامت فيه مي موزَّعة بينه وبين بروكلين. أن أطرد أشباحه ولا أحتفظ إلا بروحه العميقة وأنواره الخفيَّة. لقد كان هذا البيت الفضاء الجميل لمي عندما تنتابها نوبات الألوان ومخاوف العزلة».

كلّ شيء ظلّ في مكانه عندما غادرت هذه الدنيا، مثلما نظّمته هي آخر مرّة. لم يبذل يوبا مجهوداً كبيراً ليعثر على الكرّاسة النيليَّة. كانت هناك حيث تركها مع كلّ أغراض أمّه الثمينة، التي لم يتجرَّأ يومًا على فتحها. في عمق الصندوق الخشبيّ الذي تركه والده كونراد كذكرى لمي، قبل أن يغادرها للمرّة الأخيرة، باتّجاه مدافن البحرين وصلصال البحر الميت.

تلمّسه من جديد. شعر كأنَّ به شيئًا يأتي من بعيد. قاوم الدمعات التي ارتسمت في عينيه قبل أن يتركها تنهمر. فجأة سمع صوت مي يأتي من عمق الصالة، واضحًا ونقيًّا. وضع رأسه بين يديه وحاول أن يغمض عينيه لكي لا يرى شيئًا آخر غير وجهها وهي تجلس بجانبه وتمسّد على شعره، في حركة مليئة بالحنان. تمتم:

«ـ يمّا . . .

ـ يا روح يمّا . . . ابكِ حبيبي عندما يمتلئ قلبك بالأسى . ابكِ عندما تصاب بنوبة سعادة شهوة المنتهى . ابكِ ولا تسأل لماذا خدعك دمعك . يُقال في شرقنا إن الرجال لا يبكون . اللّه يلعن أبو اللي جاب هيك حكاية . الرجل الذي لا يبكي حيوان . بغل . تيس . بلا شعور . حتى الحيوانات تبكي في لحظات ضعفها وانكسارها . أجمل شفافيَّة في الإنسان هي دمعه عندما يكون صادقًا . الدمع لا يكذب، بل يكذِّب صاحبه إذا لم يكن شهمًا . في حي المغاربة، في القدس، كانت الندّابات أثناء الجنازات أنواعًا، وكنّا نعرفهنّ من حركة عيونهنّ، فنفرِّق بين الكاذبة وتلك التي تبكي من قلبها . ونضحك كثيراً من اللواتي كن يصطنعن البكاء بصعوبة . كوني، على الرغم من ثقل أجداده الألمان وصرامتهم، كان أقرب إلى أمّه الإيطاليَّة في حساسيَّتها المفرطة . يبكي بسرعة ولا يخبِّئ أبداً هشاشته» .

شعر يوبا بنوع من الراحة الداخليَّة عندما رفع رأسه ورأى وجه مي صافيًا كدمعة . ابتسم . مسح من على وجهه، بحركة آليَّة، عرقًا بارداً أحسَّ به ينضح على جبهته المتعبة، ثم التفت نحو المدينة الغارقة في أضوائها التي كانت تخترقها مئات الألوان .

تبدو الأضواء المتداخلة من الشرفة وكأنَّها سيلان جارف يمسح علامات الشوارع وحدودها . لم ير يوبا شيئًا إلا أنوار نيويورك التي التمعت بقوة واندفنت في الضباب الذي تكاثف فجأة على المدينة . لم يعد يرى من هذا العلوّ إلا الضوء الأحمر الذي كان يختم رأس

البنايات العالية القريبة من البرجين التوأمين. عندما يسرح بعينيه، يشعر بالفراغ الذي خلّفه التفجير الذي مسح البرجين عن آخرهما. يشعر فجأة بكآبة عميقة، كأنَّه فقد شيئًا عزيزًا كان يشكِّل جزءًا من حياته اليوميَّة. كان يمكن، لولا الصدفة، أن يصبح مجرّد تربة بين آلاف الأجساد التي رُدمت يومها. صدفة الورود وقبر أمّ يرفض أن يموت. كان كلَّما شرب قهوته الصباحيَّة ورفع رأسه، رآهما، البرجين، يصعدان نحو السماء بشموخ كان يبدو أزليًّا. مرّة أخرى سمع أصداء حزن مي الذي كان يتدفَّق مع شلاّلات الضوء المغيمة في شكل هالات وحلقات ضوئيَّة لانهائيَّة:

«ـ شيء في هذا العالم يسير بشكل غلط. أحاول أن أفهم، لكن مخّي لا يسعفني. ماذا حدث لهذه الأرض؟ ما هي الخيارات التي تركوها لنا في عالم لم يعد يريح أحداً، بما في ذلك الذين شيّدوه ليشبههم في جبروته وتوحُّشه؟ إمّا الانتساب إلى مجانين يصنعونهم لنا لتلبية شهواتنا المبطّنة في الانتقام، أو يرمون عند أقدامنا أحزمة ناسفة ويشجّعوننا على ارتدائها وتفجير أنفسنا في أيّ مكان، على اعتبار أنَّ العالم كلّه مضادّ لنا، وأينما متنا أو قتلنا، فثمّة أعداؤنا؟ إنَّهم يصنعون لنا اللون الذي يجب اعتماده، والوردة التي علينا أن نهديها، والكتاب الذي يجب أن نقرأه، والسياسة التي علينا اتباعها، والمرأة التي علينا عشقها، والرجل النموذجي الذي يدفئ خلوتنا، بل يحدِّدون لنا ما يجب أكله وشربه، ويخطّون لنا الحدود التي لا يجب تجاوزها لكي لا نرى ما يحدث في الجهة

الأخرى من ضفافنا. لهذا يصبح الحذر مضاعفًا لتفادي السقوط في لعبة القتلة والعدميّين، أو في يد من يحرِّك العالم على هوى مصالحه. لقد صغُر العالم وابتُذِل حتى صار كلّ بلد يشبه رئيسه أو ملكه، وكأنَّ كل هذه الأمواج البشريَّة التي تتقاتل يوميًّا لصون كرامتها لا وجود لأصواتها.

ـ يبدو أنَّه في النهاية عالمهم الذي يريدون رؤيته وبمرآتهم. مع ذلك، العالم ليس بكلّ هذا السواد يا يمّا.

ـ أنا لم أقل إنَّ العالم صار أسود، ولكنَّه يدفعنا نحو العدميَّة. والعدميَّة هي أخطر ما يمكن أن يصيب فردًا أو جماعة. هي الانتفاء الكلّي في أقسى درجات اليأس. ماذا يبقى لك عندما يُنتزع منك حقُّك البيولوجي في التفكير والحياة؟».

شعر يوبا بأنفاس مي القويَّة وغضبها الكبير عندما يملأ عينيها حزن عميق. لم تكن بعيدة عنه. كانت هنا قبل زمن قليل، في هذا البلكون بالذات، تشرب قهوتها الصباحيَّة أو المسائيَّة وتنظر إلى عالم لم يعد يشبه في شيء دنيا كانت تعرفها قبل سنوات مضت.

كانت شلالات الأضواء اللامتناهية غارقة في عالم لدن يشبه القطن، وكأنَّه اللحظة البدئيَّة لنشوء الخليقة. سيّارات الإسعاف التي كانت تتسلَّق الطرقات الصعبة، لا تسمع إلاّ أصواتها الحادّة وهي تبحث لها عن مسلك للمرور وسط الطرقات العمياء وسيل لا حدّ له من السيّارات العائمة في الضباب الكثيف والأضواء المغيمة.

لقد تغيَّر الحي كثيراً. نوليتا(١) شمال الحيّ الإيطالي أو ليتل ـ إيطالي(٢) الشعبي جداً، الذي لم يعد كما كان في البدايات عندما دخلته الموجات الأولى من الهجرة الإيطاليَّة القادمة من الجنوب وصقلّية بدءاً من ١٨٨٠، فقد نقلوا معهم عطرهم وأكلهم وخصوماتهم القديمة، وطرائقهم في الحبّ والكراهية. بدأ الحيّ الصيني، في السنوات الأخيرة، يقضم أطرافه الجنوبيَّة، ويتوغل فيه عميقًا. حي نوليتا لا يشبه بقيَّة أحياء مانهاتن في أيّ شيء. يشعر يوبا كأنَّه قطعة انكسرت من مساحات الجنّة الواسعة وانزلقت نحو هذا المكان المزدحم بالبشر والتشوّقات المجنونة، لتستلقي على حافة شارع إليزابث(٣) وتنام.

كلّ شيء في الشرفة صُمِّم بدقة. المزهريات والقناديل والمرايا التي تعطي الإحساس بأنَّنا نرى كل ما يتحرَّك حولنا وتحتنا. القنديل المتدلّي من سقف الشرفة الذي يكشف تفاصيل المكان، بلون يميل نحو صفرة باردة يمتزج فيها البنفسجي بالأصفر الفاتح. يد فرانشيسكو دقّقت في كلّ شيء وهي تنجزه، الفتحات، تسرّب الأنوار، الظلال التي يعكسها القنديل على المكان... حتى شكله شبه الدائري الذي تنزلق على سطحه الألوان المحيطة بفعل انعكاس الضوء. مع فرانشيسكو، لا شيء يُترك للصدفة.

«ـ كوني (كونراد)(٤) كان مجنونًا رائعًا. فقد أخذ هبل الحياة وفوضاها من أمه الإيطاليَّة، ولم يأخذ من انضباط والده إلاّ إصراره على

١ ـ Nolita (North of little Italy)

٢ ـ Little Italy

٣ ـ Elizabeth St

٤ ـ Kony (Konrad)

ملاحقة الطين وأسراره. عاش في هذا المكان كالذرّة العابرة للقارات قبل أن ينتفي في الجهة الخلفيَّة من البحر الميّت ويبرز ثانية من الجهة الأخرى. رجل جعل من الطائرة مسكنه الدائم.

لم يترك شيئًا عندما خرج للمرّة الأخيرة سوى وصيَّة شفهيَّة لأمّي التي ظلَّت ملتصقة ببروكلين، بضرورة الاهتمام بنفسها وبي. ملكه الوحيد، شقّته هذه، كان قد سجَّلها باسمي قبل أن يغادر باتّجاه مدافن البحرين وصلصال البحر الميت. قال لها: اسهري على يوبا، هو أجمل ما يجمعنا. لم أكن أبًا رائعًا ولكنّي يمكن أن أساعده لكي يصنع تاريخه الخاص.

ثم انطفأ ولم تره مي إلا بالصدفة في إحدى القنوات التليفزيونيَّة الإسرائيليَّة؟ وهو يتحدَّث عن اكتشافاته الجديدة في البحر الميت».

عادت الطائرات تشقّ سماء نيويورك من بعيد، بعدما منعت مدّة من الزمن. تبدو كنقاط متحرِّكة على علوّ شاهق، في اتّجاهات مختلفة. أصواتها لا تهدأ إلا لتقوم ثانية. لم يكن يهمّ يوبا أن تعود الطائرات من جديد ولكنَّه كان كلَّما سمع ضجيجًا التفت لاشعوريًّا نحو فراغات البرجين التوأمين وتحسَّس جسده، وذهب مباشرة نحو مزهريَّة الكريستال التي أهدتها له مي بعد أن وضعت في عمقها وردة بيضاء، وأخرى حمراء، وحوّطتهما بالبنفسج البرّي ذي الرائحة القويَّة، وطلبت منه أن يجدِّدها بشكل دائم من عند بائع الورود نفسه.

رنّ التليفون مدّة طويلة قبل أن يُسمع صوت فرانشيسكو الخشن والمبحوح يناديه من داخل الصالون المفتوح على سيول الأضواء المتدفِّقة من عمق الشرفة، محدثة تشقُّقات وهميَّة على الحيطان وخطوطًا لا حدود لها واستطالات تغطّي جزءًا من ظلال البيت.

ـ مستر يوبا... التليفون. ألم تسمع؟

قال فرانشيسكو وهو يحاول أن يوقظ يوبا من غفوته التي استغرقت لحظات كان فيها خارج المكان.

ـ اتركه يرنّ يا فرانشيسكو. عندنا في أميركا قانون يسمح لنا بحقّ التظاهر بعدم السماع. من يحبّني سيعاود إذا شاء، هذه هي القاعدة. قل لي، هل وجدت مكانًا مناسبًا للوحة[1] **N.Y, Death leaves Rustle**؟ هذه اللوحة بالذات أريدك أن تجد لها مكانًا خاصًّا، تمامًا كما كانت مي تشتهي عندما وضعتها في الواجهة، في آخر معارضها بنيوجيرسي؟

ـ أنظر... ما رأيك؟ أليس هذا مكانها؟

ـ ممم... ممم...

كانت عينا يوبا مثبتتين على الوضع الذي ستتّخذه لوحة مي الأخيرة، وعلى حركات يدي فرانشيسكو وعلى عينيه اللتين تشبهان عيني ذئب بصفرتهما التي لا تعرف الاستقرار ولا كيف تدفنان أسرارهما مثلما يفعل البشر. تمامًا مثل الذئاب التي يراها الزوّار في

١ ـ نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة.

الحدائق العامّة، من وراء الشبابيك وهي تتفرّسهم بغرابة. شيء من الذئب في فرانشيسكو، في شكله وفي تشمّمه للأمكنة الأكثر أمنًا.

ـ أنا متأكّد من أنَّ هذا هو مكانها الطبيعيّ والجميل الذي يعطيها كلّ حضورها ورونقها، تتمتَّع بالظلّ لكي لا تتحلَّل، وبالأشعّة المتسرِّبة التي تزرع فيها بعض الدفء.

فرانشيسكو محترف في الديكور الديزاينر واشتغل زمنًا طويلاً مع مي، فهو المشرف الأوّل على معارضها المهمّة. يعرف جيِّدًا أنَّ لمسة صغيرة يمكن أن تغيِّر كل شيء في نظام التفاصيل. ليست الكثرة والغنى هما الأساس ولكن الترتيب واختيار الأمكنة الأكثر بروزاً وحميميَّة. بعد محاولات عديدة ودوران مستمرّ حول اللوحة، استقرّ رأيه نهائيًّا على المكان الذي اختاره منذ اللحظة الأولى.

ـ أنا متأكّد من أنَّ هذا المكان سيروق لمي كثيراً. ستكون اللوحة في منأى عن كلّ العوارض ممّا يحافظ على حياتها طويلاً. ثم وجودها في زاوية مظلَّلة يوفِّر لها جانبًا من السحر والغموض الذي تحمله الأعمال الفنيَّة الكبيرة. تعرف أنَّ بيكاسو، في **آنسات أفينيون** الموجودة في متحف الفنون الحديثة في نيويورك، كان يفضّل دائمًا تظليل لوحاته. النور الكثير يقتل التفاصيل ويجعلها مسطَّحة.

تراجع يوبا خطوتين إلى الوراء. تأمَّل اللوحة. أغمض عينيه قليلاً وحاول أن يرى كلّ شيء من زاوية البحث عن سرّ الغموض الذي عهده في اللوحات المبهمة ليكشف سحر بعض المغالق.

ـ تعرف يا فرانشيسكو... **آنسات أفينيون**... رأيتها في متحف الفنون الحديثة(١) بنيويورك مع أمّي. وأتذكّر أنَّ اليوم كان ماطراً عندما ذهبت أنا ومي إلى المتحف. دخلتْ ثم جلستْ في صدر المتحف تتأمَّل تفاصيل **آنسات أفينيون**. لم تستطع أبداً أن تخبِّئ دهشتها من التفاصيل الهامشيَّة التي كانت تزخر بها اللوحة.

مي، لم تكن امرأة عاديَّة في ذوقها ولمسها.

غرق يوبا في وجهها الذي كان يومها في أجلى صفائه. رآها وهي تستجمع ذاكرتها الممزَّقة كالورق الميت وتصنع منه ذاكرة حيَّة:

«ـ يوبا... يجب أن تعرف أنَّ الفعل الذي خلّفته في هذه اللوحات كان كبيراً، ولا أعلم السبب. ربما لأنّ بيني وبين بيكاسو إسبانيا ومرتفعات كاطالونيا وجنون غاودي(٢) الذي لم يكن يؤمن بالخطوط المستقيمة، ولهذا جاءت هندسته معشّقة بحماقاته: أعمدة تشبه الجذوع المائلة وأسقف مطرّزة بالزليج ومسطّحات غير مستقيمة، ومشترك أحمق تصعب مقاومته. ربّما. بيني وبينه رماد الحروب الأهليَّة التي أحرقت أرواحنا ومدننا. أنظر مثلاً **الليلة المرصعة لفان غوخ**(٣)، فقد تركت فيَّ شوقًا كبيراً للنور. لا شيء سهل. في الجهة اليسرى، الظلّ الأسود لشجرة الصنوبر المتوحّش، تظهر كعلامة سوداء ثابتة في عالم يسير نحو حتفه. وفي عمق اللوحة، يشكّل اللون

١ ـ MoMA (Museum of Modern Art)
٢ ـ Antoni Gaudi
٣ ـ La nuit étoilée

الأسود كل انشغالات الفنان وحزنه. **آنسات أفينيون** لبيكاسو شيء آخر بهندستها وشكلها وألوانها. خمس نساء عاريات في وضع بين الغواية والدهشة. لحظة قطيعة مع مقاييس الفن الأوروبي المتوارث. ورهان ضخم ضدّ الضوابط الفنيَّة والجماليَّة التقليديَّة. ظلّ اسمها من ١٩٠٧ إلى ١٩٢٠ **الماخور الفلسفي**(١) لأنَّها كانت تحيل إلى ماخور كارير دافينيا(٢) في برشلونة وهي تبيِّن إلى حدّ كبير بحث بيكاسو عن الأشكال الحيَّة ورغبته في التجديد. هذه الطريقة هي التي قادت الفنّانين نحو التكعيبيَّة. الإيقاع نفسه نجده في **الرقصة لماتيس**(٣). لوحة عملاقة أنجزها صاحبها في ١٩٠٩. أجساد باهتة ومرتخية على حافة شاطئ تداخلَ لونه الأخضر بالأزرق. حركة البشريَّة في عفويَّتها وبدائيَّتها وهي تكتشف محيطها وإيقاعات فضائها وأجسادها. أحدثت زوبعة كبيرة عندما قُدّمت في معرض الخريف في نيويورك.

ـ وهل هناك سبب واضح؟

ـ لا يوجد سبب سوى عقليَّة مغلقة ومتخشِّبة لم تكن تفرِّق بين الحياة والفن. روكفلير مالكها، قبل وفاته، أهداها لمتحف الفنون الحديثة في ١٩٦٣، حسنًا فعل وإلاّ لأحرقها المعتوهون وما أكثرهم في الدنيا».

ـ يوبا... يوبا؟ هل يرضيك هذا المكان... يبدو لي ممتازاً.

---

١ ـ Le Bordel Philosophique

٢ ـ Carrer d'Avinyâ

٣ ـ La danse de Matisse

تساءل فرانشيسكو وهو يخرج يوبا من غفوته، من جديد.

ـ انظر، كأنَّ هذه الزاوية خُلقت لهذه اللوحة؟

التفت نحوه كأنّه خرج لتوّه من فراغ يجيش بالألوان. كانت صورة أمّه تملأ ذاكرته وأشواقه المهتزّة. لم تتحدَّث مي يومًا عن شيء صغير بدون أن تغرقه في التفاصيل والحواشي. لا يمكنها أبداً أن تتخلّى عن نزعتها التعليميّة التي اكتسبتها من محيطها الضيّق الذي علَّمها، في وقت مبكر، التنبّه للتفاصيل التي تبدو عادية وهي ليست كذلك.

تأمَّل من جديد موقع اللوحة. ابتعد قليلاً ثم تقدّم بعينين نصف مغمضتين:

ـ لا يا فرانشيسكو .تحديداً هذه اللوحة: **نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة N.Y, Death Leaves Rustle** أريد لها مكانًا لائقًا في هذا البيت. هي كلّ شيء. أريد من اللوحة أن تتشبَّع بالشمس بدون أن تخسر ألوانها الحارّة. هي اللوحة الأخيرة، فقد وضعتْ فيها مي شوقها الكبير لأرض لم ترها إلاّ في الحلم. أرض يحلم فيها الناس ويتحدَّثون مع بعضهم البعض بلا خوف ولا شطط. وربما لأنَّها الأجمل. أشعر أنَّ بها مختصراً لكلّ الآلام التي عانتها أمّي. لم أر مي مرّة واحدة تتأوَّه أو تصرخ مثلما تفعل وهي ترسم. كانت الريشة والسكينة الحادّة والفرشاة، هي أدواتها لتقطيع الزمن والألم والألوان وإعادة تركيبها. أريدها أن تخرج أكثر إلى النور والهواء. اعذرني يا فرانشيسكو، أنت فنّان وتعرف حساسيات الناس تجاه حميميّاتهم.

في أعماقي المرتبكة شيء يتغيَّر بشكل عنيف وباستمرار، ولم يستقرّ بعد، ولهذا تراني متناقضًا جدًّا. أريد أن تجعلها مثل عبّاد الشمس، أينما اتّجهت الشمس التفتت نحوها، ولا تنام إلا بغيابها. أريد كلّما جلست في مكتبي للعمل واجهتني بقلقها وأسئلتها وجمالها. كلّما أشرقت الشمس يزيد إشعاعها، وكلّما غابت التبست ألوانها وتشابكت وبان انكفاؤها.

صعب على فرانشيسكو أن يكتم ضحكته وتساؤلاته.

ـ تحتاج يا يوبا إلى أن تعلّق شمسًا داخل البيت مثل القنديل. أمّك محظوظة، لها ابن يفكّر فيها بهذا الشكل الرائع. مي كانت حالة متفرِّدة في نيويورك ولهذا كان يزداد في كلّ معرض محبّوها. رأيت يومها في معرض سيتي ويذات وولز[١] بنيوجيرسي، كيف انهمر الناس عليها، وكيف بكوا مرضها وغيابها. أنا لا أحفظ لأمّي وأبي أيّ ود. عندما افترقا، هي عادت إلى الإكوادور وتزوَّجت هناك بابن عمها، حبّها الأول، سائق تاكسي، معتوه لم يستوعب مطلقًا فكرة زواجها بغيره. عادت له بعدما خسرته مدّة من الزمن، وأعتقد جازمًا أنَّها كانت على علاقة سريَّة معه كلّما سافرت نحو أرضها في العطل الصيفيَّة. أمّا والدي فقد ذهب إلى ولاية تكساس واستقرّ بها مع عشيقته التي فاجأتها أمّي في فراشها معه. أمّا أنا فقد ربتني ذئبة روما. جدّتي الطيبة التي لم أجد أحدًا غيرها عندما تخلّص منّي كلاهما لكي يعيد حياته. عندما كبرت، محوت هذه الذاكرة منهما

١ ـ City Witout Walls

نهائيًّا ولم أحتفظ إلا بذئبتي، جدّتي التي ماتت قبل سنوات في بيتي. عشت كذئب صغير في غابة كبيرة اسمها نيويورك، وكان عليّ أن أجد مكاني فيها وإلا أُكِلت كأيّ خروف. مع الزمن تعوَّدت. اليوم أعيش حياتي كما أشتهيها بدون شطط الأبوّة ولا الأمومة.

ـ ألا تفتقدهما؟

ـ مطلقًا. ذهني خالٍ منهما. أحنّ لمي ولطيبتها وجديّتها أكثر منهما. يبدو لي أحيانًا كأنِّي ولدت بالفعل من ذئبة أو من أيّ حيوان آخر أو حتى من شجرة، هذا معتقدي الراسخ. ربّما ليست لديّ حساسيَّتك المفرطة. سعادتي الكبرى تشرق كلَّما انتهيت من عمل جميل. معرض الديزاين الذي بعثته في الأسبوع الماضي بكامله حقَّق لي الكثير. وكلَّما انتهيت من معرض أبدأ في التفكير في مشروع آخر. منشغل بما هو أهمّ من الأبوّة أو الأمومة. أتحاور مع البلدية للعمل على إنارة حدائق مانهاتن الصغيرة، وهذه وحدها ستأخذ منِّي عمرًا بكامله. لا وقت لديَّ. أعيش حرًّا، بلا زوجة وبلا أعصاب. بيني وبين صديقتي المكسيكيَّة نورما الحبّ فقط، لا زواج ولا أولاد ولا أيَّة كذبة من كذبات المجتمع الحديث. لكلّ واحد فينا الحقّ في تغيير رأيه ومساره الحياتي، وحتى شهواته الكبيرة والصغيرة وفراشه. هكذا أحسن...

رتَّب فرانشيسكو اللوحة من جديد بحيث تكون مواجهة للنافذة الواسعة. تمامًا في المكان الذي حدَّده يوبا. في النقطة التي حيثما التفتَ، واجهته بألوانها وظلالها كعبّاد الشمس.

ـ كنت أخشى عليها من كشرة الضوء ولكن لا بأس إذا كنت تريد ذلك، سنجد لها مخرجًا ونظلّلها بشيء يحافظ عليها من التلف السريع.

في اللحظة نفسها تسرَّب هواء مثقل برائحة البحر ورطوبة مجرى الهودسون، مسح الداخل والزجاج محدثًا تلوُّنات وانعكاسات على اللوحة، سرعان ما تمزّقت إلى آلاف الذرّات الضوئيَّة داخل الصالة.

ـ جيّد هكذا يا يوبا؟

ـ جدًّا يا فرانشيسكو. لمستك سحريَّة دائمًا.

ـ طيّب. وأين أضع[1] **Bereavement Wolves** هي سباعيَّة وتحتاج إلى مكان أوسع. ولكن أيّة دقَّة كانت تتمتّع بها مي في رسم التفاصيل. أشعر فعلاً وأنا أراها بمقدار السخرية من الحياة التي تتجلّى من ورائها؟ لقد ألحّت على وضعها مجتمعة لأنَّها تحكي قصّة نفاق أخواتها، هكذا قالت لي يوم معرض **لايف پاور**[2] الذي كان نجاحًا عظيماً.

ـ لا أدري لماذا أرى في هذه اللوحة جدّي كذلك. كلّ تفاصيل الوجوه تقود إليه. أعتقد أنَّ مي عندما كانت تنجزها لم يكن في رأسها خيبة أخواتها فقط، ولكن حزن والدها أيضًا. ليكن. أعتقد أنَّ

---

١ ـ حداد الذئاب.

٢ ـ Life Power (سلطان الحياة).

هذا مكانها. عندما ألتفتُ أراها. لم تكن لوحتها الأخيرة ولكن كانت إحدى أهمّ لوحاتها، عندما دخلت إلى المستشفى ولهذا فهي مهمّة في هذا الفضاء.

ـ ممتاز. نباهة مي في لوحاتها أنّها كانت تدفعنا دائمًا إلى إعادة النظر في يقينيّاتنا. لا يوجد شيء قارّ وثابت، كما كانت تقول دائمًا للذي يستفسرها عن سرّ اللّون والشكل، ما دام فيه بشر يتذوّقون، يؤوّلون.

ـ هل تدري يا فرانشيسكو، لا نعرف درجة الفداحة التي يخلّفها فينا الفقدان إلّا عندما نخسر من نحبّ. عندما كانت مريضة، كنت أنظر في وجهها كثيرًا على غير عادتي. بدأت أحسّ أنّي كنت كلّ يوم أفقدها قليلاً وأكتم شعوري. كانت مثل ماء في قفر، كلّما شربتَ منه قليلاً، شعرتَ أنّه نقص أكثر. حتى أنّها في مرّة من المرّات فاجأتني وأنا في سهوي وضمّتني إلى صدرها وحكّت على رأسي كعادتها، وهي تتمتم: ياه يا يوبا، لمْ تكبر إلا قليلاً. أرى في عينيك دائمًا ذعر الطفولة الذي يزداد كلّ يوم أكثر. لا تخف، ما زلت معك وسأجعلك تلعنني من كثرة ملاحظاتي. عندما لمحت عينيها تأكّدت أنّها كانت تتألّم كثيرًا ولكنّها كانت تخبّئ انكسارها وخوفها من الموت. كان المرض ينخرها بلا رحمة.

عندما دقّت الساعة الحائطيّة العتيقة الثامنة مساء، كان فرانشيسكو قد انتهى من ترتيب اللوحات الأخرى التي ظلّت زمنًا مخبّأة في عمق الخزانة مع بعض وثائق مي. فرانشيسكو كتلة من

الحياة. بعد أن يكرِّر الحركات نفسها مئات المرّات، يضع اللوحة في الجزء المظلّل من الحائط. يبتعد قليلاً عنها ثم يعود إليها ثانيةً مغيِّراً مكانها قليلاً. ينحني ثم يقوم. يتخفّى بالقرب من باب المطبخ، ينبطح على بطنه مثل المحارب، ثم يتأمَّل اللوحة بعين نصف مفتوحة. يفتح النافذة قليلاً، يستأنس بالضوء المنعكس، وضجيج السيّارات والأصوات الحادّة لبعض السكارى أو الحشّاشين، التي تأتي من حين لآخر مخترقة رتابة هدير المحرِّكات، ثم يقوم من جديد.

ـ يوبا، أعتقد أنَّ كل شيء تمام. متأكِّد من أنَّ مي ستكون سعيدة. ديكور البيت جسّدته بحسب شهوتك وألوانك. أتمنّى أن لا أكون قد بالغت في جنوني، فأنا أسمح لنفسي أحيانًا، بأن أتصرّف وكأنَّ الأمر يعنيني مباشرة، خصوصًا مع من أحبّ وأضرب صفحًا عن آرائهم. لم أكن مساعداً فنيًّا لمي ولكنَّها كانت أمّي الحقيقيَّة. هذه المرّة حاولت أن أدخل في أعماقك، فأنا أعرف مي وأدرك جداً عشقها للنور والظل.

ـ أشكرك يا فرانشيسكو. كنت رائعًا في ترتيباتك. جهدك الجميل أعطى الحياة للمكان من جديد.

ـ لم أفعل شيئًا مهمًّا. شكراً.

قبل أن يخرج، حرّك فرانشيسكو لوحة نيويورك، **هسهسة الأوراق الميتة** الكبيرة قليلاً، بدرجة واحدة أو درجتين باتجاه الأعلى، فانعكس على سطحها النور المتسرِّب من قنديل الشرفة. علت محيّاه ابتسامة خفيفة أظهرت سعادته باللمسة الأخيرة.

ـ اللمسة الأخيرة مهمة دائمًا ، فهي آخر ما نتذكَّره.

ـ برافو فرانشيسكو. أُحيِّيك على لمستك. شكرًا.

انتهى كلّ شيء وعاد الهدوء مرّة أخرى إلى البيت.

ـ أتركك الآن. أغبطك يا يوبا على أمّ أعطتك كلّ ما تملك من الأشياء الجميلة وحساسيَّة مرهفة تجاه الحياة. من حقِّك أن تحبّها وأن تبحث عنها في كلّ ما يحيط بك، وأن ترفض أن تقطع الحبل السرّي الذي يربطك بها. أما أنا يا صديقي، فقد وُلدت من الخلاء وأرضعتني ذئبة.

ـ شكرًا يا فرانشيسكو. شكرًا على كلّ شيء.

ـ الذي يهمّ في كلّ هذا هو أن نعطي الأولويَّة للحياة كما كانت تفعل مي دائمًا. في أقصى درجات الحزن والخيبة، كانت تنظر للأقدار القاسية نظرة محبّة وتفاؤل وتضع النور أمامها بدل الظلمة. الحياة أولاً وأخيرًا... فهي مثل الكأس الأخيرة في ليلة عشق، يا يوبا، شفّافة وهشّة ونخاف عليها من الانتهاء، ولهذا نحاول أن نطيل في عمرها بكلّ الوسائل... هذا ما أحاول فعله. باي يا صديقي. باي... باي...

لم يسمع يوبا إلا قهقهة فرانشيسكو الحادّة وبحَّته وهو يسعل في بهو الطابق العاشر، مختلطتين بصعود ونزول المصاعد التي لا تتوقّف. بعد لحظات، عندما أطلّ من الشرفة، رأى سيارة فرانشيسكو تدور في مكانها وهي تبحث عن مخرج قريب قبل أن تجد مسلكها في شارع

إليـزابيـث الذي ينتـهي به إلى اليـونيـون سكوير بارك[1] ومنه يـزحف صعوداً نحو الشارع الثالث الذي يقذف به باتّجاه البرونكس[2] حيث إقامته. فرانشيسكو تعوّد على شطط حيّه الذي يقع في الشمال الشرقي لمانهاتن. عندما يُسأل: ألا تخاف من التحرُّك ليلاً في البرونكس؟ يضحك. يقهقه أحيانًا: أنتم تتخيَّلوننا أناسًا يتقاتلون ليلاً نهارًا، بلا راحة ولا رحـمة. لا، هناك نظام مثلما هو الحال في كل مكان، في بروكلين، هارلم، مانهاتن، كوينز وغيرها... ويجب أن نتعامل بقدر من الذكاء مع هذا النظام الذي استقرّ في عقليّات الناس، هذا كلّ ما في الأمر. حتى الآن كل شيء يسير على ما يرام ولا توجد مدعاة للخوف. بل إنَّ هذا النظام نفسه صار رتيبًا وعلينا تغييره... ها... ها...

ثم يغرق في ضحكته الخشنة التي تُسمع من بعيد، قبل أن يواصل:

«ـ ليس لديَّ ما أخاف عليه من العصابات الشريرة، لا أولاد ولا أموال. هم يعرفون جيِّداً أهدافهم ولا أعتقد أنِّي أهمّهم كثيراً. ثم إنَّ موتي لن يغيِّر من نظام العالم الذي استقرّ وأصبح من الصعب زحزحته. الحياة أثمن من ذلك كلّه يا يوبا، وعلينا أن نعيشها وفق ما نشتهي حتى ولو كان ذلك داخل المخاطر المزمنة...

بقي لحظات طويلة في الشرفة، تحت القنديل الذي صنعته ملامس فرانشيسكو بضوئه الدافئ، الأصفر والبنفسجيّ، الذي يعطي

١ ـ Union Square Park

٢ ـ Bronx

للمكان، ليس لونًا فقط، ولكن رائحة كذلك، تأمَّل سيارة فرانشيسكو حتى غابت في شارع إليزابيث المضبّب، قبل أن تتحوَّل إلى مجرد نقطة ضوئيَّة تماهت وسط الآلاف من الألوان المتكسّرة على الإسفلت وحبّات المطر.

أغمض عينيه قليلاً. كانت نيويورك لذيذة في ذلك المساء، تغتسل بالمطر وتلبس الضوء والألوان والضباب.

* * *

- ٤ -

لمسة واحدة كانت كافية لتغيير كلّ شيء.

عندما تأمّل يوبا اللوحات في انتظامها الجديد، شعر بمتعة كبيرة. رأى مي سعيدة كما لم يرها أبداً في حياته، في قمّة تشوتها. لم يتغيَّر شيء في اللوحات، ما تزال هي هي، بألوانها المشرقة حتى في دكنتها، وبفراشاتها التي تحيل إلى أصابع مي الرقيقة وهي تنثر الأشعة الملوّنة مثل الذي ينثر نجومًا على مساحات بكر في السماء. رآها في ذلك الصباح الجميل وهي مليئة بالحياة، تخلط الألوان، ثم وهي تصرخ مثل الطفل الذي وجد معادلته المستعصية:

«ـ أنظر يا يوبا؟ هل رأيت هذا اللون في حياتك من قبل؟

ـ أبداً يا مي... أبداً... مذهل.

ـ بالضبط هذا ما كنت أريده وأبحث عنه طوال السنوات التي انقضت. فراشات القدس، هكذا أسمّيه، لقد نشأ من تمزُّقي وأشواقي

الطفوليَّة. هل تدري أنَّه يحدث معنا أن نقضي عمراً بكامله نبحث فيه عن شيء غامض، وحدنا نعرف شكله وتفاصيله، وعندما نصادفه فجأة في أحد مسالكنا الحياتيَّة، نصاب بالخرس والبكم والشلل. وعندما يستعصي علينا القبض عليه، نحزن لدرجة الموت ونقلِّد الحيتان في صمتها وانتحارها. هذا هو لوني الذي سيصطحبني طوال العمر، وحده يعقد صلحًا بيني وبين ذاكرتي. وجدته، الأصح، عثر عليّ بمحض الصدفة. سأجعل منه عنفواني، في عمق الصمت الذي ينتاب لوحاتي.

ـ لون متفرِّد يا يمّا.

ـ ليس هذا فقط، بل لأنَّ هذا التفرُّد سيسمح لي بخلق ألوان لا حدود لها من صلبه. هكذا نحن، كلّما ظنّنا أن الحياة انسحبت من بين أناملنا، تأتي صدفةٌ جميلةٌ تجعلنا نغيِّر رأينا. أنا اليوم مثل طفل، سعيدة بشكل لا يُتصوَّر. طبعًا لست نيوتن ولم أكتشف قانون الجاذبيَّة، ولكنِّي أضفت إلى الحياة الهشّة والخائفة من نفسها، لونًا جديداً يُضاف إلى ملايين الألوان الموجودة، لم يره الآخرون ورأيته أنا، فقط. بل كنت أوّل من يملأ عينيه به... فراشات القدس».

أصبح فراشات القدس، لونها الأوّل الذي يندمج مع إشعاعات الشمس وهي تنهض من وراء بحيرة هودسون، أو يدخل في تجاويف سماء تبحث عن فضائها وألوانها، أو يغرق في عمق زرقة الماء ثم يعوم على السطح في شكل صفاء مشعّ كبقعة زيتيَّة. لونها الذي لم تخل منه أيَّة لوحة من لوحاتها في العمق.

عندما غرق في التفاصيل الصغيرة بحثًا عن سرّ ما سرّبته مي بين ألوانها وأشكالها المتداخلة، لم ير شيئًا آخر سوى وجهها الذي اجتاحه دفعة واحدة كالموجة العملاقة. لا يدري بالضبط هذا الإحساس الكبير بالفقدان والوحشة. لماذا، بعد كلّ هذا الصمت الذي استغرق سنوات، تهجم عليه مي ولا تترك له فرصة لمس شيء آخر غيرها. ربما لأنَّه اكتشف، وبشكل فجائي، أنَّ الأشياء التي ظنَّها ماتت تقوم فيه الآن بقوّة وتخترق كلّ رهافته بشدّة وعنف. لقد خرجت مي من هذه الدنيا كما اشتهت وهي في عزّ ألقها والتصاقها بقلمها وألوانها، ولو أنَّ القدر لم يمنحها لحظة إضافيّة، بعد أن حملت آلامها بين يديها كالمسيح المصلوب. خرجت من الحياة مثلما قرَّرت أن تفعل، وبالشكل القاسي الذي اشتهته. مي أدركت في وقت متأخِّر، ومتأخِّر جدًّا، أنَّ عودتها لتربة الطفولة حلم مستحيل. عندما وصلها الرفض من الجهات الإسرائيليَّة، ضحكت في عمقها بمرارة:

«ـ ما الذي يخيف الناس من أن تُدفن في أرضك؟ هل صارت حتى جثثنا مخيفة إلى هذا الحدّ؟ يبدو أنَّهم يرأفون عليَّ من الصدمة أكثر من خوفي على نفسي. أعرف أنَّ القدس لم تعد قدسي، لقد سكنتها أشباح كثيرة لم أعد أعرفها، ولكن... أيّ قانون هذا الذي يحرم إنسانًا من رؤية أرض نبت فيها وعجن من تربتها وشمسها أكثر من ذاك الذي سرق الأرض، ثم جلس وراء مكتب وثير وبدأ يصدر فتاوى الأمر والنهي؟».

خريف نيويورك لا يمرّ هكذا. يُذكّره دائمًا بألوان مي، وبالرغبة المجنونة لإنجاز سوناتا لأمّه ولأشباحها، قبل التفكير في ملحمة موسيقيَّة لأجداده الأندلسيّين الذين هاموا ذات شتاء على وجوههم. لقد لفَّها الخريف منذ البداية ولم يتخلَّ عنها حتى النهاية. مي ولدت مع صفرة أيلول، في أرض لم تملك الوقت الكافي لمعرفتها ولا حتى لحبها، وانسحبت من الدنيا بدون ضجيج، عندما كانت نيويورك تغرق في كتل الثلج وتلبس حداد القرن الجديد. كانت تحبّ الحياة ولكنّ هذا الحب نفسه باغتها ذات يوم بمرض لم تكن تتوقَّعه، انتشر في جسدها بدون أن تحسّ بوجوده. فقد أتى في صمت، مستعيراً أحذية السرّاق وراقصات الباليه، كي لا يسمعه أحد. سرطان الرئة، أو الداء الصامت، كما يسمُّونه. عندما عادت من مستشفى نيويورك المركزي[١] لم تنكسر، على الرغم من هشاشتها المعروفة، عندما أخبرها الدكتور هيرفي كروث[٢] في العيادة المركزيَّة لأمراض السرطان[٣] التي يشرف عليها داخل المستشفى، وقرأ عليها بدون مواربة، نتائج الفحوصات: مجرد لغم صغير، قال مازحًا، يمكننا أن نفجّره متى شئنا. مسألة وقت فقط وبعض الشجاعة منك... ضحكت وردّت عليه بالمزحة المرّة نفسها: مجرد لغم يا دكتور ولكنّه يشبه اللعبة القاتلة.

١ - NYU Hospitals Center (NYU Medical Center)
٢ - Hervey Cruz
٣ - NYU Clinical Cancer Center

«ـ الكثير من الشجاعة وليس بعضها. لا تشغل بالك عليَّ يا يوبا. وحياتك لا شيء. لغم صغير يكاد لا يُرى، سأعمل على تفجيره خارج هذا الجسد الذي لن يلين أبداً».

ولكنّ اللغم عندما انفجر مزَّق معه الجسد الذي تخفّى فيه زمنًا طويلاً. قاومت بلا كلل وهي متأكِّدة من أنَّها ستُشفى. كانت على يقين من أنَّ الكثير من الذين أُصيبوا بسرطان الرئة تخطَّوا عتبة الموت بإرادة من فولاذ. فجأة امتلأ بيتها بالمجلاّت الطبيَّة حول السرطان التي أتت بها من العيادة المركزيَّة لأمراض السرطان بالمستشفى، وسرطان الرئة تحديداً، والأجزاء الرخوة التي يلتهمها المرض عادة بسهولة كبيرة، وبأخبار الذين لم تقهرهم الأمراض الفتّاكة. لكنّ إرادتها لم تكن كافية لدرء الموت. تقول دائمًا إنَّها محظوظة لأنَّ اللَّه منحها فرصة الحياة في أجمل الفصول التي تحبّها، ولا تتخيَّل نفسها ترسم خارج هذه الفصول. حتى وهي مريضة، كانت تشتهي الخروج خريفًا والتمتّع بالبحيرات وقد غطَّتها الأوراق الصفراء، وبالأشجار وهي تتعرَّى كلّ يوم قليلاً، وبالشمس وهي تبرد من حرائقها، وبالظلال وهي تتخلَّى شيئًا فشيئًا عن رطوبتها الثقيلة والمحزنة.

إرادة مي لم تكن كافية لكسر الموت، وسيجارتها التي تؤنس كلّ خلواتها ظلَّت مرافقة لها حتى وهي تضع آخر الألوان على لوحاتها، في ساحة المستشفى، عندما يكون الجوّ رائقًا.

نبَّهها يوبا ذات مرة إلى السيجارة التي كانت قد احترقت وبدأت تأكل أصبعيها المسكين بمصفاتها:

ـ يمّا . . . انتبهي . . . سيجارتك انتهت .

ـ الشيء لا يؤذي إلاّ عندما نحسّ به، وأنا لم أشعر بالأذى. عندما نغرق في اللون، الألم لا يصل إلى المخّ لتنبيهه بالخطر المحدق. اللون والضوء يمنحان الروح الكثير من الصبر لمواجهة قسوة الدنيا.

شعر يوبا بنفسه ثقيلاً ككتلة رصاص، ثم خفيفًا كورقة بلاطان تنفصل بهدوء عن شجرتها العملاقة. تفحّص من جديد لوحات مي المنتظمة في استقامة واضحة، قبل أن يترك نفسه تتهاوى طويلاً في عمق الموجة التي كانت تدحرجه مثل الريشة الخائفة من أيّة هزّة.

الخريف هو الخريف.

لا شيء يضاهي نيويورك في هذا الفصل. مدينة في عرس من الأوراق المتصاعدة والأشجار الثملة، والأنوار والموجات التي تتجاوز رغوتها حدود الموانئ القديمة.

كانت مي تشبه مدينتها في زهوها وألقها. يذكّره هذا الفصل بها وهي في حالة حنينها وحزنها المتمادي في جبروته عليها. يوم دخلت المستشفى ويوم غادرته على متن سيّارة باتّجاه محرقة كانت أرحم من آلام الانفصال الأولى عن حضن أمها.

كلّ شيء فقد انتظامه. شيء ما كان يسير بالمقلوب. كيف يذهب العشّاق ويبقى القتلة زمنًا أطول؟ تساءل يوبا. هل هناك قوّة خفيَّة تسحب الطيبة نحو الأقاصي، وقوّة معاكسة تسحب الشرّ نحو الأداني؟

همهم يوبا بصوت خفيّ، وهو يبحث عن الكلمات التي كانت تهرب بسرعة حتى قبل أن تستقرّ ويفهمها.

«يمّا... يمّا..».

ترك رأسه يتراجع قليلاً إلى الوراء، وهو يتمدَّد على الكنبة، بحيث يرى العالم كلّه مقلوبًا. الأرضيَّة. زربية مي المقدسيَّة. البيانو. التلفزيون. اللوحات. البنايات العالية التي تدخل من النافذة الواسعة بدون استئذان بمحلاّتها وشموخها وشوارعها التي تغصّ بالبشر في مثل هذا الوقت. لم ير يومًا الحياة في عيني مي إلا في عنفوانها وزهوها، حتى وهي في أقصى انكساراتها، عندما تعود من زيارة والدها. لم يغادر الألق عينيها يومًا ولا الرغبة في اللعب بالألوان وبفراشات القدس.

شعر بالدوار ينتابه فجأة بسبب الوضعيَّة المقلوبة التي كان عليها رأسه. أغمض عينيه المتعبتين وضغط عليهما بقوّة حتى يندفن فيهما كلّ شيء ويتحوَّل إلى نوتات وإيقاعات. يحسد مي لأنَّها وجدت لونها قبل أن تموت. منذ زمن بعيد وهو يبحث عن الموسيقى الحادَّة والأنين الذي ينام في أعماقه بدون جدوى. يشعر بموسيقى الحنين على رؤوس أصابعه ولكنّ شيئًا ما لا يسعف تدفُّقها.

قبل أن يفتح عينيه المتعبتين، سمع صوتها يأتيه من عمق صالة المستشفى التي كان لونها باهتًا وخافتًا، وربما كانت بلا لون. «نحن نصنع ألوانًا جميلة للأمكنة الباردة التي تشبه الموت لكي نتحمَّلها»، هكذا تقول مي، عندما يغتصب الحزن سعادتها الصغيرة. المستشفى

الذي كان تعبيراً عن الإصرار على الحياة، أصبح مع الوقت مجرّد محطّة للعابرين نحو النهايات المفجعة. مجرّد لحظة توقّف لتوديع بعض تفاصيل الحياة قبل القفز في عمق الهوّة المظلمة.

فجأة أشرقت عيناه بنور غامض. خطّ بقلم الرصاص سلسلة جديدة من النوتات وأدخلها في صلب سلسلة سابقة. حاول أن يغمض عينيه من جديد ولا يسمع إلاّ هدير الألم الذي يندلع في داخله بقوّة، ولكنَّ الصوت عاوده مرة أخرى بشكل أكثر وضوحًا وصرامة:

«ـ يوبا يا يمّا... حبيبي... ألم تسمعني؟ أريدك أن تأتيني من البيت، غداً، ببعض الأقمشة البيضاء والرماديَّة للرسم عليها، وبقلم أنيق، أحبّ الأقلام الصغيرة منذ أن كنت طفلة، والكرّاسة النيليَّة التي ورثتها عن والدتي وطانت جينا. هي في الصندوق الذي أهداه لي كونراد. أنت تعرف أنَّهم عندما أخذوني لم أحمل معي شيئًا سوى لباسي الذي كان على لحمي، وتلك الكرّاسة النيليَّة التي كنت أنوي أن أكتب فيها، عندما أكبر، أوّل رسالة حبّ ليوسف. تصوَّر... حتى أوّل رسالة سُرقت منِّي؟

ـ وهل كتبتِ شيئًا في الكرّاسة؟

ـ لا. باستثناء خربشات قديمة عن خالي غسّان الذي فتح أمامي كلّ أبواب الحياة والعصيان الجميل، ومشقَّة الرحلة في الباخرة مع بابا حسن وبعض الأحاسيس الغامضة عن القدس. غموض العمر الهشّ. أريد أن أعثر فقط على تلك اللحظة الطفوليَّة الأولى لأعيد صياغتها من جديد، مثلما أحسّها وأنا أودّع الحياة. كتبت كلامًا كثيراً طوال الرحلة ورسمت البحر والطيور التي كنت أراها وكأنَّها تطير بالشكل المعاكس

من نافذة الباخرة وحسّدتها لأنَّها كانت تعود إلى أرض، كنت أنا أغادرها. تمنَّيت أن أكون طيراً فقط. ورسمت أشكالاً لم أعد أتذكّرها، وأنا أنتظر وصول خالتي دنيا، مامي، على حافّة ميناء نيويورك، عندما تجاوزنا لأوّل مرّة جمارك الحدود بنجاح كبير. ومن كثرة شجني على كلّ ما حدث، دفنت الكرّاسة في صندوقي الصغير الذي لا شيء فيه سوى أوراقي الأولى. نسيت كلّ شيء لكي لا أتذكّر القدس ولا حاراتها. بي رغبة عارمة للكتابة على هذه الكرّاسة. لا أدري ماذا سأكتب ولكنِّي سأفعل. كم أشتاق إلى والدي. أعرف جيِّداً أنَّ حلمه هو الذي قاده نحو أخطائه القاتلة ولكنَّه يكابر مثل كلّ الرجال عندما تدركهم تواريخهم الشخصيَّة الصغيرة. هو على الأقلّ عرف قدره وصمت ولم تعد تغريه الخطابات الوطنيَّة المنتفخة، على العكس من الكثير من أبناء جيله الذين استسلموا للذّة الكلام. لم أكن أريد أن أتعبه وآتي به إلى مكان لا يعني له الشيء الكثير. لقد غضب من حماقاتي كثيراً عندما زارني في إحدى المرّات النادرة، وقلت له: أغفر لك يا أبي كلّ شيء، ولكن قل لي، لماذا كذبت عليّ، أنت بالتحديد؟ قال بحدّة وصلت إلى درجة الهستيريا، بدون أن ينتظر نهاية سؤالي: تعبت وأكاد أُجنّ. لم أكذب عليك. لم أكذب على أحد، كانت تلك قناعتي للحفاظ عليك. ضعي نفسك للحظة في ألمي؟ فقدت أمّي وزوجتي الحامل بابني... و... و... فقدت... ولم يسألني أحد هل مازلت حيًّا؟ لقد قُتلت في ذلك اليوم بالضبط بأبشع الأشكال. هل تريدينني أن أنتحر لكي ترضوا عليَّ؟ وكلّما فتحت فمي، يَستحضر لي الجميع إيفا موهلر وكأنَّها هي من قادني نحو الكراهية، فأنا لا أكره

أحداً. لا أحد يعرف جرح هذه المرأة ولا جرحي معها. أنا لا أكره اليهود، فلا مشكل بيني وبين دينهم. أمقت الصهيونيَّة لأنَّها سرقت منِّي أرضي وذبحت أهلك و... هل الأوروبيّ يحسّ ببشاعة المحرقة، كما نحسّها؟ لا أعتقد. أنا عشتها مع أناس أعرفهم ويعرفونني. فقد التهمت أناساً أبرياء لم يطلبوا شيئًا أكثر من الحياة. ولكنّ محرقتنا، من يسمع بها؟ من يعتذر لها؟ تخيَّلي شعبًا يوضع على حوافّ المنافي والموانئ التي ترفضه لا يعرف كيف يرمي خطوة إلى الأمام ولا خطوة إلى الوراء؟ العمى، مش معقول؟ لسنا من ارتكب جريمة القرن ولسنا من أحرقهم، فلماذا نُدفَّع ثمن جريمة ارتكبها غيرنا؟ تتَّهمون... كلّكم تتَّهمون إيفا موهلر وأنتم لا تعرفون عنها شيئًا. لم أكن نازيًّا إلا بالقدر الذي ساعدني على استرجاع ما سُرق منِّي، لا أكثر.

ـ وماذا استرجعتم يا بابا؟

ـ لا شيء. خسرنا ما تبقّى. أهذا ما تريدين سماعه؟ لم تكن إيفا تكره اليهود ولا قتلت أحداً، كما يشيّعون، ولكن الذين حملوا أمتعتهم من كلّ أصقاع الأرض وجاؤوا ليسرقوا أرض غيرهم من العرب واليهود، هم القتلة الفعليّون؟

يدخل في سعال طويل. يطلب كأس ماء. ثم يحاول أن يهدأ قليلاً. تعلو بعض الحمرة وجهه ولكنّ التعب كان قد أنهكه.

ـ المسألة ليست بسيطة يا مي وأنا مللت من الملاحظات التي لا تؤدِّي إلا إلى المزيد من الأذى. أنا كذلك تعبت وأندم كثيراً على أنِّي

لم أبق هناك، لا لتحرير الأرض، فهذه مسألة لم تعد واردة، على الأقل بالنسبة لي، ولكن للموت فقط والتمزُّق عند بوّابات القدس.

لم أدر كيف أجيبه ولكنّي كدت أصرخ في وجهه بأعلى صوتي: ليس هذا سؤالي الذي جئت من أجله يا بابا؟ ولكنّي تماديت في منطقه:

ـ لقد أحرق أصدقاؤك النازيون، وأحباب إيفا موهلر، يهوداً أبرياء، وأبادوا الملايين فقط لأنَّهم يهود؟ هل تتصوَّر هول الفاجعة؟ صمت قليلاً قبل أنَّ يرد:

ـ أنا لا أعتذر عن شيء لم أعرفه ولم أرتكبه. محارق الدنيا كثيرة. كنَّا نعيش على أرض واحدة ولكنَّهم مزَّقوها وحطُّوا عليها ناساً غرباء. ثم... بربّك قولي لي، ماذا يفعل اليوم الذين ورثوا أرضنا بالنار والحديد سوى التطهير العرقي؟ ألم يتعلَّموا من أساليب أعدائهم النازيين؟ الضحية ليست أقلّ جرمًا من معذّبها أحيانًا.

ـ وهكذا أيضًا يتكلَّم أصدقاء إيفا موهلر.

ـ اللّه يهديك يا مي. لم أعد قادراً على تحمُّل شيء لا علاقة لي به.

شعرت بعطف تجاهه. أردت أن أخفِّف عليه وأعود إلى سؤالي الذي كان في رأسي منذ البداية:

ـ يا بيّي أنا أسألك عن تاريخنا البسيط ولا أسألك عن تاريخ حكمه النهائيّ ليس لنا. لماذا كذبتَ عليَّ، أنت وخالي الأكبر أبو شادي

وأعطيتموني الإحساس بأنَّ المسألة موقّتة وأنَّ أمّي ستلحق بنا عندما تلد وتتمكّن من الحركة الحرّة؟ لماذا منعتموني من رؤية خالي غسّان، كان يمكن أن يجد حلاًّ أفضل، له أصدقاء كثيرون في القدس؟ هل كنتَ مجبرًا يا بيِّي على فعل ذلك؟ الحديث عن تاريخ الأرض سهل، الحديث عن جروح الذات يبدو مستحيلاً، وكأنَّنا نستطيع أن نحكي عن أرضنا بدون معرفة الجرح الغائر الموجود في أعماق كلّ فرد منّا؟ ما عليهش يا بابا، قل اللي في قلبك، قل، أنا أسمعك. أنزل أثقالك حتى ولو كانت مؤذية لي ولك، فلم نبق إلا أنا وأنت من ميراث أرض كلّ يوم تزداد تفتُّتًا. قل، لم يعد شيء يؤذيني بعد كلّ الذي أصابني.

فجأة فرغت عيناه من كل بريق. أغمضهما. تنفَّس عميقًا كمن بقي زمنًا مدفونًا تحت الماء، ثم انسحب نحو المطبخ وواجه النافذة واضعًا رأسه بين يديه، يتأمّل الأشياء بشكل فارغ. خفت عليه من الصدمة، فصمت ولم أعد لسؤالي يومها.

«ـ أنت مرهقة يا مي. ستكتبين عن ماذا في هذه الكرّاسة؟

ـ ربما عن المرض؟ الكتابة عن الآلام تخفّف من أذاها.

ـ هل قال لك الطبيب اليوم شيئًا جديدًا؟

ـ ماذا سيقول لي أكثر ممّا سمعت؟ رئتاي تتآكلان ولم تعودا قادرتين على تحمّل حتى الهواء الذي نتنفّسه. لقد تشرّبتا كثيراً من الرطوبة في السفينة والوحدة والدخان الذي كان حليفي الوحيد في الهمّ وما يزال. لم أجد في أوقات الشطط إلا السيجارة. يجب أن أدفع

اليوم ثمنًا كان مؤجَّلاً. لا. الكتابة عن الآلام توقظ الأمراض الدفينة فينا. وأنا أريد العودة إلى تلك اللحظة الهاربة التي لم أستطع القبض عليها في وقتها.

ـ وكيف أجد الكرّاسة؟

ـ قلت في الصندوق الخشبي الصغير. كرّاسة صغيرة لم تفقد لونها النيلي. ما أزال أذكر غلافها إلى اليوم. شابّ وشابّة يقبضان على يديهما وهما يبتسمان ويتوجَّهان إلى المدرسة. خذ أيّ قلم من أقلامي. كلّ أقلامي جميلة، فأنا لم أتعوَّد إلاّ على الأقلام الجميلة. عندما كنت صغيرة، أدخل خالي غسّان في دماغي سرّ اللعبة عندما أهداني قلمًا بنفسجيًّا وعلبة صغيرة من الألوان الحارّة وهو يمزح: «لا يمكن لابنة أختي أن تكتب بقلم حزين، قلم رصاص، لا يمكن لمي إلاّ أن ترسم الشموس ولن ترسم عالمًا رماديًّا ميِّتًا». آه، لو كان خالي غسان يعرف ماذا كان يفعل بي لتردَّد كثيراً قبل أن يقدم على ذلك. أُصبت ببلواه. فقد حدّ الهاچاناه من حياته قبل الأوان. أو هكذا قيل لي فيما بعد. لا أدري أين يختبئ يقين الآخرين ولكنّ يقيني أعرفه جيِّداً. الكرّاسة في الصندوق الصغير الذي رفضتُ فتحه طوال السنوات التي أعقبت خروج والدك من نيويورك.

ـ سأجدها... لا تشغلي بالك يا يمّا».

لم يفكّر يوبا يومها في أي شيء، فقد كان ذهنه غائبًا وسط جبل من الأسئلة التي كانت كلّها تفضي إلى الموت. من مستشفى نيويورك

المركزي، إلى شمال بروكلين، لم تكن المسافات مقلقة. كان المطر يسقط وشيء في قلبه يتحوَّل إلى رماد كلّما مسّته الأمطار قليلاً. لم يجد صعوبة كبيرة في العثور على الكرّاسة النيليَّة في بيت صار بارداً فجأة بغياب صاحبته، لولا الشغالة المكسيكيَّة التي تأتي كلّ يوم، تنظّفه وتفتح نوافذه، تسقي الحديقة، ومسك الليل الذي جاءت به مامي دنيا من القدس بواسطة أصدقائها، ثم تعود. كانت الكرّاسة مدفونة في ملاية بيضاء من الحرير، كالكنز النادر داخل الصندوق الخشبيّ الذي كان يحوي كلّ أشيائها الصغيرة، الكرّاسة، رسائل، مساسيك، محارم ملوَّنة، بعض الأقراص من الألوان المائيَّة وأقلام كثيرة. عندما عاد يوبا إلى المستشفى، كانت مي نائمة فلم يرد إيقاظها. وضع الكرّاسة والأقلام عند رأسها مع أقمشة من خيش بألياف رقيقة، كانت قد طلبتها منه، ثم غادر المكان على رؤوس أصابعه لكي لا يوقظها. عندما رجع في المساء وكان الجوّ قد تحسَّن قليلاً، وجدها في حديقة المستشفى وقد بدأت في رسم لوحتها السباعيَّة التي سمتها فيما بعد **حداد الذئاب**، ولم تحدّثه أبداً عن الكرّاسة النيليَّة. التفتت نحوه. عبرتها ابتسامة شاردة مليئة بالطفولة والخجل والسرعة، ثم عادت إلى لوحتها مخافة أن تهرب منها ألوانها التي كانت قد ارتسمت في ذهنها.

ـ هل تدري يا يوبا... بي رغبة مجنونة لإخراج كلّ هذه الحرائق التي تأكلني من الداخل... حداد الذئاب هو حداد خالاتي أكثر من حدادي على مامي. في ذلك اليوم شعرت بأنَّ الأنانية قتلتهنّ في يوم واحد، هنّ وأزواجهنّ. في كلّ السباعيَّة: في اللوحة الأولى، **سرير الموت**، كانت وفاءً لخالتي دنيا مامي، واحتقاراً لهنّ. أنت ترى كيف

يتغامزن في اللوحة. في الثانية، **العزاء**، كنت أحاول أن أُظهر حالة النفاق التي تملأ العيون المفتوحة عن آخرها. في الثالثة، **الأزواج والزوجات**، ركّزت أكثر على تحالف الشرّ. في الرابعة، **ماجدة وسارة**، هذه خصّصتها لخالتيّ لكي تظلاّ ثابتتين في الذاكرة وحتى لا أنسى أبداً ما فعلتاه بمامي دنيا وبكلّ مشروعها، الخامسة، **كم نحبك لو تدرين**، لوحة حاولت فيها أن أخرج عن جديّتي وأسخر من كلّ شيء كان يومها يحيط بي. في الخلفيَّة دائماً خالتي وزوجاهما الغنيّان. في السادسة، **مطعم شرقي**، صورة المطعم حقيقيَّة تماماً كما حوَّلته عبقريَّة خالتي، بحيث انتقل من الحضارة والذوق المرهف، إلى التخلُّف ورغبة الربح السريع. واللوحة السابعة، **بيانو مامي**، خصَّصتها لأجمل بيانو في الدنيا، البيانو الذي اشترته خالتي من باعة سوق العتيق، بعد أن اكتشفت أنَّه لأعظم عازف بيانو في هارلم، ريشاردسن. كان البيانو ميراثي الكبير عن خالتي، ولأجمل عازفة في الدنيا، حبيبتي لودميلا التي عادت إلى روسيا بعد أن تعبت من بروكلين وحساسيتها من الروس.

ـ أيّ مجهود، أيّ إنهاك يا يما؟

ـ تلك قصّة أخرى. ولهذا صمّمت أن تقدّم هذه اللوحة في معرض نيوجيرسي، ولا تُباع لأنَّها عزيزة عليّ كونها أوّل ما رسمت في المستشفى. هل ترى هذه الألوان الجميلة... مدهشة؟

ـ فراشات القدس.

ـ تماماً. عرفت تركيبة اللون، وعليّ أن أسجِّلها في حقوق التأليف لكي لا تُسرق منّي... ها... ها... ها...

نسيت يومها أنَّها كانت مريضة وأنَّ جسدها كان كلّ يوم يزداد هشاشة. ولكنَّها ضحكت طويلاً ونكّتت كثيرًا على الذين يشغلون أنفسهم بحقوق التأليف والحقوق المجاورة، قبل أن تنغمس في عمق اللوحة وتنسى قلقها الدائم وخوفها الباطني.

عندما رفع يوبا رأسه قليلاً، رأى تقاطع الألوان بضوء الشرفة وبرائحة تشبه الياسمين كانت تأتي من أشجار الشوارع الخلفيَّة، وبصوت ماريا كالاس الذي كان يأتي، ممتزجًا بأنين مي، خافتًا من إحدى زوايا الصالون المظلّلة بالمزهريَّة العملاقة.

هذه المرّة لم يفكِّر طويلاً ولكنَّه بسرعة رسم، بقلم الرصاص، خطًّا خماسيًّا، ملأه بالدوائر الصغيرة السوداء والبيضاء، التي كانت تتحرَّك وكأنَّها أسراب متلاحقة من النمل. نوتات متداخلة كان الوحيد القادر على فهمها وتحسّس أعماقها.

«ـ سوناتا أمي..».

قام من مكانه. مشى مغمض العينين نحو البيانو وكأنَّه كان يبحث عن تجسيد لها قبل أن تنفلت من ذاكرته. لا يكفي، كما كان يردّد أستاذه، أن نعرف موقع النوتة لننشئ هرمونيا موسيقيَّة، ولكن علينا وضعها في المكان المناسب واللحظة المناسبة أيضًا، لكي لا تتحوَّل إلى لمسة موسيقيَّة ضائعة في الفراغ كذرة لا يحكمها أيّ نظام.

كانت الكرّاسة النيليَّة مستلقيةً لوحدها في عمق الكنبة كأميرة خرجت من الماضي العتيق بكلّ كبريائها وألقها.

* * *

- ٥ -

سكن كل شيء.

أغلق يوبا النافذة المطلّة على الشارع الكبير، فانطفأت كلّ الأصوات المتداخلة التي كانت تأتي من الخارج. طرد كلّ شيء من ذهنه المتعب ولم يحتفظ إلا بلحظة الصفاء التي بقيت راسية في أعمق نقطة فيه. ومع ذلك، ظلّ شيء مبهم يضبّب عليه رؤية الأشياء التي كانت تحيط به.

عدَّل ظهره باستقامة. لكنَّه عندما وضع أصابعه على ملامس البيانو، شعر بثقلها وبآلاف الطيور تقوم من غفوتها وتهرب بعيداً. كان مغمومًا وجافًّا وحادًّا. بلا روح ولا ذاكرة. تنفّس بعمق كي يؤكّد لنفسه أن لا شيء يمنعه من أن يكون هادئًا ومرتاحًا. عدّل لثاني مرّة من قعدته بحيث زادت استقامته أكثر. أغمض عينيه. مرّت الظلال من أمامه متلاحقة، ظلال الطيور، الوجوه، الغيوم، البشر، البنايات...

«ـ لا يُعقل! قبل قليل كان ذلك الإحساس الغامض يملأ رؤوس أصابعي مثلما حدث معي وأنا في الطائرة، ويدفع بي نحو أيَّة آلة موسيقيَّة. بل كنت أعدّ الدقائق للوصول إلى البيت من أجل هذه اللحظة التي تنسحب الآن مخلِّفة وراءها فجوات في رأسي وعجزاً كبيراً فيَّ، وفي الذاكرة والأصابع. ربما لم يحن الوقت بعد. ربما كانت حدّة الألم التي تحرقني من الداخل كالحطب الجافّ، أقوى من السوناتا نفسها».

قام من مكانه وهو يحاول أن يدفع بجسده إلى الأمام بصعوبة. تدحرج داخل الصالون بعينين نصف مغمضتين، كأنَّه يكتشف عالمًا جديداً. بدا له واسعًا وفارغًا من كلّ شيء. توقّف نظره عند اللوحة السباعيَّة: **حداد الذئاب، Bereavement Wolves** كانت منتظمة بشكل متدرّج. نظر إليها مليًّا. فقد قرأ في كلّ الوجوه النسائيَّة الكثيرة، بعضًا من ملامح جدّه. يجمع بينها كلّها الألوان المتشابهة وحركة الفرشاة التي تنكسر من المستوى الأفقي إلى المستوى العمودي، ولمسة غامضة أقرب إلى ذاكرة والدها. فقد كانت تحت قسوة فقدانه الباطنيَّة. في مجمل اللوحات المشكلة للسباعيَّة تعطّش كبير للشمس وانكسار للملامح التي كانت تنظر نحو الفراغ ونحو الظلال المبهمة. ثم التفت نحو لوحتها الأخيرة التي كان كلّما التفت نحو اليسار، واجهته بقوتها ومساحتها الكبيرة. أحسّ كأنَّه كان يبحث عن شيء آخر يُقرِّب منه مي التي انسحب وجهها بمجرَّد أن جلس وراء البيانو. لاحظ في لوحتها الأخيرة: **نيويورك، هسهسة**

الأوراق الميتة، أنّ هناك اندفاعًا كبيرًا نحو النور والتشكيل واهتزاز اليقين من خلال انكسار الألوان المتداخلة والأشكال العموديَّة غير التامّة. لقد أعاد الضوء الخافت الذي يتسلّق الظلال كنبتة حائطيَّة، كلّ ما كان مخزونًا في عمق الزاوية، من وراء الباب. لم يكن فرانشيسكو غبيًّا عندما حدَّد مواقع اللوحات بحسب حركة الضوء وامتداداته داخل البيت، وإيقاع النور المتسرِّب من الشرفة نحو العمق. لقد منح حياة جديدة للحيطان الباردة. هي الآن كل ما تبقّى له من ميراث مي الفنّي الذي اشترى جزءًا كبيرًا منه متحف بروكلين للفنون، الكائن في ٢٠٠ إيسترن باركواي[١] الذي يتربّع على خمسة طوابق. الطابق الأخير خصص للّوحات والمنحوتات الأوروبيَّة والأميركيَّة ومنها اللوحات العملاقة لروّاد مدرسة هودسون. ضُمَّت أعمال مي التي اقتناها المتحف، ضمن رواق الفنّ الأميركي المعاصر: **أحلام جسر بروكلين**، **آنسات مرتفعات بروكلين**[٢] التي يبدو فيها التأثّر واضحًا بنساء أفينيون لبيكاسو، **مغيب على بحيرة هودسون**، **أحزان إيلس آيلند**، **شمس على حافّة المدينة**، **حديقة بروكلين للبنات**، وهي لوحة كبيرة أقرب إلى إنجازات مدرسة هودسون، لا تأخذ فيها من **حديقة بروكلين للنباتات** إلا الإطار، أمّا داخل الحديقة، فقد أثّثته بالعديد من الوجوه النسائيَّة التي كانت تقتفي خيطًا من الشمس يخرج من البحر الرماديّ. أمّا اللوحات التي اشتراها الخواصّ فهي كثيرة، فقد دوّنها كلّها فرانشيسكو بأسماء المشترين وهواتفهم وأمكنة إقامتهم

١ ـ Eastern Parkway

٢ ـ Brooklyn Heights Women's

وبنوكهم. الأميركيون مجانين بذوق فلاّحين، يقول فرانشيسكو، يشترون أيّ شيء، المهمّ أن يكون جديداً ومتفرِّداً وفيه شيء من السحر والغرابة. لوحات مي كانت مختلفة في كلّ شيء ولو أنَّ المسحة العميقة هي نفسها، بخيوط النور والإشعاعات التي تنكسر في النهايات. كان لها أصدقاء دائمون يرتادون معارضها في صالات نيويورك ولوس أنجلس ونيوجيرسي وبوسطن وغيرها... ويشترون كلّ ما تعرضه. كانت تقول باستمرار عن لوس أنجلس: «لو لم ترمني الصدفة في نيويورك، لاخترت أن أعيش تحت سماء لوس أنجلس. أجمل سماء في الدنيا، زرقاء باستمرار بصفاء طفولي، لا يخدشه أي شيء. لم أستطع مقاومة رسم لوس أنجلس. جسّدتها في لوحة **سماء مضاءة**، اقتناها متحف غيتي سنتر[1]، بالمدينة نفسها». كانت مي تملأ كلّ أمكنة البيت وزواياه. وكانت ابتساماتها وأصداء انشغالاتها تنضح من لوحة لأخرى. في **نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة**، كان عملها الأساسيّ متمركزاً على اللون الرماديّ الذي استقرّ بين البياض والأسود المضاء قليلاً، بحيث لا ينتفي النور فيها نهائيًّا. في هذه اللوحة بالذات وقفت طويلاً وهي تقبض على صدرها بسبب ألم حادّ فاجأها في ساحة المستشفى، رافضة أيّة مساعدة، قبل أن تواصل دمج اللون الأصفر بالأحمر لتلوين خريفها...

في لحظة من اللحظات، خُيِّل إلى يوبا أنَّه كان يتجوَّل داخل معرض أمّه وهي بجانبه تشرح له تفاصيل كلّ اللوحات. اكتشف فجأة

١ _ Getty Center

أنَّ الحياة أخذته ولم يستمتع أبداً بمثل هذه اللحظات الاستثنائيَّة. كم اشتهاها أن تعود ولو للحظة فقط، يضع رأسه على صدرها ويتدحرج بجانبها، يده وراء خصرها النحيف، وينظر إلى جميع الزوّار بافتخار متمتمًا مع ابتسامة: مي. أمّي... نعم أمّي. لم يكن يوبا يدري من أين كانت تأتيه كلّ تلك الرغبة الجارفة التي لا يستطيع مقاومتها. شعر أنَّ مي لم تكن تفعل شيئًا آخر سوى ترميم الكسورات العظيمة الموجودة في أعماق جسدها المجروح، واستعادة وجه بلاد وأب أكلهما التيه والضياع ومحرقة لم تترك وراءها حتى الرماد. الغريب في هذه المحرقة أنّها بلا أثر ظاهر، ولا عنوان، وبلا قبور يمكن تذكّرها والاحتفاء بها. رمادها كلّه مشتّت عبر الأصقاع الباردة. تأكل الجسد وتمحوه نهائيًّا وتسكتُ كلّ صرخاته الباطنيَّة وأسراره الصغيرة وأحلامه المدفونة:

«ـ هل تدري يا يوبا، ليست المحرقة إلا وسيلتي الخفيَّة لحسم أمر لا أملك حياله الشيء الكثير، ولم أعد قادرة على مجاراته. يوم ولدت، وُلد معي جسد آخر. قالوا لي في البيت العامر بالنساء، إنَّه توأمي، فانقسم جسدي لنصفين مثل الفولة الصغيرة. جزء منّي كان ملكًا للمحيط والطبيعة، حبيس الأرض والقوانين القبليَّة، لم يكن يعنيني كثيراً. وجزء آخر كان سيِّد نفسه. سافر خارج الحيطان، عبر الأحلام، لا قوّة في الدنيا استطاعت ترويضه، ولا حتى أنا. كان كلّ صباح، ومع كلّ إشراقة شمس، يتكوَّر أكثر كالتفاحة، ينمو من جديد، مطالبًا بمساحة أكثر للنور. أتحسَّس بين فينة وأخرى تضاريسه

الخفيَّة، التي تنمّ عن وجود امرأة صغيرة ، بروح طفلة. في العاشرة من عمري شعرت ذات صباح بأنَّ جسد الطفلة خانني فجأة إذ حوَّلني إلى امرأة، حين تساقطت من بين فخذيّ قطرات من الدم الأحمر. جمّعتها مع مرور الزمن لتتساقط على لوحاتي قطرة، قطرة. بتّ أشعر بالخجل بين خالاتي كلَّما قلن لخالتي دنيا: شوووو... يخزي العين... مي صارت صبيَّة حلوة... سنوات قبل خروجي من القدس، كنت أعشق اللعب بالشوارع . لعبة العفريتة مع أولاد الجيران. وكان من قوانين اللعبة النطّ والركض في كلّ اتجاه. كلّ نطة كانت تفضح جسدي بأنِّي أصبحت أنثى صغيرة، وأنَّ لجسدي نهدين بدآ يتكوَّران ويشدّان إليهما كلّ العيون. وقتها انتبه لي أخو صديقتي، فدعاني إلى محلّه ليمنحني قليلاً من الشوكلاته. كان يعرف جيِّداً أنِّي لا أملك أيَّة قوة أمام لذة مذاقها وهي تتكسّر بين أسناني. منحني الشوكلاته، وقبَّلني على خدّي. ثم انتبه لأنوثتي الصغيرة، فمدّ يده صوب نهدي الصغير ليمسكه داخل كفّه. كدت أستسلم له كعصفور، قبل أن أفلت من يده، راكضة صوب الشارع، ومتذكّرة قول أمي: أوعي تتركي حدا يضحك عليك، ويمسكك. أدركت يومها، بدون أن يعلِّمني أحد، ببصيرتي الخفيَّة، بأنَّ جسدي بدأ يتحوَّل إلى إرث خفي عليَّ أن أعرفه وأحميه. لذا كنت كثيراً ما أنظر إلى نفسي عارية في المرآة، وأتأمَّل كلّ جزيئاته. أضغط على نهدي، قبل أن أحسّ بشيء غامض، مؤلم ولذيذ، في أسفل البطن. أمدّ يدي، فاتحة فخذي قليلاً لتحسَّس مم يتكوَّن هذا الجزء المختلف عن الرجل؟ وكنت كلّما بحثت عن صوره

بأناملي، أصبت برعشات جسديَّة. أدركت وأنا طفلة بأنَّ المرأة ترتعش من مداعبته بأصابعها. لذا، كنت كلّما شعرت بحاجتي إلى الحبّ، استحضرت ما اكتشفته يومها، لأكمل هزّاتي الخفيَّة. موّهت هذه الرعشات مع الزمن، ونقلتها متخفِّية إلى لوحاتي، محتفظة بسرّ جاذبيّتها الكبرى لنفسي. طبعًا، لم أخبر أحدًا بقصصي، لأنّي لم أعتبر ذلك تعدِّيًا على مقدّس اسمه الجسد، بل إيقاظًا لسباته الذي دام قرونًا. واحتفظت بكلّ التفاصيل في مستودع الذاكرة لأعود إليها اليوم وأنا أحفر في جسد تحوَّل إلى معدن مشعّ من الألوان المتقاطعة، قبل أن يصبح رمادًا حاملاً معه، وإلى الأبد، أشواقه الصغيرة التي لم تندثر، وحنينه وذاكرته المتخفِّية، وأسراره الناعمة».

لم تكن زيارة يوبا لجدّه في مستشفى سياتل المركزي، في حيّ فرست هيل[١]، سنة قبل وفاته، إلا إيقاظًا مهذَّبًا لمدافن الخوف والحزن. بدا له وكأنَّه كان يبحث عن صوت أمّه المخفي في أحاديث بابا حسن، ويبحث عن وجه جدّه في خطوط لوحات مي. أشعرته العودة إلى ليتل-إيطالي بفراغ كبير، يحسّه للمرة الأولى منذ أن تفطّن إلى أنَّ الحياة لم تكن لعبة جميلة وسعادة مستمرّة، وأنَّ مي ذهبت، وأنَّ غيابها لم يكن كما تعوَّد عليه، مجرّد لحظة طارئة، وأنَّه سيذهب، كعادته، إلى مطار ج.ف. كندي لاستقبال قدومها من سان فرانسيسكو أو سياتل أو لوس أنجلس وهي في كامل إشراقها.

---

١ - First Hill (الهضبة الأولى).

رآها مرة أخرى في أقصى نصاعتها، تنزلق من إحدى اللوحات، وتنزل مدثّرة، تحيط بعنقها كوفيَّة شديدة الحمرة، ملفوفة في مانطو كشمير أسود كانت تحبّه لأنَّه يذكِّرها بأوّل خطوة لها في مدينة نيويورك:

«ـ ملعونة هذه الدنيا يا يوبا. نلتصق بالحياة متأخِّرين قبل أن تنسلّ من أجسادنا خيطًا خيطًا في غفلة كلّية منّا. نبحث عبثًا في عمّا يمكن أن يطفئ، أو على الأقل يهدّئ، من النار المشتعلة فينا. أحيانًا نجد الوسيلة وفي الأغلب الأعمّ علينا أن نتحمَّل حرائق الحياة لوحدنا. لا أحد يسمع إلى أصواتنا المختنقة وإلى جراحاتنا الغائرة. لقد أصبح العالم الذي يحطّ بنا خانقًا مثل الجدار البارد وصامتًا كصخرة ميتة. وهل نحتاج إلى الكثير من الضجيج ليدرك العالم أنَّ محرقتنا هي ضميره الميت؟ وأنَّها محرقة تتكرَّر باستمرار بدون أن يتأمَّلها العالم ويتدبّر شأنها، كي لا يسقط في العدميّة الهالكة التي بدأت تطلّ برأسها في كلّ الأمكنة».

كلّ شيء تغيَّر. أحدثت لمسة فرانشيسكو في المكان أثرًا مدهشًا. ودبّت الحياة من جديد في لوحات مي بعد أن صارت مواجهة للنور وللظلال الدافئة التي لا تدفن حركة التفاصيل. تساءل كيف لم يتمكَّن أبدًا من قراءة أشواق أمّه وألوانها بالشكل الكافي؟ هل كان يخاف من رائحة الموت؟ من الأشباح التي تنام كالسرّ المرعب بين حروف كرّاستها النيليَّة، مدوّنة الحداد؟ كلّما اقترب منها، قفزت أمامه مي بشعرها الطويل أوّل ما جاءت، ثمّ وهي منكسرة على سرير

الموت تحاول أن تقاوم مرضًا احتلّ كلّ بقعة في جسدها، وابتلع كلّ ملامحها حتى شعرها الحريري الجميل الذي تقول إنَّه يشبه شعر أمّها ميرا، تهاوى مثل الأنجم المحروقة.

كان البيانو آلة يتيمة.

فتح الكرّاسة النيليَّة لأوّل مرة، شمَّ رائحة الأحياء المقدسيَّة، وحرارة الخبّازين كما وصفتها له مي بدقّة وبكلّ تفاصيلها عندما كانت تخرج مع خالها غسّان ليلاً في شوارع القدس لتشتري خبزًا عربيًّا. أو عندما يعودان من سهرة من السهرات الليليَّة، عند أحد أصدقائه، أو من السينما أو المسرح. رأى الفراشات الجميلة تتسابق نحو نوّار حدائق حيّ المغاربة، وطيور أشجار القدس، تخرج من الكرّاسة الصغيرة وتفلت من عقال الورق الأصفر لتستقرّ على شرفات البيت العربيّ القديم حيث كل شيء اندثر ولم يبق ما يدل على أنَّ حياة زاخرة بالفرح والسعادة كانت تملأ المكان حفيفًا وشوقًا وحنينًا. ثمّ أغلقه بسرعة مخافة أن تستيقظ الأشباح الخفيَّة التي كانت تنام وراء كل هذه الألوان وهذه القصص.

تذكّر فجأة آلام صدرها التي تعاظمت عليها في ذلك المساء القاسي، فطلبت منه أن يبقى بجانبها للحظات، بالضبط عند رأسها، لأنَّها لم تكن تريد أن تذهب وحيدة مثل أمها ولا أحد يسمع صرخاتها الأخيرة وهي تنفصل بألم عن الحياة.

«ـ لا يا يمّا... لا تخافي، مجرّد آلام عابرة. أنا بجانبك. مجرّد نوبة لا أكثر، بسبب رفضك تناول المورفين.

ـ أرجوك لا تذكّرني به. صرت أكرهه بشدَّة. لا أريد المورفين، تعبت منه لأنَّه يغيبني عن الحياة، يقتلني بشكل مؤقّت. بقاؤك معي يريحني كثيراً. لا تخرج حتى أنام».

رآها وهي تطلب منه الجلوس عند رأسها، بالضبط كما تعوَّد أن يفعل. تحت الإنارة التي في السقف، رأى لأوّل مرّة كلّ ألوان الخريف ترتسم في بؤبؤي عينيها وبرد الشتاء الذي كان يطلّ بأنفه، فأدرك لماذا كانت أمّه تحمل الخريف بتشكّلاته المختلفة في أعماقها. شعر بها وهي تقبض على يديه بقوّة مخافة أن ينزلق منها وهي لم تشبع من الدنيا ومن الألوان ومنه. كانت الحرارة تصعد من كامل جسدها.

«ـ يوبا... اعذرني حبيبي. أنت تعرف أنَّ المرض فرصة لاختبار عواطف الآخرين نحونا. أشعر براحة كبيرة وأنت بجانبي. كأنَّ خيطَي الحياة والموت يلتقيان ليتحوَّلا في النهاية إلى نور جميل، يغلف كلّ مرئيّاتنا بغلاف خفيف يشبه الضباب الشفاف، ينزع عن الأشياء كلّ قبحها ولا يترك فيها إلا ما تتوق النفس إليه. أشعر براحة غريبة عندما أتوسَّد كفّك، أشمّ رائحة حضورك بجانبي.

ـ يا يمّا... أنا كذلك أجد لذّة كبيرة للاستماع إليك والبقاء معك. أحزن فقط لأنّي لم أعرف كيف أنَّ الدنيا قصيرة ويجب أن ننتبه لسرعتها، وكان عليَّ أن أشبع منك وأن أتشبَّث بك إلى أقصى الحدود.

ـ هو ما تفعله الآن...

ـ بعد إيه؟

ـ لا تهتمّ. الدنيا هكذا. المشكلة العويصة ليست في الموت ولكن في الشكل الذي يتّخذه. أنا كذلك كنت أقول ذلك عن والدي. ويبدو أنّ أقدارنا صُنعت بهذا الشكل حتى نظلّ في شوق دائم لمن نحب. ربما كنت أنا كذلك أُمًّا أنانيّة أريدك لي فقط ولهذه الأرض التي كبرت فيها، ونسيت أنّك رجل يستطيع أن يختار مساراته. لم أكن أريدك أن تهزم هويّتك بهويّات مليئة بالأشباح والحرائق والأشواق الدفينة، ولكن يبدو أنّ المشكلة أكثر من رغبتي البسيطة. اعذرني ربما كنت ساذجة ولكنّي كنت صادقة في إبعادك عن كلّ ما يهزّ يقينك بالمكان الذي منحك الحياة والحبّ والفنّ والحريّة ولم يحاسبك على حماقاتك الصغيرة.

ثم مدّت يدها المرتجفة وأخرجت الكرّاسة من تحت الوسادة.

ـ إذا قُدّر أن جرّني الموت نحو طاحونته، احتفظ بهذه الكرّاسة، فهي أعزّ ما لدي. أهمّ حتى من لوحاتي. اقرأها عندما تشعر بالحاجة لذلك وعندما تجد وقتًا كافيًا. لا تقرأها وفاءً لضمير ينغصّ عليك راحتك ولكن لرغبة لا تُقاوم فيك. فقد قلتُ فيها ما اشتهيت قوله بصدق. واعذر كلّ حماقاتي، فلم أفعل ذلك إلا من أجلك. كنتَ ألواني الجميلة ورهاني الكبير في الحياة بعدما تركني كوني. باستثناء ذلك، فقد منحته للحياة في شكل خسارات ضروريّة لربحك وربح حرّيّتي.

ـ يا يمّا أنت في القلب. تعرفين أنّك كلّ شيء في حياتي.

ـ أنت محظوظ يا يوبا أنَّك ولدت في مكان منحك الحياة والحريَّة على الرغم من الخيبات. الحياة بدون خيبات ستكون مسطّحة وبلا معنى. ينقصك شيء من الشرق لم أعرف كيف أمنحه لك. حرمتك منه لأنّي كنت أخاف عليك من أن تظلّ معلّقًا بين سماءين. أعطيتك بالقدر الذي لا يؤذيك. ما زلت شابًّا وقد تمنحك الأقدار شرقًا تشتهيه بقلبك وعقلك. شرقي أنا سآخذه معي. وَهْم لا حدود لجماله وسخائه وخيباته. ركض وراءه أجدادي أحيانًا بتعقُّل وفي أحيان أخرى بشكل أعمى، ولكنَّهم فعلوا ذلك حبًّا وهذا عذرهم الوحيد. ولم أر إلاّ بعض أطيافه الهاربة، عندما بدأت أمسك بها، جاء من يسرقها منّي بعنف.

ـ لا يا يمّا. الكرّاسة النيليَّة ستبقى معك. لن آخذها منك أبدًا، لأنَّك ستعيشين طويلاً. طويلاً أكثر ممّا تتصوَّرين. أضعها هنا تحت الوسادة مثل التميمة وستحرسك دائمًا مثل فراشات القدس، من كلّ مكروه. كلَّما احتجت لها أخرجيها واكتبي ما تشتهين كتابته. أعرف أنَّها بالنسبة لك، هي كل ما تبقّى لك من أشيائك الجميلة التي سُرقت منك. لا تهتمّي، خلّيها بجانبك فهي صوتك الذي يناديك دائمًا، وأرضك الجميلة التي تأوين إليها كلَّما ضاقت عليك سبل الدنيا...

ـ من علَّمك كل هذا الكلام الذي يملأ القلب نورًا؟ من أين جاءتك كلّ هذه الأناقة؟ كلامك لا يشبه كلام كلّ الناس. جميل مثل الموسيقى التي في عمقك، ولكنّ الموت يا يوبا لا يمزح مطلقًا. بدأت أراه، وأتآلف معه بسرعة. أتمنّى فقط أن يكون الخلاص بأقلّ الآلام

الجسديَّة. الموت، عندما يأتي يعلن عن نفسه بشتّى الأشكال، حتى برائحته التي تشبه إلى حدّ بعيد رائحة الضباع. أشعر به فيَّ، هنا بالضبط على حوافّ الصدر. الموت أيضًا مثل الجنين الحيّ، يتحرَّك ولكنَّه على الخلاف منه، لا يشرب من أمه شيئًا ولكنّه يأكلها.

ـ أزمة وتمرّ يا يمّا.

ـ ما أحلاك عندما تناديني يمّا. خسرت أمّي مبكرًا ولم أشبع من وجه أبي. وما أرقّك عندما تناديني مي، أشعر بنفسي أقرب إليك من أمّ، صديقة حميمة. لو تدري يا يوبا كم تساوي الآن هذه الكلمات لعذرت دهشتي، ولكنَّك لا يمكنك أن تعلم، أمامك امرأة ربحت كلّ شيء إلا شرقها الذي سعت إليه والغرب الذي حلمت به، ولكنَّها، مع ذلك، ربحت قدرًا كبيرًا من الحريَّة لن تندم عليه أبدًا.

ـ يا يمّا، أريدك أن تكتبي كلّ هذا في كرّاستك النيليَّة التي كان يُفترض، كما كنت تقولين دائمًا، أن تمتلئ بجداول الحسابات الصغيرة وعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة والأبجديات والحروف الصغيرة التي تتجمَّع كذرّات الغبار، ليُصنع منها شيء جميل تفاخرين به أمام حماقات يوسف ورسوماته الغريبة، ولكنّ ذلك لم يحدث. لم تحملي معك شيئًا سوى الدمعة الأخيرة لجينا التي وقفت مشدوهة وهي تسمع خبر اغتيال أمّك من فم خالك الكبير، ثم وهي تقرأه في الجريدة وتخبّئه عنك، ثم وهي تقف وجهًا لوجه مع خالك الكبير بلا أسئلة ولا أجوبة، الذي هرب بك بعيدًا من الموت والنار والخراب الذي كان يأكل الأخضر واليابس، في فلسطين، بشكل غير

مسبوق، وبقي كلّ شيء عالقًا بصدر جينا، كاتمة غصّة سرقتها بعد أقلّ من سنة كما قلتِ لي.

ـ يوه... يا يوبا... أنت توقظ فيّ شيئًا حزينًا يجرِّدني من كلّ أسلحتي. طفولتي لم تُقتل يوم مقتل أمّي التي كنت أحبّها بجنون، ولكن يوم عرفت الحقيقة وأنا في نيويورك. أمّي، بالنسبة لي، كانت حيَّة وظللت أنتظر أن تلتحق بنا لأنَّها كانت كلّ شيء بالنسبة لي. كانت مقياسي في كلّ شيء. لم أذكر يومًا أنَّ والدي احتضنني كلَّما اشتهيت ذلك، ولكنَّها كانت الصدر الدافئ دومًا. كذبوا عليّ وأقنعوني بأنِّي طفلة شجاعة وأنَّ خروجي من نار القدس سينقذ والدي من مخاطر الهاچاناه. لم يكونوا في حاجة لإقناعي فقد اقتنعت وحدي بسرعة. والدي كان يستحقّ أن أحميه من الموت. سألت عن أمّي، قالوا ستلتحق بنا مباشرة بعد الولادة. لم أدخل في التفاصيل، فحياة والدي كانت هي الأساس وحياة أمّي وأخي الذي كان في بطنها كانت شغلي الشاغل. كانت الكوابيس تتكاثر وتخيفني. يحدث معي أن أبيت في حجر طانت جينا التي كانت لا تنام إلاّ إذا سمعت بيتهوفن أو رسمت شيئًا عن القدس وأسواقها ووجوه ناسها. حتى أنَّ حاكم القدس السير رونالد ستورس، في بداية الانتداب، ألحَّ عليها على فتح كونسرفتوار أو دار للفنون في إطار حملته للحفاظ على وجه القدس العتيق، وضمن لها مساعدة جمعيَّة محبّي القدس Pro-Jerusalem Society التي كانت عضوة فيها، ولكنَّها رفضت وفضّلت على ذلك كلّه، مدرسة فنيَّة صغيرة، في عمق الحيّ المسيحيّ، تستقبل فيها المسلمين واليهود والمسيحيين».

كـان الـليل في منتـصـفـه عنـدمـا دقّت الـسـاعـة الحـائطيّـة في المستشفى آخر دقيقة في اليوم. تذكّر أنّها طلبت منه أن يرتاح قليلاً ويتحرَّك ولا يبقى جامداً عند رأسها. وعندما رفض أن يترك كفّها حتى تنام، طلبت منه أن ينقص من الضوء إلى أقصى حدّ ممكن. ثمّ تنهّدت عميقًا وأغمضت عينيها. بعدها صمت كلّ شيء: الذاكرة، الماضي وحرائق الجسد. كانت مثل صبيّ صغير، هادئة ولم يكن يبدو عليها أيّ انزعاج. تمتمت وكأنّها كانت تجيب عن سؤال لم يطرحه أحد عليها:

ـ لا توصية لديّ حبيبي إلا راحتك.

ـ نامي يا يمّا، نامي. ما زلت هنا، ولن أذهب.

ـ . . . أنا لم أعد هنا كليًّا. النوم يثقل كلّ شيء فيّ. جزء من جسدي مات وأشعر بتلك الموجة الباردة تصعد بسرعة نحو الصدر. أثقلت عليك بالأحاديث الفارغة، اعذرني أرجوك . . .

ـ لا يا يمّا. أمامك لم أكبر إلا قليلاً. كلامك يقلّل من ضلالي. أشتهي دائماً أن أسمعك وأنام على صدرك مثلما كنت صغيراً.

ـ لقد كبرتَ بسرعة يا يوبا. بسرعة بحيث إنّك أصبحت شخصيّة مهمّة في نيويورك بدون أن أنتبه لذلك. المثل الفرنسيّ يقول: من يركض وراء أرنبين في وقت واحد يخسر الإثنين معًا. أنت هويّة نفسك. يمكنك أن تجعل منها دنيا من الرخاء ويمكنك أن تجعل منها جحيمًا فتّاكًا. فيك من أجدادك الأوائل الذين ملأوا الدنيا نوراً

وحياة. جدّك من أمّك جاء من أسبانيا، رجل قطع البحار هربًا من محاكم التفتيش المقدّس في القرن السابع عشر. لم يمهلوه حتى أن يأخذ معه كتبه وأوراقه وترابه وحدائقه. اكتفى بفرع الياسمين فقط. جدّك من أمّ كوني، بحّار إيطالي أو قرصان، لا أدري وليس مهمًّا، أبوك لم يكن يعير ذلك اهتمامًا كبيراً، قرصان أو ملك بحار، لا شيء كان يهمه، المهمّ هي حياته. كان يسرق أموال الأغنياء ويرحل بها حتى طوسكانيا[1] وجنوة[2] ويوزّعها على المعوزين. استقرّ في باليرمو[3]، هربًا من الأتراك. قطع دنيا البحر طولاً وعرضًا قبل أن يلقي القراصنة القبض عليه وهو في طريقه إلى جزيرة كريت. ثم بيع في سوق النخاسة، وبعدها لم يسمع أحد بخبره. قيل إنَّه هرب مرّة أخرى وعاد إلى مهنته. ثم فيك من دمي المختلط بألوان الرسم وفراشات القدس، وفيك من حبيبي كوني، والدك، المختلط بتربة الأرض العربيَّة المحروقة والبحر الميت.

ـ سعيد يا أمّي بذلك كلّه، على الرغم من أنَّه حمل ثقيل في هذا الزمن، ولكن يجب أن ترتاحي الآن...

ـ أنا مرتاحة. حتى وزني أشعر به قد خفّ كثيراً... تستطيع يا يوبا أن تلملم كلّ هذا الشتات وتجعل منه إمّا طوقًا من الياسمين أو حبلاً تخنق به انطلاقك وحبّك للدنيا؟ لقد حسمت أشياء كثيرة كي لا أنكسر. وعشت حياتي مثل جدّي دون كيخوته، أحارب طواحين

---

١ ـ Toscane
٢ ـ Genova
٣ ـ Palerme

الهواء التي أنبتوها في داخلي وكسرت بعضها، ولكنَّ الكثير منها ما يزال واقفًا بيني وبين الحياة. أفلحت أحيانًا، وفي أحيان أخرى خسرت كل ّرهاناتي، فعوّضتها برهان لا يموت هو رهان اللون والتشكيل.

ـ يا يمّا... أنت تعرفين أنَّنا نعيش في عالم لم يعد يحفل كثيراً بآلامنا وآلام الآخرين، ولهذا علينا أن نجد مسالكنا في النهاية لوحدنا. نمشي، تنكسر، نقوم ثانية ولا تستسلم لفيضانات اليأس التي تجتاحنا. وحياتك ممتلئة بالألم الذي أنجب فيك أجمل الأشياء التي يحلم بها أيّ إنسان.

كانت الآلام قد بدأتها. طلبت دواء بعينين مغمضتين. شربته ثم أسبلت جفنيها مثلما كانت تفعل وهي في حجر أمّها ميرا.

ـ تصوّر... لقد بدأت أحسّ بيدي ميرا الناعمتين وهما تعبران كالنسمة الدافئة وجهي. صار من الصعب عليّ فتح عينيّ لرؤيتك.

ـ نامي. نامي يا يمّا، غدا سيكون يومًا آخر، مشمسًا وجميلاً.

ـ غطّني، أريد أن أرتاح قليلاً. مدّ رجليك بجانبي وضع رأسك على صدري، أريد أن أفلّي شعرك قبل أن أنام نهائيًّا».

يتذكّر جيِّداً أنَّه يومها عندما نامت وانسلّ من فراشها، ووقف بمحاذاة النافذة، كانت الأمطار عاصفة، وسيولها تصفع زجاج النافذة بعنف شديد. يتذكّر أيضًا أنَّها نامت طويلاً وكأنَّها كانت بحاجة ماسّة إلى ذلك لكي ترى، في حلم منتظم وحيّ، القدس وأمّها وجدّها وخالها غسّان الذي بكته مثلما تبكي عشيقةٌ حبيبَها.

شعرت أنَّهـا ضيّعت أهمّ ما كان يجـمعهـا بالمدينة، مفـتاح العودة الوحيد والمتبقّي.

الرياح التي كـانت قـد كنست المدينة بلا توقّف منذ يـومين، هدأت للحظة ولكنَّها سرعان ما عادت بعنف أشدّ مصحوبة بالأمطار والثلوج. بدا لـه ذلك واضحًا من الحديقة التي كانت أشجارها تهتزّ بعنف كأنَّها كانت تُنتزع من جذورها. ويتـذكَّر جيِّدًا أنَّه عندما التفت نحو الزاوية الخلفيَّة من الحجرة حيث كانت ترسم، رأى لوحتها الأخيرة **نيـويورك، هسـهسـة الأوراق الميـتة**، التي ارتـسـمت عليـهـا كلّ ألوان نيويورك المنسحبة نحو فراغ ملأته الصفرة الباهتة والبياض الهارب نحو هوّات بلا لون. رأى مي بقامـتـهـا المديدة وهي منكفئـة ترسم بأناقـة. نحفت كثيراً، ولكنّ عاداتها وحركة ريشاتها لـم تتغيَّر إلا قليلاً. كانت كلَّما قامت من فراشها، تـتأنَّق وتتجمَّل وتورّد وجهها قبل أن تخرج إلى السـاحـة في الأوقات المشرقة، تشعل سيجارتها، تأخذ الفرشاة وترمي بأيّ نقطة وبأيّ لون على البـيـاض. تضـحـك منه وهو يتـأمَّل حركاتها مثل الطفل الذي يكشف فجأة سرّ أمّه المخفّي: «هل تريدني أن أبدو كالعجوز التي لا تستطيع أن تقف على رجليها، بوجه أصفر وبظهـر منكسر؟ لا. اللون يحتـاج إلى غوايات لكي يمنحنا أسـراره. **نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة** يجب أن تكون أجمل لمسة أخيرة في حياتي وأحلاها، وستكون هي واجهة معرض نيوجيرسي. لن أغيِّر الحيـاة ولكنِّي أستطيع أن أمنح بعض السـعـادة للعـيـون التي ترتاح لألواني».

لا يعلم من أين جاءها ذلك القدر من الاندفاع نحو الذاكرة وهي تستعيد تفاصيل ذلك اليوم الخريفي الذي ملأها عن آخرها، لتنشئ من أصدائه لوحتها الأخيرة. يختلط اللون الأصفر بالأحمر الذابل، على أرضيَّة يغلب عليها الأزرق الرمادي. شكل يقترب من بحر فارغ، لا تكسر عزلته إلا البياضات الهاربة لموجات صغيرة تكاد لا تُرى، كانت تتكسَّر على أطرافه. تخرج من عمقه ظلال تمثال الحريَّة ومعابر إليس آيلند الحديديَّة الباردة، وهي تستقبل أشباحًا تبحث عن أمكنتها في نيويورك. الضباب الكثيف الصاعد من الحواف الإسمنتيَّة العديدة، في خلفيَّة اللوحة، والميناء الثقيل، لم يمنعا الشمس من أن تظل مشرقة وتعكس إشعاعاتها على الرافعات القديمة. ربما كان الإشراق الوحيد في اللوحة. لم تنس مي يومها أن تخلط لونها الذي اكتشفته: فراشات القدس ببقيَّة الألوان الأخرى. لمستها التي تعطي الحياة لبقيَّة التفاصيل.

«ـ أرأيت؟ عاجزة عن التخلُّص من فراشات القدس حتى وأنا أودِّع هذه الدنيا... شيء فيَّ يرفض أن يسلِّم أمره وسلاحه الآن، ولكنَّها الدنيا...

ـ يا يمّا... أنت حيَّة وجميلة ومشرقة... لا يمكنك أن تذكري الموت بهذه السهولة المفرطة.

ـ لست أنا من يذكر الموت، فهو أبشع حليف للحياة ولد مع الإنسان، ولكنَّه هو يعرِّف بنفسه كلَّما تمادينا في نسيانه».

يتذكَّر يوبا أنَّه ليلتها عندما انسلّ من فراشها كالظلّ، وضع بهدوء كرّاستها النيليَّة تحت وسادتها. أنيسها الدائم. لم يكلِّف نفسه حتى فتحها. خاف وهو يرى حروفها الصغيرة المتداخلة، تتراقص كأسراب النمل، لتدخل في عمق رأسه في خطّ مستقيم.

كانت مي نائمة فقط وخاف أن يعني فتح الكرّاسة أنَّ الموت أصبح يقف على حافّة عتبة سريرها، في المستشفى.

«ـ أدركت يومها أنَّ الموت لم يكن على العتبة، ولكنَّه كان في فراشها، يحسدها في لحظة دفئها الأخيرة».

تمتم يوبا وهو يتلمَّس الكرّاسة النيليَّة، مدوّنة الحداد، برؤوس أصابعه المرتعشة كأيّ جسم هشّ.

مسح دمعة جارحة ارتسمت في عينيه. كانت حادّة مثل حجرة بلّور مسنّنة، قُطِعت بشكل سيِّئ. ماذا فعلتِ يا مي؟ ماذا فعلتِ بحياتك يا يمّا؟ تمتم يوبا بحزن. ثم أغمض عينيه وفمه وقلبه وذاكرته المنهكة، لكي لا يرى ولا يسمع إلاّ هدير الألوان الذي كان يندفع من الأعماق في شكل إيقاعات لا حدود لها.

* * *

- ٦ -

عندما تدحرج نحو النافذة، لم ير إلا مدينة منغمسة في شأنها اليومي، ونوراً ينكسر من حين لآخر على بياض الثلج الذي بدأ يرتسم على الأرض بكثافة. بدت له مي قريبة وهي تركض في شارع إليزابيث المحاذي للبناية، بلباسها الأسود وشالها الإسباني العريض وهي تحاول أن تتفادى الرياح التي تواجهها مباشرة، قبل أن يسمع همسها في الأنترفون: يوبا... أنا يمّا... بدون أن تقول اسمها وكأنَّ أحداً يتصيَّد صوتها. ثم خطوها المتسارع ونقرات حذائها ذي الكعب المتوسّط الذي يتردَّد مضخَّمًا في البهو، ثم دقّها الناعم على الباب. وكلماتها المعهودة: يوبا... أنا مي... افتح يمّا...

شعر بمرارة على لسانه. ضمّ الكرّاسة النيليَّة، شعر كأنَّه يضمّ مي. سمع صوتها صافيًا وحزينًا ومنكسراً:

«ـ شايف يا يوبا الدنيا. ماذا عسى الإنسان أن يفعل؟ نعلو... نعلو... ثم نعلو أكثر ولكنّنا عندما نصطدم في الأخير بفراغات السماء، نعود ثانية من حيث انطلقنا، نحو الأرض والتربة. نتساقط حبّات رماد متتالية وكأنّ النار التي أحرقتنا في الأعالي لم تتح للدود فرصة لكي ينخر أجسادنا. في النهاية لسنا أكثر من أوراق خريفيّة تعبث بها الأقدار الصعبة. حتى أكثرنا مقاومة ليس في النهاية إلا ورقة ترفض التنصُّل من شجرتها. ولكن إلى متى؟ هذه هي مشكلة الإنسان مع شرطه، إذ يأتي زمن وتعصف الرياح المحمّلة بغبار الدنيا بالورقة، وترميها حيث تشتهي».

قبل زمن مرت من هنا. تمتم يوبا وهو يشدّ الكرّاسة إلى صدره ليقي نفسه من برد شعر به يصعد من قدميه. هنا بالضبط في منتصف الشرفة المغلقة، حيث القنديل السحري والطاولة القديمة والشجيرات القزمة الداخليّة التي تتسلّق الأسلاك والشبابيك، والورود الصفراء التي كانت تشتهيها. تشرب قهوتها العربيّة التي طلبتها لحظة أن وصلت:

ـ لا تسألني ماذا أريد. قهوة عربيّة مثلما تعلّمتها منّي.

ثم تفرك يديها وكأنّ الدنيا كلّها صارت ملكًا لها.

لا شيء الآن إلا الصمت وهذه الستائر الثقيلة التي عندما تُسحب، ينطفئ النور وتغيب المدينة ولا يبقى إلا هذا الداخل الحزين.

كلّ شيء كان يمرّ بسرعة في عيني يوبا وهو باهت أمام الكرّاسة النيليّة الصغيرة. يضمّها كمن يخاف عليها من التلاشي.

يتذكّر جيِّداً أنَّ شهر أيلول كان شهرها وموسيقاها ولونها وشعرها. عندما انكسرت مي نهائيًّا، كان في نهاياته قبل أن تلحق به الشهور الأخرى التي كانت تسمِّيها مي: الشهور الميتة. المرض والحرقة وإغفاءة الموت، حوّلت جسد مي النحيف إلى ورقة. لا قوّة تستطيع أن تمنع المدينة المجنونة من ممارسة طقوسها المتكرِّرة، ولا الأشجار من رقصاتها الأخيرة قبل أن تتعرّى نهائيًّا وتستعدّ لتحمُّل الشتاءات الباردة وتغيير جلدها، ولا البحر من التنصُّل عن أمواجه المجنونة والاندفان في لعبة الهيجان بعنف لا يُحدّ. أيلول عندما ينتهي، تنكّس النفوس راياتها وتتوغّل عميقًا في صمتها وقلقها. «حلول الشتاء ليس شيئًا جميلاً في نيويورك. تقول مي. موت مبكّر قبل الأوان. في نيويورك دائمًا شيء يستحقّ أن نعيش من أجله، ولكن بعد فصل الموت».

شيء واحد ظلّ ثابتًا في أعماق مي، يتحرَّك في نظامه الأبدي الذي لا يستكين. كلَّما انتابتها نوبات الألم واليأس وهاج حنينها، اختارت حوافّ بحيرة هودسون الواسعة والمدهشة وقد غطّتها أوراق الأشجار الصفراء التي تتكدَّس وتصفرّ حتى تصبح كتلة ملساء تشتهي الأرجل أن تركض عليها بخفّة النوارس، التي قلَّما تترك خطواتها الناعمة ملمحًا أو أثرًا على السطح. كانت تقف على هذه الأطراف مع خالتها دنيا أو مامي، كما كانت تسمّيها. تبقيان على جسر بروكلين الجميل لحظات طويلة، قبل أن تنتهي بهما الجولة في المساء إلى الاستلقاء على أعشاب الأطراف، وتأمُّل السماء. كانت هذه الفسحة تخفّف آلام الوحدة والأحزان وشطط الخيبات المتتالية. كانت مامي كل شيء في حياة مي، وهي التي أنستها فقدان ميرا القاسي الذي ظلَّ

عالقًا في حياتها، يسدّ أمامها كل مسالك الدنيا. حتى خالها الكبير والصغير وجينا ويوسف... و... أكلتهم المحرقة القاسية، كلّ واحد بشكل. الخال الكبير قُتل خطأ؟ بتهمة التعامل مع الإنجليز بسبب مهنة مسح الأراضي المشؤومة التي كانت تجبره على التعامل مع الطيّب والخبيث. الأخبار الشحيحة التي وصلت عن يوسف أنّه جُنَّ وانتحر؟ وسمعت من الكثيرين، أنَّ خالها غسان هرب إلى الأردن والتحق، بعد سنوات، بمنظمة سبتمبر الأسود. لم تعرف مامي بذلك إلا عندما سمعت باسمه من ضمن قائمة الذين خطّطوا لعملية تحويل إحدى طائرات العال الإسرائيليَّة، في السبعينات، وتفجيرها بعد إخلائها. قيل لها إنَّ الشرطة الأردنيَّة اعتبرت غسّان الرأس المدبّر بعد أن عثروا معه على وثائق كثيرة تدينه. بكت يومها كثيرًا وبدأت فكرة الذهاب والإقامة في الأردن تملأ قلبها لكي تكون قريبة من غسّان إلى أن سمعت بخبر اغتياله. لا أحد يعرف الظروف الغامضة التي أحاطت بهذا الاغتيال. بعض الأخبار قالت إنَّه اغتيل في السجن بعد محاولة الهرب مع مجموعة من رفاقه. بعضها الآخر أكّد أنَّه تمَّ تسليمه، في صفقة تبادل أسرى، بين الأردن وإسرائيل وهناك مات تحت التعذيب. وأخبار غير مؤسسة تقول إنَّه قتل مع مجموعة كانت برفقته في مداهمة بيتيَّة قامت بها القوات الأمنيَّة الأردنيَّة، مدعّمة بالمخابرات الإسرائيليَّة. كلّ الأخبار أجمعت على اغتياله ولا أحد يعرف، إلى اليوم، قبره. لكن مامي كانت دائمًا امرأة حالمة ولم تستسلم للأقدار الصعبة:

ـ هذا ما يقوله الناس فقط. ربّما ما يزال حيًّا في عمّان، وهو مسجون فقط. يكفيني فقدان أخي أبو شادي بحماقة من قاسموه

الخبز والجوع والآلام. مسح الأراضي كان عملاً ولم يكن تهمة. ليس هو من باع الأراضي لليهود؟ ربّانا والدي على تقديس التراب الذي نمشي عليه، كان يقول دائمًا: هذا التراب، حياة البشريَّة عندما يتوقَّف جشعها الصناعيّ، وهذا مآلنا جميعًا. هم من باع الأرض والعرض، ثم التفتوا نحو خالي ليسكتوه. أبناء الكلبة كلّهم استفادوا منه عندما قسموا أراضيهم ليتوزَّعوها فيما بينهم ويبيعوها سرّيًّا للوكالة اليهوديَّة والمرابين الإنجليز، وبعدها قتلوه. أيَّة ثورة هذه، تنتحر بغباء وهي لا تدري؟ وأيّ حقّ يُقتل فيه المدافع عن الحقّ؟ يا اللّه... يمكن من هناك، من عمان، يفرجها علينا اللّه، ندخل للقدس ونعود إلى بيتنا القديم. اليهود لم يأخذوا كلّ المدينة. يقولون إنَّهم يعدّون العدّة لمسح حارة المغاربة لتوسيع حارة اليهود، ولكنَّهم إلى اليوم لم يستطيعوا فعل ذلك بسبب مقاومة السكان؟ وما تزال الحياة ممكنة.

لكن عندما جاء من يؤكّد لها خبر الاغتيال، اسودّ وجهها. بكت ثم خرجت عند الباب وكان المطر خيطًا من السماء. بدأت تعوي مثل الذئب وكأنَّها في خلاء موحش. لم يستطع أحد أن يرجعها إلى البيت إلا عندما خفتت نوبتها واستقرَّت آلامها. منذ ذلك اليوم، كلَّما انتابتها أحزان إخوتها، عوت كالذئبة ولا تقول أيَّة كلمة، وتحتاج إلى يوم بكامله لكي تعود إلى الكلام بعد تناول الأقراص المهدّئة التي زاد عددها وتنوّعت ألوانها.

الهدوء يلفّ البيت ولا شيء إلاّ صوت مي الذي يذهب ويجيء مثل الموجات التي تدحرجها نسائم الهودسون التي يكاد هسيسها لا

يسمع. مرّة أخرى انتابته مي بألقها الدائم، حتى في حالة مرضها. يتناهى صوتها إلى مسمعه خفيفًا كالحفيف، وهادئًا كشعاع فجري يتسلّق نبتات الشرفة المطلّة على شوارع نيويورك وضجيج مانهاتن.

في ذلك اليوم البارد، عندما استيقظت من غفوتها التي بدأت تطول وتقصر بحسب درجة الألم، بعد تخلّيها طواعية عن المورفين، كانت ممتلئة بالحياة.

«ـ يوبا... منذ أن دخلت إلى هذا المستشفى وأنا أشعر كأنَّ الحياة سُرقت منّي دفعة واحدة. أريد شيئًا يحسّسني بأنَّ الموت ما يزال بعيداً وأنَّ ما يحدث لي ليس إلا حالة طارئة. أريد أن أسمعك. أن أرى أصابعك وهي تتحرَّك ذهابًا وإيابًا على البيانو. أن أرى عينيك وهما تبحثان عن النوتة المفقودة وهي ترتفع إلى السماء بحثًا عن النور. أريد أن أملأ عيني بك. أشعر يا يوبا كأنَّه خريفي الأخير على الأبواب.

ـ هذه ليست مي التي أعرفها، متعلِّقة بالحياة إلى آخر قطرة. مي التي صُنعت من الشجر وقصب الوديان وُعجنت بنور الشمس وحفيف الفراشات القدسيَّة. امرأة لا تلين لوعكة صحيَّة عابرة.

ـ هل أنت على يقين بما تقوله أم تكرّر عليّ ما عشته أنا نفسه مع والدي، عندما زرته في مستشفى سياتل المركزي، في فرست هيل First Hill؟ كذبت عليه حفاظًا على ما تبقّى من صحّته، لأنِّي شعرت أنَّ ما كان يحمله في داخله، كان أقسى مما كان ينهشني. لا أحد يحسّ بخيط الحياة وهو ينسلّ من الجسد إلا الذي يعيشه.

ـ يا يمّا أعرف أنَّك تحبّين الحياة بشغف. لا تستطيعين التشاؤم حتى ولو أردت ذلك، رؤوس أصابعك المليئة بالألوان تفضحك. لا يوجد ما يثير كلّ هذا القلق يا يمّا. الكثير من الناس مرُّوا على هذه الحالة ومع ذلك استمرُّوا مدة طويلة، أكثر حتى من الذين كانوا يبدون في الأول أنَّهم يتمتّعون بصحّة جيدة.

يوبا، كان يعرف جيِّداً أنَّه كان يكذب على أمّه، وربّما على نفسه أكثر. وأنَّ النهايات الزاحفة بلا رحمة، كانت كلّ يوم تزداد ارتساماً على وجه مي، وأنَّ الطبيب لم يكن مخطئاً أبداً في توصيفاته، بعد أن قرأ التحاليل التي أكَّدت كلُّها على خطورة الوضع. التصاقها بالسرير وعدم قدرتها على المشي بسهولة، لم يكونا علامة مريحة أبداً. كلّ شيء كان يبيِّن أنَّ الموت أصبح فيها ولم يعد خارجها.

ـ لماذا صَمَتَّ يا يوبا؟ أنا أفهمك يا روحي. أنا بالفعل أحبّ الحياة. لا تقلق عليَّ، سأعرف كيف أخادع الموت في الوقت المناسب.

ـ أفكِّر فيك يا يمّا، وأشتاق أن أراك تجلسين في الشرفة وأنت تشربين القهوة العربيَّة التي تذكّرك بأجدادك ومدينتك.

ـ لا تخف عليّ. لو فقط تعود الحياة مرّة أخرى كما كانت، سأركض بلا توقّف نحو بحيرة هودسون، من الصباح حتى غروب الشمس، وكلّما جُنّ المساء أضعك أمامي وأقضي الليل كلّه في تأمّلك لكي أشبع من وجهك. لو تعود الدنيا، لن أفعل شيئاً آخر سوى التمتّع بعدّ النجوم والاستحمام كلّ ليلة في ألقها. لو تعود الدنيا مرّة أخرى، لن أفعل شيئاً آخر سوى الركض وراءها حتى أقبض عليها وهي في

أقاصي بهائها. لو تعود الدنيا كما اشتهيتها دائمًا، سأقف فقط كلّ يوم أمام وجه من أحبّ وأقرأ التفاصيل وأنام في كلّ ما هو جميل ومدهش فيها. ضيّعت الكثير. لم أشبع من وجه أمّي التي سُرقت من بين يدي وأنا ما زلت مشتاقة إلى يدها تضعها على رأسي لأتمكّن من النوم. إلى اليوم، عليَّ أن أتخيَّلها تفلّي شعري لكي أستطيع أن أغمض عيني. لم أشبع من وجه بابا حسن الذي رحل بدون أن يسألني عن مرضي.

ـ اللّه يرحمه يا يمّا. عاش حزينًا ومنكسرًا ولكنّه ظلّ يحبّك حتى النهاية. وكان رهانه أن تحبّيه بالدرجة نفسها، وربما باللغة الصامتة نفسها.

ـ ربما... أتساءل أحيانًا كيف قاوم حتى هذا الوقت؟ ظللت في حاجة دائمة لمامي التي سلّمتني كلّ شيء أكثر من حاجتي إلى والد أحسّ دائمًا بأنّه أجرم في حقّي، ربما من حيث لا يدري. تخيَّل... خالتي دنيا، مامي، لم تطلب من الحياة أيّ شيء سوى أن تموت في حضني. الشيء الوحيد الذي استطعت أن أمنحه لها. لكنّها عندما ذهبتْ، قاومتُ باستماتة لكي لا أموت بعدها بسرعة، لأنّي وجدت نفسي وكأنّي في غابة مخيفة. في المساء نفسه، شعرت بالفراغ يأسرني من كلّ جهة وافتقدت أيّ معنى للحياة والاستمرار.

ـ ولكنّك يا يمّا تملكين أقوى أداة للحياة، الفنّ. القدرة على اللعب بالألوان على خلق حياة موازية، جميلة ومثيرة للدهشة.

ـ لولا سحر الألوان لذهب كلّ شيء مع الريح. تخيَّل أن يذهب دفعة واحدة كلّ الذين تحبّهم. كوني الذي ركض وراء جنونه ولم يطلب من الحياة شيئًا آخر غير ذلك، مامي التي انسحبت وهي تدفن

رأسها في صدري وتطلب منّي أن لا أنساها وأن أزورها مرّة واحدة في الأسبوع وأضع على قبرها وردة بيضاء. منذ سنوات وأنا أداوم على ذلك. مرّة واحدة انشغلت عنها، جاءتني في الليلة نفسها، في حلم شاق لم أر مثله أبداً. لم يكن وجهها كما تعوَّدته، كان ضبابًا وفراغًا. جريت وراءها، وعندما وصلت إليها وقبضت على إزارها الأبيض، غرقت ذراعي بكل طولها وكأنَّها تغوص في عمق الضباب. لم تكلِّمني على الرغم من صرخاتي المتوالية وبكائي: مامي... مامي... أرجوك كلّميني... في الصباح بكّرت ووضعت الوردة البيضاء على قبرها. عادت لي في الليلة الموالية كما كانت، بكلّ إشراقها وحبّها. قد يبدو لك كلامي سخيفًا ومعطّلاً ولكنَّني أقول لك ما أشعر به الآن. لا مكان للعقل فيما أقوله. الموت، يا يوبا قد نرفضه ونكرهه، لكنَّه عندما يأتي لا يسألنا عن رأينا.

ـ يمّا... عوَّدتني على أن نشدّ بأسناننا على الحياة لأنَّها لا تُمنح إلا مرّة واحدة في العمر، فلماذا إذن غيَّرتِ رأيك الآن وتركت اليأس يستلُّ آخر بريق في عمق عينيك؟ أنت تعرفين، أحسن منّي، أنَّنا، بشدّة إصرارنا، نستطيع أن نخرج من المحن الأكثر يأسًا.

ـ ياه... ألم أقل لك يا يوبا إن كلمة يمّا تأسرني عندما تأتي منك بعفويَّة الرضيع. الأمومة حظّ استثنائي وليس في مقدور كلّ النساء ممارستها. حبيبي، هل نظلّ نتسلَّى بالكذب؟ لقد التهم السرطان جزءاً من رئتي ثم أكل الرئة بكاملها، وقد مسّ الجزء الثاني من الرئة السليمة، فهو يجد أمام الأجسام الرخوة متعته الكبرى. يزيد عماه وتتكاثف

شـهـوتـه في امـتـصـاص روح الأشـيـاء. أنـت تعـرف جـيِّـداً أنِّي قـاومت، وليست الإرادة هي التي تنقصني ولكن الجسد هو الذي خانني وكان يفترض أن يمنحني فرصة، كما منحها للآخرين ولكنَّه لم يفعل. شغله. يسـوّي يا اللي بدو إياه. لست غـاضـبـة من الموت لأنَّـه حـسم حـيـاتي بشكل قاتل، ولكنِّي قلقة لأنَّه عطّلني عن جنون الألوان وأجبرني على أن أترك ورائي الكثير من أشيائي مبتورة ومفتوحة على ملايين الأسئلة، ولن أجد يداً أخرى غير يدي، تعوّضني. هذه هي المأساة يا يوبا. مأساة الفنان هي أنَّ لا أحد يستطيع تعويضه ليُتمّ جهده.

ـ أنـت في كـامـل بهـائك. انتـهـيت من لـوحـتك: **نيـويورك، هسهسة الأوراق الميتة**. رأيتُ كيف انغمستِ في الألوان حتى أنِّي لم أعد أراك إلاّ شعاعاً صغيراً في زاوية من زوايا المستشفى وأنت تصوغين عـالمك الجـمـيـل الذي لا يموت أبداً. أهناك إنجاز أعظم من هـذا؟ لقـد منحت هذه اللوحة كلّ روحك وأشواقك وانشغالاتك التي لا تحدّ. قد نفرض على الموت، الذي يترصَّد عادة كلّ خطواتنا، شروطنا للحياة الأخرى، تلك التي نشتهيها.

ـ أنا الآن إذن أشتهي أن أراك من وراء البيانو وأنت تشيد عالمك السيـمفـوني الجديد بـدل بقائك قـابعاً هنا طوال النهار، تتـأمَّل هذه الروح التي ترفض أن تغـادر الجـسـد. أتمنَّى أن أراك وأنـت تحـقِّق مشروعك الكبير عن أجدادك الأندلسيّين الذين انتُزِعوا من تربتهم. عليك فقط حبيبي أن تتعلَّم كيف تسبق الموت، لأنَّه عندما يأتي، لن يمنحك ثانية واحدة لتوديع من تحبّ. أجدادك يستحقّون أن ننتبه لهم

وأن نعيرهم كلّ محبَّتنا. إذا استطعت أن تجعلهم يتكلّمون وينفجرون ستكون قد نجحت حيث فشلت أنا وفشلوا هم كذلك. لقد حاولت، قدر المستطاع، أن أبعدك عن شبح الأجداد، لأنّي كنت أظنّ أنّه يمكنني أن أخون تاريخًا صغيراً مقابل الحفاظ عليك بعيداً عن هوس الهويّات المعطوبة والممزّقة إلى ألف قطعة ولكنّ... الدنيا تجبرنا أحيانًا على فعل ما لا نريده أبداً. لقد قادتك نحو المسالك الوعرة التي عرفتَ بلمستك الفنيَّة كيف تسيّرها. أريد أن أسمعك.

ـ هل تريدين أن تسمعي شيئًا من السوناتا؟

ـ لا أريد أن أثقل عليك. أشتهي الآن فقط أن أراك وراء البيانو. تذكّرني بمامي التي سلّمت في كلّ شيء إلاّ في البيانو، فقد كان حياتها كلّها. وهل هناك أجمل من الاستماع إلى السوناتا التي حدَّثتني عنها: سوناتا فراشات القدس. يا اللّه حبيبي... يا اللّه...

أراد أن يقول لها إنَّ الفراشات التي تركتها وراءها في القدس لم تعش طويلاً بعدها إلاّ داخل ألوانها التي سحبتها وراءها، وإنَّ مدينة اللّه أصبحت مدينة الأشباح، لكنَّه لم يجد ضرورة لذلك.

ـ السوناتا غير تامّة يا يمّا ولكنّي سأحاول...

ـ ومالو يا روحي؟ لسنا في دار أوبرا؟

حاولت أن تقوم باتّجاه صالون المستشفى، ولكنَّها تذكَّرت أنَّ جانبها السفليّ لم يعد يسعفها بسهولة وأنَّها تحتاج إلى وقت كبير لكي تستعيد حركتها. ساعدها يوبا على القيام والتحرُّك نحو الصالة،

بمعاونة ممرّضتين. ثمّ استقام هو وراء البيانو النائم في الزاوية. عندما التفت آليًّا صوبها للمرّة الأخيرة وهو يبتسم بإشراق، رأى كلّ عيون المرضى في الصالة مصوّبة نحوه وكأنّها تستجديه. ساد الصمت. أغمض عينيه قليلاً.

ـ اعذريني يا يمّا إذا ما أخطأت. من أجلك فقط ولأوّل مرة، يا يمّا.

عندما دقّ على ملامس البيانو الأولى، أغمضت مي عينيها الواسعتين وانسحبت نحو غيمة هاربة. تراجع البحر بكامله إلى الوراء قبل أن يعود صاخبًا دفعة واحدة وبقوّة خارقة، لا شيء يحدّه. أرخت جسدها عن آخره فتضاءلت الآلام التي لم تكن تحدّ من لدغاتها إلا حقنات المورفين المتتالية التي أصبحت ترفضها. تركت الهدهدات تأخذها بعيدًا عند حوافّ مدينتها الأولى التي لم تنس أيّ تفصيل فيها: الممرّات الصغيرة الموصلة إلى البوّابات أو الطرقات الواسعة، القلاع العالية والقديمة جدًّا، معبر المغاربة، صوت المؤذّن المليء بحنين الفقدان وهي لا تعرف لماذا كلّما سمعته وسمعت القرآن استحضرت الموت، لون التراب وأشكال الزرابي التي كانت أمّها تنمّق بها الحيطان، أو تلك التي رأتها في مقام المغيث سيدي بومدين، بجانب حائط البراق، التي تعبق بالحياة على الرغم من صغرها ورائحة مستخلصات العطور الطيّبة الحادّة العالقة بها. كانت مرصّعة بالنباتات والغزلان الهاربة؛ ومياه الجنينة والصوت الذي يخلّفه انكسار الماء الذي يصعد عاليًا من النافورة قبل أن ينزل منتظمًا ثمّ ممزّقًا نحو الأرضيّة؛ وألوان

النوّار والورود وعطرها الذي تعرفه واحداً واحداً؛ حتى الروائح المتشابكة التي تخرج من البيوتات في حارة المغاربة والتي لا تنسى مطلقًا عاداتها يوم الجمعة، إذ لا يشمّ المارّون من هناك إلا الروائح الحادّة للبهارات التي تنكّه الأكلات وتغني مذاقها.

عندما فتحت عينيها، كانوا كلّهم هنا ولم يتغيَّر أيّ شيء في الديكور العامّ: بعض المرضى، الممرّضات، يوبا بخزرته الحائرة والغارق في حنان أموميّ كبير، وعمّال الصيانة، ومريضة مثلها جاءت وهي تجرّ وراءها مصلها وأنبوبها لكي تسمع أنينها الداخلي، على الرغم من الآلام التي لم تستطع تحمّلها.

ـ ياه يا يوبا، جعلتني أسافر بعيداً ورأيت الذي لا يُرى في الحالات العاديّة. لقد رأيت الآن كلّ الذين أحبُّهم ولم يعودوا بيننا، وأمكنة لم تعد اليوم إلا أصداء في الذاكرة. نظنّ أنَّنا صنعنا مقابر لأشواقنا ولكنَّنا نفاجأ أنَّ ما تخيَّلناه مقابر لم يكن إلا محطّات للراحة، إذ تعود أشياؤنا الدفينة دفعة واحدة في اللحظة التي نجد لها اللغة المناسبة التي تحرّكها من سكونها وموتها.

ـ بريلود أولي. مجرّد مقدّمة تضعنا في سياق رحلة الأجداد الذين عبروا الأراضي البكر. كلّ شيء الآن في طور التكوين. شيء واحد أؤكّده لك هو أنَّني وصلت في عملي إلى نقطة اللاَّرجوع، وهذا مهمّ جدًّا. هناك نقطة عندما نتخطّاها، نستطيع أن نسعد بعملنا. النقطة نفسها، التي عندما نحاذيها ولا نصلها لنتخطّاها، ينكسر كلّ شيء وتصبح احتمالات الخسارة كبيرة.

ـ لو يمنحني اللّه قليلاً من العمر لعيش ذلك، سأكون أسعد امرأة في الدنيا؟ للجلوس في الصفوف الأماميَّة في الأوبّرا والتصفيق مع آلاف الناس وهم سعداء بالهزّات التي تحدثها في نفوسهم موسيقاك. يبدو أنِّي طمّاعة، فقد منحني الموت فرصة الانتهاء من لوحتي الأخيرة التي لن يأخذها منِّي أيّ متحف. ضعها في المكان الذي يستقبل كلّ صباح الشمس الدافئة. الشمس القويَّة تبيد الألوان والعلامات الصغيرة.

لم يصدّق ما كان يسمع أو ربما لم يكن يريد أن يصدّق. بدت له أمّه ككمشة صغيرة من النور الذي كان كلّ يوم ينطفئ قليلاً. فَقَدَ جسدها من حرّيّته ونسغه الكثير، ولكن شيئًا فيها ظلّ مصرًّا على الحياة، في خزرتها أو ربما كان يختبئ في حركات أصابعها.

ـ لا يا يمّا. أنت هنا، هنا بالضبط في عمق القلب. ومن يستقرّ هنا لا تسرقه رياح الخريف. ينحني الخريف أمام إشراقه الكبير. الشمس الباردة ستدخل إلى البيت ولن تحرق أشعّتها الألوان الحيَّة والحارّة. أنت لست طمّاعة، أنت عاشقة للحياة بنهم، هذا كلّ ما في الأمر. ولا شيء غير ذلك. ولن تستطيع أيَّة قوة في الدنيا أن تسرق لونك الذي عجنته من الذاكرة وقسوة الحياة ولذّتها.

ـ هل تدرك يا يوبا أنِّي كلَّما استمعت إليك، شعرت كأنَّك ضيّعت مسلكًا مهمًّا في حياتك وأخطأت المسار بقليل. كان يُفترض أن تكون شاعرًا كبيرًا، فضعت بين رغبة أمّ كانت، بجنونها الفنّيّ، تريدك رسّامًا مثلها ومثل أمّها أو كاتبًا، وأب طيّب لدرجة العبثيَّة، غير

منشغل بهويّتين ممزّقتين، إيطاليَّة وألمانيَّة، كان يريدك أركيولوجيًا مثله ولكنَّك في النهاية، مثلنا جميعًا، لم تسمع إلا للصوت العميق في داخلك ولم تكن إلاّ أنت. وكان مسلكك الذي اخترته هو دليلك الأوحد».

هدأت في الليلة الشتويَّة الباردة، في اللحظة الفاصلة بين قرن ينسحب وآخر يجيء منكسر الرأس مهزومًا باحتمالات الحروب المدمرة. سمعت شناشين السنة الجديدة، وسيّارات بابا نويل وهي تتقاطع محمَّلة بالهدايا والأشواق الجميلة. ليلتها نامت ولم تستيقظ بعد أن كتبت كثيراً لدرجة الإنهاك. يتذكَّر يوبا أنَّه عندما مدّ يده نحوها للمرة الأخيرة بعد أن نودي عليه من أعماق صالة الأوبّرا، كان كلّ شيء قد انتهى. استمع إلى نداءاتها الأخيرة وهي تتمزَّق بين سماء عاطلة وأرض قاسية. انسحبت بهدوء كبير وتسرّبت من بين الحيطان كالضوء الهارب. ارتسمت ابتسامة هاربة على شفتيها عندما اقترب منها ليقبِّلها. للمرّة الأخيرة رأى ارتسامات نداءات غامضة تأتي من بعيد، لم يفهمها جيِّداً.

تمدَّد على الصوفة قليلاً بحثًا عن لحظة هروب عن كلّ ما كان يحيط به. تأمَّل الكرّاسة النيليَّة طويلاً قبل أن يفتحها على خطوطها الرقيقة وتعرُّجاتها الصغيرة. قرّب لمبة الهالوجين الصغيرة من رأسه وترك ضوءها يتشتّت ببياضه الناصع على الأوراق التي كانت مثقلة بالأنين. بدا له فجأة كأنَّ الموت بتر شيئًا فيه لا يعوَّض أبداً.

كان يوبا كمن يستعدّ للدخول في تفاصيل مغامرة غير مأمونة الجانب. لم تكن الكرّاسة النيليَّة شيئًا عاديًا بالنسبة له، ولهذا ظلّ يخاف من فتحها طوال السنتين الماضيتين. فقد خطّت مي بعضًا من تمزقاتها، في أصعب لحظة وأصدقها.

وعلى الرغم من دفء البيت، فقد سرت برودة ناعمة ومنعشة، أحدثت رجفة عابرة سرعان ما خفّت. فجأة شعر يوبا بنفسه يتوغّل في عمق الكرّاسة النيليَّة. كأنَّ الحروف الصغيرة، المتسلّقة، كانت تناديه في إلحاح غامض مشوب بالرفض والرغبة. بدت له الكرّاسة في صغرها وأناقتها الطفوليَّة، كجناحي فراشة ملوّنين بآلاف الألوان الجميلة. قرّب اللمبة أكثر حتى كادت أن تلمس كتفه اليسرى، إذ شعر بحرارتها الخفيفة، فاتّضحت الخطوط الناعمة والحروف المنكسرة في نهاياتها أكثر فأكثر وعنوان الورقة الداخليَّة: **مدوّنة الحِداد**. ترك نَفَسه ينحدر في عمقها الهادئ، ويقتحم حميميّات مي الرقيقة وغطرسة الأشباح المختبئة بين السطور التي حاول أن يتفادى الالتقاء بها ولكنَّها كانت هنا، نائمة في عمق كلّ الكلمات أو يقظة، تتخبّأ فيها أو بمحاذاتها أو على حوافّها. شمّ رائحة البنفسج البرّي المنبعثة بقوّة من حبر الأقلام التي كتبت بها حدادها. منحه عطرها الخفيّ شهوة أكبر للاستكانة إلى أهدأ لون أحبّته مي، لألقه ولرائحته المدرسيَّة التي ما تزال عالقة بأنفها، مثلما شمّتها أوّل مرّة في الحقول التي كانت تسيّج جبل الزيتون، الذي كان يخبّئ كلّ براكين أورشليم، وعواصفها وأشباحها الغامضة الميتة والحيَّة.

* * *

الفصل الثاني

مدوّنة الحداد

بكبرياء اللون وهشاشة الفراشة

سأعبر صراط الخوف

القلب العاشق يخفق طويلاً كطائر عابر للقارّات والبحار، في رحلة العمر الجميلة، ثم يهدأ قليلاً، يستمع إلى أنّات السفر قبل أن يغمض عينيه وينام كي لا يستيقظ أبداً. أحسّ بذلك وأنا في عمق هذا الفراش أعدّ الأيام الباقية أكثر من تلك التي مضت. لقد هدأ كلّ شيء، بما في ذلك ضجيج الحياة، وتضاءل سلطان الجسد، وأستطيع أن أكتب بحريّة تامّة، بعد أن اتّخذت أخطر قرارين في حياتي وأنا مدركة بأن ذلك قد يربك كثيراً يوبا:

* الأول، الذين رفضوا منحي رخصة الدفن في القدس سهّلوا عليّ مهمّة هذه الخيارات. ليكن. لقد قرّرت أن أمنح جسدي للمحرقة لأرتاح نهائيًّا من شطط ثقيل لم أعد قادرة على تحمّله. وأنا لا أدعو الآخرين إلى

السير في مسلكي. أكبر محرقة يعيشها المرء هي أن تُسرق منه أرضه ويُرمى على حوافّ المبهم. الناس لا يدرون أنَّنا لا نعود إلى أرضنا الأولى لنموت فيها فقط، ولكن لنعيش جزءاً جميلاً من العمر، ونشمّ تربتها ورائحة شرفاتها المعلَّقة في الهواء تستقبل النسائم التي تأتي من وراء سواحل البحر الميت. لا نعود إلى تربتنا الأولى لنؤبّن أنفسنا ونبحث عمّن يدفننا، ولكن لفتح العيون على كلّ اللحظات التي أخطأ البصر المتعب بالحروب المتواترة والجسد المنهك، رؤيتها في المرّة الأولى.

بي شوق كبير لعالم لم يعد اليوم قائمًا. فقد نُهب منّي على مرأى من كلّ الدنيا. لقد تضاءلت رغباتي وأصبحت أفرح للنزر القليل وللسعادة الصغيرة. لم تعد لديَّ مطالب كبرى. أشتهي فقط أن يبعثر رمادي على مياه نهر الأردن، ربما وجد طريقه نحو جذور هذه الأرض، وفي أحياء القدس العريقة التي عجنت طفولتي، وعلى قبر أمّي وأخي وأخوالي، ويوسف إذا ما صدقت أخبار موته التي وصلتني منذ سنوات، ومقام جدّي العظيم، سيدي بومدين لمغيث الذي ما تزال كراماته ماثلة بذهني، وكأنَّ الزمن لم يفعل فيها أيّ شيء، وكأنِّي بقيت تلك الطفلة العالقة بيد خالها غسّان المجنون بالحياة، وصوت أمها المسروق.

* الثاني، هو قراري بالشروع في كتابة ذاكرتي الموشومة بالرماد والألوان والكثير من الخوف، بكلّ الصدق الذي يملأني. ربما استطعت أن أتخلَّص من بعض أنيني العميق، إن أسعفني الموت الذي يترصَّدني باشتهاء. الكتابة تفتح كلّ الجراحات المغلقة وتدفع بعواصف الدم الجارف نحو الخروج للمرّة الأخيرة.

أشعر بسعادة غريبة تملأني الآن، وأنا أواجه كرّاستي الطفوليَّة، ربّما كانت شهوة الكتابة التي غيّبتها الحياة اليوميَّة، أو ربما قسوة اللحظة التي تسبق الموت بقليل. لا يهمّ. أنا منتشية لهذه النسمات التي تأتيني محمّلة بالحنين الجميل، ورائحة حقول البنفسج البرّي التي تختبئ تحت صخور جبل الزيتون، وتطوّق بحزام سرّي مدينة القدس الشرقية. أفتح ذاكرتي لأحرِّر طيور الجنون التي بداخلها، وأملأ صدري وعينيّ بهذا العطر الذي ألبسه الآن وأكتبه كما لم أفعل أبدًا في حياتي القصيرة.

أطلب الصفح من يوبا، حبيبي المتبقّي من رحلة العمر القاسية. لم أكن أريد أن أرحل الآن، فأنا لا أحبّ فصل الشتاء. فصل الخريف، فصلي، فهو الوحيد الذي بإمكانه أن يغرقني في جبروت الحبّ. لست أنا، الموت هو من دقّ على بابي في هذا الزمن المبكر جدًّا. نكاية فيه وفي كلّ النهايات القاسية، سأمارس شهوتي المستعصية، سأتحلَّل بدون إذنه داخل سحر الحروف والألوان، وعندما يحضر زبانيته الذين يسطّرون قائمة موتى الليل والنهار، وينكّسون الرايات لكبارهم، لن يجدوا شيئًا يشبعون به جشعهم غير ظلّ جسد ذاب في عذوبة الندى وعطر البنفسج البرّي، وستعرف الأقدار الظالمة أنَّني عبرت صراط الخوف بكبرياء اللون وهشاشة الفراشة.

لك يوبا شوقي وحنيني الدائم، وكلّ هذا البذخ من الحزن، فلست أملك أجمل منه. فأنت كلّ ما تبقّى من رحلتي في هذه الدنيا القاسية التي لم تمهلني كثيرًا لكي أخرج كلّ الجنون الذي ينام في

أعماقي. تذكّر هذا جيِّداً يا يوبا ولا تتحفَّظ فيه أبداً: عندما تحبّ، احتفظ بهشاشتك فهي أجمل شيء فيك، ولا تتظاهر بالقوّة الوهميَّة، فهي لا تساوي الشيء الكثير في لغة العاشق. لا تحسب كثيراً، واضرب صفحًا عن كلّ الخسارات التي يمكن أن تتعرَّض لها، وإلاّ فأنت مضيّع للحياة لا محالة. فلا قوّة في الدنيا تثنينا عن عزمنا العميق على الرغم من هشاشتنا وإدماننا على الأحزان. كن شبيهًا لإله جميل نصنعه من ضعفنا الخفيّ ولا تكن ربًّا جبّاراً مليئًا بالهواء الساخن. وقتها، ووقتها فقط، تنحني لمرورك ولجبروت اللحظة كلّ العوائق المستحيلة. فلا تكسر بخاطر أشيائك الجميلة واستثناءاتك، وافعل كما تفعل النيازك المشتعلة: انطلق نحو جنونك بأقصى سرعة ممكنة في سمائك التي لا حدود لها، ولا تلتفت أبداً وراءك. الالتفات يقتل رغبة التمادي في غيّ الجنون. غص حبيبي في يمّك، واستغفر بعد ذلك ربّك إن شئت، فاللّه ليس بالحماقة البشرية التي يحاسبك فيها على أرقى درجات العشق التي يسمّيها الناس العاديون الحبّ، ويسمّيها جدّي الأندلسيّ، سيدي بومدين لمغيث: شهوة المنتهى.

مي

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الاثنين ٢٠ سبتمبر ١٩٩٩

أنتظر الطبيب، وأحاول أن أكتب.

منذ زمن بعيد لم أفتح الكرّاسة النيليَّة التي طلبتُ من يوبا أن يحضرها لي، هي وألواني. اندهش في البداية ولكنَّه سرعان ما انصاع لأمري بدون أن يسألني إلاّ عن مكانها. في البداية، عندما حاولت أن أكتب شيئًا، هربت منِّي اللغة، وبدت لي أوراق الكرّاسة بعيدة وبياضها الحائل مخيفًا. حاولت ولكنِّي لم أستطع أن أكتب حرفًا واحدًا على الرغم من حماسي الكبير لقول كلّ ما كان يملأ قلبي.

تفكيري في الموت أصبح طاغيًا وعلاقتي بالزمن تغيَّرت تمامًا وأصبحت أكثر اختزالاً وكثافة.

كان الليل قد حلّ عندما انتابتني حالة القنوط القصوى. وحيدة بمستشفى نيويورك المركزيّ(١). عندما خذلتني الكتابة، أغلقت الكرّاسة وفتحت نافذة غرفتي وبدأت أتأمَّل الساحة والطرقات التي امتلأت فجأة بأوراق البلاطان الصفراء. حساسيتي تجاه الأوراق كبيرة، كلَّما تأمَّلتها ازدادت رهافتي، ربما لأنَّ أوّل شكل رسمته بدقّة في حياتي في القدس كان هو ورقة البلاطان التي أتذكّر جيِّداً أنِّي لوّنتها باللون الآجرّيّ القريب من لون القدس وحيطانها وتربتها، وسلّمتها لطانت جينا التي أعجبتها كثيراً. منذ البداية كنت أميل إلى التجريد أكثر من طانت جينا التي ارتبطت بحيطان المدينة بقوّة. كان في لمستها الكثير من الشاعريَّة التي يمتزج فيها الحلم بالألم، ولكنِّي كنت أميل إلى الهرب نحو المبهم لكي لا تكتشف حماقاتي الخفية. بدأت أسكن الألوان لكي أقول ما أشتهي قوله بدون أن أضطرّ إلى التبرير.

شعرت كأنَّ القلم استعصى على يدي وأصابعي. قلت في خاطري، ليكن، حالة وتمرّ. سأكتب إذن بعيني، وإذا لم أستطع فبقلبي، وإذا فشلت سأكتفي باستعادة ذاكرتي وأكتب بكلّ حواسّي التي لا تموت أبداً. وعندما أنتهي من تفريغ الذاكرة، أصبّ عليها غالونًا من البنزين وأرمي عليها عود كبريت وأبتعد عنها قليلاً واستمتع بلذّة تحوّلها إلى كومة رماد.

---

١ ـ ثالث أهم مستشفيات أميركا، بعد نيويورك بريسبيتريان هوسبطال، ومستشفى جبل سيناء المركزي New. York-Presbyterian Hospital , Mount Sinai Medical Center.

توغل بصري بعيداً في عمق شوارع نيويورك المحيطة بالمستشفى، التي بدأت أمسحها واحداً واحداً. شارع ليكسينغنتون[1] بامتداده الكبير حيث يتوازى بانتظام مع الشارع الثالث، ثمّ الطريق ٣٥[2] التي يتقاطع معها. بدت القدس بكلّ آلامها ووحدتها. والغريب أنّ القدس تنتابني لأوّل مرّة بهذا الشكل الحزين المليء بالصرخات التي كانت تأتي من الجوانب الخلفيَّة للمدينة القديمة. تلك المدينة المخبَّأة فيَّ. شيئًا فشيئًا بدأت أتوغَّل في عمق العيون الغاضبة.

منذ نصف قرن فقط، استيقظت مدينة الله على جرح الموت. أتذكَّر جيِّداً يوم الثلاثاء ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧. كانت العائلة كلّها مجتمعة في ذلك المساء حول الترانزستر، عندما انتفض جدّي الذي سمع الخبر قبلنا جميعًا، على الرغم من ثقل سماعه. كانت الصدمة قويّة إذ ظلّت الأفواه مشدوهة: قولوا لي إنِّي لم أسمع جيِّداً؟ بهيك بساطة قرَّروا تقسيم فلسطين؟ قبل شهر بالضبط كنت مع خالي غسّان، في يوم الأحد ٣٠ أكتوبر ١٩٤٧، في مخزن فايز العلمي، في شارع مأمن اللّه، وأتذكَّر حالة الحزن التي كانت تملأ الوجوه المرتعشة والتي اسودّت فجأة وصارت كابية. لاحظ الجميع المناشير التي وزّعتها الوكالة اليهوديَّة على سكّان الأحياء المقدسيَّة العربيَّة. كتبت عليها بخطّ عربيّ جميل: **أنتم أيُّها العرب، أبناء عمّ ساميين. حكِّموا عقولكم ولا تردُّوا على زعمائكم من العرب، فكل له مصلحة خاصة. انضموا معنا وسيروا على بركة اللّه**

---

١ ـ Lexington Avenue

٢ ـ E 35th Street

لنقوم بتعمير البلاد من كل الوجوه ونسير فيها سوية كالإخوان. كان الزمن الذي تعوَّدنا عليه قد انسحب نهائيًّا وما ظنناه مجرَّد أحداث عابرة، تحوَّل إلى حالة انكسار كلّي، سيستمرّ طويلاً وسيخل بكلّ التوازنات التي استمرّت قرونًا وسيُحدث انقلابًا فظيعًا في العلاقات، بل سيطرد الله من بيته الكبير. لقد أصبح للجو مذاق الكبريت والبارود والخوف، وزادت الأحقاد ترسُّخًا وأصيب الناس بالعمى، كلّ الناس بدون استثناء، بما في ذلك أهلي وأقاربي وجيراني وأصحابي. في يوم الثلاثاء ٢٠ ديسمبر ١٩٤٧، اتّخذ العرب قراراً بالإضراب لمدّة ثلاثة أيام تنفيذاً لبيان صدر من الهيئة العربيَّة العليا. وكانت مظاهرة عمّتها الكثير من الفوضى. سلّم لي الكثير من الأطفال الحجارة التي كسروها على حواف الطرقات، وطلبوا منّي أن أكسر زجاج أحد المحلات اليهوديَّة ولكنَّ الحجارة التصقت بيدي، ليس خوفًا، فتربية خالي غسّان جعلتني لا أخجل ولا أخاف، ولكن لأنَّ صاحب المحلّ كان صديق خالي غسّان وكان يهوديًّا طيِّبًا. بينما داهم بقية زملائي المركز التجاري المعروف بالشماع، والواقع ما بين طرفي شارع مأمن الله وجوزة النسناس وجبل النيكروفوريَّة. ثم داهموا السوق المكتظّ بالتجار اليهود الذين اضطرّوا إلى تركه. أحرقوا المخازن، ونهبوا ما استطاعوا من موجوداتها. ثم اتَّجه المتظاهرون إلى شارع يافا وأشعلوا النار في مخازن اليهود إلى أن وصلوا إلى موقع بنك باركلس. وفي شارع يافا نفسه شاهدت تجمُّعًا يهوديًّا مؤطَّرًا بجنود الهاچاناه في حالة هياج شديد، كانوا متَّجهين شرقًا للهجوم على المناطق العربيَّة ولكنَّهم مُنعوا من بعض زعمائهم والجيش البريطاني، فأحرقوا سينما ركس في شارع البرنسيس ماري وبعض

مخازن النجارة، خلف عمارة ميخائيل مخلوف، من بيت جالا. ثم تحوّلت الأحقاد الصغيرة إلى تقتيل حقيقي. لم أصدّق أذني عندما سمعت والدي الطيب والمتسامح، يحكي عن العملية التي شارك فيها في اقتحام جريدة بالستاين بوست(١) بانتشاء. كان ذلك في يوم الأربعاء ١ فبراير ١٩٤٨، في شارع بن يهودا، بالقدس. الانفجار هزّ أركان المنطقة اليهوديّة وأسفر عن نسف جزء من شارع بن يهودا وجريدة البالستاين بوست، التي كانت تبثّ أخباراً عدائيّة ضدّ العرب وتصفهم بكلّ الصفات القبيحة. وحُمِل والدي يومها على الأكتاف قبل أن يغيب في حشد من الجموع ويصبح هدفًا للهاچاناه. يبدو أنّ الزمن كان قد سار بسرعة تجاوزتني، ولكنّي أكثر ميلاً إلى أفكار خالي غسان اليساريّة التي كانت تبحث عن توازن مستحيل وسط الأحقاد التي سكنت البيوت والقلوب. الشيء نفسه قام به أنطون داوود، أحد أصدقاء والدي، الذي فجّر الوكالة اليهوديّة المحروسة من طرف الهاچاناه والجيش الإنجليزي، بعد تنسيق كبير مع عبد القادر الحسيني في بيرزيت. وفي ٤ مارس ألقى اليهود ثلاث قنابل حارقة على مخازن سبني الواقعة في شارع مأمن اللّه وكان صوت الانفجار قويًّا، أعقبه دخان بنفسجي داكن أخاف جميع الحاضرين، فقد هُدم جزء مهمّ من العمارة، بعد أن تهاوت بعض مرتكزاتها وحيطانها.

وجاءت فجيعة أخرى صباح ١٥ مارس ١٩٤٨ لتختم الكلّ، عندما أعلن الإنجليز انتهاء الانتداب بعد أن سلّموا كلّ شيء لجنود

---

١ - Palestine Poste

الهاچاناه والإرجون، والشتيرن. فرح الأهل، نساء ورجالاً، وحمدوا اللّه على انتهاء الانتداب وهلّلوا له بالدعوات والزغاريد، وظنُّوا أنَّ الإنجليز صمّموا أخيراً على مغادرة البلاد لإتاحة الفرصة للجيوش العربيَّة للدخول وإنقاذ الأرض المسروقة. الوحيد الذي احمرّ وجهه غضبًا وضرب كفًّا بكفّ وتنهّد عميقًا وبحزن لم أره أبدًا في عينيه، هو خالي غسان. قال بحزن: على الدنيا السلام. هذه صفقة وليست شيئًا آخر. لقد باعنا الإنجليز للهاچاناه يا بوي. لقد درَّبوهم وجهَّزوهم وأشركوهم في الحروب الكونيَّة الكبرى لكي يجعلوا منهم قادة محنّكين، والآن آن الأوان لتسليم البلاد لهم. لن يقبلوا حتى بتقسيم الأمم المتحدة الذي رفضناه. سيأكلون الأخضر واليابس. ضحك الأهل من كلامه، كنت الوحيدة التي شعرت بحدس غريب، أنَّ خالي غسان كان يقول حقيقته التي كان يشعر بها. بعد أيام، عندما غاب والدي ولم يعد يأتي إلى الدار إلا قليلاً وبشكل مسروق، أدركت أنَّ المسألة كانت أخطر من كلّ ما تصوَّرته بسذاجة.

تأكَّد لي يومها أنَّ شيئًا مهمًّا في المدينة الطيبة التي كنَّا نسمِّيها مدينة اللّه، كان قد انكسر، وأنَّ اللَّه أخلاها نهائيًّا وأصبحت القدس مكانًا قفراً مثل الدار المهجورة. صلَّيت مع طانت جينا في كنيسة القيامة. خالي غسان قال لي صلّي حيثما شعرت أنَّ اللَّه قريب منك ويمكن أن يسمعك ولا يهمّ المكان إن كان مسجداً أو كنيسة أو كنيسًا. شاركت معها في أسبوع الآلام في كنيسة القيامة وكانت كلّ الطوائف الدينيَّة حاضرة كما هي العادة. فالمكان كان هو الموقع الحقيقي الذي جرى فيه صلب سيِّدنا المسيح. احتفال خميس الغسيل المقدّس حضرته داخل كنيسة مار يعقوب في دير الأرمن من قبل. وشاهدت احتفالات

سبت النور داخل أماكن عديدة في كنيسة القيامة. الشرفة المرتفعة المعروفة بنصف الدنيا، المقابلة لقبر سيِّدنا المسيح شرقًا، ثم الكليري التي تشرف على ساحة القيامة من الداخل، ثم الساحات بجانب الجلجلة المشرفة أيضًا على باب الكنيسة من الداخل، فوق المغتسل، ثم من شبابيك الأرمن الثلاثة المطلّة على القبر، إضافة إلى النوافذ السبع الواسعة العائدة لطائفة اللاتين والمطلّة على قبر سيّدنا المسيح داخل كنيسة القيامة. وشاهدت الناس، من مختلف الطوائف، يحملون الشموع وينتظرون فيضان النور المقدّس لتُضاء الشموع منه. وعند الساعة الواحدة والنصف قُرع الجرس الكبير العائد للروم الأرثوذكس ودوّى رنينه داخل الكنيسة وصحت مع الناس ابتهاجًا بالنور المقدّس. ومع خالي غسان، صلَّيت في المسجد الأقصى طوال شهر رمضان بكامله، واخترت ليلة القدر لأوجّه دعوتي الكبرى للّه ليحفظ مدينته من الخراب القادم. كل ذلك لم ينفع أبداً. يبدو أنَّ اللّه لم يكن يومها موجوداً. كانت المدينة عارية من كلّ شيء، تواجه مصيرها بصدر مجروح. ولم تذهب الدعوات إلى أبعد من بوّابات المدينة التي كانت تتقاسمها المليشيات اليهوديَّة والعربيَّة التي أصبحت مدجَّجة بأكثر الأسلحة فتكًا: الحقد والضغينة والاستعداد المجنون للموت والقتل.

«مي... مانو... مينوشا... مايا»

شعرت بفيض من الحزن لم أكن قادرة على تحمُّله. التفتّ بدون أدنى تفكير. لم أر إلاّ السرير الممتدّ ورائي كقبر بارد. مع أنِّي سمعت همهمات صوت متداخل يشبه صوت جدّي ونداءات ميرا، أمّي، يأتي من بعيد، من نفق غميق.

لم أكن أرى نيويورك، ولكنّي كنت منغمسة في أحياء القدس القديمة التي كانت تنزلق من بين أصابعي المرتعشة مثل الرمل الجافّ، ولم أكن قادرة أبداً على لملمة أجزائها الطائرة. كان يأتيني واضحًا صوت عمّي أبو نجيب، وهو يمدح فلافله وساندويتشاته التي يملأها بها: يا اللّه يا فلافل! طعم الغني والفقير، الصغير والكبير. كنت آكل منها بنهم وتلذُّذ كبيرين. ما يزال مذاقها على رأس لساني إلى اليوم. مرة سألته: كيف بتعملها بهيك حلاوة يا عمّي أبو نجيب؟ كنت أريد أن أفاجئ أمّي بتفصيل الوصفة، لكنَّه ضحك: ما بقدر أجيبك، اسألي أم نجيب، هي بتعرف كلّ شيء. كلّما تذكَّرت طعمها، يصيبني دوار الجوع، فأمسك بمعدتي التي لم تشبع من لذتها. لقد سرق الموت أبو نجيب، مثلما سرق حجارة القدس وأسماء شوارعها القديمة.

مي... مي...

كان الطبيب قد وصل محاطًا بممرّضتين.

قدّم نفسه بدون أن أسأله:

ـ مرحبا مدام مي. يبدو أنَّك لستِ هنا، غارقة في قلب المدينة. طيّب... أنا الدكتور هيرفي كروث، سبق أن التقينا. سأتابعك في المستشفى إلى أن تُشفي من هذا الداء. المهمّة صعبة، ولكنَّها ليست مستحيلة.

ـ شكراً دكتور.

صمتُّ واتّجهتُ نحو البياض.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الأربعاء ٢٢ سبتمبر ١٩٩٩

اليوم وُلدت في حارة المغاربة، بالقدس.

في مثل هذا اليوم رأيت شعاع الشمس بعينين مفتوحتين على آخرهما، في اللحظة التي خرج فيها من غيمة داكنة، هكذا تقول أمّي. العائلة كانت في قمّة سعادتها، ودعت لي بطول العمر مثل أجدادي الأوائل. ويبدو أنَّ قدر الموت اختصر كلّ الدعوات والأزمنة، ولن يمهلني أكثر من هذا الفصل. الدكتور هيرفي كروث، بجدّيته وتديّنه الخفّي، لم يقلها صراحة ولكنَّه أشّر لذلك بلباقة. «الأعمار ليست في يد أحد، ولكن وضعك ليس سهلاً. اشبعي من أهلك وافعلي كلّ ما تشتهين فعله. البقيّة، الطبّ نفسه عاجز عن الإجابة عنها. الكثير من الذين يئسنا من وضعهم، خرجوا من هذا المستشفى

بصحّة أحصنة، والكثير ممّن ظننا أنّ ضرّهم محدود، فاجؤونا بهشاشتهم ونهايتهم. الجسد وحده يملك سرّ المقاومة».

لم أسأله لأنِّي قرأت كلّ شيء في حيرته الأولى وهو يقرأ نتائج الفحوصات بعينين صغيرتين ظلّتا تتراقصان من وراء النظّارات.

ما زلت عاجزة عن الكتابة. فتحت درجًا صغيراً. وجدت الكتاب المقدَّس بعهديه، والقرآن. حتى هذه الصدفة الطائشة ذكّرتني بالموت، إذ كان بإمكاني أن لا أفتح الدرج في ذلك اليوم على الأقلّ. فتحت الكتاب في الإصحاح ٢٤، من إنجيل متّى. إيماني باللّه قليل، وربما غير موجود أصلاً، ولكنِّي عندما شممت رائحة الموت، انتابني شيء غامض قادني نحو فتحه، أنا نفسي لا أعرف سرّه. نصّ النهايات الذي قرأته، ورّثني الكثير من الراحة الداخليَّة، ربما لأنِّي بكلّ بساطة وجدت فيه ذكراً لجبل الزيتون الذي فقدت رائحته منذ أن طردت من جنّتي الأولى، مدينتي. أو ربما لشيء ما يزال غامضًا فيّ ويصعب القبض عليه بسهولة.

«وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدَّم إليه التلاميذ على انفراد قائلين: قل لنا متى يكون هذا، وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟ فأجاب يسوع، وقال لهم: انظروا لا يضلّكم أحد فإنّ كثيرين سيأتون باسمي، قائلين أنا هو المسيح ويضلّون كثيرين. وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب، انظروا لا ترتاعوا لأنَّه لا بدّ أن تكون هذه كلّها ولكن ليس المنتهى بعد، لأنَّه تقوم أمّة على أمّة ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن، ولكن هذه كلّها مبتدأ

الأوجاع. حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي. وحينئذ يعثر كثيرون ويسلمون بعضهم بعضًا ويبغضون بعضهم بعضًا ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرين. ولكثرة الإثم تبرد محبّة الكثيرين، ولكنّ الذي يصبر إلى المنتهى، فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كلّ المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتي المنتهى. فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبيّ قائمة في المكان المقدَّس، ليفهم القارئ، فحينئذ ليهرب الذين في اليهوديَّة إلى الجبال، والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئًا، والذي في الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام. وصلّوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت لأنَّه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون. ولو لم تقصّر تلك الأيام لم يخلص جسد ولكن لأجل المختارين تقصّر تلك الأيام حينئذ. إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك، فلا تصدقوا لأنَّه سيقوم مُسحاء كذبة، وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلّوا، لو أمكن، المختارين أيضًا. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم، فإن قالوا لكم ها هو في البرّيَّة فلا تخرجوا، ها هو في المخادع، فلا تصدّقوا لأنَّه كما أنَّ البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، هكذا يكون أيضًا مجيء ابن الإنسان لأنَّه حيثما تكن الجثة فهناك تجتمع النسور. وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السماوات تتزعزع. وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في

السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض. ويبصرون ابن الإنسان آتيًا على نور السماء بقوّة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح، من أقصاء السماوات إلى أقصائها. فمن شجرة التين تعلّموا المثل. متى صار غصنها رخصًا وأخرجت أوراقها، تعلمون أنّ الصيف قريب. هكذا أنتم أيضًا، متى رأيتم هذا كلّه فاعلموا أنّه قريب على الأبواب. الحقّ أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كلّه. السماء والأرض تزولان ولكنّ كلامي لا يزول. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده. وكما كانت أيام نوح، كذلك يكون أيضًا مجيء ابن الإنسان، لأنّه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوّجون ويزوّجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع، كذلك يكون أيضًا مجيء ابن الإنسان. حينئذ يكون اثنان في الحقل، يُؤخذ الواحد ويُترك الآخر. اثنتان تطحنان على الرحى، تُؤخذ الواحدة وتُترك الأخرى. اسهروا إذًا لأنّكم لا تعلمون في أيّة ساعة يأتي ربّكم، واعلموا هذا، أنّه لو عرف ربّ البيت في أيّ هزيع يأتي السارق لسهر، ولم يدع بيته ينقب. لذلك كونوا أنتم أيضًا مستعدّين لأنّه في ساعة لا تظنّون يأتي ابن الإنسان».

هكذا إذن، صار الموت ينام الآن حتى في الأوراق التي أقرأها، والأواني التي أشرب وآكل فيها، والسرير الذي أنام فيه، والمستشفى الذي يؤويني. حتى في الوجوه التي تزورني من حين لآخر. ليكن. عليّ فقط أن لا أترك نفسي طعمًا سائغًا له، عليّ أن أعذّب موتي

لأرتاح قليلاً قبل الرحيل. كلّ ما أستطيع فعله هو تأجيل الموت قليلاً لأتمكَّن من إخراج آخر الصرخات التي تسدّ حلقي ونَفَسي. الجسد المستسلم يسهل على الموت افتراسه وأنا أريد أن أجعل الموت يكرهني لأنِّي وقفت في وجهه بعناد صبيَّة تريد كسر جبروت الأقدار القاسية. على الرغم من قسوة المرض، ما زلت غضّة وممتلئة الروح بالأشواق التي لا تستسلم بسهولة.

الكتابة شيء خطير. أكثر من مجرَّد كلمات مرصوصة في خطّ مستقيم ككتيبة عسكريَّة منضبطة، تخبِّئ كلّ هزائمها في صرامتها المبالغة. هي القدرة على كسر عنق الموت، والضحك من سطوته وجبروته الزائف ولو للحظة، قبل أن يقوم من خيبته أشدّ حنقًا وإصراراً على افتراس ضحيته، وأيّ ضحيَّة؟ فلن يجد إلا جيوبًا جلديَّة فارغة إلاّ من العظام بعد أن تمّ تسريب وتهريب كلّ النور المذهل الذي بداخلها.

مجرّد جيوب معتمة بلا حياة ولا نور.

هكذا أنتقم من الموت عندما أفتقد إلى وسائل دحره.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

السبت ٢٥ سبتمبر ١٩٩٩

....

ذلك البياض الذي يشبه العتمة، حادّ ومُعْمٍ للنظر. أشعر به الآن بقوّة. بياض يمحو كلّ نتوءات الحياة والتفاصيل الزائدة ولا يبقي إلاّ ما يهرب من لمعانه المبهر.

بأيّ جملة سأشقّ درب هذه الآلام القاسية لكي أواصل العيش؟

أيّ المداخل أقوى؟ مدخل الحياة أم مسارب الموت؟

... غريب؟ أشعر براحة وكأنّي أولد الآن؟ هل هي راحة الخوف عندما يصل إلى سقفه النهائي بحيث لا نرى بعد ذلك إلا هذا البياض الذي يغزو رؤاي؟ أم هي حالة انتشاء داخليّة، راحة الذي لم يعد لديه ما يخسره في الدنيا وفي الآخرة؟

العاقل هو من يسبق الأحداث كيفما كان الأمر. وعلى الرغم من جنوني، بدأ ينتابني العقل من حين لآخر منذ أن تأكّد لي سرطان الرئة. لقد سوّيت مثلاً كلّ الوضعيات المعلّقة، بما في ذلك وضعيّة الموت والدفن لكي لا أُرهق أحداً. لم أطلب ذلك من يوبا لأنِّي أعرف رهافته وهشاشته القلقة وخوفه عليّ، ولكنِّي طلبت مباشرة من **مؤسسة إليس آيلند لمصاحبة الموتى إلى راحتهم الأخيرة**، كما يسمّونها هنا، أن تتكفَّل بكلّ شيء. كلمة حلوة ولو أنَّها لا تغيِّر أيّ شيء في نظام الأقدار القاسي. أضحك أحيانًا لأنَّ الحالة الوحيدة التي لا صاحب لنا فيها هي الموت تحديداً. قرأت طويلاً المطويات التي سلّمتها لي المؤسّسة: **مؤسسة مجهزة بآخر الاكتشافات العلميَّة واحترام البيئة. حرفية عالية تسمح باحترام إرادة الفقيد بشكل كامل بما في ذلك الطقس الديني الذي يختاره لمرافقته. محرقة مؤسّسة إليس أيلند تقترح عليكم خدمات كاملة ومرافقة تبدأ من لحظة الانتقال إلى المحرقة حتى تسليم الرماد للشخص الذي تقترحونه. لدينا صالات استقبال مرافقي الفقيد وأصدقائه وهي مفتوحة ٢٤ / ٢٤ أمام زبائنها، وصالة خلفيَّة حميميَّة جدًّا، تسع لمائة شخص لأداء الطقس الديني المختار بحسب رغبة الفقيد. كلّ الصالات أنيقة ومليئة بالدفء، تسمح بتوديع الراحل في أحسن الظروف، مجهّزة بشكل كامل بأحدث الأجهزة الموسيقيَّة التي تمنحكم فرصة اختيار المقطوعات الموسيقيَّة التي ترونها مناسبة لمرافقتكم في رحلتكم الأخيرة. تهمُّنا راحتكم وراحة ذويكم.** أذهلني شعار المؤسّسة الذي استعار كلمة جميلة لكاتب فرنسي هو مارسيل بروست: **أليس الغياب، بالنسبة للعاشق، هو أثمن وأجدر وأخلد وأوفى**

حضور؟[1] طبعًا، لم يتركوا شيئًا للصدفة. اخترت وقتًا يكون فيه يوبا في عمله في الأوبرا، منشغلاً بموسيقاه ومشروعه السيمفوني، حتى أتحدَّث مع السير جون كلارك بكلّ راحتي. عندما دخل عليّ ابنه في المستشفى، كنت أرسم. كان شابًّا لطيفًا ووسيمًا، يشبه إلى حدّ كبير يوبا. لبق وشفّاف. لم يزعجني. جلس يتأمَّلني طويلاً قبل أن ألتفت نحوه. قال وهو يتنهّد بعمق:

ـ الحياة غير عادلة يا سيّدتي.

أعتقد أنَّه كان صادقًا. فهمته جيِّداً من عينيه. كان واضحًا.

ـ صباح الخير سيِّدة مي، أنا هنا من أجل مراسم الحرق.

ـ لماذا لم يحضر السير جون كلارك؟

ـ أنا ابنه، كريستوف. سأقوم بكلّ ما تطلبينه منّا. أنا تحت تصرّفك.

ـ قرأت الوثائق والعقود، وضعت في التفاصيل. لم أكن أعرف أنَّ الموت معقّد إلى هذه الدرجة. بكلّ بساطة، ماذا تقترحون عليّ؟

ـ كلّ ما تشتهينه. إما العمليَّة الكاملة، أي من الوفاة حتى نقل الجثّة وإخبار الأهل والحرق ثمّ تسليم الرماد إليهم، أو دفن العظام في مقبرة عامّة أو خاصّة، أو ذرّ الرماد في الأمكنة التي تحدّدينها بحضور العائلة أو من يمثّلها، أو العمليَّة الجزئيَّة وذلك بحسب ما تختارينه.

---

١ ـ L'absence n'est-elle pas, pour qui aime, la plus certaine, la plus éfficace, la plus vivace, la plus indestructible, la plus fidèle des présences? **Marcel Proust**.

ـ لا أريد أن أتعب ابني. قوموا بكلّ شيء وسلّموه أواني الرماد، هو يعرف أين يضعها. وبعض العظام لدفنها في نيويورك إن أمكن.

ـ ممكن جدًّا. الحرق لا يتلفّ كلّ شيء.

ـ كنت أريد أن أسأل السير جون كلارك عن بعض التفاصيل الغامضة في العمليَّة. فقد وعدني بالشرح التفصيلي قبل اتّخاذ أيّ قرار نهائي.

ـ لا يوجد أيّ إشكال، سأقوم بذلك. هذا جزء من عملي.

ـ اعذرني عن جهلي، ولكن ما هي مثلاً مراحل عمليَّة الحرق؟ لست خائفة من شيء، ولكنّي أريد أن أعرف فقط.

ظلّ هادئًا ومستكينًا. لم يثره سؤالي ولم ينزعج منه. كان يتحدَّث بآليَّة وبتجرُّد كبيرين.

ـ بسيطة يا مدام. يوضع الميت في التابوت بعد أن يؤنّق، أو يُعرس كما هو دارج في لغتنا. يفترض طبعًا أن يكون قد اختار ألبسته التي يريدها، أو نلبسه نحن، كما يريد. يوضع التابوت على الحصير الآلي الذي ينقله نحو الفرن الكهربائي، الذي يسمى في لغتنا: الكريماتوريوم Crématorium ، الذي يعمل إلى درجة ٨٥٠ مئويَّة مما يسمح بتبخر القطع الخشبيَّة للتابوت والجسد الذي يتحوَّل إلى غاز وغبار خفيف، ولا تبقى منه إلا العظام التي يمكن الاحتفاظ بها كما هي لدفنها على الرغم من هشاشتها، أو طحنها ووضعها في أوانٍ فخّاريَّة أو نحاسيَّة أو رخاميَّة مخصّصة لذلك. لدينا كلّ الأنواع وهي

مــوجــودة على المطويّات الدعــائيَّــة التي سلّمناها لك بصــورها وتشكيلاتها.

ـ رأيتها كلّها، واخترت الرخاميَّة لأنَّها الأفضل، ثم إنَّ الرخام مادة نبيلة وحيَّة. قرأت في أحد الكتب أنَّ الأميرانديان(١)، أو هنود أميركا، كانوا يأكلون رماد الميت للتمكُّن من الدخول في حالاته التي يعيشها ومعرفة حياته الجديدة ومصاحبته في آلامه.

ـ لم أسمع بذلك من قبل، ولكن لدينا أفضل من أكل الرماد. الاحتفاظ بالماس بدل الميت. مقترح لم يحدِّثك عنه والدي لأنَّه لا يعرفه جيِّداً. فقد استفدنا من التكنولوجيا الجديدة التي يمكنها أن تحوِّل جسد الميت إلى ألماس أزرق مستخلص، يمكن الاحتفاظ به المدّة التي نشاء. لقد بقيت في ألمانيا مدّة تجاوزت النصف سنة للتدرّب على فرن جديد للحرق. الألمان هم أعظم من طوّر الأفران، فقد راكموا خبرة لا يُستهان بها. ذاكرة الحرب العالميَّة الثانية تحتفظ لهم بذكرى سيّئة، ولكنّ الحاضر يدين لاكتشافاتهم بالكثير. مهما يكن، فنحن لا نسيّس هذه الأمور وبراغماتيون إلى أقصى الحدود. الفرن الجديد مجهّز بكل وسائل الحرق والضغط. في لحظة التشغيل في درجة حرارة تصل إلى ١٧٠٠ درجة مئويَّة، يحدث ضغط مهول في عمق الفرن، يصل إلى ٦٠٠٠٠ كيلوبار. بهذه العمليَّة المعقّدة يمكن أن نصل إلى صفاء الكاربون من شوائب بقايا الرماد البشري إلى حدّ كبير. هذه التقنيَّة تسمى تقنيَّة HPHT والتي تعتمد على تقنيَّة الضغط الأقصى. فهي لا

١ ـ Amerindians

تنتج في الوقت الحالي إلا الألماس الأصفر والبرتقالي والوردي والأزرق خصوصاً، والصافي إلى حدّ كبير، على الرغم من الشوائب القليلة التي لم نستطع التخلّص منها بعد. جمالية هذه الطريقة هي أنَّه يمكن الاحتفاظ بالميت على الطاولة، على الحائط، على الصدر أو في أيّ مكان. بعض النفسانيين يستثقل ذلك لأنَّه في نظرهم يمنع الأقرباء من عيش الحداد مرة واحدة ثم العودة إلى الحياة، لكنّ آخرين يرون أنَّ وجود شيء حيّ من الميت يقوّي الرابطة والذكرى ويمنحها حياة دائمة. السعر طبعًا يختلف لأنَّ التقنيَّة الجديدة مكلفة جدًّا ولا نقترحها إلاّ على الميسورين والفنّانين.

وهو يتحدَّث بحماس كبير، كنت قد بدأت أعوم في البياض المعمي للنظر. كان يتحدَّث وكأنَّه يلقي محاضرة في علم الذرّة أو تركيبة الجينات البشريَّة، بحياديَّة مقلقة وغريبة. سألته:

ـ هل أنت مرتاح في هذا العمل؟

أجاب بذكاء وفطنة كبيرين وكأنَّه فهم قصدي جيِّداً:

ـ نعم. أحبّ عملي وأتحمَّس له، وأقدِّم خدمة جليلة لكلّ من يحتاج إلى عملنا، ونطوّر من أدواتنا لأنَّ المنافسة أصبحت ضارية في مجالنا، وكثر الدجّالون الذين يدّعون احترام الميت ومصاحبته في لحظاته الأخيرة، وهم يكذبون. وقد طوَّرنا مشروعنا لهذا الغرض وحدَّثناه. كلَّفنا ذلك الكثير ولكنَّنا لسنا نادمين. زبائننا كثر، من أحد رؤساء الولايات المتحدة، إلى سينمائيِّين مرموقين وفنّانين كبار، إلى الأغنياء العاديّين الذين يحلمون أن يتحوَّلوا إلى ألماسة ثمينة توضع

في عنق من يحبّون وفي أذنيها. انتهينا منذ مدّة قصيرة من بناء ورشة صغيرة لتقطيع الماس المستخلص من الأجساد وتحويله إلى أقفال أحزمة أو أقراط، أو ماسات محاطة بالذهب تعلّق على الصدر، بحسب رغبة الزبون، فهو السيّد في مثل هذه الحالات ولا نفرض عليه أيّ شيء.

حديثه المتماسك والمغري، يعطي شهوة كبيرة للموت. فكَّرت في خالتي دنيا، مامي المسكينة، التي أفتقدها وأشتاق لها كثيراً. فقد كانت هي أمّي الصغيرة في غياب أمّي الفعليَّة. كان يمكن أن أحتفظ بها بشكل دائم. ولكنّي سرعان ما طردت الفكرة من رأسي، مامي تملك عرش القلب بكامله ولا يوجد من ينافسها فيه.

ـ طريقة عالية في صناعة الموت، ومدهشة. شكرًا. أفضِّل أن أتحوَّل إلى رماد لأسهّل نقلي إلى أرضي البعيدة التي لم أصلها وأنا حيَّة.

ـ كما تريدين سيّدتي. نحن في الخدمة.

عندما وصل محاميّ الذي يحتفظ بوصيّتي كاملة وبما يجب فعله بمالي ورمادي، وقَّعت في حضرته على عقود الحرق والرماد وعلى الشيك لتغطية كلّ التكاليف. عندما وقف كريستوف عند الباب، وكنت قد انهمكت من جديد في الرسم، قال:

ـ ما زلت مصراًّ على أنَّ الحياة غير عادلة. لا أريد أن أشرح، أنت ذكيَّة جداًّ يا سيّدتي وتفهمين قصدي.

لم أطلب منه طبعًا أن يشرح لي. مرّة أخرى فهمته جيِّداً.

ـ شكرًا على كلّ شيء، سلّم لي على السير جون كلارك. قل له إنّي أحتفظ له بذكرى طيّبة، فقد فتح عينيّ على عالم لم أكن أعرفه أبدًا.

لا أدري كيف خرجت الجملة من فمي.

ـ سأفعل.

قالها ثمّ غاب عن بصري.

قبل أن يغادر كريستوف المستشفى وأسمع محرِّك سيارته وهو يضجّ بقوة، كنت قد عدت بسرعة إلى الاندفان في ذلك البياض القاسي الذي يُفقد الأشكال حدودها، وإلى الألوان المرتبكة، المتداخلة التي كانت هذه المرّة تهرب من يدي وتفلت بلا نظام ولا رقيب، وتلمع تحت أشعّة الشمس التي كانت تنزلق من حين لآخر، من عمق كتل الغيوم.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الخميس ٣٠ سبتمبر ١٩٩٩

لكلّ شخص أشباحه التي يظنّها ماتت منذ زمن بعيد، لكنَّه يفاجأ بها تشرب معه قهوته الأخيرة أو تتنفَّس هواء البحر في شرفته نفسها، عندما يصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت. تستيقظ كلّها دفعة واحدة وتقف على رأسه مطالبة إيّاه بمعرفة أسرارها التي ظلَّت حبيسة لديه. التاريخ مثل الثعلب الماكر، يصمت زمنًا ولكنَّه سرعان ما يدركنا عندما نتعب من حمل الحياة الذي يُثقل ظهورنا. ولن نتخلَّص منه مهما حاولنا الانفلات. أقوى من كلّ شهواتنا وإراداتنا.

الآن هدأت كلّ العواصف بما في ذلك عاصفتا الحياة والموت، وأصبح بإمكاني أن ألمس الأشياء الغامضة بمسافة أكثر وبخوف أقلّ وبكثير من الوضوح. يبدو لي أنَّه أصبح بإمكاني أن ألمس الجوهر أو على الأقلّ أحاذيه وأحسّ به.

دائمًا هكذا. لا يمكن أن نبدأ شيئًا جميلاً من دون أن نخسر جزءًا منه؟ كلّ شيء بدأ في حياتي مبتوراً إلا يوبا، فقد كان أجمل إنجاز في حياتي.

فكَّرت أن أنسى الموت بشهوة الكتابة. الإصرار على فعل أيّ شيء يضع الخوف من النهايات، ورائي. بهذه الكرّاسة النيليَّة الطفوليَّة، سأقاوم جبروته وسأمدّد في عمري بعض الشهور كي لا أموت في أيلول، أجمل شهور العمر. الشهر الذي أحبّه وأريد أن أعيشه كما نعيش لحظة سكر غير محسوبة. أكثر من ذلك كلّه، سأقاوم لكي أرى خاتمة القرن العشرين. أعرف جيِّداً أنَّها ليست خاتمة سعيدة ولكنِّي أشتهي أن أعيش انغلاق قرن على نفسه قبل أن يتماهى في العدم، حالة لا تتوفّر دائمًا. وسأقول لنفسي، وملء فمي رغوة السعادة والأسئلة: هوراه... هوراه... لقد عشت دورة عصري كاملة... كيف سيكون فجر عام ٢٠٠٠؟ وكيف ستكون وجوه الناس؟ أفراحهم، أحزانهم وتمنياتهم؟ أشدّ على هذه الكذبة الجميلة بكلّ أسناني لكي أستمرّ حتى ألامس بعيني المتعبتين ذلك الفجر الذي يحاول أن ينفلت منِّي.

لقد كانت كلّ حياتي عرضة للضياع في اللون، ولم أجرّب الكتابة إلا نادراً. حرت كيف أعنون هذا الشطط وهذه الآلام التي لا أجد لها ما يصرفها عنّي غير المورفين الذي يمنحني سكرة معطِّلة أحيانًا للتفكير. وفجأة راودتني فكرة، شعرت أنَّها تستحقّ أن أهتمّ بها. تذكّرت اجتهاداتي الطفوليَّة وبدأت ألعب ثم أغوتني اللعبة عميقًا.

فقلت لماذا لا أضع مثلاً عناوين لوحاتي كعناوين لمحطّات أوراقي النيليَّة؟ فهي أجزاء حيَّة من حياتي. ألواني كانت رفيقي الأكبر في هذه الدنيا الصعبة والقاسية. وسيلتي الجميلة لمقاومة موت لا أستطيع حياله فعل الشيء الكثير. سأجعل الكلمة تسند اللون في هشاشته، لتذليل الموت نفسه وتجريده من أسلحته الفتّاكة وهواجس الانطفاء التي تجتاحنا كلَّما تعلَّق الأمر بالنهايات التي نرفضها. بعدها بدت الأمكنة أكثر تعبيراً. المستشفيات. لأنَّ الموت هو فقدان للمكان والزمان والدخول في دائرة لا تستقرّ على أيّ شيء.

لقد صار الموت حالة مؤكَّدة ورحيلي مسألة وقت، ساعات... أيّام... وفي أحسن الأحوال، شهور قليلة؟ لكنِّي لست مستعدّة للتسليم في أشيائي الثمينة بسهولة ومنها الحياة، ذلك العود الراشي الذي علينا أن نلتصق به كالحشرات حتى لا يجرفنا تيّار الموت.

أقاوم، ولكنِّي صمّمت أن أوقف الكذب على نفسي.

يبدو لي الآن أنَّ كلّ شيء انتهى وبدأت ألملم آخر حوائجي الصغيرة لترك البيت نهائيًّا كما كانت تقول مامي. فالموت هذه المرّة لن يكون سخيًّا معي ولن يأخذني على أجنحة فراشات القدس المفتوحة عن آخرها، مثلما حدث في المرّة الأولى عندما سحبني خالي الأكبر أبو شادي، اللّه يرحمه ويوسّع عليه، من مدرسة طانت جينا في الحيّ المسيحي بالقدس، وجاء بي إلى بيروت في مهمّة خطيرة لإنقاذ والدي، بابا حسن الذي خلت في لحظة من اللحظات أنَّ حياته كلّها كانت على كتفي، ولو طلب منّي يومها أن أذهب نحو الجحيم لإنقاذه لما

تردَّدت لحظة واحدة. فقد كان كلّ شيء بالنسبة لي لأنَّ والدي يومها لم يكن يشبه أحداً. في خلوتي، أبكي أحيانًا لأنَّ ذلك الأب فقدته بمجرّد ما تخطَّيت أدراج السفينة ومعابر إليس آيلند، حتى قبل أن يهرب نحو برد سياتل ومعامل الخشب، قبل أن يستقرّ به الحال في مينائها الضخم. أحسست يومها أنّي أدّيت مهمّتي، ولم يعد ممكنًا أن أتحمَّل ثقلاً كبيراً كان يتجاوز طاقتي بكثير.

أنت يا يوبا لم تبك لأنَّك لم تفقد والدك، ربما لأنَّك لم تعرفه، أو لأنَّك بكلّ بساطة لم تعرف كونراد إلا من بقايا الجنون الذي خلّفه فيك. كان رجلاً جميلاً قبل أن يختار مدافن البحرين، يختبر أسرارها، وطين البحر الميت. اختار أن يموت في العالم الذي صنعه وشيَّده من هبله وجنونه ولم يطالب الحياة بأيّ شيء. كان دائمًا يقول: الحياة وُجِدت لتُعاش لا لأن تُشتم. عبث أن نضيِّع وقتنا المحدود والثمين في لعنها وتأنيبها. أما أنا... فشيء آخر. فقد خسرت والدي يوم أنقذته من موت كان محتومًا، أو هكذا صُوّر لي على الأقلّ. كم أشتاق إلى بابا حسن يا يوبا، وكم أشعر ببعده وتماديه في بحر الظلمات؟ لقد مات حيًّا قبل أن يموت بالفعل، وقبل أن أعبر الدروب المظلمة والبوابات الثقيلة التي شيَّدها الموت منذ بدء الخليقة، وأتحوَّل إلى غنيمته الجميلة التي سهُل عليه القبض عليها أخيراً. قرَّرت أن لا أصبح غنيمته كما اشتهاها لدوده وترابه الغريب. ولكنّي سأكون عشيقة النار. لست مؤمنة كثيراً بأنَّ النار تصفّينا من الآثام، من هذه الناحية جسدي خفيف ولن تجد النار ما تأكله. لكنّ رمادي إذا وضع

في أمكنته الحقيقيَّة، سيتسرّب في قلب النباتات والزهور وألوان الفراشات، وسأظلّ حيَّة في تغريدة العصفورة كما كانت تحكي لي أمّي، وفي شقائق وردة العشّاق، وفي نسغ النباتات. نحن لا نموت عندما نختار موتنا، ولكن نموت عندما نقبل بالنهايات التي تفرضها علينا الأقدار.

والدي، بابا حسن، شبحي الذي لن أشفى منه أبداً، هو طعنتي الجميلة في عمق القلب الهشّ. وربما كنت كذلك بالنسبة له. فأنا في النهاية لم أفعل إلا ما اشتهيت فعله، وربما هذا مقتل يقينياته الدائمة.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الجمعة ١ أكتوبر ١٩٩٩

الكثير من الأشياء تربكنا وتضعنا على الحوافّ الأكثر قسوة، حيث لا ننتظرها. وصلتني هذا الصباح رسالة من غاليري سيتي ويذاوت وولز، بنيوجيرزي، تؤكّد على احتفاظها بالمعرض في التاريخ المتّفق عليه، وأنّه بإمكاني، عند الضرورة القصوى، الاعتماد على لوحاتي القديمة. الغاليري رفضت التأجيل لأنَّ البرنامج وُزِّع منذ أكثر من ثلاثة أشهر وتمّ تجنيد كلّ الهيئات الخيريَّة التي يهمّها أمر هذا المعرض. وتمّ الاتفاق مع شركة البيع في المزاد. على الرغم من إلحاح يوبا عليّ بالراحة قليلاً والاكتفاء بما أنجزته سابقًا واللوحات الموجودة لدى الأصدقاء، إلا أنِّي رفضت لسبب بسيط. رفضت دائمًا المشاركة في معرضين، بلوحات متشابهة، كما يفعل الكثيرون. أومن بأنَّ كل معرض هو تجربة خاصة ورحلة في الألوان وإحساس لا يتكرَّر أبداً. وإلا

لماذا نعرض من جديد، إذا لم نبدع شيئًا جديدًا؟ ثم إنَّ رغبتي الكبيرة في مساعدة الأطفال المرضى بالسرطان، لا توصف. أكون أسعد مخلوقة في الدنيا إذا تمكَّنت، بفضل ألواني، أن أنقذ طفلاً واحداً وأمنحه حياة جديدة. الحياة رهان لا يعوَّض أبدًا. قضيت اليوم كلّه في ترتيب ألواني وأحلامي التي لم تتأثَّر بالمرض وظلّت متّقدة، بل زادت شعلتها قوّة. أعطيت لمعرضي عنوانًا شموليًّا: **لايف باور**[1] (سلطان الحياة). لديَّ رغبة كبيرة لرسم سلسلة من اللوحات، لا أفكِّر فيها كثيرًا، ولكنِّي سأترك الفرشاة هي التي تقودني مثلما كانت تفعل معي فراشات القدس داخل السواقي، وفي حقل جدّي وأخوالي التي تتظلّل بجبل الزيتون. لقد تعبت من التفكير، ولهذا أشعر برغبة لا تُضاهى في الكتابة، في هذا الصباح الجميل الذي يعلن عن ميلاد شهر جديد. شهر آخر من الحياة الهشّة.

ما الذي يدفعني الآن نحو الكتابة؟ الموت؟ ربما.... الرغبة في الحياة... ربما كذلك، وإلا لماذا نكتب إذا لم يكن المعنى الكبير هو استمرار الأشياء حتى عندما نندثر؟ أشعر أحيانًا بأنَّ الألم هو الذي يجعلني أتكلّم وأصرخ بصوت مكتوم. وكلّما تعلّق الأمر بالكتابة، انتابني السؤال الخفيّ الذي لا سلطان لديَّ عليه: ماذا سأكتب؟ ومن أين سأبدأ؟

هويّتي مبهمة، هكذا يبدو لمن يستمع إلى من يناديني. لم يتّفق اثنان على اسمي: جدّي كان سعيدًا أن أسمَّى بأحد أسماء

---

١ ـ Life Power

جدّاتي: مريم. لم يكن يسمع جيِّداً. عندما قيل له سميناها مي، قال: مريم. نِعْم الأسماء، ثم ركض نحو البلديَّة وسجَّلني باسم لم ينادني به أحد بعد وفاته. خالي غسان سمّاني صافو بالاتفاق مع والدي، تبرّكًا بامرأة نبتت في أرض أجدادي الأوائل من البربر والفينيقيين، كان اسمها سوفونيسبي Sophonisbe، تقاتل عليها الملك النوميدي ماسينيسا وغريمه سيفاكس، قبل أن يسحل الأول الثاني عند بوّابات سيرتا، استرضاء لروما. اختارت صافو، كما كان يناديها خالي، فراش سيفاكس لأنَّه كان الحلقة الأصدق والأضعف والرافض للاحتلال الروماني. عندما سُرق منها حبّها الأول بقوّة السيف، انتحرت بين يدي ماسينيسا خوفًا من أن يتزوَّجها أو يسلِّمها لروما كعقاب لرفضها له. لكنَّ والدي وخالي انصاعا في الأخير لرغبة أمّي التي أصرَّت على اسم مي. مي؟ مايا؟ مريم؟مانو؟ ميشا؟ ماريوشا؟ كنت دائمًا أقول في خاطري: أيّ اسم سيلتصق بي عندما أكبر؟ معلّمتي في المدرسة كانت تناديني مانو لتدليعي منذ أن قلت لها بأنَّ كلمة مانو التي كانت تناديني بها أمّي من حين لآخر لتدليعي، جاءتنا من لغة أجدادي الأندلسيّين وتعني في معناها الأول: الحظّ: **مانو اطلعي للصبّورة؟ مانو ورجينا شو بتعرفي؟ هذا السؤال موجّه لمانو ما بدّي حدا يجيب بدلها؟ شو بك منّوشتي اليوم، مانك عاجباني؟** ومثلها كان يفعل أصدقائي القريبون في المدرسة ما عدا يوسف، حبيبي الذي سرقته الأقدار الصعبة منّي، ظلّ يناديني: مي. وعندما يريد أن يغضبني يناديني ميَّادة، اسم إحدى مجنونات القدس التي كانت تشتم كلّ من تصادفه في طريقها.

«وينك يا خالتي ميَّادة ما شفتك امبارح؟ بتحبّي نروح نلعب حدّ الزيتونة؟

ميَّادة، يا حنُّونة...

نحيفة وطويلة، ومجنونة...

ـ أنت مجرم... وحياتك أكبر مجرم في الدنيا... عمقولك أنا مي، مانو، ميشا، مايا، منوشة، مريم، ماريوشا، يا اللي بدَّك، بس أنا مش مجنونة، فاهم يا آدمي وإلا مخّك عطلان؟

ـ ها الآدمي ما بيفهمش، مشان هيك يناديك... ميادة... يا ميادة... ميادة يا حنونة... نحيفة طويلة... وممحونة».

ثم يغوص في الحقول تحت وابل من الأوراق والحجارة الصغيرة التي أنتقيها لكي لا أؤذيه، حتى يغيب نهائيًّا وهو يكرِّر الكلمة نفسها بلا توقّف.

وعندما يكون غاضبًا منِّي، يقول جملته المعتادة قبل أن ينسحب:

«ما شفنا منك خير يا ميّادة. ما اعرفش ليش مبوّزة على طول، وكأنَّك حاملة العالم على قرنك».

هذه الجملة كانت تزعجني وتضحكني في الآن نفسه، لدرجة أنَّ أوّل شيء كنت أفعله عندما أعود إلى البيت هو رؤية وجهي في المرآة، لأرى الاعوجاج في محيّاي الذي دفع به إلى القول إنِّي مبوزة. أمّي كانت تناديني مي وعندما تضعني في حجرها أو صدرها وتحكّ

على شعري وهي تغني لي: **مانو... يا مانو... أسرق لك من الثلج فستانه... وأقطف لك من قزح ألوانه...** أبي الذي يعشق أشجار اللوز ونوّارها، كان يناديني باسمي: مي. كان يراني دائمًا صغيرة مثل جذع شجرة ناعم، ويتمنّى أنَّ أظلّ هكذا: **أنت لن تكبري ولن أقبل بحبيبتي مي أن تكبر**. جملته الدائمة كلّما خرجتُ معه إلى حقول جدّي الأكبر. **أريد مي هكذا، مليئة بالطفولة والحياة والمطر واللوز الذي يملأ حقولنا، أريد أن تظلّي بضفيرتيك الجميلتين**، عندما أقول له: يا بابا، أريد أن أترك لخيّي القادم حقّه في الحياة. يجب أن أكبر بسرعة لكي يأتي هو إلى الدنيا؟ إذا ظلَّيت صغيرة ما راح يسترجي يخرج من بطن ماما؟ يضحك ويقول: في حالة واحدة، وواحدة فقط. وما هي؟ أسأله. يجيب بلا تردُّد: إذا ارتضيتِ أنت أن يأتي. أجيبه بانفعال وسعادة كبيرين: أنا راضية يا بابا. أنا كمان مشتاقة لخيّي. بينما خالاتي كنَّ ينادينني: **مريوشة**، جامعين بين تسمية جدّي وأمي، قبل أن يستسلموا لنداءات أمّي ويستقرُّوا على اسمي الذي صار يشبهني: مي. كنت مثل أمّي، أحسّ بهذا الاسم أكثر من إحساسي بالتسميات الأخرى بما في ذلك مريم الذي كان له معنى خاصٌّ عندما ينزلق من بين شفتي جدّي: مريم حبيبة قلبي، تعالي أحكي لك قصّة الزير سالم وما وقع له من أهوال ومصائب وعجائب... مريومة، ذكريني بما وقع لسيف بن ذي يزن يا اللي حكيتها لك البارحة...

كان لاسمي الأوّل وقع حكايا جدّي ومذاق لغته القديمة.

كانت أمّي جميلة بعينين خضراوين كغابة. ميرا. كانوا يلقّبونها الألمانيَّة بسبب عينيها الخضراوين وجمالها وجسدها الجميل ببنيته القويَّة. حتى أنَّ والدي وجد نفسه ذات يوم بين أحضان ألمانيَّة حقيقيَّة، يقول الذين عرفوها، إنَّها كانت نازيَّة وكانت ترفض استقبال اليهود في المستشفى الألماني القديم في القدس، أو تتركهم ينتظرون حتى يصيبهم التعب فيعودون من تلقاء أنفسهم إلى بيوتهم أو يموتون من كثرة الانتظار.

ارتباك هويتي لم يكن مهمًا، ولم أكن معنيَّة به كثيراً، ولكنِّي كنت دائمًا قريبة من أشواق أهل حارتي من المحتاجين للمساعدة. شيء داخلي فيَّ كان يرفض رفاه أخوالي الذين تمدَّدت أراضيهم ومساكنهم خارج أسوار القدس، وصلابة أعمامي وقسوتهم على أنفسهم وعلى غيرهم. ولهذا عندما كبرت وحُرِمت من صوتي الذي كان يشتهي أن ينتفض ويغنّي، غرقت في الألوان وحاولت أن أنسى كلّ ما كان ينهكني ويتعبني. أخذت ذلك كلّه من أمّي التي كانت ملتبسة بالألوان. كنت كلّما رأيتها في لباسها الفلسطيني المليء بالمزركشات والموتيفات الحيَّة والنوّار، اعترتني رغبة في أخذ الفرشاة بجنون وتغميسها في لباسها ورسم أشكال مجنونة من ألوان فستانها. عندما كنت أسرّها بالفكرة الشيطانيَّة التي كانت تدور في رأسي، تضحك منِّي طويلاً قبل أن تحملني بين ذراعيها ونتوجَّه إلى طانت جينا. بمجرّد ما ندخل إلى مدرستها، تفرغ ما في قلبها لجينا وهي لا تستطيع أن تكتم ضحكتها التي تسمع من بعيد وهي تتفرقع كالملحة:

ـ شايفة يا جينا هيدي المصيبة؟ شايفة بشو عمتحلم؟

ـ لا ما بعرف. شو فيه؟ خير إن شاء اللّه؟

تردّ طانت جينا وهي تحاول أن تستفهم أمّي.

ـ حتى تخلّيني معها، الآنسة بتشوف فيني وفي لباسي طاولة ألوان ولا يمكنها أن ترسم شيئًا بدون نقل طاولتها معها يوميًّا. أنا طاولة ألوان؟ تخيَّلي يا جينا...؟

تنظر إليَّ طانت جينا بعينين متسائلتين:

ـ م...م...م... وشو رأيك إذا قلت لك، مي معها حقّ؟ يا ستّي أنت جميلة وحليوة ولباسك كلّه ألوان وموتيفات مدهشة، ليش بدّك إياها تبحث عن غيرك؟ يا اللّه حبيبتي مي بيِّني لماماتك شو بتعرفي.

وأبدأ في خط الألوان مثلما هي مثبتة على لباس أمي. كانت ماما ميرا تساعدني على مزج الألوان بدقّة وبذكاء نادراً ما رأيتهما عند غيرها. كنت أحيانًا أغضب لأني لم أستطع أن أنجز لون ماء النافورة في حديقتنا في القدس، أو لا أجد اللون الحائل لسماء القدس، أو الألوان الداكنة لسوق القطّانين الذي أُنشئ قديمًا ويقع بالقرب من المدرسة الصلاحيَّة، ويبلغ طوله قرابة المائة متر، والذي كان وقتها يبدو لي طويلاً لكثرة الدكاكين المتراصّة على جانبيه، والذي كان مصمّمًا لبيع الأقمشة والبضائع التي كانت أيّام العثمانيين تحملها القوافل التجاريَّة الهنديَّة إلى القدس، قبل أن يهمل السوق تقريبًا وقبل أن

يُعاد ترميمه ويتحوَّل إلى مركز لصناعة الحياكة والنسيج؛ وسوق العطّارين الذي يقع اتجاه حمّام السلطان، داخل أسوار البلدة القديمة ويشتهر ببيع أنواع العطور التقليديَّة والأعشاب والتوابل؛ وقلعة باب القدس التي تقع عند باب الخليل في الزاوية الشماليَّة الغربيَّة من المدينة، وكانت تشمل في الفترة العثمانيَّة على مخازن وسجن وسكن وإسطبلات وأبراج مخصَّصة للمراقبة. علَّمتني أمّي وطانت جينا المشي في كلّ الأماكن ومعرفتها بدقّة والتنبّه للتفاصيل التي نمر بالقرب منها ولا نعيرها أيّ انتباه، وهي مهمة جدًّا، مساجد ومقاه وحارات وكل ما كانت تزخر به المدينة، فقد كانتا عضوتين مهمّتين في جمعيَّة **محبّي القدس** التي حافظت على معالم المدينة القديمة. أتذكر أنِّي سمعت يومًا أمّي تقول:

«إن الجمعيَّة قدّمت إلى دائرة الأوقاف مبلغ مائتين واثنين وثلاثين جنيهًا مساهمة منها للقيام بالإصلاحات الأوليَّة لمسجد قبّة الصخرة، وحافظت على المدينة التي كانت متهالكة وفي طريقها إلى الانهيار الكلّي. كانت الأعوام الثلاثة السابقة لسقوط القدس من أحلك وأقسى الحقب التي مرت بها المدينة. ففي سنة ١٩١٥ بدأ الأسطول البريطاني ضرب مدن الساحل الفلسطيني وتمّ تهجير قسم كبير من الناس إلى القرى والمدن الداخليَّة بما فيها القدس. وافق ذلك بداية التعبئة في الجيش العثماني وإرسال أبناء فلسطين إلى الجبهة الأماميَّة التي كانت تُسمّى جبهة الموت، حيث هلك الآلاف منهم. وتمَّ قمع الحركة الوطنيَّة والتنكيل بأتباع التيار اللامركزي المكوَّن من العرب والأقلّيات الأخرى».

« ثم بدأت المجاعة في لبنان وانتقلت منه إلى مدن سوريَّة وفلسطين. لم تكن المجاعة نتيجة القحط وإنّما جاءت بعد أن بدأ الجيش الرابع، بقيادة جمال باشا، مصادرة القمح والحنطة لمصلحة الجيش في ربيع ١٩١٦. كان الفقر في بيروت مرضًا قاتلاً إذ كانت تنتشر على طرفي الطريق الرابط بين الثكنة العسكريَّة في رأس بيروت وساحة البرج في مركز المدينة، العشرات من الجثث ملقاة، تنتظر أن تأتي عربة البلديَّة لتنقلها إلى حيث تُدفن. وكان الناس يقفزون فوقها لتفادي رفسها والمرور عليها. وكأنَّ المجاعة لم تكفِ، فجاء الجراد، مما عقَّد الوضعيَّة أكثر. في شتاء ١٩١٨ جاء إلى القدس عدد كبير من أهالي شرق الأردن، سلطيّون وفحيصيّون وغيرهم، وذلك عندما قام الأتراك والألمان بهجوم معاكس استردُّوا فيه السلط والفحيص وانحدروا إلى أريحا، فهرب أهلها ليلاً قبل وصول الألمان والأتراك. ودخلت القوّات الألمانيَّة إلى أريحا وهدّدت بالزحف على القدس، وقد حسب الأهالي ألف حساب من نقمة الأتراك. فوصلت ليلاً العديد من العائلات المعروفة التي فقدت كلّ شيء، كعائلات القزاز ونزال وصليبا وسعد وغيرها. لقد أصبحت هذه العائلات نكبة على القدس إذ كثر تشكّيهم وحقدهم. فكان القاضي علي بك عندما يكون في سير قضيَّة ما لهؤلاء المهجّرين، يسألهم بجفاء من شدّة غضبه منهم:

ـ أبويْ، أنت من وينْ ؟ من السلط أم من الفحيص؟

ـ من الفحيص يا سيدي.

ـ اللّه يردّكم إلى بلادكم سـالمين أبويْ. اللّه يردّكم سـالمين لتتخلّصوا منّا ونتخلّص نحن أيضًا منكم، أبويْ.

ثمّ يقفل الملفات على غرامات ماليَّة أو أحكام ترضي كلّ الأطراف.

وعندما اكتظت القدس بالهاربين من هذه المصائب، انهار كلّ شيء، الناس والعمران الذي لم يعد يملك قدرة على المقاومة. فقد جلب الوافدون ضيقهم وخوفهم وبؤسهم وخرابهم وطريقة عيشهم القاسية، التي لم تكن توائم النمط المديني أبداً. فقد دمّرت الكثير من الأماكن الأثريَّة وحوَّلت إلى زرائب للحيوانات وأثافي للطبخ».

كان انشغالي دائمًا وأنا طفلة هو كيفيَّة جعل الألوان تنطبق على أصوات الناس وروائحهم. استحالة أخرى أضفتها إلى الأسئلة التي ظلّت عالقة في ذاكرتي وسبق أن طرحتها على أمّي. لم أكن أفهم معنى كلمة الطبيعة الميتة حتى أفهمتني أمّي وطانت جينا وصديقاتهنّ الإنجليزيّات اللواتي كن يزرن بيت جينا ومدرستها. بينما كنت غارقة في الألوان حتى قلبي، كان صديقي يوسف مولعًا بشي آخر. كان كلّما أمر برسم شيء، أنجز شيئًا آخر مخالفًا لما يُطلب منه. في مرّة من المرات كنّا نرسم مربّعات ودوائر ونلونها، رسم هو جرادة بزيّ عسكر الإنجليز. عندما مرّت طانت جينا عبر الصفوف وكانت كلّما رأت تلوينًا جميلاً قالت: حسن... أحسنت... برافو... جميل... حلو... يا اللّه شو ساحر... وعندما وصلت بمحاذاة يوسف الذي كان يجلس دائمًا بجواري، أو بالأحرى أنا التي كنت أجلس بجواره، لم أستطع أن أكتم

ضحكتي، فانفجرتُ كالملحة المضغوطة، بينما بقيت طانت جينا حائرة فيما يمكن أن تفعله مع يوسف. سألته وهي تحاول أن تفهم قصده:

ـ وين الدوائر والمربعات يا يوسف حبيبي، أنا ما عم شوف شي؟ مو اتفقنا على احترام ما يطلبه منّا المعلم وإلا ما راح نتعلّم أيّ شي؟ ما عمشوف الدوائر والمربّعات؟

ـ هي هون يا طانت. أنظري جيِّداً... أنظري...

تعود إلى مكتبها. تأتي بالنظّارات وتضعها على عينيها. تتعمَّق التفاصيل الدقيقة. ترى بالفعل أنَّ الرسم برمّته قد بُني على المربّعات والدوائر. لا تقول شيئاً ولكنَّها تفتح فمها باندهاش من دقّة التفاصيل التي كان يعجّ بها رسم يوسف، بينما يستمرّ القسم في الضحك والسخرية وهو يردّد: إنجليزي في شكل جرادة؟... مش معقول... يوسف لم يكن معنيًّا بالغير وهنا كانت قوّته. لو كنت مكانه، لبكيت طويلاً. تحكّ طانت جينا على رأسه ثم تتوغَّل بين بقيَّة الصفوف... برافو وهي تردِّد بدون قناعة كبيرة على ما يبدو... حلو... جميل... جميل... واصلي... في أعماقها حيرة من طفل كانت دقَّته فوق كلّ شيء.

عندما أسأله في الخارج:

ـ ليش رسمت هيك بلادة. ما بتعرف ترسم مثل جميع الخلق؟

ـ البلادة هي الأشكال اللي ما إلها طعمة. وما يحيط بنا مليء بهذا النوع من الأشكال. مخّي ما عميطاوعني؟ أردت بس أن أعبِّر بوسيلة الدوائر والمربعات، أيّ عيب في ذلك؟

بعد زمن قصير، اكتشفت أنَّ يوسف كان على حقّ، و أنَّ كل القسم كان غبيًّا، فزاد حبّي له.

أصبحت بسرعة مثله، بل صرت أقلِّده. فلم تعد علاقتي بالأشياء سطحيَّة كما كانت من قبل. صرت أقرأ التفاصيل في عمقها الخفّي في وقت مبكّر. كلَّما رأيت فرداً، حوَّلته إلى نقاط صغيرة في شكل مربعات ودوائر في رأسي لأرى في النهاية هل له معنى أم لا. صارت أمّي دوائر ومربَّعات صغيرة، وطانت جينا وأخوالي وأصدقاء القسم، وسكّان حارة المغاربة والمصلّون الذين يتوافدون نحو الأقصى بالآلاف، كلُّهم مربّعات ودوائر. ولم يفلت من خزرتي إلا والدي الذي لم أجد له وسيلة لتفتيته، فقبلت به كما هو لأنَّه كان في أغلب الأوقات بعيداً عنّا وملامح وجهه غير واضحة.

لا أدري إذا ما كان لذلك دور في توجُّهي النهائي نحو الألوان، لكنِّي في أعماقي كنت دائمًا أشعر بنفسي مدينة كثيراً لطانت جينا التي علَّمتني مزج الألوان واستنطاقها، وليوسف الذي فتح عينيّ على التفاصيل التي لم أفهمها إلا متأخِّرة. فقد وجدت لذّة لا تُضاهى في اللعبة، جعلتني، مع الزمن، أحبّ درس الرسم أكثر من كلّ الدروس الأخرى.

أشعر أحيانًا بأنِّي مطالبة باسترجاع أرض سُرق منها اللون قبل أن تُسرق تربتها. متشظِّية في الأعماق بين أوطان متعدِّدة، وطن كان اسمه فلسطين، فأستعير له بالقوّة اسمًا آخر لا علاقة له بوجداني، ووطن ثان منحني القدرة على الحياة والحريَّة، اسمه أميركا، ووطن

خفيّ لا يراه أحد غيري، تماماً اسمه الطفولة، توقّف عن النمو في وقت مبكّر ليقفز أعواماً سريعة نحو الجفاف والخوف. أرى فيه كلّ الناس الذين كنت أحبّهم. كانت أمّي تقول لي دائماً عندما أسألها عن أختي لينا التي لم أر وجهها إلا في الأحلام: متى أرى لينا يا يمّا صحّ وصحيح؟ ما بدّي أشوفها فقط في الأحلام. تبتسم ميرا، ثمّ توشوش في أذني: بس بتكبري شويّة. لينا الآن طائر في السماء، سيأتي وقت وتلتقين بها، وستحبّك وتحبّينها كثيراً. ولكن انسحب كلّ شيء بشكل عاصف، ولم أر وطن الطفولة يكبر.

أصبحت أخاف أن أحلم، أو أن أعود إلى أرضي، وأجد كلّ من أعرفهم قد ماتوا أو أصابتهم شيخوخة قاتلة لا أتحملها. ويبدو أنّي سأظل ألوّن، وألوّن بلا هوادة، حتى تجفّ عروق يدي، لأشعر فقط بأنّي ما زلت حيّة وأنّ الحياة تستحقّ أن نستمرّ في حبها.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الأحد ٣ أكتوبر ١٩٩٩

قمت على الساعة الخامسة وبي شوق كبير لكلّ ما يربطني بطفولتي. عبرت كلّ ما كان لديّ من صور قديمة عنّي وعن القدس وعن الأهل. لقد تركت لي خالتي دنيا، مامي، الكثير منها. اخترت إحدى عشرة صورة، وضعتها على جنب. لم أكن أعرف بالضبط ماذا سأفعل بها، إذ كان كلّ شيء مغيمًا في ذهني، ولكنّ خيطًا من النور الخفيّ كان يسكرني ويبهرني. انتهيت بسرعة من رسم مخطّط أوّلي لسباعيَّة **حداد الذئاب** التي كنت أريدها أن تقول آلامي الخفيَّة. كانت أوّل شيء فكَّرت فيه قبل أن أطلق العنان لألواني ولأصابعي المرهقة. ثم تركتها وانسحبت نحو رسم **أسرار الكرّاسة النيليَّة**[١] وأنا لا أعلم من أين

١ ـ هي عمل تركيبي معقَّد، مكوَّن من أجزاء فوتوغرافيَّة وتلوينات مائيَّة طفوليَّة. اللوحة عبارة عن كرّاسة كبيرة مفتوحة تخترقها في الوسط ألوان قزحيَّة تنتهي إلى ١١ صورة فوتوغرافيَّة قديمة لوجوه عائليَّة ولمدينة القدس. في أسفل الصورة توقيع مي كوني. اللوحة موجودة اليوم بمتحف الغيتي سنتر Getty Center بلوس أنجلس تحت رقم AZ-130، في قاعة الفنّ الفوتوغرافيّ المعاصر. رقم المزاد: GET.C.SEC.BOK/MAKO/881954.

جاءتني تلك الطاقة الكبيرة التي أنجزت بها العمل وتجرَّأت على وضع بعضٍ من ذاكرتي في صلبها. نسيت مرضي طوال مدّة اللعب بالألوان، ربما لأنَّ قصّتي مع الكرّاسة مرتبطة بشأن ذاكرة تقاوم التفتّت والنسيان. حكايتي مع الكراريس قصّة قديمة. إلى اليوم لا أفهم السرّ الذي تخبّئه. كنت كلّما وجدت ديناراً زائداً، رحت مباشرة ودفنته في دكّان عمي أبو فادي، في شارع يافا. أشتري كرّاسة صغيرة بلولب حديدي، وعندما أعود إلى البيت سعيدة، أملأها بأيّ شيء أراه صالحًا؟ أكتب، أرسم، أخطّط، أدوّن الأرقام، حتى أملأها. وعندما أنتهي أخبِّئها في مكان منسي حيث لا يجدها أحد وقد أنسى المكان أنا نفسي. ربما كان كلّ الأطفال مثلي ولكنِّي كنت دائمًا أشعر أنَّ هناك جاذبيَّة بيني وبين الألوان والأشياء الجميلة التي لا تشبه إلا نفسها.

الكرّاسة النيليَّة شيء آخر. أكثر من مجرّد كرّاسة صغيرة وعاديَّة. هديّتي في بداية تلك السنة التي فقدت فيها أمّي وهُجِّرت من أرضي بكذبة كانت أكبر منِّي. حافظت عليها بكلّ جوارحي لكي تدوم معي لأنَّها كانت خيطي الوحيد مع مدينتي الأولى. كانت نواياي غير سليمة ولم أقلْها لأمّي. كانت الكرّاسة جميلة وكنت أنوي أن أكتب فيها، عندما أكبر قليلاً، رسائلي السرّيَّة ليوسف وأقول له فيها بصوت عال، كلّ ما كنت أقوله لنفسي بصوت خفيّ. كانت أوراقها النيليَّة تدفع بي إلى شهوة كتابة كلّ ما لا يراه أهلي. أخطّ عليها مثلاً كلمة حبيبي التي خرجت من فمي بصعوبة وخفت أن تكون طانت جينا أو أمّي قد سمعتني. كانت الكرّاسة النيليَّة مساحتي وحديقتي السرّيَّة، أو على الأقلّ هكذا كنت أنوي. عندما

نسيت كراريسي في البيت وكنت أظنّها في المحفظة، لم ألمسها كي لا أحدث أيّ تشويش في قناعاتي. صمّمت أن لا يمسّها شيء لا يتحدَّث عن يوسف. يوسف ببساطته المعهودة قال لي عندما شعر بحيرتي لغياب كلّ كراريسي يومها: معك الكرّاسة النيليَّة، طيّب اكتبي عليها ريثما تأتين بالكراريس الخاصّة... قطّعي بعدها الورقة بعد أن تنقليها في الكرّاسة العاديَّة وهكذا لن تخسري شيئًا. استغرب نظرتي الحادّة له. قلت له بشكل جافّ: لا. ولم يصرّ أبداً. كنت أريد أن أعرك أذنه اليمنى التي كانت قريبة منّي لأنّي شعرت به غبيًّا وقتها. التفتَ نحو مربّعاته ودوائره الناعمة ولم يسألني عن السبب. كدت أن أقول له: يا غبيّ لا أريد من هذه الدروس البليدة أن تنافسني في المساحات التي أنوي تخصيصها لك. هو لا يعرف أنَّ أيَّة ورقة منزوعة هي رسالة مسروقة من حبّي له. ربما لأنّي لم أجد الوقت الكافي لأقول ليوسف أحبّك من خلال الأحرف والكلمات، ولكنّي لم أسلّم في الكراسة النيليَّة لأنّي كنت على يقين أنّي سأعود إلى أرضي وأهلي وأقاربي ومدينتي وحيّي. لم يحدث ذلك أبداً وبقيت الكرّاسة النيليَّة عذراء تقريبًا إلاّ من بعض خربشات رحلتي البحريَّة.

لا أدري ما الذي يدعوني اليوم إلى الكتابة في هذه الكرّاسة بالذات التي قد تبدو للناس عاديَّة؟ حتى صورتها على الغلاف لا تثير أيّ انتباه: شابّ وشابّة يقطعان الطريق، أحدهما يقبض على يد الآخر مع ابتسامة عارية وعريضة. وراءهما تشرق شمس رسمت بشكل بليد، مدوّرة، وتضحك بغباوة واضحة. ومن الجهة الثانية جدول

الضرب من واحد إلى عشرة. نصحنا المعلم أن لا نستعمله حتى لا نسقط في الكسل الذي يقلّل من تفكيرنا. وحتى أقبل الغلاف وأحبّه، كنت دائمًا أرى نفسي ويوسف في الصورة. كنت أخاف أن أقول له ارسمنا، أنا وأنت، فيرسم فأرًا وجرادة ويقنعني بأنّي أنا الجرادة والفأر هو، ويدعوني إلى تعمّق الرسم فأعثر على ما يقوله، فأصمت ولا أحتجّ. أعرفه جيّدًا، له دائمًا إجابة لكلّ المشكلات التي يخلقها لنفسه.

أعود إلى هذه الكراسة وأنا أخاف عليها من كلماتي الجريحة ومن اللحظة التي أختم فيها خوفي وقلقي.

ما الذي يدفعني اليوم للكتابة في هذه الكرّاسة؟ اللون الاستثنائي الذي لم أر مثله منذ زمن بعيد، فشكله الحائل يذكّرني بالموت؟ خطوطه الناعمة التي ظلّت كما هي، مثل الأذرع الطويلة المتوازية التي تحوي بينها كلّ شجوني وأحزاني ووحدتي وقلقي؟ ربما الموت الذي بدأ يتنفّس فيَّ وأشعر به يوميًّا في شكل حلقات تسدّ التنفُّس. أحسّ بأنفاسه وهي تقترب منّي كأنفاس حيوان أسطوري، كلّما اقترب، زادت تسارعًا وتقطُّعًا. أو ربما لأنَّ الأمر بكل بساطة يعود لكونها كرّاستي الأخيرة في القدس. بعدها غيّرتِ الحرب وفوضى الموت في فلسطين، كلّ شيء وشوّهت مدينتي التي لا أتذكّر منها شيئًا مهمًّا سوى صوت المؤذّن والتربة الآجرّيَّة التي تشبه الدم أو الجلود المدبوغة ووجه أمّي وطانت جينا. لا أعلم بالضبط من أين جاءني هذا التشبيه. الكرّاسة الأخيرة التي ضممتها إلى صدري وأنا أغادر بيت

طانت جينا لنستقلّ أنا وخالي الأكبر أبو شادي القطار ثمّ السيارة باتّجاه بيروت. كانت رحلة طويلة ومتعبة، ولكنّي لم أنم إلا وكرّاستي على صدري. ربما حلمي هو الذي يدفعني اليوم إلى تجريب استنطاق هذه اللعنة التي اسمها الموت؟ كنت دائمًا أتخيّل نفسي أميرة تنشر العدل وتحتضن الفقراء، لا تشبه البشر في شيء ولا تملك من الإنسان إلا الروح الطيّبة وإلاّ فهي مجرد كمشة من النور لا تموت ولا يستطيع أحد حبسها. ولا أدري من أين جاءتني هذه الصورة المبهمة، من القرآن؟ من العهد القديم؟ من الأناجيل الطيّبة؟ أو من سيّدنا المسيح الذي لم تتردَّد أستاذة الرسم في القول إنَّه ظُلِم حينما منح حياته لبشر لم يكونوا بعدُ بشراً ولا يستحقّونه، يستأهلون سحق الرومان وقبلة يهودا الأسخريوطي الملعونة والكاذبة. لم أفهم قصدها جيّداً وقتها، لكنّي اليوم أدرك جيّداً عمق كلامها.

الآن هدأ كلّ شيء. حتى الموت صار أليفًا ولم يعد مثيراً. الموت يخيف عندما يكون مصحوبًا بالشك ولكنَّه عندما يصبح حالة ثابتة ومؤكَّدة، يُحدِث فينا شيئًا غريبًا، الإحساس بالتآلف مع النفس والرأفة عليها من الانكسار. تخفّف الوطء علينا، الكلمات القديمة التي نسمعها في كلّ ميتة: **إنا للّه وإنا إليه راجعون، سنذهب جميعًا ولن نترك الأحياء وراءنا إلاّ بشكل موقّت.**

الكرّاسة النيليَّة أمامي مثل طائر جريح. أحتاج إلى بعض الصفاء الذهني الذي أفتقده لكي أستطيع الكتابة. عليَّ أنَّ أتذكّر التاريخ

الذي سرق طفولتي في ذلك اليوم الغريب الذي خرجت فيه لأنقذ والدي بدون أن أودّع أمّي. قيل لي يومها إنَّها ستكون سعيدة عندما تعرف بأنّي أنقذت زوجها من الهاچاناه. في الوقت الذي كان القطار يخترق الجبال، والسيّارة تقطع المسافات البريَّة نحو بيروت، كانت المقابر تمتصّ آخر نفس في والدتي وتحرم أخي عليان من رؤية النور. لم أكن أعرف شيئًا من هذا. مأخوذة بحماس الوصول بسرعة إلى بابا حسن قبل أن ينطفئ. كنت خائفة عليه.

كلّ شيء كان يهرب منّي كالريح. عقد من حبّات الرمل الجاف.

الغريب في الأمر هو أنَّنا كلَّما كنّا بعيدين عن مكان الذاكرة، نتذكَّر الأشياء دفعة واحدة، ولكنَّنا عندما نقترب منها يحتلّها فجأة بياض قلق. يستيقظ فينا خوف يمحو كلّ شجاعتنا الأولى. أشعر في أعماقي المنهكة، كأنّي أحمل مرضًا معديًا يخيف التواريخ والكلمات والأرقام. كلّما مددت يدي نحوها تبخّرت وتحلَّلت وضعتُ أنا بين تفاصيلها ولا أعرف حتى كيف أُلقي القبض عليها.

أتحسَّس الآن الموت برؤوس أصابعي وأنا أكتب. إنَّه يقف خلفي كالحارس الأمين وينتظرني لكي ينهي معركته معي، بينما شيء ما فيَّ يدفعني نحو الركض بأقصى سرعة ممكنة. ولا أدري ما إذا كان الموت سيمهلني الوقت الكافي لكي أقول ما كان يُفترض أن أقوله في وقته ولم أقله، مثل أيّ طفلة في سنّي تحلم بأن ترسم الفراشات وأن تطير مثلها في فصل الربيع وفي كلّ الفصول، بحرّيَّة تامّة. فراشات القدس. ياه... من

لم ير فراشات القدس لا يعرف قيمتها وجمالها. فراشات ليست ككلّ الفراشات. كنّا نخرج إلى الحديقة الصغيرة في مدرسة طانت جينا. نتوغّل في الداخل، بين الحشائش والنوّار. تدعونا طانت إلى الصمت قليلاً والعمل فقط بأعيننا وأن لا نتنفّس قدر الإمكان. ثم فجأة تأتي. مهرجان من الألوان. ولا واحدة تشبه الأخرى. ذات المربّعات الكثيرة والدقيقة، ذات الدوائر المتعدِّدة الصغر التي لا تنتهي كلّما تضاءلت، ذات الخطوط الآجرّيَّة المتداخلة وذات الألوان فقط وكأنَّها حفل راقص في قاعة مغلقة لا تقطعها إلا الأضواء اللامتناهية. أشعر بسعادة. أشعر بنفسي أطير معها. وأقسم إنِّي عندما أعود إلى القسم، سأستحضرها كلّها وأرسمها. وفي القسم لا نرسم إلا الأشكال المتشابهة. الفراشات نفسها. جسد وأجنحة ودوائر في الوسط. حتى الألوان التي رأيتها ولمستها، تهرب منِّي دفعة واحدة. ذاكرة الألوان جميلة ولكنّ استرجاعها صعب جداًّ. عندما أقترب منها تضيع حدودها وتذوب، ولا تستطيع حتى ذاكرة حيَّة جمعها. أحاول. أكسر رأسي بعنف. أشتهي أن أضربه على الحائط حتى أسترجع مهرجان الألوان الذي عشته، لكنّ كلّ شيء ينسحب منِّي. تسألني طانت جينا:

ـ هل وجدتِ لونك... فراشات القدس؟

ـ لا... لا يا طانت... يستعصي عليَّ. كلّما اقتربت منه زاد بعداً وكأنَّه يلعب معي لعبة الغمايضة.

ـ حاولي.

أحاول عبثًا، ولا يشفي غليلي إلا البكاء. لم تخدعني الذاكرة ولكنّ يدي وملامسي هي التي فشلت في إيجاد اللون الذي يتراقص بكلّ تفاصيله في رأسي، مختلطًا بألوان قوس قزح وأشعّة الشمس.

كم أشتهي أن لا أنسى شيئًا من قلقي، وأن تتحوّل الذاكرة إلى محفظة صغيرة مثل تلك التي كنت أحملها معي، كلّما توغّلت داخلها، أسعفتني في إيجاد ما أبحث عنه. كانت مخزني ومخبأ أسراري الصغيرة.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الأربعاء ٦ أكتوبر ١٩٩٩

نادراً ما خطّطت لشيء، وكثيراً ما نسفت كلّ تخطيطاتي عندما أغرق في صلب العمل. الشيء الوحيد الذي كان في رأسي هو الأصداء التي كانت تأتيني من بعيد وكنت أتحسَّسها بوضوح. عندما انحدرت الريشة نحو الأسفل لم أكن أفكّر إلا في شيء واحد: كيف أغلّب البسمة على سواد اللحظة وجلافتها. وجهان ذكوريّان ينظران إلى بعضهما البعض على حافّة نهر جفّ ماؤه ومات ناسه ونباتاته والحيوانات التي كانت تريد ارتياده. تبدو في الخلفيَّة صحراء قاحلة لا تظهر فيها إلا الأفاعي والكواسر وهي تنزل من الأعالي بسرعة كبيرة. عندما انتهيت من الخلفيَّة عرفت أنَّ يوسف الذي كنت أنوي وضعه في الواجهة، كان قد اندثر، وعوّضت ذلك كلّه ببياضات شفافة كقشرة بصل رقيقة، لم تغطّ صلابة الوجهين وقسوتهما ولكن

غلّفتهما قليلاً بغلالة جميلة. عندما انتهيت، لم أتحكَّم في صرختي: **آلام يوسف الخفيَّة**[١]. هذا هو العنوان بالضبط الذي كان يهرب من كفّي. كان طبيبي، مستر هيرفي كروث، يقف ورائي، في زاوية الحديقة الصغيرة ويصفّق بهدوء، وعلى ملمحه ابتسامة جميلة:

ـ برافو. بهذه الطريقة وهذا الحماس في العمل ستتركيننا بسرعة. وستغادرين المستشفى بعد أيّام. ماذا نفعل بعد أن تعوَّدنا على وجهك وحركاتك وألوانك؟

ـ شكرًا يا دكتور هيرفي. منذ أن دخلت إلى هذا المكان وأنا أشعر بفيض من الشهوة لفعل كلّ ما أحبّ. فقد شعرت فجأة بأشياء كثيرة تصعد إلى الأعلى، وكأنَّ العلاقة بالمكان غيَّرت العلاقة بالحياة. الإحساس بالموت يمنحنا طاقة كبيرة للعيش.

ـ أعتقد أنَّك فهمت الدرس جيِّدًا، أكثر من الذين قضوا هنا سنوات عديدة. لا قيمة للدواء إذا لم يكن مشفوعًا بإرادة صحّيَّة حقيقيَّة.

ـ يجب أن أشكر المشرفين على معرض نيوجيرسي القادم لأنَّهم رفضوا تغيير التاريخ؟ بدل أن يمنحوني وقتًا إضافيًّا بسبب المرض، خشّنوا رؤوسهم وطالبوني بالالتزام بالتاريخ المتَّفق عليه. وبدل أن

---

١ ـ اللوحة موجودة بمتحف التسامح Museum of Tolerance ضدّ العنصرية ومعاداة السامية، بلوس أنجلس. تم اقتناؤها في سنة ١٩٩٩، من معرض مي الأخير بنيوجيرسي. موجودة تحت علامة: SK667P وتحمل توقيع مي. رقم الشراء في مزاد غاليري ويذاوت وولز: MOT.JOS.PAS/MKON/432.

أسهِّل على نفسي الأمر وأشترك بلوحاتي القديمة، فضّلت أن أخوض تجربة المستشفى بكلّ ما تمنحني من خوف وسباق ضدّ ساعة الموت. هذا المشروع هو علاقتي الكبيرة بالحياة.

ـ سيمهلك وستعيشين طويلاً أكثر ممّا تتصوَّرين.

لم يسألني خالي أبو شادي في ذلك الصباح الخريفيّ الغريب عن رأيي، ولا حـــاول إقناعي أبداً، إذا كنت على الأقلّ أريد توديع يوسف الذي كان يكبرني بأكثر من أربع سنوات. يوم قبَّلني أوّل مرّة، شعرت بنفسي بأنِّي كنت أكذب على أهلي وعلى أصدقائي وأنَّ عمري كان أكبر ممّا كنت أدّعي. فقد شعرت بما يشعر به الكبار، لذّة غريبة تعبر كامل جسدي. حاولت أن أقول لخالي أبو شادي إنِّي أريد توديع يوسف، ولكنَّه جرّني من يدي ودخل بي محطّة القطار، ثم عبر المقطورات الممتلئة بالعساكر. ويوم أقنعت والدي بضرورة السفر إلى نيويورك باتّجاه خالاتي، كنت صادقة إلى أقصى حدّ. في الميناء، كان خالي أبو شادي يسبقنا أنا وبابا حسن، وفي يديه بطاقتان وجوازان. كنَّا نتعقب خطواته بصمت، حتى أدخلنا في عمق السفينة التي بدت لي كبيرة مثل مدينة عائمة.

لا أدري ماذا وقع لي يومها، ولكنِّي طوال الرحلة نسيت كلّ شيء. حتّى أمّي نسيتها لأنِّي كنت على يقين أنَّها ستتبعنا بعد مدّة قصيرة، بعد الولادة. ولم أتذكَّر إلا يوسف الذي سُرِق منِّي. لكنِّي كنت أقول في نفسي بيقين كبير، سأعود بعد مدّة قصيرة وكأنِّي كنت ذاهبة إلى حيفا أو إلى دمشق، عند أهلي. سأعود ليوسف في ألبسة

جميلة وأجنّنه عمداً، قبل أن أتركه يقبّلني في الزاوية التي تغطيها أشجار التوت، بجانب الزيتونة القديمة المطلّة على المقبرة، كما فعل معي في المرّة الأولى. لم أتسامح في شيء واحد، القطّة أميرة التي كنت آخذها معي إلى المدرسة عندما أقضي الليلة عند طانت جينا. أصررت على سفرها معي إلى نيويورك. وعلى الرغم من المناوشات، قفزت إلى صدري وكأنّها كانت تعرف بأنّي سأتركها. اختبأت في الداخل كالطفل الصغير. في القدس وفي بيروت فعلت الشيء نفسه. على الرغم من محاولات تعقيلي لم يستطع أحد إقناعي بتركها ورائي. ولكنّ خالي أبو شادي اتّفق معي على شيء مهمّ وهو أن ألتزم، في حالة رفض الربّان للقطة أميرة، بقبول تركها في البيت. قبلت وأنا لا أدري إذا ما كانت لديَّ حيلة أخرى لتمريرها سريًّا. في الطريق، نسيت كلّ شيء، حتى يوسف؛ ولم أتذكّر إلا كيفيَّة التحايل لإنقاذ أميرة من موت محتوم لأنَّها لا تتحمَّل الحياة بدوني، وما هي الحيل التي عليّ استخدامها لتمريرها؟ وتوصَّلت إلى الحيلة الذكيَّة وهي تكميمها عندما أصل للميناء حتى لا تموء. لم تفعل أيّ شيء، فقد خبّأت رأسها داخل لباسي الصوفي ولم تحرِّك ساكنًا. رأيت خالي أبو شادي وهو يوشوش في أذن الربّان اليوناني على ما أعتقد، ثم وهو يضع في كفّه أوراقًا نقديَّة لا أتذكّر عددها، ولكنِّي أتذكّر أنَّها كانت بالية وتشبه أوراق الصحف والكراسات المدرسيَّة القديمة التي نجدها مرميَّة عند باب المدرسة. لم يسأل علينا أحد داخل السفينة الثقيلة، فقد عبرت أنا وبابا حسن وقطّتي بدون أيّ سؤال مربك. أخافني

حديدها الصدئ وأعمدتها العملاقة ووجوه بعض بحّارتها الخشنين. ومع ذلك، كنت سعيدة جدًّا، فقد حقّقت انتصارين كبيرين على الأقدار. فقد سحبت ورائي قطّتي وأنقذت والدي من موت محتوم، أو على الأقلّ هكذا تصوَّرت. كان كلّ شيء يبدو لي غريبًا ولم أكن قادرة على السؤال، كأنّي كنت في عالم لا شيء فيه إلا الصمت والدهشة والأسئلة المعلّقة. كان آخرون مثلي، في حالة ضياع كلّيّ. بدا لي كأنَّ الناس لا يتكلّمون ولكن يوقوقون مثلما يفعل الدجاج تمامًا ويتفاهمون مع بعضهم البعض على الرغم من اللغات المختلفة. جلست أنا ووالدي في الصالة الكبيرة التي تقع في الطابق الأرضي على ما يبدو، لأنَّ هناك أناسًا كانوا يصعدون إلى الأعالي أو يدخلون إلى بيوتات صغيرة كالعلب ويغلقون على أنفسهم. كنت مندهشة كيف تستطيع سفينة مثل هذه تحمّل كلّ سكان بيروت والقدس لأنّي شعرت في لحظة من اللحظات، بأنَّ مدينتي كلّها كانت ترحل في ذلك الصباح الذي بدا لي غريبًا وثقيلاً ومليئًا برائحة أشمّها للمرّة الأولى، عرفت فيما بعد أنّها رائحة المنفى. للمنفى رائحة تشبه رماد الحرائق التي تأكل شجر العرعار، ورائحة الخميرة والعجائن القديمة والورق الأصفر المنقوع في الماء، ورائحة الفئران الصغيرة التي تعرف الثعابين مواقعها برائحة بولها الحادّة.

في الليلة الأولى بُلت في حوائجي ولا أدري إذا كان الخوف أو الحياء من أبي الذي لم أسمع منه طوال حياتي كلمة في غير محلّها، هما السبب؟ عندما تفطّن لوضعيّتي المزرية، أخذني إلى الحمّام

وغسلني. أبي حمَّمني وللمرة الأولى يكشف عن جسدي الصغير. كنت أضع أصابعي على رأسَيْ حلمتيّ اللتين بدأتا تنفران بشكل واضح، لكي لا يراني. كانت يده ناعمة ورأسه في السماء. نسيت أنَّه والدي وفكَّرت وقتها في يوسف. ثمّ لعنت الشيطان الرجيم، فهربت منِّي وساوسي.

كانت الرحلة طويلة لم أحفظ منها الشيء الكثير سوى وجه والدي الذي بدا منكسراً، أو تلك المرأة التي كان والدي يتفادى الجلوس بقربها ويمنع قطّتي أميرة من الذهاب نحوها. فعلنا مثلما يفعل الناس بدون معرفة السبب. لم يحدِّثني أبي عن أحد، ولا حتى عن أمّي. كلّما سألته، التفت نحو النافذة وغرق في تأمُّلاته في البحر، أو يجيب ببعض الكلمات المرتبكة، هو نفسه لم يكن مقتنعًا بها «**سيلحقون بنا قريبًا إن شاء الله. نامي الآن**».. أغمض عيني وأطلق رأسي على ركبتي أبي ولا أسمع إلا ترترة أميرة وهي تتخفّى في فراشي، وكلّما رأت بحّاراً من بحّارة السفينة، توغّلت داخل صدري وقطعت أنفاسها كآدميّ خائف. أحاول أن أتذكَّر أمي، غريب وجهها انمحى بسرعة كبيرة. أبذل جهداً مضاعفاً. فجأة يأتي وجهها مبهمًا ومغلّفًا بالضباب، وعندما أحاول أن أتفحّصه، أن ألمسه بشوق عارم، ينطفئ وينكسر إلى آلاف الأجزاء كقطعة موزاييك ثم يتلاشى ويغيب. لا أرى شيئًا إلا البياض الذي يشبه الفراغ. ألتفت نحو أبي؛ ما يزال واجمًا في مكانه. ينام بعينين مفتوحتين كالديك. أسأله من جديد، يغمض عينيه ولا أسمع إلا شخيره وشخير تلك المرأة التي

كانت تجلس في الصف المقابل لي، وحيدة. في لحظة من اللحظات فكّرت أن أذهب نحوها وأنام في حضنها وأتركها تعبث بشعري كما كانت تفعل ميرا، أمّي الحبيبة وهي تدندن تنويمة قدميّة:

نامي نامي يا مانو...

أسرق لك مِن الثلج فستانُه،

وأقطف لك مِن قزح ألوانُه،

وحياة ربّي سبحانه،

لأعطي لك قلبي ووجدانه...

نامي... نامي يا مانو...

اللي يحبك ببوسك،

واللي بيكرهك، لا تحزني من شانو...

شعرت أنّها كانت في حاجة إليّ. عندما هممت نحوها، قفز والدي من غفوته وصحبني إلى المرحاض. كان وجه أمّي قد انسحب في البياض الذي كان يكفّن كلّ أشيائي الصغيرة.

أميرة تترتر، ومن حين لآخر تتفحّصني بعينيها المدوّرتين قبل أن تغمض عينيها من جديد لتنام.

لا أسمع إلاّ شخير الناس وتكسّر موجات البحر التي كانت تحرّك السفينة في الاتجاه الذي تشاء. بدت لي الرحلة طويلة جدًّا. فأنا لا أعرف مسافة أبعد من مسافة بيتنا وبيت خالي غسّان الذي اشترى لي

كلّ شيء قبل أن يصطحبني مع أمّي نحو المدرسة المسيحيَّة لتعلُّم الرسم، أوّل مرّة عندما أقنع العائلة بذلك. قال لي وهو يدفن أشيائي الصغيرة في المحفظة الإنجليزيَّة الملوَّنة بمئات الألوان:

ـ بنت أختي تحتاج إلى أشهى الألوان. الموهبة موجودة بقوّة.

لا أدري من أين خرج ولكنَّه كان هناك لتوديعي في محطّة القطار في آخر رحلة نحو بيروت. الوحيد الذي لم أحقد عليه ولا أدري لماذا، فقد وجدت له كلّ أعذار الدنيا. قال وهو يضمّني إلى صدره:

ـ حبيبتي مي، قلبي معك. لا تخشي شيئًا، أهلك أيضًا في نيويورك وخالاتك يشبهن أمّك كثيرًا خصوصًا دنيا، فهي أكثرهنّ طيبة. لن تشعري بالعزلة أبدًا. مهمّتك الكبيرة الآن هي إنقاذ والدك من الهاچاناه. وأنت تستطيعين فعل ذلك.

قلت له بدون إصرار:

ـ خالو! ليش ما تروح معنا؟ القطار واسع.

ـ ليست مشكلة قطار ولكن مين اللي راح يبقى مع جدّو؟ ستجدين هناك، في أميركا، أناسًا يحبّونك مثلنا جميعًا. خالتك دنيا تشبه أمك وستضعك في قلبها مثلما تفعل ميرا معك.

بعفوية رددت عليه متناسية سؤالي الأساسيّ عن أمّي ويوسف:

ـ لكن يا خالي ما فيه حدا بيشبه يمّا ميرا إلا أنا. هكذا كانت تقول لي دائمًا. من بين كلّ إخوتي كنت الأقرب إلى قلبها. الأوّل مات

والثاني مات والثالث مات... ماتت خيتي لينا التي جئت في مكانها كما تقول جدّتي من والدي. كانت لينا أحياناً تؤنّبني كلّما ارتكبت حماقة ما. غفرت لي قبلتي ليوسف بصعوبة لأنّي تركتها تنتظر وراء الزيتونة... من كلّ ولادات أمّي، لم أبق إلا أنا لأنّي كنت أشبه ميرا كثيراً ولهذا كتبت لي الحياة. تقول أمّي إنّها كانت تشبهني في كلّ شيء عندما كانت صغيرة.

فهمت فيما بعد لماذا سالت دموع خالي غسان بحرارة في المحطّة.

أردت أن أسأل أبي: سنسافر إلى أين؟ وأين تقع أميركا يا بابا؟ تفطّنت متأخّرة جدّاً وأنا في السفينة: يوسف سيضحك منّي عندما يعرف أنّي سافرت وأنا لا أعرف أين تقع أميركا؟ سيرسمني في شكل دوائر مضحكة ويضغط على رأسي بمربّع يشبه الصندوق، يسجن فيه مخّي الصغير الذي يجهل الجغرافيا.

تذكّرت خالي أبو شادي، عندما همّ بالخروج من السفينة، قبل أن يتركنا وجهاً لوجه أمام مصير مجهول، طرح عليّ السؤال الذي قضى معي ليالي بكاملها يحفظ لي إجاباته.

ـ مي. عفواً لينا ماركو. إذا سُئلت أجيبي بهذه الطريقة. هذا هو اسمك الجديد. أنت لينا ماركو. بدءاً من اليوم. وأبوك يونس ماركو؟

ـ وأبويا؟ بابا حسن. أخذتني حيرة من أمري. لم يدخل الاسم في رأسي بسهولة. لم يكن الاسم يشبه أبي في أيّ شيء.

اصفرّ وجه خالي.

ـ بهيك طريقة، أنت رايحة دغري نحو التهلكة، أنتِ ووالدك معك. مو اتّفقنا على أنَّ والدك اسمه يونس ماركو وإلا نعود من الصفر؟

ـ أيوه يا خالي. فهمت. يونس ماركو. خلاص؟ وحياتك ما راح أنساه. جرّبني مرّة أخرى.

ـ برافو حبيبتي. بيكفي درس اليوم.

لم أفهم جيِّداً كيف أنَّ تغيير اسم بسيط نكرّره آلاف المرات يوميًّا، يمكن أن يقود صاحبه والذين يحيطون به نحو التهلكة؟ أيّ تهلكة؟ هل كانت فرق الهاچاناه تركض حتى وراء الأسماء؟ وكيف يتسنّى لها قتل الأسماء؟

لم أكن قادرة على استساغة كلّ هذا التجريد. من حين لآخر كان خالي يأخذني على حين غرّة:

ـ شو اسمه أبوك حبيبتي؟ يا اللّه، مثلما اتّفقنا. يا اللّه يا روحي، فرجيني شو اللّي بتعرفيه.

ـ بابا حسن. لا. يونس ماركو. نعم، يونس ماركو.

ـ إنسي نهائيًّا حكاية بابا حسن هذه. أبوك صار اسمه يونس ماركو. صار اسمه إيه؟

ـ يونس ماركو. قلتها بدون أدنى تردُّد هذه المرّة وكأنِّي أخيراً دخلت في عمق اللعبة.

أردت أن أسأله عن أمّي وأخي، ولكنّي خفت أن يغيّر أسماءهم هم كذلك، وتكثر عليّ الأسماء ويصير حفظها مستحيلاً. ثم إنّه طلب منّي أن لا أطرح عليه مثل هذه الأسئلة، وإنّ أمّي ستلحق فيما بعد بنا مثلما أخبرني أبي كذلك، عندما يستقرّ بنا الأمر هناك ويجد والدي عملاً. لم أسأل عن الهناك وأين يقع بالضبط؟ خفت أن يكون الهناك سرًّا من الأسرار التي لا يجب على بنت في سنّي أن لا تنبش فيها.

عندما التفتّ وأنا في عمق السفينة، لم أجد شيئًا ولكنّي رأيت آلاف الناس الذين ركبوا معنا. كان البعض مع نسائهم والكثيرون لوحدهم، ورأيت خالي بطاقمه الأبيض على سلّم السفينة يحادث، كما في المرّة الأولى، قبطان السفينة اليوناني ثم يلتفت نحونا. كنّا متسمّرين في مكاننا قبل أن ينزل سريعًا الأدراج. لم أر إلاّ يده التي رفعها من وراء مئات الأيدي وابتسامته التي اخترقت كلّ الأجساد التي كانت تفصله عنّا وتصلني لتمسّ بقوّة قلبي.

خالي أبو شادي كان مهندس خرائط ويرسم كلّما وجد وقتًا. قُتل بعد مدّة من سفرنا. في البداية قيل لنا إن الهاچاناه هم من اغتاله، لكن فيما بعد عرفنا أنّه قُتل من طرف بعض المتعصّبين الدينيّين والقوميّين بتهمة التعامل مع الإنجليز واليهود. يوم وصل الخبر خالتي دنيا، مامي أحب خالاتي إليّ، بكت كثيراً وبكيت معها حتى شعرت أنّ قلبي كاد أن يغادرني. وشعرت أنّ الموت صار قريبًا منّي. فقد كان خالي أبو شادي في مرتبة أمّي، على الرغم من غضبي منه أنّه لم يقل لي الحقيقة ولكنّه بذل كلّ ما كان في وسعه لإنقاذنا من موت كان محتومًا. عذر أقبله أحيانًا، وفي أغلب الأوقات أرفضه.

لم أكره الموت مثلما كرهته في ذلك اليوم. رأيت في خالي الأكبر أحد أوجهه المظلمة على الرغم من طيبته. احتجت إلى زمن طويل لكي أنسى حيلة خالي أبو شادي لتسفيرنا خارج أرضنا. أشعر أحيانًا أنّي ظلمته مثلما ظلمت أبي، ولكنّي لا أجد تفسيراً للخديعة التي ارتكبوها ضدي وخبأوا عنّي موت أمّي ورموني في قفر لم تكن لديَّ أيّة شهوة للذهاب نحوه. موت أمّي وغيابي عنها هما جرحي الذي لم يلتئم، على الرغم من كل السنوات التي مرّت، وربما كانا سببًا في كلّ الهزّات العنيفة التي حصلت لي. لولا فقدانها القاسي، ربما ما رسمت، وما غُصت في عمق اللون لتذكّر ملامحها القمحيَّة الجميلة التي كلّما اشتقت إليها، جاءتني في المنام. الغريب أنّي التقيت ذات مرّة برسّام جزائري كبير اسمه محمد إسياخم، في غاليري أحد الأصدقاء في برودوي، عندما سألته عن الوجه المكسور الذي يتلوَّن في كل لوحاته. قال: وجه أمّي الذي انكسر. عندما طردتني من البيت، كانت في يدي مرآة. عندما هوت عليّ بضربة عنيفة لأنّي تسبّبت في مقتل بعض من أهلي وبتر ذراعي، رأيت وجهها ممزَّقًا في جزيئات المرآة المكسورة. من يومها لم أرها. وظلّت في ذاكرتي مثلما ارتسمت في المرة الأولى. في السهرة أهديته لوحة اسمها: **وجه أمّي**(١) الذي كان مليئًا بالنور والحيرة، وأهداني هو

---

١ ـ اللوحة موجودة في متحف الفنون الجميلة، الجزائر العاصمة ضمن مجموعة الفن العالمي المعاصر في الرواق الرئيسي من المتحف /MBAA. Mother.Face.MAYISK 56-65. هدية من الفنان محمد إسياخم إلى المتحف، قدَّمها في ١٩٨٧، قبل وفاته إثر مرض عضال، بسنة واحدة.

إحـدى لوحـاتـه الجـمـيلة، المعـروضـة اليـوم في بـرودوي ضـمـن سـلسلة المجموعات المتنقلة: **مرآة أمي**.

اليـوم، يحدث معي، كلّما رسمت وجهـا منكسراً، أن أتذكّر محمد إسياخم بوجهه النحاسي المحفور، وشاربيه الجميلين وصوته القوي الذي يُسمع من بعيد، ووجه أمّه الممزّق إلى آلاف الأجزاء الدقيقة. في ذلك الرجل الذي لم أبق معه طويلاً، شيء من رائحة البرابرة القدماء، العرعار والنباتات البريَّة والحلفاء والسكوم الغارق في عمق الحقول. ولهـذا فهو لا ينسى أبداً. كلّما خرجت إلى حديقة خارج نيويورك أو داخلها، أعادتني رائحة الأعشاب إلى مأساته مع أمّه، من جديد.

كنت قد بدأت في الاشتغال على عمل جديد، ولكنّي لم أعرف كيف أنهيه. غابت من يدي اللمسة الأخيرة التي كثيراً ما فرضت عليَّ نفسها حتى قبل الانتهاء من اللوحة. **طعم الكوليرا الكاذب**[1]. تفاصيلها كثيرة ولا أستطيع أن أجد خيطًا رفيعًا يجمعها أمامي. سأعود لها فجراً. الفجر يمنحني طفولة دائمة وأصبح فجأة صغيرة، وكلّ شيء فيَّ مفتوح على الحياة. أريد لألواني أن تتشبَّع بألوان الشمس عندما تشرق، ويكون الجو غارقًا في النور والحركة.

---

١ ـ اللوحة من مقتنيات متحف بروكلين للفنون الحديثة، لم تصنف بعد. اشتريت يوم مزاد غاليري ويذاوت وولز، في معرض نيوجيرسي. رقم الشراء: BM.MA - GMCOL/MK/345-99.

الآن، كلّ شيء هدأ وذاب تمامًا مثلما تذوب شتاءات نيويورك القاسية. الألم الذي كان يأكلني من الداخل، هدأ قليلاً بدوره وأصبحت أنام بشكل أفضل على الأقلّ، وأستيقظ على كلّ ما يزيدني التصاقًا بالحياة حتى وإن كان المرض يطلّ بأنفه القبيح، كلَّما حاولت نسيانه. أشعر بشيء دافئ يبحث عن مكانه في جسدي، ربما كان بريق الحياة المتبقّي الذي يرفض أن يستسلم ويقاوم بلا هوادة، الأقدار التي نرفض حتميتها.

لا أدري إلى أيّ حدّ ستسعفني ذاكرتي المتعبة، ولكنَّها لم تخدعني حتى الآن، ولم تخذلني كما تعوَّدت أن تفعل معي في لحظات الخوف.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الخميس ٧ أكتوبر ١٩٩٩

كانت الأيام في السفينة تمرّ ثقيلة. الخوف على والدي تراجع قليلاً، ولكن حلّ محلّه شيء آخر يشبه الملل، وبدأت أشعر كأنَّه كان محكومًا عليَّ أن أقضي بقيَّة عمري في سجن يعوم بشكل أبدي في البحر.

كلَّما صعدت إلى الشرفة مع والدي، بدت لي الباخرة الثقيلة مجرّد نقطة ضائعة في عمق البحر. اعتقدت في لحظة من اللحظات أنَّ اللّه قد نسينا نهائيًّا، وأنَّ الملائكة الطيِّبين على الأقل قد تخلَّوا عنّا. في كلّ خطوة وفي كلّ هزّة، كنت أرى الموت يرصدنا بعينين فارغتين مليئتين بالهواء الساخن والبخار.

كنت أعدّ الأيام والليالي ونحن في البحر ولكنَّها عندما طالت، وتوقّفت السفينة في العديد من الموانئ الجميلة والوسخة أيضًا،

وأفرغت حمولات وشُحنت بأخرى، توقّفت عن العدّ ونسيت حتى أسماء الأيام لأنَّ كلّ شيء صار متشابهًا ومتشابكًا في رأسي.

خلال الليالي الباردة التي أمضيناها في الباخرة، كنت أنا وأبي نتظاهر بالنوم. حتى قطّتي كانت تفعل الشيء نفسه معي، وتختبئ في صدري وتحاول أن تنام، لكنَّ حركاتها وارتباكها في إيجاد الوضعيَّة الملائمة للنوم كانت تؤكِّد لي أنَّها لم تكن نائمة.

استغربت في نفسي وفي ردود فعلي. اكتشفت مثلاً للمرّة الأولى أنِّي كنت مثل القطّ والفأر مع والدي. كنَّا نفعل الشيء نفسه بدون أن نخبر بعضنا البعض، في إحساسنا الغامض وردود أفعالنا. كان بيننا شيء مشترك كنّا نحسّ به ولا نلمسه. لم يخامرني هذا الإحساس من قبل أبداً، فقد اكتشفته فيَّ فجأة في الباخرة الثقيلة. في ردود الفعل والنباهة، كنت أشبه أبي أو هكذا بدا لي، أكثر ممّا كنت أشبه أمّي، وكنت سعيدة بذلك. خالي غسان كان هو الوحيد الذي تفطّن إلى الحالة في وقت مبكر، وكان صادقًا في حكمه عليَّ. فهو الوحيد الذي كان يقف على العكس من بيت جدّي من أمّي. كلَّما بدأت عائلة أمّي في تعداد خصالي الجسمانيَّة والعقليَّة ونسبت ذلك كلّه إلى أمّي وأهلها المباشرين، حكّ هو ذقنه قليلاً، ووقف على العكس من ذلك، بكلمته المعتادة التي كان الجميع يعرف دلالاتها «**يعني... بس... مو كل هالقد؟**» فتدور العيون كلّها صوبه وكأنَّه قال كلامًا نابيًا أو نطق كفراً. وللردّ عليه بشكل غير مباشر، كانت العجائز يتمتمن وهنّ ينظرن إليه بعيون مدوّرة: «سبحان اللّه، فولة انقسمت على

اثنين، ميرا جابت مي. زيّ أمّها بالضبط». . لم يكن ذلك كلّه يزعج والدي. عندما يسمعه، يضحك ثم يحتضنني: «مي بنتي صحّ، تشبه أمّها أو أبوها، ما بتفرق». أحيانًا كنت أتساءل بخبث: ماذا لو كانت الصبيَّة قبيحة الشكل ولا تشبه إلا نفسها؟ هل كان سيلتفت نحوها أحد؟ هل كانت عائلة أمّي الـمُيَسَّرة والمتفتّحة إلى حدّ كبير، ستفتخر بي كما تفعل الآن، وتنسبني إلى عائلة الحسيني، مثلاً؟

كنّا نتعشّى عند خالي غسان، وكان هو يفكّ معي بعض تمارين الرياضيات الصعبة. صرخ متعجّبًا، وهو ينظر إليّ عينيّ: سبحان اللّه، ردود الفعل نفسها والذكاء نفسه، تقول إنَّها السي حسن؟ العينان نفساهما والبؤبؤ نفسه المليء بالألوان. من أين لك بكلّ هذه الألوان المدهشة يا بنت السي حسن؟ أتذكّر أنّي فرحت وحمدت اللّه أنَّهم وجدوا لي شيئًا من أبي وكتمت سعادتي خوفًا من زعل أهل أمّي الفخورين بي. والدي شعر بانتشاء كبير بينما أمّي تلعثمت ولكنَّها لم تخبِّئ ردّ فعلها من كلام أخيها:

ـ أنت الوحيد يا خويا غسّان اللي بتشوف هيك. كلّ الناس يقولون عنها إنَّها مستخولة ومش مستعممة.

ـ ميرا يا روحي؟ ليش بتزعلي؟ مستخولة، مستعممة، عيناها لأبوها والسلام، شو الضرر وشو الشيء السيّئ اللي قلته؟

ـ مثل ما بدّك.

قالتها أمّي بدون قناعة كبيرة. ولكنَّها قالتها. أمّي على الرغم من طيبتها الكبيرة، لا يمكنها أن ترى الأشياء خارج عائلتها المباشرة.

بينما كان والدي على العكس من ذلك، لم أسمعه مرة واحدة يستعيد مجد والده وأجداده، وكان يحقّ له أن يفعل ذلك. ولكنَّه من النوع الذي يفضّل حوافّ الأشياء على الدخول فيها.

ونحن على ظهر الباخرة، عندما لا ننام، كنت أتفرَّس في تفاصيل والدي الذي كان وجهه متعبًا وحزينًا. أحاول أن أقرأ جاهدة ملامحه التي غيّبتها متاعب الدنيا، وصعوبة السفر، ومشقّة الحياة التي عاشها والأسئلة التي جاء يجرّها وراءه من بيروت. حتى قبل أن أنطق، يقول متهكّمًا وجادًّا في الآن نفسه:

ـ هل تريدين أن أجيبك عن سؤالك؟

ـ ولكن يا بيِّي أنا لم أطرح أيّ سؤال!

ـ قرأته في عينيك. تشبهين أمّك... في هذه تشبهين أمّك. حقيقي. صمتَ قليلاً، ثم واصل ليبتلع شيئًا ما توقف في حلقه: وأبوك... تشبهين أباك أيضًا يا مي، عفواً يا لينا ماركو. أخذت من أمّك رشاقة روحها وتفاصيل جسدها، ومن أبيك حيرته وتساؤلاته، وربما عينيه كما يقول خالك غسّان. كويّس كده؟

ـ كويّس يا بابا بس مرّة تانية ما تخطأش في اسمي، أنا مش مي... أنا لينا ماركو. مش اتّفقنا على هذا مع خالي؟ الخطأ البسيط يمكن أن يودي بحياة الإنسان؟

كنت أعلم جيِّداً أنِّي كنت أكرِّر جمل خالي أبو شادي، حرفيًّا. لم أكن أشعر بأيّ حرج في ذلك. فقد علّمني الأشياء كلّها.

حتى كيف أسير في معابر إليس آيلند عندما أصل إلى نيويورك. وكيف أتكلّم بالإنجليزيّة بدل العربيّة، وكيف أنظر في وجوه الجمارك ومراقبي المرضى بشكل طيِّب وبثقة. لم يترك شيئًا للصدفة.

كنت صادقة وأجد متعة كبيرة في تنبيه والدي. كنت أشعر بمسؤوليّة الحفاظ على حياته. وقبلتُ التضحية بأمّي موقّتًا. أشتهي مثلاً أن أؤكِّد له أنّي حذرة جداًّ وأنِّي آخذة بوصايا خالي الأكبر مأخذ الجدّ. وأنَّ عليه أن يستمع إلى نصائحي، فخالي الذي علَّمني كيف أتصرَّف، كان يعرف كلّ الأسرار. سألته مرّة أخرى:

ـ بس، كيف عرفت أنِّي كنت أريد أسألك عن هذا كلّه؟

ـ مجرّد إحساس يا... لينا ماركو... لا أكثر. المثل يقول، إذا أردتَ أن تقرأ صاحبك جيِّداً، توغل عميقًا في عينيه. عيناك صافيتان مثل البحر يا حبيبتي، طيّبتان ولا تعرفان الكذب.

ـ شكرًا يا بابا حبيبي.

ثم ارتميت في حضنه وحاولت أن أنام. فجأة أحسست بغياب أمّي. بدا لي دفؤها لا يشبه أيّ شيء آخر. على الرغم من حنان والدي، ولكن كان فيه شيء من التصلُّب والجديَّة والصرامة، تجعله بعيداً عنِّي. كانت أمّي هي التي تسحبني نحوها وليس أنا من يرمي بنفسه على صدرها. تحسّ بي قبل أن أقول أيّ شيء، ثم تمدّ يدها إلى شعري وتلقائيًّا تبدأ ترتيل تنويمتها المعهودة.

نامي نامي يا مانو...

أسرق لك مِن الثلج فستانُه،

وأقطف لك مِن قزح ألوانُه،

وحياة ربّي سبحانه،

لأعطيك قلبي ووجدانه...

نامي... نامي يا مانو...

اللي يحبّك ببوسك،

واللي بيكرهك، لا تحزني من شانو...

طوال الرحلة التي دامت زمنًا طويلاً، أتذكّر أنّي مرة واحدة أُصبت بحالة هلع عندما بدأت السفينة، في آخر الليل، تصعد وتنزل وتتمايل بشكل عنيف. كنت أطمئن نفسي بأنَّ هذا الثقل لن ينزل إلى قاع البحر. أحيانًا كنت أقول إنّنا نظل في القاع ولن يمسّنا الماء لأنَّ كلّ شيء كان مغلقًا، حتى تلحق بنا النجدة. ثم سرعان ما أنكسر وأقول، من سيسمع بنا في هذا البحر الكبير ومن ستصله نداءاتنا؟ تساءلت كيف يمكن لسفينة بكلّ هذا الكبر وسط بحر لا يحدّ، أن تجد مكانها الذي تتوقّف فيه؟ يمكنها أن تضيع وسط اليمّ ولن تجد اليابسة أبدًا. كنت أريد أن أسأل أبي ولكنّه كان يغطّ في نوم عميق، فلم أرد إيقاظه. انتظرت حتى استيقظ لوحده من كابوس مزعج وسألته:

ـ بابا مش خايف؟

ـ من إيش؟

ـ من السفينة تغرق؟

ـ السفن الكبيرة لا تغرق يا روحي. ثقلها يعطيها توازنًا كبيراً، ونادراً ما تغرق السفن التي بهذا الحجم. حتى السفن القليلة التي غرقت، كان ذلك بسبب حادث اصطدام أو أيّ شيء آخر.

لست أدري كيف أعطاني كلامه راحة كبيرة دفعتني إلى سؤاله من جديد:

ـ أنا رايحة ومش عارفة وين تقع بلاد أميركا يابا؟ صار إلنا أيام من الإبحار وما وصلنا لليابسة؟ وكلّما وصلنا إلى ميناء، قيل لنا القادم. المسافة طالت يابا، وأنا بدأت أتعب، وأميرة المسكينة، تشعر بالوحدة والغربة والخوف ولا تغادر صدري؟

ـ أرض بعيدة... معك حقّ. لم يبق قدر ما فات.

ـ طيّب يا بابا، بس، ليش ما بقينا في القدس، هي مش أرض اللّه ومكانه المفضل؟ كنّا بالقرب من ماما ميرا وخيِّي يا اللي يكون انولد من ورانا.

ـ بلادنا ضاقت يا مي، ولم يعد بوسعنا البقاء فيها. جزء منها أُخذ منّا بالقوة. والجزء الآخر سيؤخذ بالسياسة والتقسيمات، وسيُشَرَّد السكان على المعمورة. هيك مصيرنا يا بنتي. يمكن تكون نيويورك أرحم من أرضنا، وناسها أقلّ لؤمًا ممّن طردنا من أرضنا.

ـ طيِّب ونيويورك ما راح تضيّق علينا؟

ـ نيويورك... مدينة كبيرة أكثر من كلّ فلسطين بكثير، ولا تضيق بنا أبداً؟ كلّ ناسها جايين من برّا وما فيه حدا يزاود على الثاني. مدينة كبيرة، طيّبة وناسها كرماء. استقبلت أناسًا كثيرين قبلنا عبر تاريخها الحديث. خالاتك مثلاً وغيرهن كثير. لسنا أول من يهاجر إلى نيويورك ولا آخر من يفعل ذلك. حاولي أن تنامي. النوم يختصر المسافات.

ـ النوم طار من عيني بسبب الهزّات العنيفة. وماما وخيّي يا اللي عالطريق، لازم يلحقونا، مش هيك؟ بدأت أتشوّق لأمّي وأشعر بغيابها وبوحشة المكان يابا.

ـ وأنا كذلك، بس لازم نتعلّم الصبر يا بنتي.

شعرت في عينيه بارتعاش الأشعة الخافتة للنوّاصة التي كانت بالضبط عند رأسينا. رأيت أشياء كثيرة تنهار وتتكسّر، ولكنّي رأيت أيضًا دمعة تكلّست وتحجّرت حتى صارت مثل الحجرة المسنّنة ولم تخرج. لم أفهم وقتها السبب. قلت في خاطري ربما لأنَّ الرجال في فلسطين لا يبكون.

ـ ميرا وخيّك سيأتون بعد شهور، أو بعد خريف آخر. اللّه أعلم. أنت تعرفين، خالك أبو شادي لن يقصّر في شيء. سيقوم بالواجب وزيادة. سيفعل معهم مثلما فعل معنا. رجل طيّب وحكيم عند الضرورة.

ـ وما تخاف عليهم من اليهود؟

تلعثم أبي. لأول مرة أرى الكلمات لا تخرج من حلق والدي ولكن من عينيه. شعرت كأنّي فتحت في قلبه جرحًا لم أكن أقصده. بقي صامتًا مدّة طالت مثل زمن بكامله مرّ سريعًا في رأسه.

ـ مالهم ومال اليهود؟ كلّ واحد في مكانه. لا. سيبعثهم. أنا متأكّد أنّهم في مأمن. خالك يا بنتي مهندس خرائط ويعرف الإنجليز، وله علاقة جيّدة بالمجاهدين وبقادة جيش الإنقاذ، وسيعرف كيف يمرّرهم. من هذه الناحية، أنا مرتاح جدًّا ومتأكّد من ذلك.

صمت فجأة. حماقاتي كثرت في هذه الباخرة الثقيلة.

شعرت بقسوة حديثي، فصمتّ والتفتّ نحو النافذة أتأمّل البحر والنوارس التي ظلّت تتبع حركة السفينة. كانت تحلّق عاليًا في السماء. تساءلت وقتها وأنا لا أعلم لماذا طرحت ذلك السؤال البليد: أين تقضي النوارس ليلها؟ أين تتخفّى وسط هذا البرد القارس وهذه الرطوبة التي أشعر بها تأكل عظامي؟

بابا حسن بقي صامتًا. كان شيء يلتصق بحلقه ويمنعه من الكلام.

حاولت أن أنام ولكن وجه أمّي هذه المرّة كذلك استعصى عليّ. لم يأت بل غاب مثل البخار وسط الندى. كنت أشعر بظلها بجانبي ولكنّي كنت عاجزة عن لمسها. بدا لي كأنّ غيابها يشبه الموت. ثم لعنت الشيطان من وساوسي المتمادية في حمقها. «أنا بنت حمقاء، بسرعة تتوغّل في التفكير البائس».

لم أتجرَّأ أن أسأل والدي الذي اندفن بسرعة داخل بحر من الصمت.

صارت الأيام تتشابه. شروق وغروب. غروب وشروق. عواصف وجوّ جميل. خوف وسعادات صغيرة. وصرنا كأنَّنا نسكن البحر وعلينا أن نتعوَّد على هذه الحياة المتكرِّرة والمتشابهة. كانت حركة الناس داخل الباخرة كبيرة وبلا حدود. كنت أقرأ في كلّ العيون خوفًا صامتًا ومبهمًا. كنت عاجزة عن فهمه، إلا عندما وصلت السفينة ووقفنا في مواجهة شرطة الحدود، في إلِيس آيلند، ورأيت الرعشة في كلّ العيون والخوف المضمر يخرج إلى الواجهة.

أجمل اللحظات كانت عندما كان يُسمح لنا بالصعود إلى شرفات السفينة في لحظات الصفاء القليلة وتتبّع حركة النوارس، والخطّ الأبيض الضخم الذي كانت تحدثه السفينة وهي تشقّ طريقها في البحر، ثم الشمس وهي تنزل بهدوء نحو الظلمة. لا أثر لليابسة بعد. مرّة واحدة رأيت القمر من نافذتي. كان أبيض ناصعًا، وكان قريبًا من البحر ويسير معنا في خط واحد. كلَّما تقدَّمت السفينة، ركض هو وراءنا وكأنَّنا كنّا نجرّه بخيط ناعم لا أحد يراه، وهو يتشبَّث بأطراف النافذة باستماتة. وتمنَّيت أن تظلّ السفينة تسير حتى لا يغرق القمر. شعرت ليلتها بأنَّ القدس قريبة منِّي، وأنَّ رحلتنا ليست إلا دورات مغلقة، وأنَّنا سنعود حتمًا إلى أرضنا الأولى. ولكن والدي نصحني بعدم التفكير في ذلك والنوم، أو الاستكانة على الأقل، حتى أصل إلى نيويورك وأنا في صحّة جيِّدة، ولا أصل ذابلة وتندهش خالاتي من هزالي.

مرّة أخرى، رأيت المرأة التي كان يهرب منها الجميع، لم تعد تتحرَّك. كانت نائمة ولم تستيقظ للّغط الذي كان حولها. ظلَّت هادئة كميت. كثر عويل الذين اقتربوا منها عن بعد. عندما جاء القبطان، وحاول أن يقترب منها، صاح شخص كان بجانبها، عرفت فيما بعد أنَّه زوجها:

ـ احذر يا قبطان. ماتت. مصابة بالكوليرا وقد تُعديك.

تراجع القبطان وقد بدا في عينيه ذعر واضح. عندما سأل عن زوجها لم يجبه أحد. وتنصَّل الكلّ من معرفتها. في لحظة ما، حمدت اللّه أنِّي لم أرم بنفسي في أحضانها عندما تذكَّرت أمي، وأخذني والدي إلى المرحاض، وإلا لأصبت بعدوى الكوليرا.

شعر والدي برغبة في التقيّؤ. خفت عليه إذ اصفرّ وجهه فجأة وصار مثل قشرة ليمون. ثم ذهب إلى الحمّام وتقيّأ أمعاءه. وعندما عاد إلى مكانه كان مرتاحًا أكثر. فتح لي قلبه:

ـ أرأيت يا مي كيف يتنكَّر الناس لذويهم. زوجها هو الرجل الذي منع القبطان من الاقتراب منها، وهو أول من تنكّر لها. وكل الناس يعرفون الحقيقة. ليس بها كوليرا. إنَّه طاعون الأنانية الذي نبت فيهم جميعًا. كانت مريضة بالقلب، فقط لا أكثر وكان يمكن إنقاذها.

ـ طيّب وليش تنكّر لها زوجها؟

ـ يخاف من أن يُعاد في أول سفينة راجعة باتجاه الشرق، في ميناء نيويورك، ولا تمسّ رجلاه أميركا. المرضى لا يُقبل دخولهم إلى نيويورك بأيّ شكل من الأشكال.

فوجئت بوالدي يتحدَّث بألم وهو الرجل الصبور. فجأة قام من مكانه وراح باتجاه القبطان اليوناني الذي كان قد عاد من الشرفة وأخبره بالحقيقة. لم تغيّر ملاحظة والدي في الأمر شيئًا. القبطان كان قد أمر برميها في البحر، مخافة العدوى والاضطرار إلى رفع العلم الأسود الذي كان سيعزل السفينة في البحر.

ـ أسماك القرش جائعة ولا تهمها أمراض البشر.

قال القبطان. ورماها العمّال بلا أدنى تردُّد. عادت الوضعيَّة بعد ذلك إلى ما كانت عليه من قبل. وعاد الناس إلى حركاتهم وطبيعتهم الداخليَّة، القاسية جدًّا وغير الرحيمة.

أتذكَّر رغبتي العارمة في الاندفان في صدر تلك المرأة. شيء ما في عينيها كان يقول حزنها وخيبتها. كان فيها من أمّي، وجهها، خزرتها، انشغالها الدائم. بابا حسن حكا لي أنَّ من يموت في الباخرة، يُرمى في عرض البحر مخافة الأمراض، والعدوى الفتّاكة.

وعندما سألته:

ـ ماذا يا بابا، لو أُصاب أنا بسكتة قلبيَّة وأموت مثل العجوز؟ ماذا ستفعل بي؟ هل ستتركهم يرمونني للحوت؟

ضحك بعد أنَّ حكّ على رأسي:

ـ أولاً مازلتِ صغيرة، وقلبك قويّ والصغار لا يموتون بالسكتة القلبيَّة. الكبار هم من يعاني من هذه الأمراض. ولو قرَّروا رميك، سأحتضنك وأرمي بنفسي معك بكلّ بساطة. لا أملك أيّة قدرة لمنعهم، فهم أصحاب هذا الغول الثقيل الذي اسمه الباخرة، ولا وسيلة لديّ لإقناعهم، ولكن لن يستطيع أحد، مهما أوتي من قوّة، أن يمنعني من اللحاق بك نحو الأعماق.

لكن ذلك لن يحدث أبداً.

لست أدري ماذا حدث لي، ولكنِّي منذ حادثة المرأة، شعرت بوالدي أكثر قربًا منِّي وأحببته أكثر. شيء يشبه الخوف والفقدان كان قد سكنني ووجدت نفسي داخل سجن العزلة. كلّما التفتُّ نحو وجه أبي، وجدته ينظر إليَّ بابتسامة مشرقة، هذا وحده كان يعطيني الإحساس بالأمان والثقة في النفس، ويسمح لي بالنوم مرتاحة بعض الشيء.

زوجها عُزل طوال الرحلة، وخضع للفحوصات الكثيرة، ومُنع من أيَّة حركة. فجأة غيَّر رأيه، وظلَّ يصرخ كالمجنون بأنَّها لم تكن مريضة بالكوليرا ولكنَّها كانت مريضة بالقلب. لم يصدّقه أحد. حتى عندما دخل المفتّشون فيما بعد إلى قمرته، لم يُسمح له بالخروج. وبقي مثل السجين في عمق صندوق حديدي ثقيل. تغيَّر لون وجهه، أصبح فجأة يشبه وجه حيوان يحتضر، ويحاول جاهداً أن يتشبَّث بما تبقّى فيه من نفس الحياة.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الجمعة ٨ أكتوبر ١٩٩٩

كلّ ما فعلته من تحضيرات بقلم الرصاص ذهب مع الريح، ولم تبق إلا عفويّتي الأولى وعلامات باهتة من التخطيط الأوّلي للوّحة. كنت أرسم **معابر إليس آيلند**(١) ولم أنفصل ولا للحظة واحدة عمّا عشته في السفينة الثقيلة. كان الألم قاسيًا وكان هو دليلي الوحيد في اللوحة واختيار الألوان المائلة نحو الرمادي والأسود، والتركيز على الملامح الحائرة والأشكال التي لا قرار لها، كأنّها جزيئات تعوم في الفضاء.

---

١ ـ اللوحة التي تحمل عنوان: **Ellis Island Bridges** موجودة بمتحف إليس آيلند، في قسم: ذكريات العابرين إلى نيويورك. في الطابق الأرضي حيث يمكن رؤيتها ضمن الكثير من اللوحات التي عبّرت عن هذا الدخول المليء بالأسئلة والخوف. رقم البيع المزادي في غاليري نيوجيرسي: ELIS.BR/MAKON/67&45.

كانت اللحظات تمرّ أمامي واحدة واحدة، وتدفع بي إلى الضغط أكثر على الألوان وتغميها بحيث تصبح بدون عمق، كالظلال الثقيلة التي كانت تتركها السفينة وراءها.

كان كلّ شيء على مرمى أصابعي.

الليل والنهار تداخلا في ذهني بحيث أصبحتُ عاجزة عن التفريق بينهما خصوصًا في الأيام الماطرة. لا شعاع يتسرَّب من النوافذ الدائريَّة الضيّقة. كان الفجر قد بدأ يكشف عن نور خجول. ظننت الليل، وأنِّي كنت أحلم فقط. فجأة سمعت صرخات متتالية تأتي من شرفات السفينة: نيويورك... نيويورك... نيويورك... لم أسمع إلاّ الخطوات وهي تتقاطع في جريها من كلّ الجهات. تراكض الناس جماعات نحو الأعلى. لأوّل مرّة أرى صورة لم أنسها منذ ذلك الوقت. جريت بدوري بعد أن أيقظت والدي. رأيت مدينة عظيمة، ببنايات ضخمة، تتوغّل عميقًا في البحر وتدخل في صلبه. دارت السفينة صوب تمثال الحريَّة الذي غرق جزؤه العلوي في عمق الضباب. ظلَّ نظري مرشوقًا على ضخامة التمثال الذي التمعت على جوانبه المخضرّة، أشعّة الشمس التي انكسرت بقوّة كبيرة على وجهي، فأحرقت عينيّ اللتين أغمضتهما بحركة تلقائيَّة. خالي أبو شادي كان قد أوصاني ولكنِّي نسيت وصيّته:

« ـ مي احذري حبيبتي. لما تدخلين إلى المدينة فجراً، أوعي، لا تطيلي النظر في التمثال، قد تحرق الأشعّة الحادّة المنعكسة على سطحه، عينيك. وصاحب العيون المتورِّمة لا يسمح له بالمرور. ولكن إذا لم تكن

الشمس قويَّة، انظري فيه جيِّداً لأنَّ النظر فيه يعطي الإحساس بالراحة بعد سفرة ثقيلة ومرهقة، وخلِّ بابا حسن يكتشف التمثال معك».

الغريب هو أنِّي شعرت وأنا أمعن النظر في التمثال الذي بدا ضخماً أكثر ممّا تصوَّرت، أنَّه كان يحرِّك ذراعه صوبي ويلتفت نحو كل الجهات ويدعوني للسير وراءه. في الحقيقة كنت ثابتة في مكاني، ولكن الباخرة الثقيلة هي التي كانت تتحرَّك وسط رياح باردة، كانت تعطي لجسد التمثال الضخم سطحاً أكثر سلاسة وملاسة. كان أبي يقبض على يدي وأنا متشبِّثة به بقوّة كبيرة مخافة أن ينزلق منِّي. لم أكن أعرف بدقّة إذا ما كان التمثال هو الكبير أم أنا التي كنت صغيرة جدًّا؟

تنهّدت ثم تركت زفرة تخرج منِّي، واضعة رأسي بين يدي:

ـ يا يمَّا ما أكبره هذا التمثال؟

سألت بابا حسن عندما سمعت الناس يصرخون فرحًا وسعادة، ويهلّلون بالانفراج، ويرمون برانيطهم في الفضاء الواسع فرحًا:

ـ بابا هيدي هي أميركا؟

توغّل بابا حسن بأصبعه عميقًا في الفراغ:

ـ هذا هو الميناء، وهذا تمثال الحرّيَّة. نيويورك موجودة في العمق، هنـ. . . . . .ـاك تماماً، في الخلفيَّة، على ظهر الجزيرة.

اقترب منِّي القبطان اليوناني الذي سلّمه خالي أبو شادي بعض الورقات النقديَّة، وأخذ يشرح لوالدي بكلمات مقتضبة وعامّة جدًّا، تاريخ التمثال، لأنَّ وقته كان محسوباً.

ـ تمثال الحريَّة قصّة حياة شعب ومدينة. رمز الانعتاق في هذا البلد الذي عانى الكثير قبل أن يكون في طليعة العالم الحرّ... سأعرّفك به قليلاً قبل أن تلفّ السفينة باتجاه ميناء نيويورك...

قاطعه بابا حسن وهو يمسِّد على شعره الذي تبعثر بفعل الريح، واضعًا في الوقت نفسه البيري الباسكي على رأسه الذي لم أر يومًا والدي بدونه. قرَّبني منه بأن احتضنني، ثم التفت نحو القبطان:

ـ لا تتعب نفسك يا سيِّدي القبطان. لم يكن أمر هذا التمثال سهلاً. صحيح كما قلتَ إنَّها قصّة كبيرة. في ١٨٦٥ التقى إدوار روني لوفيبر أحد عشّاق أفكار طوكفيل الجمهوريَّة، وصديقه النحّات الألزاسي أوغست بارتولدي في عشاء وتحدَّثا عن ضرورة إيقاظ الحساسيَّة الوطنيَّة عند الفرنسيّين. لم يجدوا أفضل من إهداء تمثال إلى أميركا بمناسبة احتفالها بالمئويَّة الأولى لاستقلالها. اشترطا أن يكون التمثال ضخمًا. في ١٨٧١ زار بارتولدي نيويورك لإقناع الأميركيّين بضرورة المساهمة في إنجاز المشروع. كانوا ما يزالون تحت وقع حرب الانفصال ١٨٦١ـ ١٨٦٥، وكانت انشغالاتهم أكثر تعقيداً من تمثال يوضع في عمق البحر. لكن مع سقوط الإمبراطوريَّة الثانية في فرنسا، تحمَّس الفرنسيّون أكثر لفكرة المشروع. وبسبب إصرار بارتولدي المتتالي، اقتنعت أميركا كذلك بالمساعدة في إنجازه. لم يجد بارتولدي أحسن من صديقه غوستاف لتحقيق الهيكل الحديدي للتمثال (٤٦,٥ م علوًّا). واستطاع هذا الأخير تشييد الهيكل الحديدي المقاوم للرياح والعواصف في سنة. وتمّ تغليف الهيكل بالقطع

النحاسيَّة. انتُهي من عمل الورشات الباريسيَّة الكائنة في شارع شازيل، في سنة ١٨٨٤. ونُقل التمثال على متن الفرقاطة إيزر التي قطعت المحيط الأطلسي العاصف. وتمّ تدشينه في احتفالات ضخمة، في ٢٨ أكتوبر ١٨٨٦. هكذا الدنيا، يذهب الناس وتبقى أعمالهم الكبيرة الخالدة. من قال إنَّ السعادة والبؤس يصنعهما غير البشر على هذه الأرض التي منحتنا كلّ شيء ونمنحها يوميًّا، الموت؟

كنت سعيدة وفخورة بمعرفة والدي لكلّ هذه التفاصيل. لم يكن بابا حسن كبقيَّة المسافرين. كان مثقّفًا وعارفًا ممتازًا لعصره.

لم يقل القبطان اليوناني كلمة واحدة، ولم يقاطع والدي في كلّ حديثه. اندهش من الكمّ الكبير من المعلومات التي استظهرها أمامه. قال قبل أن ينزل راكضًا نحو قمرته، استعداداً للنزول:

ـ كنت أتصوَّرك مثل الذين يسافرون معنا غالبًا. طيّب لا أعرف لماذا أوصوني عليك وأنت بكلّ هذه الثقافة وهذه المعرفة؟ تعرف تفاصيل أنا لا أعرفها. أنت ستعبر الحدود مغمض العينين، ما دمت تملك كلّ هذه المعرفة عن أميركا، وهذه اللغة الإنجليزيَّة الأنيقة. ستعجبهم لا محالة. الأميركيّون لا يحبّون الأغبياء والصلفين والمنغلقين.

ـ شكراً.

بابا حسن، تعوَّدت أن أناديه هكذا ولا أدري من أين جاءني ذلك. لم يهتمّ كثيراً لمديح القبطان اليوناني، أمّا أنا، فقد كنت أسعد

طفلة في الدنيا، لأنّي شعرت أنّ والدي أعطى درسًا حقيقيًّا لليوناني، كبير الرأس الذي يظنّ نفسه يعرف كلّ شيء. ظلّ بصره مشدوداً للتمثال ونحن ندور حوله باتجاه المرفأ. شعرت به أفرغ كلّ الصمت الذي كان في قلبه. تذكّرت كلمته التي لا يتوقّف عن ترديدها بكثير من السخريّة والتهكم:

«الذين لا يتكلّمون كثيراً، لا يعني أنّهم لا يعرفون. أحيانًا يصمتون ليسخروا بشكل جيّد من الذين يتكلّمون كثيراً وهم لا يعرفون».

لم يكن والدي يتكلّم، وكان يعرف أشياء كثيرة. كان فقط ينصت إلى أنينه الذي لا ينتهي. كانت آلامه الكبيرة أكثر وأكبر من أيّ شيء آخر، ولم يكن يجد لها لغة توازي ثقلها. لا أدري إلى اليوم كيف تجرّأ وتكلّم مع القبطان اليوناني، ربما لإقناعه بأنّه لم يكن إنسانًا عاديًّا. إذا كان ذلك، فقد نجح بابا حسن في مسعاه، لأنّ القبطان نزل إلى قمرته وهو معجب إلى حدّ بعيد بثقافة من كان يظنّه ريفيًّا نزل للتوّ من جبل معزول عن الدنيا. فقد كان والدي يتحدّث الإنجليزيّة بطلاقة، والفرنسيّة بشكل ممتاز، ولم يكن في حاجة لمن يترجم أحاسيسه. أمّي هي التي دفعته في وقت مبكّر نحو الإنجليزيّة، وهي التي كانت تأخذه معها للمدرسة الإنجليزيّة عندما كانا عاشقين شابّين، قبل أن يسجّل رسميًّا بها. كانت تقول له دائمًا: فرنسيّتك حلوة بس الآن أنت مو بالشام مع أهلك المغاربة، أنت بالقدس، وفلسطين مليانة بالإنجليز.

تأكّدت من شيء واحد: أن تسمع بالأشياء ليس مثل أن تراها. كلّما اقتربنا، شعرت بخوف مبطّن لم أعرف في العمق مصدره. ربما من كثرة ما سمعت من خالي أبو شادي من توصيفات. أميركا كانت تبدو من حين لآخر كوحش البحار الذي كانت تحكي عنه جدّتي، مخيف ومرعب.

سمعت كثيراً عن البلاد ونيويورك من خالي، ووالدي، ولكن لا أحد منهم حدّثني عن الإحساس الذي نشعر به ونحن نستعدّ للدخول لها؟

كانت السفينة تدور حول تمثال الحريّة، مشكّلة نصف دائرة كبيرة مليئة بالبياض، قبل أن تتوقّف في جزيرة إليس آيلند التي بدت لي مساحة واسعة هربت بالكاد من الغرق الحتمي. والدي عندما سألته عنها وعن مخاطر الغرق، لم يسمعني أو لم يجبني، فقد كان يفكّر في شيء أهمّ من خزعبلاتي التي تنتابني من حين لآخر ولا شيء كان يبرّرها. كانت البرودة الداخليّة قد ملأت قلبي، وانتابني نوع من الخوف لم أعرف مصدره إلا عندما هيّأت نفسي للخروج. بدأت أتمتم بصوت خافت، لم يكن أحد يسمعني ما عدا البحر والنورس الأبيض الذي وقف قبالتي، على متّكأ السفينة الذي اعوجّ قليلاً على الأطراف:

«أنا لست أنا. أنا بنت أخرى، أقلّ ذكاء وأقلّ جسارة. أنا لينا ماركو... وهذا بابا يونس ماركو... بابا يونس وليس حسن. أنا لينا ماركو... وهذا بابا يونس ماركو... أنا...».

ظللت أردِّد الأسماء نفسها وأحاول جاهدة أن أنسى اسمي الحقيقي نهائيًّا، وأتلف من ذاكرتي المتعبة اسم والدي الذي كانت خزرته في مكان آخر، بدا لي بعيداً جدًّا.

رفع البيري الباسكي قليلاً من على جبهته، فبدا وجهه مليئًا بالحياة والنور، على الرغم من تعب السفر. شدّ على يدي أكثر. شعرت بدفئه وخوفه الباطني. ثم استعدّ للخروج بعد أن أصلح هندامه بحيث بدا كبطل من الأبطال الذين رأيتهم في سينما القدس مع خالي غسان.

ـ مستعدّة حبيبتي... لينا...

كلمة بالكاد سمعتها. كدت أصرخ في وجهه بعنف: **أنا مي مش لينا**. ولكن بسرعة تذكَّرت وصايا خالي أبو شادي. فهمت بعدها أنَّ والدي كان فقط يذكّرني بما يجب فعله.

ـ مستعدّة يا بابا... مستعدّة يا... يونس ماركو.

لم يستطع أن يكتم ابتسامته الجميلة. شدّ على يدي أكثر.

ـ على بركة اللّه إذن.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

السبت ٩ أكتوبر ١٩٩٩

مال الرمادي نحو السواد من كثرة ما حاولت تغميقه أكثر. ابتعدت قليلاً عن اللوحة. أغمضت عيني قليلاً، بحيث لم أعد أرى إلا من خلال شعاع واحد تركته يتسرَّب إلى عيني. شعرت فجأة كأنِّي ردمت كلّ الأشكال التي كانت تعطي الحياة للفضاء على الرغم من دكنته. فبدا بلا حياة. الظلال القاسية التي فرضت نفسها عليَّ خبّأت كل الملامح والأشكال. لم يكن ذلك ما كنت أريده. يجب أن تظهر الحياة من وراء الظلال. ملأت الريشة بالماء بدون أن أغسلها، ثم انسحبت نحو ذاكرتي.

تسرَّب إلى عمق السفينة الراسية سيلٌ من الناس، رجال يلبسون الأبيض مثل الذين كانوا يأتون إلى مدرستنا بالقدس، لفحصنا مرّة واحدة في بداية كلّ سنة. عرفت أنَّهم أطبّاء مكلَّفون بالوقوف على

حالة المرضى. كان يرافقهم رجال غامضون. ألبستهم تميل نحو السواد. في أياديهم صفّارات يستعملونها للتحذير وللكلام، كأنَّ ألسنتهم مقطوعة. لا يتكلَّمون إلاّ بالإشارات أو على الأقلّ هذا ما علق بذهني. كانت عيونهم ترتعش مثل لعب الأطفال الزجاجيَّة. تتحرَّك في كلّ الاتجاهات. بدأت أرى الخوف في حركة الناس وفي عيونهم، في وقفاتهم المستقيمة على الرغم من متاعب السفر، لأنَّ كلّ واحد، كما قال لي أبي، لا يريد أن يكون من الأقليَّة التي ستمنع من الدخول إلى أميركا، ولهذا عليه أن يبدو للمراقبين إنسانًا في كامل قواه الجسديَّة والعقليَّة.

« ـ تخيَّلي حبيبتي حياتك ومستقبلك معلّقان على ملاحظة رجل يكفي أن يرفع يده لكي توقفي في مكانك، وقد لا تخرجين من السفينة حتى يُعاد بعثك من حيث أتيت أو نحو ميناء لا تعرفينه؟ ».

توغَّل الأطباء والرجال الغامضون في القمرات وبدأوا يتأمَّلوننا ونحن نخرج واحداً واحداً، عبر معابر حديديَّة خُصِّصت لذلك. فجأة مدّ أحدهم يده نحوي فشعرت بالبرودة، وضاع اسمي لينا ماركو واسم بابا، يونس ماركو على لساني، ولم أتذكَّر إلا اسم خالتي دنيا، الذي لن ينفعني كثيراً في مثل تلك الظروف. في ذلك اليوم، عرفت قوّة والدي وصلابته. حيّاهم برأسه ببرودة حتى كادت قبعته، البيري الباسكي، أن تسقط من على رأسه. تمتم بصوت ناعم بالإنجليزيَّة، يكاد يكون مسموعًا:

ـ لينا ماركو... ابنتي. شكراً... وأنا يونس ماركو.

والدي فعل ذلك ليذكِّرني، لقد قرأ الخوف في عيني المتعبتين.

بقيت مشدوهة في ابتسامة الرجل الخشنة والباردة وهو يردِّد: Welcome. أنا متأكِّدة من أنّه ظنّ والدي رجلاً إنجليزيًّا.

و لا أدري كيف مشيت عندما سحبني بابا حسن من يدي.

سمعت صوتًا خشنًا ينطق بإنجليزيَّة مرتبكة، لا تشبه إنجليزيَّة طانت جينا الأنيقة. للغة معلّمتي مذاق حلو ولذيذ، لم أره عند أيّ شخص آخر ممّن أعرفهم ما عدا أمي.

ـ لا تضيِّعوا الوقت. سيروا باتجاه الطابق السفلي، نحو منطقة الأمتعة. بسرعة... بسرعة... نريد إفراغ السفينة. باخرة أخرى تنتظرنا. بسرعة. ممنوع البقاء في القمرات.

سرنا نحو مخرج السفينة في خطوط شبه مستقيمة كالنمل تمامًا، بصمت لم يكن شيء يخترقه إلا أصوات الرجال الغامضين.

لم تغادر يدي يد بابا حسن الذي زادت ثقتي فيه كثيرًا، وبدأت أتساءل إذا كنت حقيقة أعرف والدي جيِّداً. فهو يغيب أيامًا كثيرة، وعندما يعود إما يجدني نائمة فيقوّمني من نومي فلا أرى إلا ملامح وجه منكسرة تحت ضوء القنديل الزيتي، أو يفاجئني وأنا أستعدّ للنوم. وحتى عندما يلعب معي، ويقذف بي عاليًا في الفضاء على الرغم من جسدي الممتلئ، لا أرى وجهه جيِّداً، ولا أسمع إلا القهقهات التي تملأ البيت. المرّة الوحيدة التي رأيت فيها وجهه مدّة طويلة، كان ذلك عندما كان نائمًا في المستشفى في بيروت، وبقيت

بجانبه، مع خالي أبو شادي، قبل أن نرحل نحو نيويورك كالهاربين، بأوراق مزوّرة.

لنيويورك مدخل بحري واحد لا أكثر، أو على الأقلّ هذا ما يقوله الناس، يعبره المهاجرون نحو الأرض الموعودة بكثير من الانكسارات والصعوبات. عرفت فيما بعد أنَّه المعبر الأساسيّ لكلّ من أراد أن ينزلق نحو العالم الحرّ. مركز كاستل كلينتون[١]، هو أهمّ مدخل إلى نيويورك. فقد فتح في سنة ١٨٥٥، وكانت وظيفته هي مراقبة الوافدين الجدد على نيويورك. مدخل النور، كما سمّاه الذين عبروه، قال لي والدي. كان يفتح أمام الناس حلمًا كبيرًا في الحياة. ولهذا كان الوافدون يتشبّثون به، بأرجلهم وأسنانهم، خصوصًا مع الهجرة الكثيرة للاجئين السياسيّين والعمال القادمين من ألمانيا وإيرلندا، الهاربين من المجاعة الكبرى (١٨٤٦-١٨٤٧). **أميركا يا أميركا** الذي حفظه لي خالي أبو شادي، عن ظهر قلب، كان نشيد كلّ المحرومين من حقّ الحياة. مع مرور السنوات، لم يعد المركز كافيًا لاستيعاب الهجرة التي كانت تدخل عن طريق ميناء نيويورك. فقد كان يعبر من خلاله حوالى ٥٠٠٠ شخص يوميًّا. ففتح مركز الهجرة إليس آيلند في ١٨٩٢، والذي جعل من نيويورك أهمّ مركز لاستقبال المهاجرين. مكوَّن من ٣٣ بناية متجاورة ومتداخلة.

كانت عيناي شبه مغمضتين وأنا أتشبَّث باليد اليسرى لبابا حسن، فهو يقول إنَّها الأقرب إلى القلب. أكرِّر باستمرار كلمات لينا

---

١ - Castle Clinton

ماركو ويونس ماركو وكأنَّ على هذه الكلمات كان يتوقّف كلّ السحر الذي يقود إلى المخرج بسلام. السيزام الحقيقي. المدخل لم يكن منفّراً أبداً، بل شعرت بشيء من الراحة وأنا أراه. مدخل مغطّى بشكل جميل، يحمي الناس من البرد والأمطار. أهمّ شيء مدهش في حيطانه هو حجارته الكلسيَّة المنحوتة بشكل كبير واستقامة الآجرّ وانتظامه كأنَّ الذي بناه قضى كلّ عمره في البحث عن الآجرّ الأكثر امتلاء واكتمالاً. لم يكن الأمر يشبه في شيء بنايات القدس التي كان بعض آجرّ بناياتها، على قلّته، محروقًا أو متراصًّا على بعضه البعض بشكل غير منتظم. رأيته في فرن أبو محمود الخبّاز. خفت في لحظة من اللحظات أنَّنا كنّا نقاد جميعًا نحو فرن كبير مثل تلك الأفران التي حدَّثني عنها خالي غسّان والتي ابتدعها الألمان. أثارتني أبراج البناية الأربعة المغطاة بمادّة رصاصيَّة رماديَّة، كانت تشبه صوامع مدينتنا، ولكنِّي كنت متأكِّدة من أنَّها ليست صوامع وليست مطلقًا أجراس كنائس. كانت شيئًا آخر. كما استثارتني الأبواب الثلاثة المقوّسة مثل أبواب القدس العتيقة. على الرغم من أنَّ أبوابنا مفتوحة بشكل دائم ومليئة بمزهريات الياسمين الذي يتسلّق الحيطان حتى ليكاد يغطّيها عن آخرها. عبرنا نحو صالة تسجيل الأمتعة[١]. مرّة أخرى واجهنا الرجل صاحب الصفارة الذي يلبس لباسًا يميل نحو السواد، في الطابق الأرضي من البناية. لم ينتبه لنا وظلّ يؤشّر بيده وصفّارته أن أسرعوا... تحرّكوا... أُخذت منّا كلّ الأمتعة الصغيرة والكبيرة، ولم

---

١ - Registry Room

يبق معنا إلا جزء يسير منها. لم تكن أمتعتنا كثيرة. بعض الهدايا من خالي الأكبر أبو شادي إلى أخواته وبعض ألبستنا. طبعًا وقطّتي أميرة التي لم أكن مستعدّة لتركها. الغريب أنَّها طوال عمليات التنقّل لم تترك صدري ولا ماءت. كلّما وجدت فسحة فتحت الأزرار ونظرت إليها، تنظر إليَّ فأبتسم لها. تشعر براحة فتعاود نومها. في السفينة، كانت لا تتحرَّك إلا لقضاء حاجتها بحيث كنت أضعها تحت الغطاء وأحرسها حتى تنتهي، تخربش قليلاً على الكارتون الذي تضع عليه فضلاتها باحثة عن التراب لتغطيته، ثم تقفز إلى صدري للنوم من جديد. كانت هادئة وناعمة وتجد لذّة كبيرة للنوم بين نهديّ اللذين بدآ ينفران. لم يكن ذلك يزعجني.

أحد الذين كانوا في الصفّ الموازي نظر إليّ باستغراب وأنا أتفرّس صدري وأميرة بداخله. في البداية لم أفهم وخفت منه، ولكن عندما وشوشت لأبي في أذنه عن ردّة فعل الرجل، ضحك منّي وقال وهو يتمتم في أذني بنوع من السخريَّة الخالية من أيَّة جديَّة:

ـ ومالو؟ أنت أحلى بنيَّة في الباخرة. يظن أنَّك بدأت تدخلين حالة المراهقة في وقت مبكّر، وأنَّك سعيدة ببداية نفور نهديك. بلاش تزعلي منِّي، كيف تريدينه أن يفسِّر حركاتك وأنت تنظرين إلى صدرك ثم تبتسمين بسعادة كبيرة؟ لا يمكن أن نلوم شخصًا لا يعرف أنَّ تحت لباسك أميرة محظوظة يا ستي؟

ـ بابا...

احمرّ وجهي ولم أكتم ضحكتي وسعادتي. قلّلت بعدها من حركات الاطمئنان على قطّتي، بينما ظلّت نظرات الرجل ملتصقة بصدري حتى خزر نحوه بابا حسن، فالتفت بنظره صوب الشرطة والجمارك والرجال أصحاب الصفارات، وحاول أن ينسى أنّي موجودة، قبل أن تلتهمه الأمواج البشريَّة المتراصّة.

توجَّهنا نحو الدرج الذي يقود إلى الطابق الأول حيث مكتب مراقبة الهجرة. لم يتوقَّف الأطباء عن فحص الأيادي والأجسام والعيون وأحيانًا دقّات القلب. رأيتهم يضعون، من حين لآخر، على ظهور الناس إشارات بالطباشير تشبه ما كنّا نكتبه في كراريسنا في المدرسة. قلت في نفسي لا بدّ أن يكون هؤلاء الناس هم الوحيدين المقبولين للدخول إلى أميركا. تمنّيت أن توضع على ظهري وظهر بابا حسن علامة مثلها لكي ندخل بسرعة ونذهب نحو العائلة التي كانت تنتظرنا في الخارج. لكنّي فجأة ارتبكت ولم أفهم شيئًا عندما رأيت امرأة كتب على ظهرها علامة E، كان من الصعب عليها فتح عينيها المحمرّتين. فُصلت فجأة عن ابنيها وزوجها الذين لم تسجَّل عليهم أيّ علامة، وسمعت زوجها يصرخ وكأنَّه كان يندب حظّه: «اللّه يخرب بيتك، قلت لك لا تجي معنا، أنت مريضة وهالوقت اللّه ما راح يحلّها. كان يجب عليَّ أن أرميك في عرض البحر، مثلما فعل البحّارة مع المرأة المريضة بالكوليرا، دمّرت مستقبلنا ومستقبل الأولاد... اللّه لا يغفر لك هذه الحماقة وهذا العناد يا اللي بلا طعمة...». كان يندب، والأطفال يتباكون ويستنجدون ويتشبَّثون بلباس أمّهم ولباس

الشرطي. ثم ساروا جميعًا بصحبة الطبيب والشرطة باتجاه العمق. رأيت امتعاضاً على وجه بابا حسن وقلقًا لم أعهده فيه من قبل. لم أفهم جيِّداً ما كان يحدث. كيف يزعل الرجل والأولاد من أمّ كتبت على ظهرها علامة E؟ سألت أبي بصوت خافت، وكلمات محسوبة حتى لا يسمعنا الشرطي الذي لم يكن بعيداً عنّا ويدلي أذنيه الكبيرتين نحونا:

ـ بسّ ما فهمانة؟ هؤلاء محظوظون جدًّا لأنَّ العلامة E وضعت على ظهر أمّهم، ولكن يبدو أنَّهم ليسوا سعيدين بما حصل لهم يا بابا. اللهّ يعين الأميركان على هيك خلق، ما بيفهموا شي!

لم يكتم بابا ألمه العميق.

ـ أيّة سعادة. هؤلاء سيمرّون عبر رقابة طبيَّة دقيقة، وقد لا يدخلون أبداً إلى أميركا. وإذا سمح لبعضهم بالعبور، فالأمّ لن تدخل لأنَّ بها مرض التراخوما. ألم تلاحظي أنَّها طوال أيّام الرحلة وهي تخبِّئ وجهها؟ وضع العلامة E يا مي ليس دليل خير، العكس هو الصحيح.

ـ طيّب، شو معنى كلّ هذه العلامات إذن؟

كان فم بابا حسن ناشفًا، ووجهه صلبًا ومتعبًا. فقد الكثير من ألقه على الرغم من أنَّه حلق زغب وجهه الذي بيّن تعبه، في السفينة، قبل الدخول بقليل إلى الميناء. بذل جهداً كبيراً لكي يجيب عن أسئلتي المقلقة. أبي كان خزّانًا صامتًا من الألم. كنت أشعر به ولم أملك أيّة وسيلة للدخول في أعماقه. أنا كذلك كنت منهكة.

قال وهو يشرح لي بالتفصيل ما طلبت معرفته:

ـ هناك نظام محدَّد كما ترين. الأطباء يدورون ويلاحظون المرضى أو أيّ شيء لا يعجبهم. كلّ مريض بنقص عقلاني حتى لا نقول مصابًا بالجنون، تسجّل على ظهره علامة X بالطبشور الأبيض وهذا يُعاد في أوّل سفينة ذاهبة باتّجاه أرضه أو أيَّة أرض أخرى. ويؤشّرون بحرف E على ظهر مرضى العيون، التراخوما. وبحرف H على مرضى القلب الذين يلاحظ الطبيب أنَّ لديهم ضعفًا في قدرات التحمُّل. وكلّ من وضعت على ظهره إحدى هذه العلامات، يمرّ عبر رقابة مشدَّدة وصارمة. الرقابة العينيَّة هي أخطر شيء ولهذا ترين الأطباء يدقِّقون في العيون ويفرّقون بشكل واضح بين حمرة التعب وحمرة المرض. الطبيب عندما يلاحظ مرض التراخوما في العيون أو ما يشبهه، يتأكَّد من ذلك بوسائل متعبة. يقلّب العينين بملقط معدني بسرعة بكلّ الآلام التي يحدثها هذا الفعل، وعلى المسافر أن يتحمَّل، و أن لا يتأوّه وإلا راحت عليه. بينما الآخرون، ممّن يعبرون للاختبار الموالي، يغطسون في بانيو ماء لقتل الجراثيم التي يحملونها من بلدانهم، في أرجلهم وأجسامهم.

ـ وهل من الضروريّ أن نتعرَّى.

ـ خايفة من العري، وإلا على البسَّة؟

ضحك والدي.

فكَّرت قليلاً:

ـ يمكن على الاثنين، بسّ على أميرة أكثر.

ـ عندما تدخلين مخدع نزع الألبسة، لفلفي فيها أميرة، وأقنعيها بعدم التحرُّك ريثما تعودين لها، بلكي بتسمعك؟

ـ بابا هذا مش وقت مزاح.

ـ أنا بالفعل جادّ. الوسيلة الوحيدة لتمرير هذه المخلوقة العجيبة عبر هذه الرقابة الصارمة هي هذه الطريقة. قد نُعاد من حيث أتينا، لا بسبب مرض، ولكن بسبب قطّة مهبولة لم تعرف كيف تتخفّى وتسكت ريثما نمرّ. ما بعرف إذا كانت هذه البسَّة ستتعقّل وتتركنا نمرّ بسلام؟

شعرت فجأةً أنَّ بابا حسن لم يكن يمزح، فصمّمت أن أدفن القطّة أميرة تحت ألبستي التي أنزعها، وأنظر إلى عينيها وآمرها بعدم التحرُّك حتى أعود من حمّام قتل الجراثيم.

عندما وصلت بمحاذاة الشرطة والطبيبين الواقفين بجانبه. ارتعش قلبي خوفًا على أميرة وليس خوفًا من الرجوع. لم يكن الطرد يهمّني كثيرًا، لأنِّي لم أكن أعرف لماذا اختارني خالي أبو شادي للقيام بمهمّة تتجاوز سنِّي. كان بإمكانه أن يفعل ذلك بنفسه، فهو أقدر على مساعدة العائلة منِّي ثم أنِّي لم أكن سعيدة لهذا السفر أصلاً وقبلت أن أترك أمّي حبًّا في إنقاذ بابا حسن من موت كان يتهدَّده. رجوعي سيعيدني إلى يوسف وقبلته التي بها مذاق قصب السكر، وطعم شجرة الياسمين التي تغطّي بيتهم. شدَدت بقوّة على يد بابا

حسن. أغمضت عيني عندما مدّ الطبيب يده إلى رأسي ثم إلى ذقني ورفع وجهي. عندما فتحت عيني وجدته قبالتي. كانت عيناه جميلتين ولوزيتين ذكّرتاني بعيني يوسف، ابتسمت، ابتسم. قلبي كان يرتعش خوفًا من أن تعلن أميرة عن وجودها عندما تنذرني بجوعها أو رغبتها للقيام بحاجتها البيولوجيَّة:

ـ ما أحلى عينيها وما أصفاهما. احذر عليها من مرضى التراخوما، هناك الكثير من الركّاب المصابين به. حرام أن تمرض به.

قال الطبيب لوالدي بطيبة ظاهرة.

ـ شكرًا على لطفك سيدي. لينا هي كل شيء في حياتي.

قال والدي بكثير من السعادة والاعتداد، بإنجليزيَّة أنيقة.

كنت سعيدة أنِّي لم أخف من الطبيب الذي كان يحمل في يده ملقط المراقبة الذي يقلّب العيون ويؤذيها.

عبرنا بعد ذلك نحو الجناح الشرقي الذي تطرح فيه كلّ الأسئلة الغريبة التي لم أكن أتخيَّل أنَّها ستنهال على بابا حسن. شعرت أنَّ العبور دام زمنًا كاملاً. يوم أطول من قرن. كنت في كلّ خطوة أقرأ وجه والدي والعلامات الخفيَّة، الهاربة التي كانت تعبره من حين لآخر، فأعرف من نظرته خطورة الموقف من عدمها. خزرته باتّجاهي كانت تذكِّرني دومًا باسمي الجديد واسمه. لينا ويونس ماركو. قلت يجب أن لا أخطئ... لينا... يونس ماركو... وبدأت أنسى اسمي واسم والدي الحقيقيّين.

مرت مرحلة الأسئلة الغريبة بشكل سهل وعلى غير ما توقّعت. كان والدي متمرّسًا على الإجابات. ٢٩ سؤالاً متواصلاً لم تترك على وجهه أيّ ارتباك. لم أجب على أيّ واحد منها، لأنّه لم يُطلب منّي ذلك. ضحكت عندما رأيت الرجل المكسيكي القصير، الجالس على كرسي قصبي قديم وهو ينفخ ريشه كالطاووس المغرور، بلغة إنجليزيّة مكسورة ومعوجة، على العكس من ردود بابا حسن:

ـ سبب زيارتك إلى أميركا.

ـ للعمل والعيش الكريم.

ـ هل لديك أهل في أميركا؟

ـ طبعًا. أخت زوجتي، وجزء كبير من أهلها يقيمون هنا منذ مدّة طويلة ولهم أملاك كثيرة. مرتاحون ماديًّا.

ـ هل تريد قلب النظام في أميركا؟

انتظرت من بابا حسن أن يضحك من شدّة غباء سؤال غريب كهذا، ولكنّه لم يفعل. أجاب بجديّة وصرامة.

ـ طبعًا لا. لا يمكنني أن أوذي بلداً يطعمني ويمنحني حريّة الحياة والتعبير.

ـ هل تريد قتل الرئيس الأميركي.

مرة أخرى التفتّ نحو بابا حسن وأنا بالكاد أكتم ابتسامتي الساخرة. ظننت في لحظة من اللحظات، أنّهم كانوا يسخرون من

والدي. عطفت عليه كثيراً من هذا الغباء المستشري ومن هذه السذاجة. كدت أنفجر ضحكًا كالملحة كما هي عادتي، ولكنّي هذه المرّة كذلك لم أفعل، لأنّي خفت أن يتّهموني بالجنون، فيحرمون والدي من المرور. في لحظة من اللحظات فكّرت أن أسرق الطباشير من الطبيب والشرطة وأكتب على ظهر هذا المكسيكي القصير الذي يجلس على الكرسي القصبي، علامة X، ولكنّي أحجمت عن خيالاتي عندما أجاب والدي بكلّ برودة:

ـ أبداً ولن أفكّر في ذلك مطلقًا. الذي أعرفه هو أنّ الرئيس في أميركا لا يُقتل ولكن يُزال ديمقراطيًّا وبواسطة الانتخابات.

ـ لينكولن قُتِل ولم يزل ديمقراطيًّا؟

ـ فترة انفصال وحروب أهليَّة.

نظر إلى وجه والدي، ثم واصل أسئلته الغبيَّة.

ـ هل بك أمراض معدية؟

ـ لا. أبداً. الطبيب رآنا وفحصنا ولم يجد شيئًا من ذلك.

ـ مرافقتك، ابنتك؟

ـ ابنتي. ستزور خالاتها لتنسى وتكتشف هذا العالم الجديد والحرّ. فقد فقدت أمّها في حادث أليم وتأثّرت كثيراً. أريدها أن تتوجّه بنظرها نحو المستقبل ولا تبقى مشدودة إلى الموت...

فجأة، عندما التفت والدي نحوي، رأيت الدمعة وقد تلألأت في عينيه. لم أكن أعرف أنّ والدي كان ممثلاً بارعًا. لم يجتز فقط

الامتحان بقوة، ولكنَّه أقنعهم بعدم تفتيشي وإيذائي، عندما كذّب وقال إنّي فقدت أمّي (ربما كانت تلك هي المرّة الأولى التي قال فيها حقيقة مرّة خبّأها عنّي زمنًا طويلاً). حتى المكسيكي القصير القامة، عندما سمع كلام والدي، نظر إلى وجهي ولم يقل شيئًا آخر. أحنى رأسه، قبل أن يدفن عينيه في الأوراق والأختام التي كانت بجانبه. كدت أصرخ برافو، لولا أنَّ والدي طمأنني بنظرته. فقد نجوت حتى من نزع الملابس وحمّام قتل الجراثيم. فقد اكتفيت بالمشي على حصير مثقل بالمياه والأدوية، ثم حككت رجليّ عليه ومسحت بمنشفة مندّاة على وجهي ومفاصلي المكشوفة.

كانت القضبان الحديديَّة والكراسي الخشبيَّة الغاصّة بالبشر، تعطّل من حركتنا وتحدّ منها بشكل كبير. كلّ لغات الدنيا تتداخل وتتمنّى أن تسمع لغتك، ربما احتجت لصوت صاحبك لكي يشرح للجمركي أو الشرطي محنتك. ثم بدأنا نسير نحو الجناح الغربي من القاعة. لم أجد شيئًا ينسيني تعبي سوى تأمُّل السقف العالي المرصَّع بقطع الزجاج التي بدأت أحسبها ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، بعدها نمت في يد والدي وأنا أمشي. وكان القبطان اليوناني قد نصحنا بأن لا نفترق في أيّ لحظة من اللحظات، لأنَّ كثرة البشر يمكنها أن تضيع الإنسان، ثم إنَّ أنانية الناس لا تجعل أحداً يلتفت نحو الآخر. فكَّرت وقتها في الرجل الذي اتّهم زوجته بالكوليرا. ثم عدت إلى تأمُّل السقف العالي الذي عرفت فيما بعد أنَّه مكوّن من ٢٨٠٠٠ قطعة. شددت على يدي والدي في نومي. لا أدري فيما بعد ماذا حدث، ولكنّي لأوّل مرة

أعرف أنَّه بإمكان الإنسان أن ينام واقفًا من شدّة التعب، أو وهو يمشي بدون أن ينقص ذلك من لذّة النوم ومتعتها. عندما أيقظني بابا حسن من نومي أو غفوتي، قفزت بسرعة مذعورة بعد أن رأيتني في النوم وقد ضيّعت قطّتي ويده:

ـ اسمي يا سيِّدي... اسمي... قطّة أميرة... عفواً لينا ماركو... وبابا، يونس ماركو...

ـ ما سألتك عن اسم القطّة، ولا عن اسمك ولا عن اسم البابا؟

قال بابا حسن. ردَّدت بشكل شبه آليّ:

ـ خفت منهم... رأيتهم يحوطونني.

ـ لا يوجد شيء حبيبتي. اهدئي فقط.

ثم عدت إلى النوم من جديد ويدي على صدري. عندما حملني والدي بين ذراعيه شعرت بنفسي في الجنّة. أعتقد أنَّها المرّة الأولى التي حملني فيها بهذا الشكل المليء بالحنان، ومشى بي طويلاً في البهو الحديدي. لا أدري المسافة التي قطعها، ولكنِّي عندما استيقظت كنت أشعر براحة لا تتصوّر. فقد رأيت يوسف وقبَّلته كثيراً على الرغم من أنَّه هرب منّي، وتخبأ وراء الزيتونة وهو يضحك كعادته. كانت في فمي بقايا حلاوة وسكّر، وكنت خجولة من بابا حسن الذي يكون قد رأى المشهد بكامله.

عندما فتحت عيني، كان بابا حسن أمام الصرّاف، يحوِّل ما كنّا نحمله من معادن ثمينة: خلاخيل جدّتي الثقيلة التي لم يعد

أحد يستعملها، عقد أمّي الذي تزوَّجت به، وقد أهداه لها أبوها الذي أنجزه عند أحد صنائعيَّة دمشق في الحي المغربي، وحلقات ذهبيَّة صغيرة مكسورة، وبعض الأوراق النقديَّة الإنجليزيَّة، وسُلِّم مقابل ذلك كلّه، كمشة من الدولارات التي ستنفعنا في منفانا الجديد. رأيت عيني والدي عن قرب، كنت بين ذراعيه، لم أر الخوف الذي كان يعتريه من حين لآخر. ثم جرى القبطان اليوناني نحو بابا حسن وسلَّمه بطاقة، أعطاه والدي بموجبها ورقة نقديَّة خضراء، لا أدري قيمتها.

ـ هذه بطاقة الهجرة. بإمكانك الآن أن تدخل أميركا بلا خوف.

ثم انطفأ الرجل في فوضى البشر القادمين إلى نيويورك.

إلى اليوم أتذكَّر لحظة النوم اللذيذة بين ذراعي والدي، ووجه القبطان اليوناني ورائحة فمه التي هي مزيج من الدخان الثقيل والكحول الرديء.

كنت بين الإغفاءة والنوم. نزلت من بين ذراعيه وبحثت عن قطّتي، لم أجدها. أصبت بحالة ذعر. وقبل أن أنهار بسبب هذه الخسارة، قال بابا حسن وهو يمسح على عيني نصف المغمضتين بمنشفة منداّة كانت بيده:

ـ اطلعي، شوفي شو عاملة فيني قطّتك المجنونة. كان من المفروض أن نضع عليها علامة X ونطالب بإرجاعها من حيث جاءت لأنَّها فعلاً فقدت عقلها من فرط السعادة.

كانت أميرة على كتفه الأيسر، تنظر إليّ بعينين سعيدتين وبزهو كبير ولم يرعبها الجوّ البارد ولا حركة الناس، ولا حتى البنايات العالية التي كانت تشبه الأدغال الكثيفة.

ـ وحياتك لم أفعل لها شيئًا. بمجرد خروجنا، تأمَّلت الحاضرين والعابرين، وعندما أحسّت بنفسها مؤمّنة، خرجت من صدرك، نطّت بحريَّة كبيرة. حتى الرجل الذي رآك تنظرين إلى صدرك من حين لآخر، فاجأني بردّة فعله الغريبة:

ـ لكان أخي، الحكاية حكاية بسّة... مو شي ثاني؟

ـ قصدك معزايا تتخبَّأ في صدرها مش بسّة؟ شو كنت فاكر؟ سألته بسخريَّة حتى أعرّي قبحه. لم يجبني ولكنَّه سار في أثر الذين سُمح لهم بالمرور، ولم يلتفت وراءه هذه المرّة حتى غاب نهائيًّا.

قال بابا حسن وهو يكتم بصعوبة سخريته التي لا يخلو منها كلامه. كان كأنَّه حقَّق انتصاراً على غباء الرجل الذي كان يظنّني سعيدة باكتشاف بداية بروز نهدي. في الحقيقة، نبَّهني إلى شيء كنت قد نسيته. أوّل مرّة، عندما برزت الحلمتان، قبل سنة تقريبًا، شعرت بألم كبير في رأسيهما. فقد تصلَّبتا ونبت بداخلهما شيء يشبه حبّتي فول. ارتعبت يومها ولكنِّي عندما سألت ميرا، ماما الحنونة، ضحكت منِّي ووشوشت في أذني:

ـ يا عبيطة، هذا معناه أنَّك بدأت تصيرين امرأة. شو ها الحلاوة؟ صبيَّة يخزي العين.

أجبتها بعفويَّة واندهاش ظاهرين:

ـ ليش؟ قبلها كنت زلمي ما كنتش بنتْ؟

ـ لا موهيك حبيبتي. هذه مرحلة جديدة في حياتك، سيتغيَّر فيها جسدك بقوّة وستصيرين حلوة أكثر، وستودّعين بسرعة طفولتك. الجسد هو الملكيَّة الوحيدة التي لا نستطيع التخلّص منها إلا بالموت. ولهذا علينا أن نحافظ عليها بشكل جيّد، لا يمكننا أن نجرّ وراءنا شيئًا لا نحبّه.

في اللحظة لم أفهم جيِّداً وأصررت على الحفاظ على طفولتي وأنِّي غير منشغلة بهذا التحوُّل وأنِّي سعيدة مثلما أنا... كنت خائفة على عالمي الصغير من أن يهرب منِّي. الخسارة كانت ترعبني، والندم يخيفني. احتجت إلى سنوات أخرى لكي أفهم جيِّداً ما كانت تعنيه أمّي من كلامها، وهي التي كانت تدرك جيِّداً سرّ ما كانت تقوله لي:

«شايفه يا مي... الجسد كنز الحياة الذي منحه لنا اللّه بسخاء. هو الملكيَّة الوحيدة التي لا نستطيع التخلُّص منها إلا بالموت، ولهذا علينا أن نحبّه ونعرف كيف نحفظه من التلف والابتذال. أسرار الجسد عظيمة، ولكن علينا أن لا نتسرّع في الكشف عنها واغتصابها. لنترك لها الوقت الكافي لتفعل ذلك بنفسها».

أيّ كلام من كلامه؟

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الثلاثاء ١٢ أكتوبر ١٩٩٩

منذ يومين لم أكتب. كلّما اقتربت من الكرّاسة، انسحبت الكلمات. لم أدر السبب، ولم أكلِّف نفسي عناء البحث عنه. انشغلت بألواني المائيَّة الخفيفة. أجد لذّة كبيرة في العوم فيها والغرق في ظلالها وتدرُّجاتها اللامحدودة. كلَّما عوَّمت لونًا في غيره من الألوان، فاجأتني كثرتها الغريبة. ومع ذلك، صَعُبَ عليَّ أن أضع كلّ التعبير في العينين؟ شيء ما كان ينقص في الألوان المائيَّة. كان عليَّ أن أجتهد أكثر ممّا فعلت حتى الآن.

في النهاية، أنجزت شيئًا جميلاً قادني لأول مرّة نحو قطّتي أميرة. اللوحة نفسها لم تخل من اسمها: **أنا وأميرة في معطف**

أبي[1]. أهمّ ما تذكّرته وتجسّد في اللوحة، عينا أميرة وهما تحدّقان فيّ من تحت السترة، وفي وجه الشرطي الذي كان يصطنع ابتسامة باردة. كانت اللحظة قاسية وصعبة، وكنت في داخلي مستعدّة أن أُطرد مع قطّتي في الباخرة الموالية كما كانوا يفعلون عادة مع الناس غير المرغوب فيهم، ولا أسلّم في أميرة مهما كلّفتني حماقتي.

علاقتي بالزمن تغيّرت. ما كان يبدو ثقيلاً أصبح خفيفًا، وما كان خفيفًا صار يمرّ بثقل وتأنّ. شعرت كأنّي فجأة حقّقت انتصاراً على القدر الثاني. الأول، عندما كُلِّفت بمرافقة أبي ونسيان أمّي. والثاني عندما أوصلته إلى برّ الأمان وإلى مرفأ السلام. ومرّ كلّ شيء بخير ولم تبدُ منّي أيّة حركة مربكة له. لقد كنت شجاعة وكتمت وحشتي لأمّي. لقد أصبح اليوم بعيداً عن عيون الهاچاناه الهمجيّة وعن القتلة الآخرين.

نمتُ بسرعة ولا أدري كم دام نومي، ولكنّي عندما فتحت عيني في مرفأ إليس آيلند، كان الليل قد نزل على نيويورك وبدأت رياح خفيفة وباردة تهبّ على المكان. لم نكن الوحيدين في العراء. انتبهت إلى أنّي كنت ما أزال في حِجر والدي وكان لا يتوقّف عن حكّ شعري كما كانت تفعل أمّي قبل أن أنام:

---

١ ـ من مقتنيات متحف بروكلين للفنون الحديثة. اللوحة مصنّفة ضمن مدرسة الفنون الأميركيّة الجميلة، الحديثة. ويظهر توقيع مي داخل بياض صغير ليس جزءاً أصليًّا من تلوين اللوحة، كأنّها أضافته في وقت لاحق. اللوحة مصنّفة. رقم الشراء الدولي: BROK.MA.CAT.CL /MAYKO/1907-69.

ـ الآن صرنا برّاً. عذراً يا بابا، أتعبتك، بسّ اشتقت لماما ميرا.

ـ مي حبيبتي، لا تأخذي على خاطرك. لقد تركناهم كلّهم هناك: الماما، أخوك اللّي جاي، حتى لينا مرافقتك الدائمة وأختك التوأم، اختارت أن تؤنس ميرا في وحشتها حتى لا تبقى وحيدة. أقنعتها بأن تبقى بجانب ماما. كلّه تمام. من طيبتها، أعارتك لينا اسمها لكي تحفظك من عيون شرطة الموانئ والحرس المتصيِّد لحركات الركّاب.

فجأة قفزتُ من مكاني، ووقفت في وجهه لتذكيره بحماقته التي أوصاني بعدم ارتكابها، من يدري؟ للحيطان آذان وللبحر أسراره.

ـ بابا نسيتَ؟ للحيطان آذان؟ تتكلّم بكلّ راحة وكأنَّ شيئًا لم يكن. أنا لست مي... أنا ليييييييي... نا ماررررركوووو... وأنت، بابا يييييييونس ماررررركوووووو...

انتبه. ضحك.

ـ بسّ ما فيه حيطان يا روحي، نحن في العراء. انتهى الخوف والحذر. نحن في نيويورك. كلّ شيء مرّ بشكل رائق ويمكنك أن تسترجعي اسمك الجميل: مي. ربما حمَّلنا الوضع أكثر ممّا يجب ولكن أحسن. ننتظر مجيء خالتك دنيا. أنت لا تعرفينها، هي أخت خالو أبو شادي. فقد رحلت في وقت مبكّر إلى هذه المدينة مع رجل إنجليزي أحبّته، وهي أكثر خالاتك جرأة. لن نذهب من هنا حتى تأتي. متأكِّد من أنَّها تبحث عنّا وسط هذه الأمواج البشريَّة، وستعثر علينا لا محالة. لا يوجد مكان للاستقبال غير هذا.

ـ خسارة يا بابا. حفظت كلّ شيء كالغبيَّة واستعدّيت لأكثر الحالات إحراجًا ولكنَّهم لم يسألوني عن اسمي. اسمي عجبني. لينا ماركو... تعوَّدت على سماعه منك ومن خالي أبو شادي ومن نفسي، بسّ خسارة ما طلع معنا شي...

ـ أبداً. كنتِ شجاعة يا مي. أرأيت كيف نظرتِ إلى الطبيب، حتى لأنَّك أدهشته بقوّتك وثقتك في نفسك بدون أن تقولي ولا كلمة. لم يفتّشونا لأنَّهم لم يشكّوا فينا أبداً، هذا كلّه بفضلك.

كان بابا حسن يشجعني ويدفعني إلى نسيان البرودة التي نزلت فجأة على المكان. سألته قاطعةً سيل حكاياته التي كانت تجسِّد فتوحاتي وشجاعتي ولم يقل كلمة واحدة عن خوفي:

ـ ما أجسرك يا بابا. كدت أصدِّقك وأنت تحاول إقناعهم بوفاة أمّي؟ كنت صادقًا في كذبتك لدرجة أنَّك بكيتَ وكدتَ تُبكي الشرطي المكسيكيّ المسكين، الذي سألك. للمرّة الأولى أكتشف بابا حسن آخر، الممثّل.

بعد أن صمت طويلاً، لم أتجرَّأ أن أسأله، قال:

ـ كان لا بدّ أن أفعل ذلك لإنقاذك وإنقاذ قطّتك من حمّام الجراثيم.

ـ حسنًا فعلت... بسّ... ما كان فيه كذبة غير وفاة أمّي يا بابا؟

ـ لا. كانت الوحيدة، لأنَّها الأقرب إلى التصديق.

قلت وأنا أغيّر الموضوع لأنَّه أقلقني في أعماقي.

ـ ماشي الحال. أنا بردانة يا بابا. متى تأتي خالتي دنيا؟ تأخَّرت علينا كثيراً. ألم تكن قد نسيتنا من كثرة مشاغلها؟

ـ ربما انتظرتْ طويلاً في الميناء، ثم رجعت إلى بيتها في انتظار الصباح. ستأتي، أنا متأكّد من ذلك، وعلينا انتظارها. على كلّ لا تشغلي بالك، كلّ الصعوبات انتهت وذُلِّلت. لدينا العنوان وقليل من النقود، وسنصل إليها بأيَّة وسيلة نقل. السيّارات، الباصات، الميترو، الترام، سنجد الحلّ المناسب عند الضرورة. نيويورك واسعة، ومن يملك لسانًا لا يضِعْ أبداً. أنتِ بلبل في الإنجليزيَّة، وأنا ما بني شي، أدبّر حالي.

طبعًا، والدي لم يكن جادًّا. كان يعرف الإنجليزيَّة أحسن منّي. وأنا كنت أخاف الحديث بها خوفًا من الأخطاء. هناك اختلاف بين الإنجليزيَّة البريطانيَّة والأميركيَّة، ثم إنِّي لم أجد الحاجة إلى استعمالها مادام والدي هو من يتصرَّف.

نزع بابا حسن معطفه الخشن وأدخلني فيه. أحسست بدفء كبير أنا وقطّتي التي استأنست بصدري. نمت الليلة بكاملها، كقطّة في معطف والدي، على الكرسي الخشبي القديم. لست أدري ما الذي جعلني أتذكّر قصّة غوغول التي قرأتها لي طاطا جينا منذ مدة: المعطف. معطف والدي كان أفضل من معطف غوغول، وأكثر دفئًا. كان على بابا حسن أن يتحمَّل مزاج قطّتين: أنا وأميرة. عندما سمعت صوت امرأة يصيح: Good Morning ...Good Morning شعرت بسعادة

غريبة وغامرة. فقد كان الصوت أليفًا مع أنِّي لم أعرف أبدًا خالتي دنيا ولم أسمع صوتها. كانت الشمس قد خرجت من وراء البحر. بحيرة هودسون كانت أوّل معلم رأيته في نيويورك عندما فتحتُ عينيّ فجرًا. ثم تمثال الحريَّة. ثم الجسر الضخم الذي يربط جهتين كبيرتين، مانهاتن وبروكلين. ثم... صوت خالتي دنيا الذي جاءني ناعمًا كصوت أمّي. عندما فتحت عيني، رأيتها جيِّدًا. هي كما تخيَّلتها، كانت تمسّد على شعري وتتمتم في أذني: يا اللّه يا كسولة قومي، الشمس طلعت...

ـ هذه هي مي إذن؟

نادتني مثلما كانت تناديني أمّي.

ـ مي أو مريم، كما تشائين، ردّ والدي.

ـ حبيبتي يا مي، الحمد للّه على السلامة.

خرجت كلمة مي دافئة وكأنِّي أسمعها للمرة الأولى في حياتي. ثم احتضنتني وبكت. بكت طويلاً. لم أعرف إلاّ بعد سنوات لماذا حزنت خالتي بدل أن تفرح بوصولنا، ولماذا قال والدي لمراقب الميناء عندما سأله عنِّي، إنِّي كنت تحت وقع فقدان أمّي. وكدت أصيح له: برافو يا بابا، شاطر. كذبة ماكنة لا أحد يستطيع أن يشكّك فيها! لكنِّي خفت من توريطه مع الشرطي المكسيكي. مع أنّي فكّرت لحظتها بالضبط أن أطرح على والدي هذا السؤال: لماذا اختار كذبة وفاة أمّي بدل أن يختار شيئًا آخر؟ لكنِّي عدلت عن

الفكرة مرة أخرى، حتى لا أزعج بابا حسن الذي لم يكن سعيداً لأنَّه في الأصل لم يكن راغبًا في هذه الرحلة لولا إصرار خالي أبو شادي وتوريطي أنا. ربما كنت أكثرهم تأثيراً على والدي. فأنا من حسم حيرته.

منذ الوهلة الأولى تأكَّدت أنَّها خالتي ولم أسأل نفسي سؤالاً آخر. صوت أمّي. كان وجهها نسخة ثانية من أمّي وجدّتي. ليس غريبًا أنِّي ظللت أناديها حتى موتها: مامي Mami. كلمة لم تغادر فمي أبداً. وعندما تأكَّد لي بعد سنوات طويلة، أنَّ أمّي قُتلت وهي حامل بأخي، وانتحرت حتى لا يمسّها عسكر الهاچاناه، زاد إصراري على أنَّها هي أمّي ولم أطمئنّ لشخص آخر في نيويورك غيرها. فقد وضعتني في عينيها أكثر من بقيَّة أفراد العائلة ولا أدري لماذا؟ أعتقد أحيانًا أنَّ الأمومة ليست فعلاً بيولوجيًّا ولكنّها حالة من العطاء الغامض، لا يشعر بها إلا من يتلقّاها بإحساس خاصّ. حالة قويَّة ولا نجد لها أيَّة وسيلة للمقاومة.

سألت أبي عن أمّي بشكل فجائي:

ـ قل لي يا بابا، يمّا إمتى بتوصل؟ البارح شفتها في المنام مرّة أخرى ولم تكن على ما يرام. رأيت في عينيها حيرة كبيرة وتساؤلات قرأتها في تفاصيل وجهها. سألتها عمّا يشغلها ولكنّها لم تجبني... يمكن كانت زعلانة منِّي كثيراً.

ضحكتْ خالتي دنيا من لغتي الطفوليَّة على الرغم من الدمعات التي ارتسمت في محجريها.

ـ من زمان ما سمعت هيك كلام، حلو وطيّب ودافئ. نُبرم أنا وأنت معاهدة بيننا: أعلمك الإنجليزيَّة الأميركيَّة، بشكل مضبوط، وتعلِّمينني أنت اللغة العربيَّة، حتى لا أنسى. اتّفقنا.

ـ بسّ أنا بعرف اللغة الإنجليزيَّة. وأنت عمتحكي عربي.

ـ لا حبيبتي، لغة الأميركان غير شكل. بياكلوا حروف كثيرة ولازم تتعلَّميها. وعربيتي مهروسة وما بتنفع.

تحت نظرات أبي التأنيبيَّة، توقَّفت عن المزايدة والتزمت الصمت. نسيت أنِّي لم أكن أمام أمّي ولكن أمام أختها. أتساءل أحيانًا كيف بدأت الأمور مع خالتي بهذه الراحة التي لم أجدها مع أحد ولا حتى مع أبي. الأيّام والشهور والسنوات التي تلت بيّنت لي أنَّ مامي Mami، لم تكن خالتي فقط ولكنَّها كانت أمّي بالفعل ولا أدري إلى اليوم ما السرّ الكامن في ذلك. كلّ شيء تحدَّد منذ اللحظة الأولى، في ميناء نيويورك الغاصّ بالبشر.

عندما دخلنا إلى البيت العائلي في بروكلين، وجدنا كلّ أفراد العائلة في انتظارنا. خالاتي كنّ جميلات. كلّ واحدة كانت في حضن زوجها، ما عدا خالتي دنيا، كانت سيّدة نفسها. الجميع يشتغلون في مطعم خالتي دنيا التي كانت تشرف على كلّ التفاصيل قبل أن تنزوي في زاويتها في البيت لمراجعة الريبتوار الموسيقي الذي تشتغل عليه في مطعمها.

أخذتني خالتي دنيا من يدي وأرتني غرفتي. كانت تعرف ذوقي جيِّدًا، حتى والدي اندهش من غرفة مليئة برسوم الفراشات،

كانت وكأنَّها حيَّة، ترفرف وتنطق بشيء كان يملأ قلبي. ولم يكن بالغرفة عفش كثير، سرير صغير وكومدينا من الخشب الهندي، في الزاوية وطاولة للعمل، ممّا كان يعطيها اتّساعًا وإضاءة. كان البهو المؤدّي إلى المطبخ مليئًا بالصور. صور أخوالي، جدّي، الشيخ أمين الحسيني الذي كانت تعتبره آخر الأبطال، وحتى النشاشيبي إرضاء لأختها المتزوّجة من آل النشاشيبي الذي لم يكن أحد في العائلة يحبّه. جدّي رفض مصاهرته في البداية، ولكنَّه قَبِل عندما عرف أنَّ صهره سيرحل إلى أميركا بمجرّد زواجه، وأنَّ ابنته كانت تحبّه وأنَّها مصمِّمة على الذهاب معه. وُصوَر أمّي بابتسامتها الطفوليَّة. توقّفت قليلاً، تأمَّلتها. كدت أجهش ولكنِّي تشجّعت. بدت لي أجملهنّ جميعًا.

لا أدري لماذا كلَّما تذكَّرت أمي، قفزت إلى ذهني صورة إيفا كراوس موهلر الجميلة، التي لم أرها إلا للحظات على الصورة، حينما سلّمني مستشفى سياتل المركزي، عفش والدي بعد وفاته، ثم صمّمت بعدها أن أنساها. كنت أخاف أن أحتفظ بها في ذاكرتي، ويبدو أنّ ذلك ما حدث بالفعل بحيث أصبح من الصعب عليَّ التخلُّص منها. فدفنت الصورة والرسالة، التي لم أقرأها أبداً، في غلاف ثم في صندوقي الخاصّ، لا لأنَّها كانت مكتوبة بالألمانيَّة ولكن لانعدام الرغبة في معرفة سرّ كان يمكن أن يعذِّبني من جديد. قلتُ في خاطري: أشباحي الكثيرة تكفيني. فهربت منها وممّا يمكن أن تحمله تلك اللغة، وتلك الرسالة. لم أكن أريد من ينافسني في ميرا. كلَّما

عدت لصورتها، التصقت بها أكثر. كان أنف أمّي أرنبيًّا، جميلًا وصغيراً، وفي عينيها بريق كبير من الذكاء، واندفاع نحو الحياة. انتابتني رغبة كبيرة للبكاء وأنا أتأمَّل صورتها عند خالتي، ولكنِّي عدلت عن رأيي، فقد وعدت خالي أبو شادي أنِّي لن أبكي، ولن أضعف أمام غياب أمّي الموقّت، وأنَّه سيكون عليّ واجب رفع معنويّات والدي. لكنِّي لم أمنع نفسي من إبداء إحساسي لخالتي دنيا:

ـ أشتاق لأمّي يا خالة دنيا.

ـ شو فيه حبيبتي، هل قال لك بابا حسن شيئًا آلمك؟

لم أرتبك مطلقًا من سؤال خالتي ولم أشكّ في أيّ شيء. عرفت مقصدها، أو على الأقلّ هكذا بدا لي يومها.

ـ لا. قال لي عن كلّ شيء. أنا أعرف أنَّها ستلتحق بنا في أقرب فرصة برفقة طانت جينا، بسّ... أنا لم أعد قادرة على الابتعاد عنها. تأتيني في النوم يا خالتي وهي حزينة وترفض أن تتحدَّث معي وكأنَّها زعلانة منِّي. بلكي زعلانة لأنِّي تركتها لحالها مع عسكر الهاچاناه. ربما ولدت الآن وتحتاج إلى من يساعدها في إدارة شؤون البيت؟

ـ لا حبيبتي، هي مو لحالها. هي مع خالو أبو شادي اللّه يحفظه، وغسّان، وأخوالك الآخرين والأهل. وتجيء إلى نيويورك عندما يفرجها اللّه. ثمّ أمامك أبوك تسهرين على راحته، مو كان هيك الاتفاق مع خالك؟

ـ طيِّب، أوصلته بسلام وهذا هو المهمّ في نهاية المطاف. ويمكن أن أعود أجيب ماما من القدس وأخويا، ونبقى جميعًا مع بعض هوني. المكان حلو ونظيف وهادئ. شو اللي عم يمنع يا خالة؟

كنت جادّة في كلّ ما قلته. كانت تلك قناعتي الخاصّة.

طوال أيام الأسبوع، ظلّ بابا حسن صامتًا ولا يتكلّم كثيرًا، وإذا لم يسأل لا يبادر أبداً. لا يعود إلا في المساء إلى دار خالتي دنيا، حاملاً خبزًا وفواكه. وكلّما سُئل عن العمل يقول بأنَّه ينتظر جماعته في الشمال، سياتل، في معامل الخشب أو الميناء. في اليوم السابع من شهر ديسمبر البارد والمثلج، كانت الأشجار مثقلة برطوبة بحيرة هودسون، خرج ولم يعد إلاّ بعد زمن طويل. سلّم عليّ. احتضنني. وعندما سألته:

ـ بابا، وجدت عمل في الشمال؟

صمتَ قليلاً، قبل أن يواصل.

ـ الأمور تترتّب شيئًا فشيئًا. على كلّ حال، لن أذهب إلى الشمال إلا إذا تأكّدت من أنَّ العمل صار متوفّراً وآخذك معي طبعًا، إذا أحببتِ.

ـ بحبّ خالتي دنيا يا بابا، ولكنِّي لن أتركك تذهب لوحدك.

ثم غاب بابا حسن من جديد ولكن هذه المرّة طالت غيبته. أكّدت لي خالتي دنيا، فيما بعد، أنَّ والدي ذهب بالفعل إلى الشمال للعمل هناك مع بعض أصدقائه، بمعامل الخشب وربما الميناء. وأنَّه أكّد لها أنَّه بخير وأنَّه بمجرّد أن يستقرّ سيعود ليأخذني.

طوال الشهور الأولى التي قضيتها عند خالتي، فوجئت أنَّها لم تسألني عن أمّي، على الرغم من طيبتها وحنّيتها الكبيرة. سألتني عن كلّ التفاصيل، حتى عن عائلة يوسف، والخبّاز، وبوّاب الأقصى والمفتي، ومعزات عمّي موسى يا اللي أخذها منه اليهود. لم تسألني عن أمّي. فبادرت بشكل غير مباشر لتذكيرها:

ـ نسيت أقول لك يوم وصلنا، خالي، أبو شادي كان يسأل عنك كثيراً، ويطلب منكم أن تراسلوه وأن لا تنسوا أرضكم، فهو يفكِّر فيكم كثيراً.

ـ حبيبي يا خويا. قلبه محروق علينا جميعًا. اللّه يحفظه من أيّ مكروه. نحنا مثلما أنت شايفة، كلّنا بخير والحمد للّه.

ـ وماما كمان بتسلّم عليكم وأخويا اللي...

ـ شو عرفك أنَّه ولد؟

قالت وهي تبحث عن ابتسامة بدت لي بعيدة جدًّا، ابتسامة لم أشعر أنَّها كانت تأتي من أعماقها، كما تعوَّدت عليها من خالتي دنيا.

ـ الداية، خالتي عيشة الولادة، والطبيب الإنجليزي الذي كان يأتي به خالي أبو شادي، كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك. واحد يمكن أن يخطئ، بس اثنين، صعب؟

ـ معك حقّ.

ـ يمّا شافت الاثنين تباعًا، وقالوا لها إنَّ اللي في بطنها صبيّ.

ـ ياه برافو عليك، كلّ هذه المعلومات؟

إجابات خالتي دنيا كانت كلُّها تبتعد عمّا كنت أريد سماعه. شوقي لأمّي كان حارقًا. في الأخير أحسَّت بي. تمدَّدت على ظهري، ووضعت رأسي في حجرها. شعرت بأصابعها الناعمة وهي تتوغَّل في شعري كالأشعّة الدافئة. كانت تتحرَّك، وكنت أغوص في النعومة والدفء. تدندن على مسمعي أنغاما شجيَّة لم تكن تصحبها أيَّة كلمة، ومعها أغرق شيئًا فشيئًا في عمق النوم. خالتي دنيا كانت تعزف على البيانو في مطعمها. تجلس ثلاث مرّات في الأسبوع، في الزاوية حيث بيانو قديم، تقول إنَّه لريشاردسن، أحد ألمع موسيقيّي الجاز، في هارلم، باعه الورثاء في سوق العتيق، والذين لم يكونوا يعيرونه أيّة أهميَّة. ثم تفتح كرّاسة التوزيعات... بيتهوفن، باخ، موزارت... فيفالدي... هايدن... فردي... بعض الإيقاعات، وأغاني الريبتوار العربي ـ اليهودي القديم، للشيخ ريمون وأليس فيتوسي... الطمار... رينيت الوهرانيَّة... إيقاعات هنديَّة أميركيَّة قديمة... وصوت ماريا كالاس الذي التصق بذاكرتي بشكل قويّ. كانت تحلم أن تكون في إحدى دور الأوبرا الأميركيَّة، وكان عليها أن تدرس بعمق ولكنّ اهتمامها بأختيها، على الرغم من زواجهما وتصيّد أخبار العائلة، شغلاها عن كلّ شيء وحتى عن الزواج. تقول إنَّ الرجال يخافون النساء القويّات الشخصيَّة. يحبّون المستسلمات وليس الهشّات بالمعنى الإنساني الجميل... يا اللّه طزّ فيهم. تقول خالتي بانفعال ظاهر. أنا كمان ما بدي إيّاهم. ومع ذلك كنت أشعر بارتباكها

العاطفي وخيبتها المرّة التي عوضتها بكلّ هذه الانشغالات. كنت أرى تعبها جيِّداً وأدرك أنَّ المطعم الذي كانت تسيّره مع أختيها سينهار يوم تذهب. يثق فيها جدي وفي قوّتها أكثر ممّا يثق في أخوالي وخالاتي. كان دائمًا يقول لي دائمًا عندما أجد نفسي بجانبه في بيت العائلة الواسع: دنيا، أواجه بها قبيلة ولا أخاف عليها. قادرة على شقاها. شجاعتها لا يملكها حتى الرجال. لا تستسلم لأيّ ريح عاصفة. زعلتني، صحّ، بسّ بيّنت لي أنَّها أصبحت قادرة على تحمُّل الحياة لوحدها. غضب منها يوم هربت مع صديقها ستيوورت، وحزن طويلاً إذ شعر أنَّها داست سلطانه، ولكنَّه بعد طول تفكير، عاد إلى رشده، بعدما عرف أنَّها تزوَّجت رسميًّا، وكانت سعيدة مع رجلها في نيويورك.

كانت خالتي دنيا هي عمود بيت الغربة.

كانت النور الذي كان كلّ يوم يهرب قليلاً من بين أناملنا بدون أن نحسّ بانزلاقاته المؤذية.

كانت مامي هي سقف الدار العالي دومًا.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الجمعة ١٥ أكتوبر ١٩٩٩

لأول مرة أرسم علامات **مام ـ دنيا Mamm Donya**(١)، ولم أجد أيّة صعوبة في تذكر وجهها المليء بالطيبة والحنان. ولأوّل مرّة تمتزج ألوان الفرشاة بدموعي. كنت أبكي من شيء غامض كان يتجاوز الشوق والحنين لأمّي ولخالتي دنيا، مامي. كنت داخل فيض من الفقدان. لم أكن ممتلئة بالألوان وتفاصيل الوجوه فقط، ولكن بالأصوات أيضاً.

---

١ ـ اللوحة محفوظة في متحف نيويورك للفنون الحديثة، ضمّت إلى معرض متنقل بين الكثير من المتاحف العالميَّة، حول موضوعة: **الأم الأخرى**. ورقمها: MoMA-MAY-AE453 -666. كُتب على الورقة في أسفل اللوحة: لم تكن مام ـ دنيا أمي، ولكنَّها كانت ذاكرتي المنسية وهويّتي وحنيني إلى النبع الأوّل الذي اسمه: حليب الأمّ. رقم الشراء: MOMA.MAMDONY/MKON/00987&234.

حريق أمّي كان كلّ يوم يزداد قوّة في داخلي. وحرائقها يصعب إخمادها. شعرت أنّي كتمت أشواقي أكثر ممّا يجب. جسدي فقد الكثير من وزنه. وكلّما رأيت نفسي في المرآة، شعرت بأنّي لم أعد تلك الطفلة المدوّرة والجميلة. خفت أن تراني أمّي على هذه الحال وتسألني كعادتها:

« ـ مي حبيبتي، شو اللي صار فيك؟ ما عمتاكلي كويس؟ »

ولا أجد الإجابة التي تشفي غليلها.

انسحب الزمن بسرعة.

سنة أولى مرّت، وأمّي لم تأتِ.

سنة أخرى اندثرت على نفس الوتيرة المتكرِّرة، ولم أتلقّ أيّة رسالة تطمئنني عن أمّي. عن أخي الذي يكون قد كبر وصار يركض في ساحة الدار، في حارة المغاربة. كانت ولادتي حدثًا جميلاً في حياة أمّي. فقد عوّضت الفراغ المؤلم الذي تركته وفاة أختي لينا التي لم تعش إلا سبعة أشهر، وجاء بعدي مجد ولم يعمّر إلا بضعة أشهر.

لا شيء في الأفق. غاب أبي وبدأ ينتابني شعور غريب أنَّه مات، أو أنَّه يعيش مع تلك المرأة التي سرقت من أبي جزءاً من قلبه، إيفا كراوس موهلر، كما سمعت خالاتي يتحدَّثن في سرِّيَّة مكشوفة. الكثير من الوافدين من هناك يقولون إنَّه خلّف منها. مغالاة كبيرة. أعرف شوق والدي للأطفال، ولكن ليس إلى درجة حرق أمّي بهذا الشكل.

ثم انتهى الشتاء البارد من السنة الثالثة، وعبر الربيع بسرعة، وأمّي لم تأتِ. الأخبار التي كانت تصلنا من هناك كانت شحيحة

جداًّ. أقنعتني خالتي دنيا أنَّ الجيش الإسرائيلي وراء حجز الرسائل لأنَّه أصبح هو سيِّد البلاد ويتحكَّم في كلّ مخارجها ومداخلها.

ـ بسّ يا خالة، اليهود ما إلهن شغل إلاّ رسائل أمّي؟

ـ ليس رسائل أمّك فقط، ولكنَّ البلاد قاطبة التي لم يبق منها الشيء الكثير، صارت تحت حكمهم. حتى التقسيمات التي أعطتهم جزءاً مهمًّا من الأرض، لم تعد تكفيهم. يريدون كلّ شيء.

ـ الرسائل الأخرى تصل ولو بقلّة إلا رسائل يمّا ميرا.

تصمت خالتي، ثم تغرقني في تفصيل آخر من شؤون الحياة اليوميَّة.

وأنا أتفحَّص رسوماتي، وأستعيد وجه أمي، تذكَّرت شيئًا غريبًا حكته لي جدّتي ويمّا ميرا عن وفاة أختي لينا. في اليوم السابع من الشهر السابع وكانت الساعة السابعة وسبع دقائق، لفظت لينا أختي أنفاسها الأخيرة في حجر جدّتي من أمي. وعندما دُفنت، كانت هي في الخطّ السابع من سلسلة القبور المتجاورة. قالت لي جدّتي من أبي إنَّ لينا لو عاشت طويلاً، لما كنت أنا موجودة. لا أدري لماذا تحديداً، ولكنِّي حزنت لكلامها وبكيت في حجر أمّي. فقد شعرت بأنِّي كنت فوق الحساب، متاع زائد. ابنة الصدفة. لا مبرّر لوجودي سوى ضربة الحظّ التي لا تتكرَّر دائمًا. جدّتي من أبي لم تقصد ذلك طبعًا، لكنّ حساسيتي يومها كانت في سقفها. وقلت لأمّي وأنا في قمّة انفعالاتي:

ـ ماما ليش، حنا بتكرهني؟

قالت أمّي وهي تسحبني نحو صدرها.

ـ ياه ما أحلاك لما تقولين حنا؟ هل تدرين بأنَّها كلمة جاء بها أجدادنا من بلاد المغرب، وهي تعني الجدّة المليئة بالحنان. لا حبيبتي، جدّتك بتحبّك. ولكن العمر صعب وقاس. كبرتْ ولا تعرف أنَّ كلامها فيه إيحاءات كثيرة يمكن أن تؤذي من يسمعه. الواحد لازم يأخذها على قدّ عقلها. جدّتك عاشت حياة صعبة ورأت زوجها وهو يعلَّق على أعواد المشانق التركيَّة، في دمشق، لأنَّه كان ينتمي إلى حزب كان ينادي بضرورة انفصال العرب عن تركيا. لم يبق لها إلا ابنها. كانت تريد منّي ذكراً يملأ عليها خراب الفقدان، ولكنَّ اللّه رزقني بلينا وبك وأنا أسعد مخلوقة في الدنيا. أحاول أن أفهم أحاسيسها الباطنيَّة العميقة. إلى اليوم، ما زالت جدّتك تدفعني للانتقام من كلّ امرأة تراها تحوم حول والدك وتسمّيني العبيطة. أقول ليكن. ليس لدينا نفس الثقافة. جيل مليء بالشكوك والخوف. الأمّهات يا بنتي، في كلّ الدنيا، يتشابهن. جدّتك حنونة جداً في العمق. هل تدرين ماذا قالت لي عن الألمانيَّة التي تشتغل مع والدك في المقاومة: أنت عبيطة، ستسرقه منك في يوم من الأيام. الألمانيات خطيرات. أسمع كلامها ثم أنساه بعد لحظة. ماذا تريدين أن نفعل؟

كدت أقول لها يا أمّي، في حكاية الألمانيَّة، رأيي من رأي جدّتي. ولكنّي عدلت عن الفكرة حتى لا أجرحها. سألتها عن أمومتها.

ـ وهل ستفعلين الشيء نفسه مع خيّي لما يجي؟

ـ مش عارف،ة بسّ من يدري؟ البشر بشر يا بنتي وما الكمال إلا للّه. مؤكَّد أنَّ حبِّي لخيّك سيكون كبيراً وإذا شفت امرأة تريد أن تلطشه منِّي، أخرب بيتها وبيت أبوها.

ـ وإذا كانت بتحبّو ويحبّها؟

ـ هيدي قصّة أخرى. لا... لا... أمزح معك. من حقّه أن يحبّ من يريد وسأكون عند حسن ظنّه بتفهّمه فقط. هذا هو المطلوب منِّي. البقيَّة يصنعها لوحده. حياته وليست حياتي. أنا ما لطشتش أبوك، حبّيتو موت.

قلت بعفويَّة:

ـ ليش ما جبتيني أنا الأولى قبل خيتي لينا؟

ضحكت قليلاً وكأنَّها عرفت مرمى كلامي ومقصدي.

ـ حكم اللّه. ثم كل واحد ومكانه. ما في حدا يعوِّض حدا. اللّه أخذ خيتك لينا وأخذ قبلها آخرين ليمنحك طول العمر. بسّ لا تأخذي على حنا. جدّتك إنسانة طيّبة وتحبك، أحيانًا ما بتعرف شو بتحكي.

ـ وأنا كمان بحبّها... بس...

كنت أعرف أنَّ أمّي هكذا، طيّبة إلى أقصى الحدود وناعمة مثل ألوانها التي تشتغل عليها مع طانت جينا. لم يذهب عنِّي أبداً الإحساسُ بأنِّي أحتلّ مكان شخص سافر مبكرًا ليترك لي مكانه طوعًا. ولهذا أحسّ بمسؤوليَّة كبيرة. فأنا لست فقط سيِّدة نفسي وحدها، ولكن عليَّ كذلك أن أثبِّت لأختي الراحلة لينا بأنِّي أحبُّها وأفكِّر فيها وأنَّها منحتني الكثير

من عمرها وأنَّها معي بشكل دائم. افترضت أولاً أنَّها كانت تشبهني في كلّ شيء. توأمي الحقيقي. كنت أحيانًا، في لحظات الخلوة، أتحدَّث إليها وأصغي إلى صوتها. حتى عندما كنت أطلب من بابا حسن أن يشتري لي دمية، يأتي باثنتين، واحدة لي وثانية لأختي لينا. من كثرة حبِّه لي، لعب بابا حسن اللعبة معي إلى أقصاها ولم يكن يدري أنَّه كان يضعني على حافّة الجنون التدريجي. يوم قبّلت يوسف لأوّل مرّة، كانت لينا معي. ظلّها كان فيَّ. تركتها وراء الشجرة تنتظرني وطلبت منها أن تغمض عينيها، حتى لا أصدمها. فهي كانت خجولة قليلاً لأنِّي ليلة قبل الحادثة، عندما كلّمتها عن يوسف قالت: أوع، ما يصحّش تقبّلي يوسف لأنَّه مش زوجك. أقنعتها أن تأتي معي وترى بعينيها أنَّ الوضع غير مقلق، وأنَّ يوسف حلو وطيب ويكتفي بالقبلة. وعندما سمعتها تناديني من وراء الشجرة العتيقة، ركضت باتجاه حقل الزيتون. لم يفهمني يوسف عندما قلت له إنَّ لينا في انتظاري وراء الشجرة ولا أستطيع أن أتركها لوحدها. بدا لي سؤاله غبيًّا:

ـ ما راح كمان تقولي لي أختك؟ ما شفتها ولا مرّة؟

ـ ما فيه حدا بيقدر يشوفها غيري.

يضحك ثم يعاملني على قدِّ عقلي. ولم يكن يوسف يدري أنِّي كنت جادّة فيما كنت أقوله له.

عاودتني لينا في غياب أمّي، وخفت أن أصير مجنونة فصرت أصمت. حتى عندما كانت لينا تريد أن تحدِّثني، أحاول أن لا أجيبها. والدي أقنعني في الباخرة، عندما قطعنا شبابيك إليس آيلند،

بأنّنا تركناهم كلّهم هناك: الماما، أخي اللي في بطن أمّي، حتى لينا اختارت أن تؤنس ماما في وحشتها حتى لا تبقى وحيدة. وبدأتُ كلّما رأيتُها في المنام، أو أحسّ بها بجانبي، أقنعها بأن تذهب لكي تبقى بجانب ماما. مرّة زعلت منّي وصرخت في وجهي بأعلى صوتها: أنت في أميركا ونحنا نموت لوحدنا في هذه الخرابة؟ هيدا مو عدل ولا حق؟ أخذتْ أمّي من يدها ومشت حتى غابت داخل كتلة من الضباب. صرختُ، لكنّ صوتي ضاع في الفراغ.

خالتي دنيا كانت تعيش مع أختيها في أغلب الأوقات. ولم يكن لها أولاد لا من عشيقها الإنجليزي، ولا من زوجها الأوّل ولا الثاني. عندما أسمعها تتحدَّث للردّ على خالتيّ اللتين كانتا تؤنّبانها على تضييعها لفرص الزواج، تقهقه. تضحك عاليًا ثم تهزّ رأسها بسخرية: طزّ في الرجال، مي لوحدها تملأ عليّ الدنيا وتسوى ألف رجل. الرجال خوّافون، كمشة نور كان جسدي قبل أن أسمن، لم يعرفوا قدره. سوء حظّي. ثم تبدأ في قصّ حكاياتها مع عشيقها وحبيبها الإنجليزي استيوورت الذي كان أحسن الجميع. ثم وزوجها الأول الذي كان يخاف من أن يقترب منها، حتى صرخت في وجهه في مرّة من المرّات:

ـ حبيبي هزّ لي حالك؟ كيف راح تجيب أولاد؟ خلِّصني من هذا الحبّ الكحيان. ما بينفع هيك حال.

تقول إنّها لولا أنّها بادرت إليه وأذاقته من جسدها، لما استطاع أن يفعل شيئًا معها. ثم تضحك عاليًا:

ـ بسّ مسكين ما كان قادر يروح لبعيد. ذات صباح قلت له: شوف حبيبي نحنا ما نصلح لبعض. أنا أريد من يملأ عليّ عزلتي،

وأورثه روحي وجسدي وكلّ ما أملك. الظاهر أنت ما فيه في ظهرك شي. مو عيبك ولكنَّه عيب الطبيعة. ميِّتك تعبانة يا روحي. ما فيه نصيب. كلّ واحد يشوف طريقه، أفضل لي ولك. أرعد وأزبد، بعدها سلَّم أمره للّه وخرج ولم يعد.

زوجها الثاني لم يبق معها كثيراً. عرفته في ظروف صعبة أوصلته إلى محاولة الانتحار مرّتين. كان طيِّبًا ويسير على هديها. قالت في سرّها: هذا هو الرجل المناسب. ثم بدأ يتغيَّب ويطيل في المدة. عندما سألته عن السبب، قال لها إنَّه يبحث عن عمل، وإنَّه لا يريد أن يبقى عالة عليها ولا يريد إدخالها في صراعات مع أختيها. عرفتْ فيما بعد أنَّه كان متزوِّجًا من امرأة أخرى سرّيًّا، وله ثلاثة أطفال منها. بكت كثيراً لأنَّها شعرت لأوّل مرّة أنَّها كانت قادرة على حبّ رجل لا يريد منها شيئًا سوى شخصها. في اليوم نفسه طلّقته، ورمت بكلّ أغراضه في الطريق وهي تصرخ بأعلى صوتها، والزبد يتطاير من فمها:

ـ روح لشرموطتك، وقل لها تسكنك يا زير النساء... يا سافل... يا تافه ويا أحقر الحقراء...

منعته من الدخول إلى بيتها عندما جاءها يعتذر. زارها في مطعمها، فجلس على طاولة في الأخير. رأته. أوقفت عزفها ثم تقدَّمت منه وقالت له كلمتين في أذنه اليمنى، فخرج بدون أدنى ضجيج. لم تحزن كثيراً لفقدانه ولكنَّها حزنت عندما عرفت أنَّه أنجب من تلك المرأة ثلاثة صبيان. ضاق خاطرها ومرضت مرضًا أقعدها في الفراش مدّة طويلة. كادت أن تموت لولا مساعدة خالتي لها. أنا كذلك خفت على

أمّي وأختي لينا، فلم أكن أعلم ماذا يمكنني أن أفعل بدونهما. خالتي دنيا كانت كريمة وهي التي حملت العائلة بكاملها على ظهرها وتحمّلت كلّ مصاعب الدنيا لإنجاز مشروعها. فتحت في البداية محلاً صغيراً في مرتفعات بروكلين، التي لم تكن عامرة بالبشر مثل اليوم، سمّته باسمها: محلّ دنيا Donya. كانت تبيع فيه الأقمشة الشرقيَّة والأواني الزخرفيَّة، التي كانت تصلها من بلاد الشام ومن الصين واليابان والهند، والباكستان وإيران. محلّ لطيف يقع في مكان جميل وحركي بشكل دائم، بمحاذاة شارع كرونبيري(١) الموازي لشارعين صغيرين ينتهيان في البحيرة الشرقيَّة هما: شارع ميداغ(٢) صعوداً باتجاه جسر بروكلين، وأورانج(٣) من الجهة التحتيَّة. يكاد محلّ خالتي يخترق الجزء العلوي من كنيسة الحجّاج(٤) على مشارف ساحة وشارع الفولطون القديم(٥) الذي ينزل بشكل نصف دائري باتجاه جنوب المدينة. مرّة واحدة في الأسبوع، كانت خالتي تأخذنا نحو مطعم شرقي جنوب المدينة لأحد أصدقائها اللبنانيّين، في الأطلنتك أفنيو(٦) وكان ينظّم معرضاً للّوحات الفنيَّة. الناس عنده يأكلون ويشترون. كلّما وقفت في الشرفة الخلفيَّة للمطعم، واجهتني ساحتان مخضرّتان، الغاردن بلاص(٧) وسيدني بلاص(٨) المعشّقتان بالأشجار الجميلة والظلال الزاحفة نحو البيوتات.

---

١ ـ Cranberry

٢ ـ Middagh

٣ ـ Orange

٤ ـ Plymouth Church of the Pilgrims

٥ ـ Cadman (Plaza & Street)

٦ ـ Atlantic Avenue

٧ ـ Garden Place

٨ ـ Sidney Place

أغرمت خالتي بالمطعم. ظلت وراء صاحبه اللبناني الذي كان يهيئ نفسه للعودة، حتى اشترته منه، وباعت محلّها الصغير ولم تحتفظ في مرتفعات بروكلين إلا بسكنها وحديقتها الصغيرة.

لم تغيِّر فيه الكثير. فقد حافظت على برنامجه، ونظّمته بشكل يتجاوب مع حاجة المكان. كانت يوميًّا تتلقّى العروض الكثيرة لعرض اللوحات في مطعمها. أدخلتني في السكرتارية، ولكنَّها أصرَّت على أن تظلّ دراستي هي الأساس. علمتني في وقت مبكّر كيف أشتغل، وكيف أرتّب المواعيد مع الناس وكيف أسجّل الحجز. غيّرت البيانو الحديث الذي كان فجًّا، بآخر قديم صادفته في سوق العتيق، لموسيقي شهير من موسيقيّي الجاز، من هارلم، لم يكن ورثاؤه يعرفون قيمته. وضعت عليه شارة تحيل إلى صاحبه الأصلي: **ريشاردسن**. الكثير من زبائن المطعم، في بروكلين وفي غيرها، كانوا يأتون للمكان لسماع عزف خالتي، وللمس البيانو. فقد كانوا يتحسَّسون من لمسهم الخجول آلام موسيقى الجاز التي كان يعزفها ريشاردسن في حفلاته الكثيرة التي كانت تكتظ بها مسارح وبارات هارلم التي لم يغادرها حتى الموت.

كنت أستمتع بالمكان. كلَّما عدت من المدرسة، أقضي وقتي في خلفيَّة المطعم حيث مكتب خالتي. أرسم وأحلم وأفكِّر في أمّي وأساعد خالتي مامي دنيا. لا أدري ماذا حدث لي، ولكنّ أختي لينا لم تعد تأتيني في المنام منذ أن زعلت منها مرّة وطالبتها بأن لا تترك ماما ميرا وحدها في مواجهة الدنيا، في حارة المغاربة في القدس. وقلت لها لا أريد أن أراك. كنت سعيدة أنَّها توقّفت عن تحرُّكاتها غير

المسؤولة، ولم تعد تنغّص عليّ حياتي. أحبّها ولكنّها بالفعل صارت تخيفني. عندما جئت إلى نيويورك، كانت تأتيني من حين لآخر ولا تتكلّم، ولكنّها تنظر إليّ بعينين فارغتين مملوءتين بالضباب، وقبل أن تغادرني، تقهقه عاليًا مكشّرة عن أسنان خربة. ثم تنسحب وهي تكرِّر جملتها المخيفة:

ـ هربت بجلدك وتركتنا نواجه الموت لوحدنا. سأنغِّص عليك حياتك حتى تعودي إلى الحارة أو أقتلك.

لأوّل مرّة شعرت بأنِّي أصبحت أكره لينا وأريد التخلُّص منها.

ألتفت نحو الحائط حتى لا أراها وأصرخ:

ـ أنت شيطان رجيم. أنت لست أختي لينا الطيّبة الحنونة. اذهبي. اغربي عن وجهي، لتأكلك نار جهنّم الحمراء.

ولا أدري من أين كانت تأتيني كلّ تلك الشجاعة؟ كنت أشتهي أن أتحدَّث مع بابا حسن عن موضوع لينا ورغبتها في تعذيبي، ولكنَّه كان بعيداً. في مدينة لا أعرف اسمها إلا من الخرائط: سياتل. عندما عرضتني خالتي على محلّل نفساني، وحكيت له تحوُّلات أختي لينا، أكَّد لي بأنِّي بدأت أشفى من ماض كان فيّ ومن شوق لم أكن مهيَّأة له أبداً، وأنَّ المسألة لا تتعدَّى بعض الأسابيع وتنتهي الزيارات نهائيًّا أو تصير متباعدة على الأقلّ، قبل أن تنطفئ.

فوجئت في تحليله وكأنَّه كان يقرأ ما في داخلي من أحزان وانكسارات لم أكن قادرة على تحمّلها.

هو ما حدث لي بالفعل. إذ عادت لينا إلى صورتها الجميلة الأولى، بلباسها الضبابي السنبلي، الشفّاف. وصارت لا تأتي إلا من وقت لآخر لتصرف عنّي همّ الفقدان. كانت حاجتي إليها أكثر من حاجتها إليّ. كلّما غلبني شوقي إلى أمّي، جاءتني وربتت على كتفي، وهمست في أذني وهي تبتسم بإشراق:

ـ ماما لم تعد حزينة. هل تدرين؟ ماما أنجبت صبيًّا ولكنَّها لم تترك أحداً يسمّيه. قالت اسمه عند مي، اسألوها...

بدون أدنى تفكير، قلت لها:

ـ عليان.

نظرت لينا إليَّ بعينين بريئتين وسعيدتين. ثم انطلقت تركض في الحقول المحيطة بالحارات المقدسيَّة وسفح جبل الزيتون، وهي تصيح بكل ما أوتيت من قوة في صوتها:

ـ أخي اسمه عليان... أخي اسمه عليان...

كنت سعيدة في أعماقي، لاسترجاعي لألق أختي لينا وابتسامتها البريئة، ولأنَّ عليان كان هو الاسم الثاني ليوسف.

منذ ذلك اليوم لم أر لينا إلا سعيدة. وحتى عندما تكون حزينة، تطلب منِّي، في الحلم، أن أساعدها. وبمجرّد ما تحصل على مساعدتي، تركض نحو أمّي التي تفتح عليها باب الدار، أحاول أن أرى وجهها ولكنَّها سرعان ما تغلق الباب، كما تعوَّدت أن تفعل دائماً.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الاثنين ١٨ أكتوبر ١٩٩٩

السنوات تعاقبت ومرّت كلمح البصر، متشابهة في كلّ تفاصيلها. شيء واحد تغيَّر، أخبار أهلي وأمّي. كانت تأتينا عن طريق خالي أبو شادي، الذي كان يطمئنني عن أمّي وكأنَّ شيئًا لم يحدث، وعن أخي الصغير، عليان، الذي بدأ يكبر. استغربت أنَّ والدي لم يسأل عنّي، ولكنّي ألصقت ذلك كالعادة، بالظروف الصعبة التي كان يعيشها في الشمال. لا أدري ماذا حدث لي فجأة، فقد شعرت مع الزمن أنّي بدأت أنساه. وكلَّما انتابني ذلك الإحساس أنَّبت نفسي. ولكنّي عندما أنهمك في الرسم، وأعود إلى ألواني وفرشاتي، أنسى كلّ شيء، حتى نفسي. عندما تجدني خالتي مامي منهمكة، تعتذر بحركتها المعهودة برفع يديها، ثم تعود إلى الوراء بهدوء. نفس حركة خالي غسان، عندما كان يدخل على جدّي وهو يصلّي. يبدو

أنَّ المنفى يمحو كلّ شيء إلا جوهرنا السخيّ والعميق. وعندما أنتهي من الرسم، أناديها بصوت عال:

ـ مامي، تعالي شوفي وأعطيني رأيك.

ـ تسلم لي هذه الأصابع الأنيقة التي خلقها اللّه للفنّ فقط. أتعجب من سحر أناملك وألوانك. من أين لك بكل هذا الجمال وهذا البهاء؟

كلمتها الدائمة.

تنتابني سعادة لا أقدر اليوم على وصفها، لأنَّها تعيد لي المعنى المفقود للأشياء الأساسيَّة في حياتي. عندما أعود اليوم إلى خربشاتي تلك وأتفحَّصها، أجد متعة لا تُضاهى. دقّة الألوان وحرارتها كانت تملأني غبطة في سنّ مبكرة. أكاد أصرخ: هل صحيح أنا من قامت بكلّ هذا؟

كانت مامي دنيا مصرّة على دراستي ووصولي إلى أقصى ما تسمح به إمكاناتي ومواهبي. كانت ترى فيَّ ما لم تستطع تحقيقه في حياتها. أسبوع بعد وصولي إلى نيويورك، أخذتني إلى المدرسة التي لم أجد فيها صعوبات كبيرة إلاّ في البداية، بعدها كلّ شيء انتظم. الصباح أقضيه في الكولّيج مع زميلاتي. والمساء في مدرسة الفنون الجميلة. كانت مامي تدفع ثمناً باهظًا لتدريسي وكنت أشعر بإحراج كبير تجاه ذلك كلّه. كلّما سألتها:

ـ مامي، هذا كثير عليك.

تجيب بلا تردُّد:

ـ لا أريد تجميع المال بلا معنى. أمنحك فرصة للتعلُّم الجيِّد، وهكذا سأستحقّ على الأقلّ لقب مامي، وإلا ما الذي يبرِّر هذا الاسم النبيل؟ أخواتي وأزواجهنّ يتحدَّثون عن العودة إلى القدس، أو الذهاب إلى الضفّة الغربيَّة أو حتى غزة. بدل أن يخفّف المنفى من مشاكلهم، عقّدها أكثر. عن أيّ قدس يتحدَّثون، وعن أيّ ضفة غربيَّة، وأيّ غزة؟ كلّ يوم نُحرم من جزء من الأرض على مرأى حكّام الحروب والأقوياء؟ أرأيتِ المفتاح الخشن المعلّق عند مدخل البيت؟ هل تعتقدين أنه سيفتح شيئًا يومًا ما؟ لا أعتقد. الأحياء تُسرق الواحد بعد الآخر، بعد سنوات قليلة لن يصبح لهذا المفتاح أيّ معنى باستثناء التذكّر والتألُّم. بدأت أقنع نفسي أنَّ مصيري سيخطّ على هذه الأرض. مشكلة معقّدة، خلِّيك منها هلاًّ. ميرا، حبيبتي، هي الوحيدة التي تنظر إليّ من بعيد وتتبع كلّ خطواتي، لا شيء يغيب عنها، وستحاسبني إذا قصّرت في حقك. أشتاق لها بصدق. أفتقدها، وكم اشتهيت أن تكون معنا الآن. امرأة لا تعرف شيئًا سوى الطيبة ومحبّة الآخرين. اللّه يحفظها من أيّ مكروه. تلك البلاد لم تعد ترأف بأهلها، صارت تأكل الأخضر واليابس. أمّك كانت نوّارة حارة المغاربة حتى وهي صغيرة، وأجمل بنات آل الحسيني.

ـ ليش تقولي كانت؟ ميرا ما تزال أجمل النساء.

كدت أصرخ ولكنّي زممت فمي.

فوجئت لأوّل مرّة بخالتي دنيا وهي تحكي عن أمّي في الماضي. تتحدَّث عنها وكأنَّها تتذكَّر شخصًا رحل عنّا ولم يعد اليوم بيننا. داخلني وسواس ما، لم أستطع إيقافه. سألتها. ربما كان شوقي لأمّي هو الدافع لذلك:

ـ خالتي وصلك شيء عن حالة ماما ميرا؟ وأخويا عليان؟

ـ طبعًا وصل عن طريق خالك، وهي بخير وأوّل ما تفتح الطريق بعد الحرب، ستأتي لا محالة، وإلا كنّا كلّمناها من هنا؟ أنت يجب أن تدرسي فقط حتى تكون ميرا سعيدة وراضية عليك، حتى وهي بعيدة.

ثمّ تصل خالتي إلى سؤالها الذي يربكني كثيراً:

ـ هل قصّرت معك في شيء، يا بنتي ؟

ـ مامي؟ لم أقصد أيّ شيء من وراء كلامي. اشتقت لأمّي فقط. أسأل عن حالها لأنَّك تحدَّثت عنها كمن يتحدَّث عن شخص مات. خفت، خصوصًا بعد استيلاء اليهود على أجزاء كبيرة من القدس. أخاف عليها وعلى عليان وعلى أخوالي. الوضع هناك ليس سهلاً يا خالة، وكلّ يوم يمكن أن يحمل لنا أخباراً غير سارة.

سبقتها أولى الدمعات التي ارتسمت طويلاً في عينيها.

ـ عذراً. فهمتك غلط يا حبيبتي.

أضع رأسي في حضنها لأسمع نفس دقّات قلب أمّي، نفس رائحة جسدها، ونفس الملمس على شعري. أحاول أن لا أبكي حتى لا أثير وحشة خالتي الهشّة جدًّا.

ـ أنت صغيرة ولا تعرفين مقدار حبّي لميرا. أفتقدها أنا كذلك، ولكن هذه هي كذلك شروط الغربة. لو كانت لنا أوطان نملأ بها أفواهنا، ما تركنا تربتنا وحياتنا الأخرى. بسّ يا اللّه، المكان يسمح لنا بأن نستفيد من هذا المنفى. هذه الأرض صارت أرضنا كذلك، وستصبح أرضك أنت أيضًا. الزمن يرتّب المستحيلات ويجعلها ممكنة.

ـ مامي... ليش عمتحكي عن أمّي دائمًا في الماضي؟

ـ ما فيه شيء حبيبتي، ما فيه شيء.

توقّفت عن الأسئلة حتى لا أثير حنينها.

لم تكن خالتي في حاجة إلى دفعي إلى الدراسة، فقد كان حماسي لها كبيرًا جدًّا. ولهذا فقد سهّلت عليها المهمّة على الأقلّ من هذه الناحية.

في المساء، بعد الدروس، كانت تأخذني في سيارتها لأتعلّم الرسم في مدرسة الفنون الجميلة لبروكلين. مدرسة رائعة، تعلّمت فيها أشياء كثيرة وربطتني بها علاقة كبيرة بميس يوهانا، معلّمتي وصديقة مامي التي أصبحت، فيما بعد، زميلتي ومديرتي، في المدرسة نفسها. كانت من روّاد مطعمها ومن المدمنات على عزفها في موسيقى البيانو ـ بار. امرأة ناعمة ورقيقة، ولها لمسة سحريَّة في كلّ شيء، حتى صوتها كان يشبه حفيف الرياح عندما تتوغَّل فجرًا بين أشجار القدس. لا تختلف كثيرًا عن طانت جينا. نفس الدقّة، ونفس الحساسيَّة العميقة تجاه ما يحيط بها. بفضلها تعرَّفت على كبار

الرسّامين الذين كانوا يأتون من بروكلين ومانهاتن وكوينز، وحتى من ولايات أخرى. كانت تستغلّ فرصة مرورهم لتأتي بهم إلى المدرسة للقيام بزيارة ومحاورة حرّة مع الطلبة عن انشغالاتهم العميقة في الرسم. بعض التجارب كانت استثنائيّة وتعلّمت منها كثيراً، وبعضها الآخر لم يثرني أبداً، بل بدت لي تجارب عاديّة.

بعد مدّة قصيرة، عرفت كل المسالك والطرقات في بروكلين التي بدت لي وعرة وصعبة في البداية. صرت أذهب وحدي في باص بروكلين الأصفر الترابي، الذي ما يزال لونه إلى اليوم عالقًا بذهني. كان زمّوره حادًّا ومفخّمًا، كأنّه يأتي من قلب سفينة بخاريّة، يوقظ كلّ سكان الحي. مع الزمن صرت أسبقه إلى المحطّة، ولم يعد في حاجة إلى التزمير عليّ. أنتظره على حافّة الطريق حتى يأتي فأركبه. كنت أقضي كلّ الوقت أحادث السائق البورتوريكي الذي كان يضحك كثيراً من لكنتي التي تعوّد عليها بسرعة وطريقتي في نطق الحروف بالإنجليزيّة. وكنت أضحك منه ومن الأميركيّين الذين يأكلون الكثير من الحروف. أجد لذّة كبيرة في سؤاله عن الأرقام مثلاً، فيقول بدلاً من توانتي وون Twenty one يقول توانيِوون...و يكرّرها عمداً: توانيوون... توانيوون... وأتفرقع أنا كالملحة التي انزلقت خطأ في عمق تنّور مشتعل. كنت أشعر بقرابة كبيرة منه. كان طيّبًا وجميل القلب. أعرف كلّ تفاصيل عائلته التي جاءت إلى هذه الأرض في بداية القرن، وكيف أنّه يشتاق إلى أرضه الأصليّة ولكنّه لا يعرفها. وكلّما جمع بعض المال لإنجاز مشروع في أرضه الأولى، أصيب أحد أفراد العائلة بالمرض،

فيذهب كلّ ما ادّخره أدراج الرياح. ويعاود الكرّة في السنة الموالية بدون جدوى. حتى انتفى الحلم مع الوقت. كلّما حزن ردَّد جملته المعتادة:

« ـ بلادي الأصليَّة تغيَّرت كثيراً ولم تعد في حاجة إليّ، ولا إلى عائلتي. أولادي لا يعرفون عنها الشيء الكثير، ويبدو أنَّه علينا أن نقبل بهذه المصائر الصعبة والقلقة. وأن نحاول أن ننبت بقوة في الأرض التي نحن فيها وإلاّ ضاع كلّ شيء».

شيء واحد بقي فيَّ من هذه البدايات، هو أنّي كنت، مثل السائق البورتوريكي، أريد أن أنجح في المكان الذي نبتُّ فيه.

في أحد الأيام، قال السائق البورتوريكي لخالتي مامي دنيا، التي وقفت بجانبي تنتظر الباص، قبل أن تعود إلى مطعمها:

ـ مي، بنت شجاعة جدًّا وجريئة ؟ متأكّد من أنَّها ستحقّق نجاحات كبيرة. ضعيها في عينيك.

ـ هي في القلب والعينين، والروح. هي كلّ شيء.

قالت مامي، ثم انسحبت نحو المطعم.

شعرت في أعماقي بفخر كبير. قال لي السائق وهو يداعبني كعادته:

ـ أيّ حظّ أن يسكن شخص عيون وقلب وروح شخص آخر!

ـ مامي دنيا تموت عليَّ. أنا كلّ ما تبقّى من ميراثها، ومفتاح بيت لن تتمكَّن، بعد سنوات، من فتحه لأنَّه بكلّ بساطة سيُهدم أو يُسرق، كما تقول مامي دنيا.

كانت مامي كلّ شيء بالنسبة لي. لو كانت أمّي هنا لما فعلت أكثر ممّا فعلته خالتي معي. لم تكن صاحبة مطعم فقط ولكنَّها امرأة نبيهة لكلّ تفاصيل الحياة. درست الموسيقى وكان يفترض أن تنتهي بها رحلتها إلى الأوبرا. حتى عندما جاءت إلى أميركا راكضة وراء عشيقها الإنجليزي ستيوورت كان هذا هو هدفها الكبير. صورتها الموضوعة في الصالة، والمكبّرة، شاهدة على الجمال والطموح الذي كان يملأها. ولكنَّها غرقت في تفاصيل الحياة ومشاكلها، وإصرار جدّي على مساعدة بناته اللواتي كنّ يردن أن يرحلن إلى نيويورك مثل أختهن الكبيرة دنيا. كان عليها أن تسهر على الجميع، وتهيِّئ لهم كلّ شروط الاستقبال والعمل في مطعمها الصغير قبل أن يتوسَّع وتزداد أطماع أختيها. بنَتْ حياتها بمجهودها الخاص ومساعدة جدّي لها، خصوصًا في بداية استقرارها.

لم يكن شيء ينقصني في بروكلين إلا أبي وأمّي وعليان الصغير الذي لم أره أبدًا منذ أن جاء إلى هذه الدنيا... و... يوسف الذي ما تزال قبلته الأولى والأخيرة، ليس بعيدًا عن زيتونة المقبرة، عالقة على شفتي مثل قطرة عسل. رفضت دائمًا أن ألحسها بشكل نهائي أو أن يأخذها شخص آخر منِّي، ولا حتى لينا التي رأت كلّ المشهد، ولا يوسف نفسه، الذي كلَّما رأيت شبيهًا له في الأطفال الذين أصادفهم يوميًّا في حياتي، قلت إنَّ يوسف هنا. مهبول، فقد ركض ورائي حتى نيويورك. ثم أعود إلى الحقيقة المرّة، فأحاول أن أنساه مثلما فعلت مع أختي لينا عندما بدأت تزعجني، قبل أن تعود إلى لطفها المعهود.

رفضت أن أكون سجينة شيء لا وجود له إلاّ في دماغي المتعب، وفي طفولتي التي احترقت ذات خريف بين ميناءين، ميناء بيروت وميناء إليس آيلند.

لم أرسم شيئًا اليوم على الرغم من أنّ نقص الوقت وانسحابه بسرعة كان يعذّبني. ربما لأنّ الشمس اندفنت داخل الغيوم. عبثًا بحثت عنها وعن أشعّتها السجينة. لكن، قبل أن أمدّ رأسي على الوسادة وأطفئ الأضواء، برق نور في عيني لأول مرة منذ سنوات طويلة، وتمدّد كالظلّ الأصفر على اللوحة التي ظلّت بيضاء طوال اليوم، ولم يمسسها أيّ لون آخر.

رأيت باصًا أصفر يعبر شوارع بروكلين، ورأيت وجه السائق البوتوريكي صافيًا ومليئًا بالطيبة. أشعلت الضوء. نظرت إلى الساعة. منتصف الليل. قمت من فراشي وملأت الفرشاة باللون الأصفر وتركته يتمدّد بهدوء كقطرة حبر. وهذه المرة بدأت اللوحة من الوسط وليس من فوق كما تعوّدت أن أفعل. بدأت فجأة **باصات بروكلين الصفراء**(١) تملأ اللوحة ضجيجًا وحياة. سمعت زماميرها وهي تصمّ

---

١ ـ اللوحة اقتنتها مدرسة الفنون الجميلة، في قطاع بروكلين الشمالي في معرض خريف ٩٩. وهي واحدة من عشر لوحات لفنانين عالميين كبار، تزين اليوم البهو الأساسي للمدرسة. كلّ من يمرّ أمامها، خصوصًا من الأساتذة والآباء، يقف عندها قليلاً، يتمتم في أذن صاحبه: «**بالفعل هذا ما كنّا نفعله عندما كنّا صغاراً. كنّا عندما نركض نحو الباصات المدرسية الصفراء لا نشعر أبداً بثقل المحفظات التي كنّا نحملها على ظهورنا**». رقم الشراء المزادي: / INST.BA.YELBUS MAK.AD. 657-8854.

الآذان بمتعة أصبحت اليوم مفقودة. ثم بدأت ظلال الأطفال وهي تتقاطع فيما بينها بسرعة، كانت ظهورهم مقوَّسة بمحفظات أثقل من وزنهم. يركضون نحو الباص الأصفر للّحاق به، وببقايا ابتسامة السائق البورتوريكي المتشبّث بالمقود، بينما عيناه شاخصتان في أفق نيلي شفّاف، كان يغطّي بعض علوّ جسر بروكلين الكبير الغارق في النور المنعكس من البحر.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الجمعة ٢٢ أكتوبر ١٩٩٩

كنتُ مشبعة بالحزن عندما دخل عليَّ يوبا وأنا منهمكة في وضع اللمسات الأخيرة على لوحة: **مأتم عائلي**(١) التي شغلتني طوال الأيام الأخيرة.

ـ خفّفي على نفسك يا يمّا. صحتك أولاً. أنت دخلت إلى المستشفى لكي ترتاحي قليلاً وليس لكي تنتحري. ليذهب هذا

---

١ ـ اللوحة مرقّمة FUFA-MK.LD10/LV موجودة، موقّتًا، بجانب لوحة مشهورة اسمها **العشاء الأخير مرة أخرى**، لأكتافيو روسيني، أحد المعاصرين لليونارد دا فانشي. **مأتم عائلي**، اشتراها رجل أعمال مكلف بشراء كلّ ما له علاقة بالمآتم، لمصلحة أحد الأغنياء الذي يؤسِّس **للمتحف الأسود**، الذي يجمع كلّ اللوحات التي تجسِّد المآتم. إلى اليوم لا أحد يعرف متى يفتح هذا المتحف على الرغم من أنَّ الصحافة لا تتوقَّف عن الحديث عن قرب افتتاحه. صاحبه الذي يشتغل في بورصة النفط، اشترى أكثر من ثلاثمائة لوحة من هذا النوع. رقم الشراء: .PRIV.COLL.FAM.FUN/MAK/123&0067.

المعرض إلى الجحيم. معرض خيريّ لا أكثر، المفروض أن يكونوا متسامحين قليلاً.

ـ لو تعرف قيمته لن تقول هذا الكلام.

ـ أعرف يا يمّا. وحياتك أعرف جيِّداً ما تحسّين به. ولكنِّي أراك كلّ يوم تنطفئين وتتعبين، بل تنتحرين. وضعك الصحّي يجبرك على بعض الراحة. ارحمي جسمك قليلاً.

ـ كلّ هذا ليس مهمًّا أمام ما أشعر به وأنا أرسم. للمرض وقته وللطبيب وقته وللرسم والكتابة وقتهما ولا يوجد أي إشكال. أجد سعادة لا توصف في ما أقوم به يا يوبا ولا بدّ أن يسعدك ذلك. أنت فنّان وتعرف ذلك.

ـ طبعًا يسعدني يا يمّا ولكنِّي أخاف عليك من التعب. أنت تعيشين داخل فوضى وكأنَّ شيئًا لم يكن. قد نفعل الشيء نفسه، لكنَّ المرض هو إنذار من الجسد لكي نرحمه قليلاً يا يمّا، وإلا سيتخلّى عنّا. أرجوك.

كنت أريد أن أقول ليوبا ما كان في قلبي من حزن وانكسار، ولذّة غريبة عندما ينتابني شعور ما بأنِّي أعيد بناء كسوراتي كلّها بالألوان التي لا تموت أبداً. لكنِّي شعرت في لحظة من اللحظات أنِّي آلمته كثيراً بإصراري وجنوني الانتحاري.

لم يقلقني كلامه، فهو يخاف عليَّ، ولكنَّه يعرف طبيعتي جيِّداً. لم يمنعه غضبه منِّي، من أن يضع في خزانتي الألوان ولفائف

كتّان الرسم والأقلام والمناشف والفرشات المتنوّعة السمك، التي طلبت منه إحضارها لي إذ لم يبق لي منها الشيء الكثير.

كانت الأصوات المتناغمة تأتيني من بعيد، ولم تكن تقلقني أبداً. في البداية كانت مثل الضجيج الغامض، بعدها اتّضحت بشكل لا يدع مجالاً للشكّ. أصوات عيد ميلادي.

«سنة حلوة يا جميلة، سنة حلوة يا مانو».

مامي دنيا قالت وهي تحضّر الترتيبات الأخيرة لعيد ميلادي:

ـ يجب أن يكون حدثًا. عشر سنوات حبيبتي، هذا لا يحدث دائمًا.

كنت سعيدة ببلوغي عشر سنوات. كلمات الشكر بالإنجليزيَّة كانت قليلة وعربيّتي بدأت تفقد الكثير من سحرها وألقها.

ـ تسلمي يا خالتي. ربّنا يخلِّيك.

قبّلتني وألبستني كلّ الألبسة الجديدة التي اخترتها بنفسي.

« ـ يجب أن يعرف الجميع أنَّك ابنتي الوحيدة وأنَّه من حقِّي أن أدلّلك وإلاّ لأيّ شيء يصلح المال؟ أنت من سيسيّر هذا المطعم عندما أغيب.

ـ ربنا يطوّل عمرك يا مامي، ويخليك ليَّ.

ـ الدنيا حبيبتي. الدنيا جميلة ولكن لا يوثق بها. مليئة بالخديعات القاسية. تأتي من حيث لا أحد ينتظرها. قلبي منهك. أنهكه... العشّاق الفارغون.

أضافت وهي تبتسم بسخريّتها المعهودة.

قلت وأنا أحاول أن أداعبها بلغة كانت تكبرني بكثير:

ـ بسّ بعضهم كان طيِّبًا معك. الإنجليزي ستيوورت مثلاً.

ـ هذا المهبول الضائع، كان حبيبي لكنَّ الموت اختطفه منِّي. سكتة قلبيَّة تافهة لم تتح لنا حتى فرصة الزواج الرسميّ. كذبت على والدي أنَّنا تزوجنا لكي أريحه من مشكلة الحلال والحرام. مَنْ كان يتصوّر هذه النهاية الفجائعيَّة؟ ترك كلّ شيء في القدس، حتى مصالحه الخاصة، وركض ورائي كالمجنون. لهذا أقول لك إن الدنيا جميلة وخادعة، ويجب أن نتحايل عليها، وأنا تحايلت عليها وجئتك بهديّة جميلة. لكن عديني بأن لا يعرف سرّها غيرك؟

ـ مامي؟ أنت تخيفينني؟

ـ أريد فقط وعدك.

ـ أعدك مامي.

سحبت من درج الصالة، في الزاوية المظلمة، ملفًّا صغيراً وجاءت به:

ـ ترين هذا الملفّ. اقرئي... اقرئي أرجوك...

قرأت ولكنِّي لم أفهم جيِّداً الأرقام والإحالات الكثيرة.

ـ أُبسِّط عليك الأمور. بيتي في بروكلين هو ملكك من الآن وقد كتبته باسمك عندما أموت. ولك حقّ خمسين بالمائة في المطعم

والخمسين الثانية، هي لأختيّ. لا أريد أن أترك كلّ شيء للآخرين يعبثون فيه كما يشتهون. ماجدة وسارة، أختاي، طيّبتان، ولكنّ زوجيهما طمّاعان. أقول لهما دائمًا النار تنجب الرماد. النشاشيبي والحسيني من العراقة ما يناقض الطمع ولكن... خسارة. أنا أعرف أنَّك ستأخذين كلّ ذلك مأخذ الجدّ. المسألة مصيريَّة وتهمّك كثيرًا في حياتك المستقبليَّة. هذه وسيلتي للحفاظ عليك ولا أتركك عرضة للحاجة.

ـ يا خالتي أنا ما زلت صغيرة.

ـ وهذا ما يطمئنني على مستقبل المطعم الذي يجب أن يحافظ على مساره وعلى زبائنه. كنت أنتظر هذا اليوم الذي أقول لك فيه عن كلّ شيء. لم تعودي صغيرة. عشر سنوات في حياة الإنسان عمر، وعليه أن يعي فيها المسؤوليات التي عليه أن يتحمَّلها مستقبلاً.

عيد ميلادي العاشر انتهى بشكل رائع. كنت فرحة بشكل لا يصدَّق. حاولت أن أنسى كلّ شيء حتى لا أكدّر صفوي، وأنغّص على نفسي متعة الفرح. لكن عندما رُنّ الجرس، عرفت أنَّ الإنسان الذي كان وراء الباب، شخص لا بدّ أنّي أعرفه. التصقت عيني فجأة بفتحة الباب. عندما انفرج قليلاً، ركضت حتى قبل أن يُفتح. شممت رائحته من بعيد. كان بابا حسن. لم أتمالك حواسّي، على الرغم من غضبي عليه.

ـ بابا. صرخت بأعلى صوتي ونسيت كلّ ما كان ورائي. والتصقت بصدره. انتابتني رغبة مجنونة أن أعضّه بكلّ قوّة ولا أتركه أبدًا، حتى يعتذر عن غيابه.

لم أسأله قصداً عن غيابه الطويل في الشمال. ولكنَّه هو الذي بدأ بالحكي عن ظروف العمل القاسية وعن أصدقائه، وكيف استطاع في الأخير أن يجد عملاً في مصانع الخشب، وأنَّه سينتقل قريبًا إلى العمل في ميناء سياتل في ورشات صناعة السفن. فرحنا كثيراً. خالتي ماجدة وسارة وزوجاهما، التحقوا بالسهرة. أشعر دائمًا في عيونهما بشيء يشبه النفاق، وبذئب ينام فيها. أهدوني محفظة مليئة بالألوان وبعض الحلويات التي اشتروها من الخبّاز المقابل لبيت خالتي. ضحكت في أعماقي. لم أعد تلك الصبيَّة المقدسيَّة الصغيرة والساذجة. رأيت في عينَيْ خالتي دنيا ابتسامة ساخرة، كنت الوحيدة التي فهمتها جيِّداً. كانوا ينظرون بعين الريبة لعلاقتي بمامي دنيا. كانوا يتصوَّرون أنِّي أصبحت قريبة من خالتي أكثر ممّا يجب. خالتي دنيا كانت حاسمة في ردّها:

ـ هذا الأمر يخصّني، ولا حقّ لأيّ واحد أن يتدخَّل فيه. مي ابنتي أولاً وليست حفيدتي. أنا لا أدلّعها ولكنِّي أفتح عينيها على مدينة لا تعرفها، وعلى حياة ليست دائمًا سهلة.

في الليل عندما انسحب الجميع، تركتني مامي دنيا مع بابا حسن. كنت صامتة وغاضبة لدرجة أنِّي لم أجد لحالتي أيَّة لغة. كنت أريد أن أصرخ في وجهه: لماذا لم تودِّعني عندما ذهبت إلى الشمال؟ لماذا لم تحدِّثني عن أمّي وأخي عليان وعن وضعهما؟ أنا تركت أمّي من أجلك يا بابا وأنت لم تفعل شيئًا من أجلي؟ لكنِّي لم أفعل ولم

أسأله، واحتفظت بحرائقي في قلبي. كان الصمت طاغيًا علينا. قال وهو يبحث عن كلماته التي كان ينقصها التماسك:

ـ كنت أعرف جيِّداً أنَّك بين أيد أمينة. دنيا لم تقصّر في شيء.

ـ لم تتغيَّر كثيراً يا بابا. ليس هذا هو المشكل. كنت أريدك أنت. أن أسمع صوتك وهو يقول لي صباح الخير. أن أتحسَّس نفَسَك وأنت تقبِّلني تحت أذني عندما أعود من المدرسة. أن تجرّني إلى حديقة وتنصت إلى الآلام التي في قلبي وأسمع إلى أحزانك. خالتي دنيا لم تقصّر في شيء. وربما لو كانت أمّي هنا، ما فعلت أكثر ممّا فعلته خالتي.

ـ سعيد جداًّ لهذه العلاقة بينك وبين خالتك... العيش في أميركا صعب جداًّ، وفي سياتل أكثر، منطقة معزولة وباردة جداًّ... لكن... والحمد للّه، فقد وجدت عملاً وهذا هو المهمّ. سآخذك معي قريبًا إذا شئتِ.

ـ إذا شئتُ... إذا شئت...

كرّرتها. شعرت بغبن داخلي وبحرقة لم أستطع تحمُّلها. علاقتي بخالتي أصبحت حيويَّة، ولا يمكنني أن أتركها لوحدها بين الغيلان. انتظرت فقط من بابا حسن أن يقول لي: خلاص، ستذهبين معي هذه المرّة. بيتي، في مرتفعات سياتل البحريَّة، المليئة بالغابات، صغير، ولكنَّه سيكون دافئًا بكِ ومليئًا بالحياة. أن يشهِّيني على الأقل في المكان. أن

يمنحني فرصة الحلم قبل الذهاب معه. أن أسمع فقط هذه الكلمات، لكي أتأكّد أنِّي ما زلت في قلب والدي، وأنِّي أعني في حياته شيئًا صغيراً. فقد شعرت، في لحظة من اللحظات، أنَّه سعيد لهذه العلاقة بيني وبين مامي دنيا، لأنَّها تخفِّف من ثقلي عليه ومن مسؤوليَّاته.

كانت إجابتي قاسية.

ـ لا تشغل بالك يا بابا. لن أترك مامي لحالها. أحبّها لأنَّها أمّي. هنا مدرستي وأصدقائي وعملي مع خالتي.

صَمَتَ قليلاً. كانت جملتي باردة، نزلت عليه مثل الثلج.

ـ معك حقّ . دنيا مثل أمّك.

ـ لا، يا بابا، ليس مثل أمّي، هي أمّي. ما عليك أن تفعله هو أن تُسرع في الأمور، لتلحق أمّي وخيِّي عليان، وتخرجهم من تلك المحرقة. لقد ملّوا من الانتظار.

ـ عليان... آه... عليان.

ـ أقصد خيِّي... اللي انولد من وَرَانا.

لم يقل شيئًا ولكنَّه التفت صوب الحائط، وأعتقدُ أنَّه بكى، لأنِّي منذ تلك اللحظة لم أره لأسأله. فقد خرج باكراً للذهاب إلى الشمال، ولأنِّي بعدها تدحرجت صوب غرفة خالتي ونمت في أحضانها تلك الليلة. شعرت بها قريبة منِّي أكثر من أيّ زمن مضى. مرّة أخرى أحسست أنَّ ما كان يربطني بوالدي تمزَّق ليلتها وانحلّ بعنف مميت.

حاولت أن أكون سعيدة بعيد ميلادي ولكن عبثًا. أصبحت مريضة، ولم أذهب إلى المدرسة. الباص الأصفر زمّر طويلاً قبل أن يذهب بدوني. غبت حتى عن مطعم مامي دنيا، ولم أساعدها في العمل وإنجاز الطلبيّات والفواتير وتحضير فضاء العروض. لأوّل مرّة أشعر بفراغ مهول من حولي، وبشوق كبير إلى أمّي. ميرا فقط. يحدث أحيانًا أن تنطفئ كلّ الوجوه ولا تبقى إلا الملامح التي نشتهي أن تبقى. تفاصيل ملامح أمّي كانت أكبر من أن تمحي. انتابتني رغبة كبيرة في البكاء، لم تكن تشبه النوبات العابرة التي تأتيني حتى وأنا في المدرسة.

في الليل عندما عادت خالتي باكرًا من عملها، بعد أن طلبت من صديقتها الروسيَّة لودميلا تعويضها في البيانو-بار، سألتها، كأنَّها كانت تدرك بحاسّتها القويَّة ما كان يشتعل بداخلي.

ـ مامي، إذا قلت لك شيئًا ما راح تزعلي منِّي؟

ـ وهل أزعل من روحي؟ أنا أعرف ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ أمّي يا مامي، أمّي، لم أعد قادرة على التحمّل. اشتقت لها كثيرًا وأفكِّر في السفر إلى فلسطين في العطلة القادمة.

ـ معناه أنا مقصِّرة معك!

ـ في عيني أنت يا مامي. لو كان الناس يختارون أمّهاتهم لاخترتك أنت بلا تردُّد. صرت أعيش على مزاج الأحلام. البارحة رأيت كابوسًا أرعبني. رأيت أمّي تنسحب منِّي، عندما أردت

احتضانها، واختارت أختي لينا بدلي. مرّت من أمامي وكأنَّها لا تعرفني. ناديتها. صرخت حتى تسمعني، ولكنَّها لم تجبني. ركضت وراءها وناديتها بكلّ قواي، فلم تلتفت نحوي. درت من وراء الزيتونة القديمة، فغيَّرتْ طريقها وأخذتْ مسلكًا آخر يقود إلى المقبرة، وبين ذراعيها أخي عليان ملفوفًا في بياض يشبه الكفن. أختي لينا كانت تتبعها. ثم انطفأ كلّ شيء ولم أسمع إلا زعيقًا شيطانيًا طردني من حوافّ المقبرة. أعرف أنَّه مجرد كابوس، ولكنِّي مذعورة. أنا خايفة يا مامي. خايفة، لا أدري من أيّ شيء، ولكنِّي خايفة...

لم أستطع أن أكتم حزني ودموعي. وعندما انتهيت من البكاء، تقيَّأت حتى أحسَّست بأمعائي تتمزَّق. غسلت لي مامي دنيا وجهي ويدي، وغيَّرت لي ألبستي، وعدنا إلى المطبخ. مكانها المفضّل للجلوس دائمًا. فقد هيَّأته بشكل جميل. جاءت بالفنانة هوجيت غالون، من لوس أنجلس، وهي من أصل لبناني، وطلبت منها أن ترسم فيه ما تشاء، فأصبح المطبخ كأنَّه حديقة أو متحف حميمي. جنّة مامي. تقرأ هناك، وتستقبل الصديقات والأصدقاء الأقرب إلى قلبها.

ـ كيفك الآن؟ أفضل قليلاً؟

ـ أفضل. بسّ يا مامي، أنا لم أفهم الحلم. غياب أمّي يعذّبني. أشعر بها بعيدة وكأنَّها تؤنّبني. أحيانًا ينتابني إحساس غريب وكأنَّها ماتت. منذ أن دخلت إلى هذه الأرض لم أسمع صوتها، ولا صوت خيِّي عليان الذي لا أعرف شكله. مش معقول يا مامي؟ وكلَّما سألت

عنها، هرب الجميع من سؤالي. إنِّي أتعذَّب، وأعذِّب من معي. ندمت أنِّي أغضبت بابا. وحياتك يا خالتي ما كان قصدي. بسّ...

ـ قولي يا اللي في قلبك.

ـ في أعماقي أحُمّله مسؤوليَّة ما حصل لعائلتنا. وجودي هنا لا مبرّر له إلا نجاته من الهاچاناه. بسببه تركت كل شيء ورائي؟ وهو لا يسأل، ولا يكلف نفسه عناء الحديث معي، عن همومي وهموم أمّي وخيِّي عليان... ما بَعْرَفْ... ربما صرت حسّاسة زيادة عن اللزوم؟

ما كدت أنتهي من كلامي، حتى انفجرت مامي دنيا بالبكاء. لم أر خالتي في حياتي في هذا المنظر. كانت الدموع تلهب وجهها، وعلتها حمرة خانقة حتى إنّي خفت عليها. خالتي امرأة شجاعة وجريئة ولا تهتمّ بالناس كثيراً، مثلما يفعل المقدسيّون عادة عندنا. مامي رقيقة كالنور، وصافية كالشمس، قلبها في كفّها كما يُقال. التفتت نحوي. بلعت ريقها كمن يقدم على قول شيء خطير. كانت عيناها حمراوين ومتعبتين. أردت أن أعتذر لها، ولكنّها أوقفتني بأصبعها.

ـ ششششت...ششششت... أرجوك... لا تعتذري. كلّ أحاسيسك صادقة. وما رأيتِه، **لم يكن كابوسك وحدك، ولكنَّه مأساتنا جميعًا.**

لم أفهم جيِّداً. فجأة اهتزّت بي الأرض بعنف. بدت ألوان المطبخ الزاهية تميل نحو الخضرة والزرقة والصفرة، ثم حدّة البياض التي

تعمي البصر. أغمضت عيني بقوّة كي لا أرى شيئًا ولا أفقد بصري. شعرت برأسي يثقل إلى درجة لا تطاق، وبشيء فيَّ يتلاشى ويذوب، مثل قطعة بلاستيك. شممت حتى بداية احتراق في جسدي. تمتمت خالتي جملتها الأخيرة... لم يكن كابوسك وحدك، ولكنَّه مأساتنا جميعًا... أردت أن أتكلَّم، أن أصرخ على الأقلّ. فقدت في تلك اللحظة كلّ حواسّي، إلا بصري، فقد انفتح عن آخره، متفاديًا البياض الذي كان يعميني. ظللت مشدودة بشكل غريب إلى شفتي خالتي الجميلتين، اللتين صارتا فجأة مزرورقتين مثل شفتي ميت. وبدأ جبينها ينزّ عرقًا. أوّل مرّة أرى مامي في وضع مثل هذا، لدرجة أنِّي خفت عليها من الموت.

ـ مامي... قولي لي إنَّه ما بك شي؟ أنا مرعوبة.

ـ كارثة يا روحي. لازم تعرفي الحقيقة. بيكفي كذبْ.

ـ ماني فهمانة شي يا خالتي...

ـ خيّك يا بنتي... خيّك عليان وميرا... قتلهم اليهود.

قالتها تمامًا مثلما نقولها في القدس. خالتي لا تتحدَّث العربيَّة إلاّ قليلاً، وكلّ حديثها بالإنجليزيَّة إلا في حالات الشتائم القاسية أو الألم الذي لا تجد له مقابلات بالإنجليزيَّة. شعرت بالأرض تدور من تحت قدمي. صرخت بأعلى صوتي، أو ربما عويت كذئبة هرمة مجروحة، بسيل من الكلمات المرتجّة، لم أطلبها ولكنّها تدفّقت لوحدها كالحمم:

ـ خالتي إيش بتقولي، آني ما فهمانة شي؟ صرت مجنونة؟ أنتِ عارفة شو عم بتقولي وإلا لا؟؟؟ يمكن الحرارة هي اللي سوَّت فيك هيك؟ لا يمكن يا خالتي... لا يمكن... مامي قولي لي إن الحمّى القويَّة هي التي جعلتك تقولين هذا الكلام. أرجوك يا مامي...

كأنِّي لم أسمع جيِّدًا. أو كأنِّي كنت في قاع بئر عميقة، وكان عليَّ أن أقاوم لأصل إلى الحافّة المنقذة لأفهم ما كان يحدث من حولي.

ـ ... خيّك ومامتك قتلهم اليهود في القدس. الهاچاناه دخلوا عليهم وقتلوهم كلّهم.

ـ مامي أرجوك... بيكفي مزح. أنا أرتجف. ولا مرّة شفتك بتقولي هيك كلام؟ خالتي، قولي لي إنَّك تعبة بسبب أختيك وزوجيهما... قولي لي إنَّ الحمى هي التي جعلتك لا تتحكَّمين فيما تقولينه قبل أن أنفجر... مامي ارحميني... أرجوووووك... أبوس أيدك يا خالة... أرجوووووك... قولي لي بس إنَّ ما سمعته منك مو صحّ... بس هذه الكلمة، ولن أطلب منك شيئًا أكثر من ذلك.

ـ لازم تسمعيني. راح أَطَقْ من الكذب والتخريف عليك.

بدأت أتلوَّى في مكاني كمن ابتلع سمًّا. اعتراني نوع من البرد الثقيل والمحمّل بندف الثلج القاسية. سرى في كامل جسدي، وجعلني أرتجف كورقة من أوراق بلاطان نيويورك. حاولت أن أستجمع قواي كاملة. كان وجه خالتي متلفًا من الدمع والانهيار. لم أعد أعرفها وشعرت كأنَّها هي كذلك كانت على الحافّة.

ـ إمتى صار كلّ هذا؟ البارحة؟ أخبرك أخوالي؟ يمكن أنتِ تختبرين فقط حبّي لماما ولأخي وأهلي هناك؟

صمتتْ لحظة من الزمن. ابتلعت ريقها من جديد. اقتربت منّي أكثر، ولكنّي شعرت بها لأوّل مرّة بعيدة. بعيدة جدًّا، وغريبة. نفس الإحساس الذي انتابني وأنا أسمع لوالدي يحكي عن سياتل وعن عمله.

ـ لا حبيبتي. القصّة قديمة. يوم أخذوك من القدس، وهرب بك خالك إلى بيروت وأقنعك بضرورة مرافقة والدك إلى نيويورك. حتى حنا، جدّتك، اللّه يرحمها. قتلت وهي تدافع عن أمّك وعن حرمة البيت.

ـ بابا كان بيعرف القصّة؟

ـ ... في البداية لم يكن يعرف شيئًا. كان في المستشفى في بيروت بين الموت والحياة. ولكن خالك وأصدقاءه أخبروه. تعرفين ليش خرج من أرضه؟ كان الهاچاناه يبحثون عنه لتصفيته وتصفيتك، ومحو العائلة بكاملها لأخذ أرضها. طلبوا شراءها من والدي فرفض. والدي كان يعرف كل شيء، رأى كيف باع بعض أفراد العائلة فدادينهم لمراب إنجليزي سكن مدّة طويلة في القدس وأسلم. لكن المرابي باعها بدوره لليهود بضعف ثمنها، بُنيت عليها فيما بعد مستعمرات كثيرة وبيوتات. من يومها اتخذ جدّك قراراً عائليًّا بتحريم بيع الأراضي عملاً بفتوى مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني.

كأنّي كنت في عالم آخر. ما كانت ترويه خالتي من أخبار، كان كابوسًا رهيبًا لم أكن قادرة على تحمُّله، ولا حتى على تصديقه.

ـ يلعن أبو الأرض وأبو أبوها... إحكي لي عن يمّا وخـيّي. الأرض بكرا بترجع، بسّ من يرجّع لي خـيّي ويمّا وحنا... مين يا خالة...

ـ اللّه يرحمهم جميعًا. أكثر من ثلاث سنوات وقلبي يتمزّق؛ وصمّمت اليوم أن أقول لك الحقيقة مهما كان الثمن. هذه الأرض اللي بتلعنيها، هي الأرض التي أنبتتنا جميعًا وما عرفنا كيف نحميها. كلّ الناس تعبوا من الهمّ. أنا لا أبحث لهم عن مبرّرات وأعذار. الإنجليزي الذي اشترى الأرض كان بالنسبة للعائلة مسلمًا تقيًّا. بل أكثر تشدُّداً على الدين من المسلمين العرب. ومع الزمن عرف جدّك أنّه لم يكن أكثر من مرابٍ. عندما أراد أبي أن يسترجع أرض العائلة بإعادة شرائها، ضحك موظّفو الوكالة اليهوديّة منه كثيراً وقالوا له إنّ أرضًا تخرج من يد فلسطيني لن تعود له أبداً. ثم طمأنوه أنّه حتى ولو توصّل إلى أن يسترجعها قانونيًّا بمساعدة الإنجليز، فستأخذها منه الهاچاناه بالقوّة، وسيطردونه.

ـ وطانت جينا، هل كانت تعرف الحقيقة لما أخذني خالي من بيتها؟

ـ أخبرها خالك، ولكنّه ترجّاها أن لا تخبرك حفاظًا عليك.

ـ بابا حسن ، ليش ما خبّرني بالحقيقة، ليش كذب عليّ كلّ هذا الوقت؟ هيدي ما أقدر أسامحه فيها.

ـ بابا حسن لم يكذب عليك، كان خائفًا من افتقادك. حلمه الكبير كان هو أن ينقذك من براثن القتلة. ولولا مساعدة خالك أبو شادي بشبكة علاقاته كما تعرفين، ما كان أفلح في مسعاه ولبقي هناك ولقُتل. هل تريدين لبابا حسن أن يموت؟ هو لم يأت فقط لعيد ميلادك، ولكنَّه جاء كذلك ليكلِّمك في موضوع أمّك ولكنَّه لم يستطع، ووضع هذا الهمّ على ظهري. من حقِّك أن لا تظلّي داخل وهْم قد يقتلنا جميعًا ذات يوم. على الإنسان أن يعيش حداده، ولكن عليه أن ينتبه إلى أنَّ الحياة مستمرّة.

ـ ماما يا خالتي... ماما... وحنًّا... وخيّي عليان؟... خيِّي يا خالة، لم أره في حياتي ولم أعرف بسمته... كلّ يوم يمضي، كنت أراه يكبر مع حزني وغيابي. أراه يحبو... يمشي... يركض...

ـ نطلب لهم الرحمة. أنت وبابا حسن حيّان، وهذا هو المهمّ...

لم تكن لديَّ أيَّة لغة أخرى سوى الانكفاء على نفسي. غرقت في موجة من البكاء، إذ شعرت فجأة أنِّي صرت وحيدة وعارية من أيّ لباس. مرّة أخرى تقيَّأت. ولكن خالتي حملتني إلى الحمّام. شعرت بنفسي كالخرقة البالية، وبدقّات قلبي تتوقَّف، وبصفرة طاغية تعتري كلّ مفاصلي. تأكَّد لي لأوّل مرّة أنَّ حب مامي لي لم يكن كافيًا لمحو صورة أمّي.

بقيت صامتة لمدة يومين وكنت أعرف أنَّها العلامات الأولى لموت أكيد. شعرت بأنَّ قلبي قد توقف، وأنِّي كنت أعيش على

نبضاته الأخيرة. في أعماقي لم أكن أرغب في الموت ولا حتى في الحياة. حالة من الخواء صعب عليَّ يومها تحديدها.

لم أقل أيّة كلمة. عجزت عن الكلام والمشي، وحتى عن الذهاب إلى المدرسة. وكنت أقرأ في عيني خالتي حالة كبيرة من اليأس والندم. في أعماقي عذرتها، بل وجدتها أشجع من أخوالي مجتمعين وأبي.

و في اليوم الثالث عندما استوى لساني فجأة، بكيت حتى احترق قلبي. بكيت مثلما لم أبك أبداً في حياتي. كسرت الأواني. ضربت رأسي على الحائط. عضضت على الأقمشة. مزّقت الكراريس. ندبت وجهي كما كانت تفعل نساؤنا في المآتم. خلطت ألوان لوحاتي. كرهت كلّ الناس. كرهت نفسي. كرهت الحياة. فكّرت أن ألقي على جسدي غالونًا من البنزين وأحرق نفسي مثلما يفعل البوذيّون. صرخت، عويت، وأنا أتمنى أن لا أصمت حتى ينفجر رأسي إلى آلاف الأجزاء الصغيرة والقطع العائمة: يمّاااااااااااااااااااااااااا... أصبت بحالة هستيريا. كان جسدي كلّه يرتعش لها كالخرقة البالية. لأول مرة أقرأ علامات اليأس والخوف في عينيْ خالتي دنيا. كانت مرعوبة عليَّ. حارت كيف تتصرَّف معي.

صرخت في وجهها بعد أن ابتعدت عنها قليلاً:

ـ كلّكم قتلة... مجرمون... سفلة... كذّابون... خبَّأتم عليّ موت أمّي وأخي وجدّتي. اللّه لن يسامحكم... لن يسامحكم

أبداً... ليش ما فيه حدا قال لي الحقيقة وتركني أموت وحدي؟ قتلتموني. كيف تواجهون اللّه؟ مجرمون وقتلة كلّكم... مجرمون... بدون استثناء...

لم أكن أبكي، كنت خارج أيّ نظام. تحوَّلت إلى ذئبة هرمة سُرق أبناؤها. كنت أعوي. صعدت إلى سطح البناية وبكيت. فكَّرت أن أرمي بنفسي من الأعالي، ولكنَّ وجه مامي دنيا الطيب والسموح ملأني فجأة وجمّدني في مكاني. عندما مددت رأسي على حائط الشرفة، نمت في الفراغ، مواجهة لسماء مجرّدة من الحياة والنجوم والغيوم.

مساء، رأيت الشمس وهي تنحدر بسرعة على حافّة بحيرة هودسون بعدما اخترقت بنايات المدينة المكتظّة، والجزء الأماميّ من جسر بروكلين وحباله المعدنيَّة الملوَّنة بالأشعّة الأخيرة المنكسرة عليها. بدت لي الحياة على غير ما رأيتها عليه، في لحظتي اليأس والانكسار.

لا أدري ماذا كنت سأفعل في نفسي لولا تدخُّل مامي دنيا، بحنانها المعهود ولطفها وحبّها الصادق. عندما وضعتني على صدرها، بدأت فجأة أهدأ وأغفو شيئًا فشيئًا. تذكّرت التنويمة العائليَّة، المحوّرة قليلاً، التي ارتسمتْ في ذهنها فجأة. شعرت بلمسات ميرا على رأسي وأصابعها وهي تندفن في شعري:

نامي نامي يا مانو...

أسرق لك مِن الثلج فستانُه،

وأقطف لك مِن قزح ألوانُه،

وحياة ربي سبحانه،

لأعطيك قلبي ووجدانه...

نامي... نامي يا مانو...

اللي يحبّك ببوسك،

واللي بيكرهك، لا تحزني من شانو...

وعندما تهادت إلى مسمعي خفقات قلبها المتسارعة ورائحة جسدها، كان كلّ شيء قد انتهى. شعرت بأمّي بجانبي، فنمت. عندما استيقظت، تمنَّيت أن يكون ذلك كلّه مجرد كابوس، ولكن كان عليَّ أن أقبل بالحقيقة. شعرت بحقد كبير تجاه والدي، ليس لأنَّه كذب عليَّ فقط، ولكن لأنَّه تركني مثل الذي يتخلَّص من ثقل، ولم يسأل عنِّي، ولم يقل لي الحقيقة بنفسه. ربما كنت على الأقلّ عضضت ذراعيه، وخربشت وجهه، وغفرت له في النهاية. لم أستطع أن أسامحه، لأنَّ وجودي كلّه في هذه المدينة كان من أجله. غضبت من خالي أبو شادي لأنَّه كان المسؤول الأول عن هذا السرّ، وهو الذي شجّعني على مرافقة والدي.

أعتقد أنَّ شيئًا كبيرًا انكسر نهائيًّا، يومها، في علاقتي ببابا حسن.

حكَّت خالتي على رأسي وهي تتمتم:

ـ ارتاحي يا روحي... ارتاحي حبيبتي...

ـ ليش ما حكوا لي الحقيقة يا خالتي؟

ـ ضعي نفسك في مكانهم فقط. القصّة مو سهلة يا بنتي. أبوك كان مرعوبًا من أن يفتقدك. فأنت آخر غصن أخضر ظلّ يتعلّق به، وإلا ما الذي جاء به إلى هذه الأرض التي لم يكن يعرفها أبداً ولا يريدها. كان مقاتلاً ومدافعًا عن أرضه، وكاد أن يموت في المعركة. تخطئين إن كنت تظنّين أنَّه هرب إلى نيويورك حفاظًا على حياته؟ منذ مقتل أمّك، وخروجه شبه ميّت من فلسطين، لم تعد له أيّة حياة. أنا أدرك جيِّداً أنَّه لو خيِّر بين البقاء والمغادرة، لاختار أن يموت على أرض فلسطين، متحمِّلاً مشقّات الهرب والتخفّي والقتال في مختلف الجبهات، على منفى لم يختره أبداً ولم يكن مهيَّأ له.

ـ ما بفهم ليش قتلوا أمّي؟ ماذا فعلتْ لهم؟ كانت طيّبة وتحبّ الموسيقى والرسم؟ لم تكن تحمل لا بارودة ولا سكّينًا. لا يمكنها أن تؤذي أيّ أحد. كانت تكره حتى سكاكين المطبخ. لم تكن تحبّ أكل اللحم، لأنَّها كانت تتقزَّز منه. وجدت نفسها في دوّامة فُرِضت عليها ولم تخترها، أن تكون زوجة رجل مجنون، اصطفته الأقدار لأن يحمل سلاحًا ويدخل غمار حرب لم تكن له أيّة مسؤوليَّة في اشتعالها. ليش قتلوها يا خالة وهي الطيّبة والرحيمة على كلّ الناس؟

ـ وماذا فعل لهم عليان الصغير الذي كان جنينًا في بطنها؟ ماذا فعلت الجدّة الطيِّبة والمسالمة؟ لا شيء. المشكلة ليست هنا. كلّ الحروب عمياء. لقد صمّموا على أن يُسرقوا الأرض ويُخرجوا الناس

منها بالقوّة، ومن لم يخرج، قتلوه. أمّك وجدّتك وعليان وغيرهم، كانوا حجر عثرة في طريقهم. المشكلة كبيرة يا ابنتي. كبيرة جداً، وأكثر من كلّ ما تتصوّرينه. هناك آلة جهنّميّة، منظّمة جداً. لقد برزت الصهيونيَّة في مرحلة الشتات، وعلى مرّ العصور استغرقت في النوم، ولم تمت. كان روّادها يردّدون دائماً: «عائدون إلى أورشليم فرحين، في العام القادم...». القصّة جادّة ولم تكن في أيّ يوم من الأيّام طرفة عابرة أو مجرّد أسطورة. في القرن الماضي ظهرت جماعة أحبّاء جبل صهيون الذين يهيمون حبًّا بصهيون ويتمنَّون رؤيته قبل موتهم. فقد ظهر شخص اسمه تيودور هرتزل، وأشاع فكرة أنَّه لا استقرار لروح اليهودي إلاّ في أرض فلسطين. وأثار هذا الإحساس مشاعر يهود العالم. وأصبح باستطاعة هرتزل، هذا اليهودي النمساوي الذكي، أن يقف أمام السلطان العثماني عارضاً عليه شراء أرض فلسطين ليسكنها اليهود، ولكنَّ السلطان الذي كان يحمل لقب خليفة المسلمين، قابل عرضه بالرفض، وكاد الأمل في إحياء إسرائيل أن يموت. لقد خطَّطوا لذلك كلّه. وفرصة لأوروبا لكي تمحو عقدة الهولوكوست الذي تسبَّبت هي فيه وليس نحن. من يستطيع منعهم بعد أن وضع الإنجليز مفاتيح البلاد كلّها في جيوبهم. الإنجليز هم سبب في كلّ ما لحق بأرضنا. كنَّا نصفّق لهم ونمنحهم مفاتيح المدن، وكانوا يتضاحكون ملء أشداقهم مع أعدائنا، ويقسِّمون الجغرافية كما يشتهون وينكِّتون على غبائنا. هل يدري هؤلاء أنَّهم كانوا، بفعلهم المشين هذا، يصنعون حقد الأجيال القادمة؟

جاءتني أنفاس خالتي المليئة بالحنان، شعرت بدفء يدها الموضوعة على رأسي. تلمَّست أصابعها واحداً، واحداً وأدخلتها في عمق شعري كما كنت أفعل مع أمّي، لكي أستطيع النوم. شعرت أنَّها كانت تتكلَّم كلامًا صعبًا لم أكن قادرة على فهمه، ومع ذلك أحسست بقربها أكثر من أيّ زمن مضى:

ـ كنَّا عايشين مع اليهود، وكنا نعطف عليهم وكانوا يعطفون علينا. كنَّا نتقاسم أكلنا في الأيام الصعبة وملحنا. حتى حروبنا الصغيرة، كنَّا نحلّها بالتوافق والاسترشاد بكبار الحيّ. ما الذي تغيَّر؟

ـ ما قتلناهم يا مامي؟ ليش بيقتلونا؟ ليش ما راحوا لبلد ثاني وليفعلوا ما يشاؤون فيه؟ أرض اللّه واسعة. ليش فلسطين تحديداً؟

ـ هذه يا حبيتي قصّة أخرى. حاولوا وما طلع معهم شي؟ مين اللّي يرضى يسلّم في بلده؟ فكّروا في استعمار أميركا الجنوبيَّة، ولم يفلحوا إذ لم يكن الأمر هيّنًا، بل كان جنونًا. وعندما كان جوزيف تشمبرلين في منصب وزير خارجيَّة أكبر إمبراطوريَّة استعماريَّة، فكَّر في منح اليهود أراضي خصبة وجيدة في شرق إفريقيا. كاد العرض أن ينال القبول عند الكثيرين، من بينهم هرتزل نفسه، لولا اعتراض رجل كانت تجري الصهيونيَّة في عروقه ودمه، بقوّة، هو حاييم وايزمان. كان يعمل مدرسًا للكيمياء في جامعة مانشستر. وفي أثناء الحرب، أصبحت الحاجة الماسّة إلى البارود TNT ضروريَّة. واتَّضح أنَّ مادّة الأستون المكوَّنة له لم تكن متوفِّرة خارج ألميرا. وكان الكيميائي

اليهودي وايزمان هو من حلّ المشكلة، وتمّ توفير الأستون. وسجّل وايزمان براءة اختراعه ولم يطلب أيّ مقابل له. ولكنَّه طلب من الإنجليز، مقابل جهده العلميّ، تأييد قضيّته الحيويَّة. فكان وعد بلفور المتعاطف علنًا مع اليهود: «**إنَّ حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل كلّ جهودها لتحقيق هذا الغرض. وسيتمّ ذلك دون المساس بالحقوق المدنيَّة والدينيَّة للطوائف غير اليهوديَّة في فلسطين...**». اتَّضح منذ ذلك الوقت أنَّ المسالة كانت جادّة ولم تكن لعبة أو مجرّد طمع. وصار واضحًا أنَّ ظروف العرب من مسلمين ومسيحيين، ستكون قاسية جدًّا في السنوات والقرون اللاحقة. القتل يا حبيبتي ليس إلاّ الصورة المباشرة للجشع الذي يُنسي الناس بسرعة أوضاعهم الأولى، ويحوِّلهم إلى طغاة صغار يشبهون قتلتهم الأوائل. مع أنَّهم قضوا العمر كلّه يبحثون عمّن يهتمّ بهم ويقدر حقَّهم في الحياة والوجود. الضحيَّة يمكن، في لحظة برقيَّة، أن تتحوَّل إلى جلاد.

يومها تأكَّدت، من خالتي، أنَّ ما حدث كان خطيراً ومدمّرًا، لا للحاضر وحده ولكن لمستقبل أجيال بكاملها، وأنَّه كان عليَّ أن أطوي كلّ الصفحات القديمة لأنتبه إلى الحقيقة المرّة للأرض التي وُلدت فيها وكبرت على تربتها الطيّبة. ومع ذلك كلّه، طويت صفحة الطفولة، ويوسف، وبدأت أعمل بنصيحة خالتي:

«**لا تخافي، لن نشفى أبداً من مرض الأرض. الآن هذه أرضك، فيها تعيشين وعليها تموتين. لا تلتفتي وراءك كثيراً وإلاّ ستظلّين معلَّقة**

في الهواء مثل أجراس الكنائس القديمة، كلّما سحبوا حبلاً فيها، أنّت بقوّة لدرجة إيقاظ الموتى والأحياء معًا».

لم أكن أدري أبدًا أنَّني سأحمل جرحًا قاسيًا طوال عمري، لن يمنحني أيَّة لحظة للعيش، وسيظلّ ينغّص عليَّ حتى السعادة الطارئة. لم يكن من حقِّي أن أخرج عن المألوف وأفرح قليلاً، مادامت روح أمّي في ضياع كبير، تبحث باستماتة عن جلاّدها، لا لتحاسبه، فالأمر لم يعد مهمًّا، ولكن لتسأله فقط لماذا قتلها وماذا ربح من حرمانها من حقّ الأمومة، بعد سنوات الموت والجفاف؟

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

السبت ٢٣ أكتوبر ١٩٩٩

كبرتُ في حضن خالتي دنيا مثل الوردة البريَّة، اللون والحريَّة والشمس. أتساءل أحيانًا إذا كان يوجد شبيه لمامي في دنيانا المليئة بالجشع والطمع. أنستني في كلّ شيء، حتى في أمّي التي لازمني كابوسها طويلاً قبل أن ينسحب وحده. بابا حسن لم أعد أسمع صوته إلاّ من خلال مامي دنيا التي تقول لي بين الشهر والشهر: بابا حسن سأل عنك كثيرًا، فقلت له إنّك بخير وإنّك لا تحتاجين إلى أيّ شيء. وفي آخر مرّة جاءتني وهي تلهث:

ـ حبيبتي، بابا حسن يريد أن يتحدَّث إليك مباشرة. قال إنَّه اشتاق إلى صوتك؟ يريد أن يكلّمك قليلاً.

ـ لا أشعر بالحاجة يا مامي لذلك. لا أدري إذا كان بابا حسن يعرف ماذا يريد؟ أشعر به في أقصى درجات الارتباك.

ـ ومع ذلك، يريد أن يكلّمك.

أشعر بنفسي فجأة ضائعة وسط الفراغ الذي يحيط بي. أتساءل أحيانًا عمَّا أفعله على هذه الأرض وبين هؤلاء الناس الطيِّبين الذين منحوني كلّ شيء، ولكنِّي عاجزة أن أردّ لهم جميلهم.

الحديث مع بابا حسن كان باردًا وجافًّا. كان بلا روح. لم أكن أملك وجهًا آخر غير الذي واجهته به:

ـ مي، كيف حالك حبيبتي؟

ـ ما بدّي أسمع هذا الاسم، مات مع أمّي ولينا وخيّو وحنا، اللّه يرحمهم.

كنت جافّة كصخرة الوديان. لم أشعر بوقع الكلمات. كلمة حبيبتي من أبي كانت تهزّني من الأعماق، صارت الآن تشبه بقيَّة الكلمات الأخرى التي نستعملها بالعادة ولا نحسّها بالعمق الذي يجب أن نحسّها به.

ـ المهمّ. كيف أحوالك مع خالتك دنيا.

ـ الحمد للّه.

ـ يبدو أنَّك لست على ما يرام؟

ـ لا. مامي دنيا، يكثّر خيرها، تقوم بكلّ شيء.

لاحظتُ فجأة أنِّي لم أقل بابا. أشعر بنوع من الحقد عليه، وفي الوقت نفسه، في لحظات صحوي، أحسّ بتعاطف نحوه. عندما

أتساءل ماذا فعل بابا حسن الذي مُزِّق بين زوجة سُرقت منه، وتيه لم يختره، في بلاد لا يعرفها إلاّ من خلال كومة من العناوين والخرائط الكثيرة التي لا يعرف كيف يتعامل معها، وابنة، هي الجزء الحي لضياعه، أعذره. أشفق عليه ولكنّ داخلي لا يطاوعني. يبدو لي أحيانًا كأنَّه تخلَّص منِّي ليتفرَّغ لشؤونه الخاصّة، وفي أحيان أخرى أقول إنَّه فعل ذلك من أجلي لكي لا أتعرَّض للتيه الذي عاشه هو. أحاسيس متناقضة وقاتلة.

تمتم وهو يبحث عن كلماته التي شعرت بها مرتبكة أكثر من أيّ وقت مضى:

ـ حبيبتي... أشعر كأنَّك لست على ما يرام؟ أنا الآن صرت مستقرًّا وأوضاعي أحسن. أسكن في نادٍ عامّ للعمال، وعملي أصبح قارًّا في الميناء. بدءاً من الأسبوع القادم، سأستلم بيتًا صغيراً، ويمكنك أن تأتي معي لسياتل. المدينة صناعيَّة وثقيلة، ولكنَّها جميلة. بها مدارس ومعاهد للفنون الجميلة. تأكَّدت من ذلك بنفسي. غابات سياتل مذهلة وموحية كثيراً لفنّانة مثلك. سأكون سعيداً جدًّا لو اخترتِ أن تأتي معي، لأنَّه هذا هو الوضع الطبيعي للأشياء. خالتك طيِّبة ولكن الطبيعي هو أن تكوني مع والدك، ونخفِّف ثقل المسؤوليَّة عن خالتك.

لم أشعر، في أيَّة لحظة من اللحظات، بأنَّ والدي كان يحكي كلامًا جادًّا. أنا لن أترك مامي، ولو بمال الدنيا، إلاّ برضاها. لو كنت مع غيرها، لانتحرت. والدي لم يكن قادراً على لمس الشعاع الناعم

الذي كان يربطني بتلك المرأة التي لم يعد شيء يعنيها إلاّ سعادتي. كدت أشهق ولكنِّي تماسكت. فقد اجتاحتني رغبة لا تقاوم للبكاء. لا أدري ما الذي دفع بي إلى أن أقول له قبل أن أغلق التليفون، بعد أن خرجت منِّي كلمة بابا بصعوبة:

ـ يا بابا، موضوع مثل هذا لا يُناقش بالتليفون. هناك أشياء كثيرة يجب حلّها أوّلاً. أنا مرتاحة مع خالتي. اهتمّ بنفسك أكثر.

ـ كنت أريد أن أخبرك بمجيئي.

لم أرحّب به. لم أقل شيئًا. صمتُّ، ثم أقفلت التليفون بهدوء.

فكَّرت طويلاً. نظرت خالتي إلى عيني بحزن. لم تقل شيئًا، ولكنَّها، في المساء، بادرتني بسؤال كنت أعرف سلفًا أنَّها ستطرحه عليَّ:

ـ مي حبيبتي... لا تفكري فيَّ، أنا سأتدبّر أمري وحدي. شوفي مصلحتك أولاً وأخيرًا. صعوبات الدنيا، يا بنتي، سيَّرتها بدونك، وأستطيع اليوم أن أسيّرها، كما أشتهي. لا تهتمّي. أحبّك، ولكنِّي أحب راحتك أكثر. لا أريد أن أكون مصدراً ينغّص عليك متعة الحياة. فكّري جيِّداً في مستقبلك. أبوك له حقّ فيك، وهو أسبق منِّي.

ـ مامي... مشكلة والدي أعقد من أن أذهب أو أبقى، وإلاّ لأصررتُ عليه والتصقتُ به. بيننا أشياء لا بدّ من أن نصفّيها أوّلاً. لا

أعرف بالضبط ما هو الشيء العالق بيننا، ولكنَّه موجود. يا خالتي، لن أجد أمًّا تعوّضني عنك أبداً. فأنت أكثر من أمّ. روحي لو تطلبينها منِّي أعطيها لك بلا أدنى تردُّد. تجاه والدي، أشعر بمسؤوليَّة كبيرة أريد أن أتنصّل منها نهائيًّا. لم أعد صبيَّة صغيرة يا خالتي. كلّ شيء تغيَّر فيَّ حتى جسمي وعقلي. بقائي معك يا خالتي هو بقائي مع أمّي.

ـ اللي تشوفيه يا حبيبتي. تعرفين أنَّك في عيني وفي قلبي، وفراقك سيقتلني، ومع ذلك لن أقف في طريقك. أنا سندك في هذه البلاد الجميلة والموحشة أيضًا. أعرفها جيِّداً ويمكنني أن أفيدك. اطلبي عيني، أسلمهما لك بلا تردُّد.

ـ مامي... حبيبتي.

ثم ارتميت في أحضانها فقط لأشمّ رائحة أمّي وأبكي قليلاً.

عندما وصل بابا حسن إلى بيت خالتي دنيا، كان اليوم ممطراً. عرفته من خطواته، ومن همهمته وهو يسلّم على خالتي. بقينا مدّة طويلة صامتين. لم أتجرَّأ على أن أسأله عن نظام حياته، هل تزوَّج أم لا؟ ربما يكون قد التقى بإيفا موهلر، وهو يعيش معها. الذي خبَّأ موت أمّي، يمكنه أن يخبِّئ بسهولة تجربته مع امرأة كانت عشيقته؟ أبي ما يزال حيويًّا، ومن حقِّه أن يتزوَّج بعد تأكُّد وفاة أمّي، ولكن ليس من نازيَّة، خان معها أمّي؟ يحدث أن يخترقني السؤال بشكل مؤلم: ماذا كانت ستفعل أمّي لو قُتِل هو؟ هل كانت ستتزوَّج؟ أنا على يقين من أنَّها كانت ستقضي العمر كلّه، تنظّف كلّ صباح قبره

من الحشائش الضارّة، وتقرأ عليه الفاتحة وتقصّ عليه كلّ ما فعلته يوميًّا في حياتها، وأنَّها ستظلّ وفيَّة له حتى يرث اللّه عباده وأرضه. بدا لي بابا حسن نحيفًا وعظام وجهه نافرة. لقد كبر في السنوات الأخيرة أكثر من عشرين سنة. تحدَّث كثيرًا عن المدينة التي يعمل بها. عن جوّها البارد والقاسي جدًّا. عن المحيط العمّالي الطيّب والصعب. عن سكنه الجديد الذي تحصّل عليه.

قال مازحًا:

ـ على كلّ حال، أوسع من سكن القدس.

كدت أصرخ في وجهه: ومن بعد؟ هل توجد في هذا البيت حرارة أمّي؟ أخي وأختي؟ حنا؟ دفء حارة المغاربة وصرخات القطّانين وباعة الخضر والبهارات الهنديَّة؟

لم يذكر أمّي ولو بحرف واحد. انتظرت منه أن يفعل، ولكنَّه ختم حديثه بأنَّه ينتظر استقرار الوضع ليعود إلى أرضه.

تدخَّلت خالتي بعد صمت طويل:

ـ تتصوَّر يا حسن أنَّك ستعود يومًا؟ تخطئ إذ تظن أنَّ المسألة سهلة. المنفى يا حبيبي يبدأ بفكرة، ثم بخروج طارئ وموقّت، ثم لا ندري بعد ذلك ماذا يحدث؟ نجد أنفسنا داخل دوّامة تدور بنا في كلّ الاتجاهات ولا ندري متى تتوقّف ولا كيف؟ لأنَّ المنفى هو الذي سيسيّر كلّ حيرتنا كما يشاء. نصبح فجأة ورقة في مهبّ الريح وفي كفّيه الخشنتين، يعجننا بلا هوادة. أعطني مثالاً واحدًا مقنعًا خرج فيه

المنفيُّ، وعاد في الوقت الذي شاء؟ للمنفى قانونه يا حسن، وعليك أن تضع ذلك كلّه في رأسك وإلا ستظلّ معلّقًا في الفراغ كقطرة ماء متجمّدة. هذه أرضك، فيها تعيش وعليها تموت إلى أن تُضاء المسالك وتنفتح السبل. لا تلتفت وراءك كثيرًا وإلا ستظلّ معلّقًا في الهواء، مثل أجراس الكنائس القديمة، كلّما سحبوا حبلاً فيها أنّت بقوّة لدرجة إيقاظ الأموات والأحياء معًا.

بابا حسن لم يكن رجلاً سهلاً. يفكّر جيّداً. يستطيع أن يقنعك بأفكاره التي يدافع عنها. لكنّ ذلك كلّه لم يكن يهمّني أبداً. كنت أريد فقط أن أقول له، لماذا لم يخبرني عن مقتل أمّي وأخي وحنا قبل الخروج؟ لماذا تركني داخل وهم بطولي، هو إنقاذه من موت مؤكّد؟ مشكلتي أنّي كنت أعرف كلّ إجاباته. ومع ذلك سألته:

ـ ألم يكن من الممكن أن تفصح لي بالحقيقة قبل سفري، على الأقلّ بين وبينك؟ كنت زرت قبر أمّي وبكيت عليها يومًا كاملاً، فهي تستحقّ منّي ذلك على الأقل؟ كان يمكن أن أعيش حدادي، ولو في الخوف ورعشة الفقدان. لم أكن صغيرة يا بابا حسن . تصوّر، صبيّة تختار أن ترافق والدها لتحفظه من أيّ مكروه وتترك بيتها وأمّها الحامل وأصدقاءها، فقط لإنقاذ والدها، هل بقي فيها شيء من الطفولة؟ الصبي هو من يظنّ ذلك. الأحداث التي عشناها سرقت منّا طفولتنا وعلينا أن نتعلّم كيف نرمّم الكسور فقط.

ـ لم أكن قادراً يا مي.

ـ لم أعد مي. قلت لك مي ماتت. التي أمامك لا اسم لها.

ـ طيِّب... كنت جريحًا ورأيت الموت، دخلت في طريقه، لولا الناس الذين أنقذوني. لم أكن أريد الخروج من بيروت بل بدأت أفكِّر كيف ألتحق من جديد بالكتيبة المغربيَّة وأدخل غمار الجهاد. أعرف الكثير من الضبّاط الكبار، وكان بإمكانهم أن يضعوني حيث تكون مقاومتي مفيدة لاسترجاع الأرض. خرجت لأحفظك من تلف الموت المجاني الذي لم نورِّث غيره للأجيال المتعاقبة. هذا كان وعدي لأمّك. منذ أن خرجت من تلك الأرض، اعتبرت نفسي رجلاً ميتًا. لم أكن أعرف ما كان ينتظرني، ولكنِّي كنت أريد إنقاذك مثلما فعلتِ معي. كنَّا نقوم بالشيء نفسه، في الوقت نفسه، بدون أن يدري أحدنا بعمل الآخر. خالك أبو شادي ذكّرني بوعدي، فبكيت ليلة بكاملها. حياتي الخاصة لم تكن تهمّني كثيراً. أتركك وأخرج بدون أن ألتفت ورائي لكي لا أرى الدمعة في عينيك وأنهزم مرّة أخرى. هكذا كان يفعل الأجداد البربر عندما كانوا يخرجون من بيوتهم فجراً، ويبدو أنِّي أُصبت بعدواهم القاتلة. ولهذا أطلب منك أن تسامحيني، فليس لديّ وسيلة أخرى غير الكلمات. أمّا دنيا، فكلّ كلام القلب لا يوفّيها حتى ربع حقّها، وهي تعرف ذلك جيِّداً وتعرف كلّ ما أفكِّر فيه.

ـ يصعب يا بابا. جرحي مفتوح وكلّ لمسة صغيرة تزيد من أذاه. عليَّ أن أعيد الزمن إلى الوراء قليلاً وأتوقَّف عند تلك الصورة، عند طانت جينا وخالي أبو شادي وهو يدخل علينا على غير عادته، بدون أن يدقّ على الباب، ويقنعني بضرورة إنقاذ والدي الجريح في بيروت. عندما طلبت منه أن أودِّع أمّي على الأقل، قال لي هو وطانت

جينا التي كان قد أقنعها: أنت تعرفين أنَّ القطار لا ينتظر طويلاً، ثم أنَّ أمك معها العائلة، أمّا والدك فهو بين الحياة والموت وقد لا تلحقين عليه حيًّا، وعلينا أن نخرجه من البلاد ولا أحد يملك هذه القوّة غيرك. واقتنعت يا بابا بضرورة إنقاذك وتهريبك والعودة بعد ذلك لأمّي، حبيبتي لأعتذر منها. كنت أعرف سلفًا أنَّها ستغفر لي عندما تعرف بأنِّي كنت بصحبتك. أريد أن أوقف الزمن في حدود هذه اللحظة، وعندما يدخل خالي أبو شادي بالطريقة نفسها ويطلب منِّي أن أرافقه، أقول له: لا. لن أرحل قبل رؤية أمّي. هذا قراري الأوّل والأخير. بابا كبير، وسيعرف كيف ينقذ نفسه وله أصدقاء قادرون على فعل ذلك. يصرّ خالي، فأصرّ بدوري: أمّي لن أتركها وحدها. أخجل عندما أحسّ أنِّي ربما مشيت في جنازتها يومها، وترحّمت عليها، ودعوت لها بالرحمة وأنا لا أعرف أنَّها جنازة أمّي. لو يعود هذا الشريط، سأنسى كلّ شيء، وسأسامحك وسأقول معك، عفا اللّه عمّا سلف. عاجزة يا بابا أن أنظر إلى الأمام. كلَّما تشجَّعت ورفعت رأسي، ارتسم أمامي وجه أمّي مليئًا بالجروح، وصرخات حنا صفيَّة وبحّة أختي لينا التي أراها يوميًّا في الحلم بدون أن أتمكَّن من رؤية وجهها. فقد صارت ملامحها فارغة مثل الضباب منذ أن سمعت بخبر مقتل أمّي وأخي وحنا.

بدا لي بابا حسن مندهشًا من كلامي. وكان عاجزًا أن يعطيني أيّة إجابة. لأوّل مرّة يجد نفسه وجهًا لوجه أمام صبيَّة وليس أمام طفلة.

ـ أفهمك جيِّداً، ولكن كلّ ما لديّ قلته لك. ومع ذلك، فأنا أقترح عليك أن تذهبي معي وكلّ شيء سنحلّه بهدوء هناك. الزمن كفيل برتق الجروحات الأكثر عمقًا وتوغُّلاً في الجسد.

نظرت إلى عيني خالتي، كانتا منكسرتين. خرجتُ. لكنِّي كنت أعرف أنَّها تجلس عند الفجوة الفاصلة بين الصالون والمطبخ الأميركي الجميل.

قلت بوضوح لم يعترِه أيّ تردُّد:

ـ يا بابا حسن. أدرك اليوم أنَّنا نتشابه في الكثير من أمور الحياة، ونعرف الإجابات أحيانًا حتى قبل أن تصدر عنِّي وعنك. أنت قطعت آلاف الكيلومترات، من سياتل إلى نيويورك، فقط لتقول لي عودي، وكنت أظنّ أنَّك تملك ما يضمّد الجراحات المنفتحة أبداً عن آخرها. أن تحمل لي معك إجابات غير تلك التي سمعتها من الجميع. لا يا بابا، مامي، هذه المرأة الطيِّبة تضعني في عينيها، وعرفتْ كيف تعوّضني عن أمّي. اتّخذت قراري أن أبقى معها لآخر العمر. ليست لي أمّ أخرى يا بابا. لقد كبرتُ بين يديها في أقسى الظروف التي كنتَ أنتَ فيها تبحث عن عمل. كان يمكن أن تأخذني، وأتحمَّل معك كلّ شطط الدنيا، وأشعر أنِّي بقربك، وأعيش على وقع آلامك وأنفاسك. ولكنَّك لم تفعل. أنت سلكت طريقًا ظننت أنَّه المسلك الصحيح، وأنا أصبحتُ بين أيدٍ أشعر داخلها بأمان، لا أعتقد أنِّي سأشعر به وأنا معك. اعذرني يا بابا، أنا أفكِّر بصوت مسموع، ولم أعد قادرة على الاحتفاظ بجروحي صامتة. لا يا بابا، سأبقى في

بروكلين. لا أستطيع أن أبني حياتي من جديد، أنا عاجزة عن فعل ذلك. أنا متعبة جدًّا يا بابا. اعذرني... أرجوك اعذرني... كنت أتمنّى أن أكون الطفلة الصغيرة التي تركت وطنًا وأمًّا، فقط لتحرسك وتحميك، ولكنّ تلك الطفلة ماتت للأسف. أو قُتلتْ.

أحنى رأسه ولم يقل أيّة كلمة ودخل في نوبة من الصمت.

كان الصالون فارغًا إلا منّي ومن والدي ومن بقايا أنفاس مامي، التي شعرتُ بها تتقطّع كأنفاس الذي ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه. كنت أحسّ بآلامها حتى وهي غير موجودة. بتمزُّقاتها العميقة ودعواتها للهّ أن أبقى بجانبها، لا لأفيدها، فهي ليست بالحاجة الماسة إليَّ، ولكن لأنّي بكلّ بساطة كنت ابنتها الوحيدة، وأختها الصادقة التي لا تطمع في أيّ شيء من أموالها. كنت أمّها التي لم تشبع من عينيها وقلبها.

كان وجه بابا حسن رماديًّا. قام بتثاقل وكأنَّ جسده كان عالة عليه. ثم فتح النافذة وخرج نحو الحديقة، بعد أنَّ لفّ سيجارة من التبغ الرخيص، عرفته من رائحته. عادة العمال والفقراء في كلّ بقاع الدنيا. هذا وحده كان كافيًا ليعطيني صورة عن أوضاع والدي الصعبة. فضّلت أن لا أسأله، وأن أحتفظ برأيي لنفسي ما دمت قد قرَّرت البقاء في بروكلين.

فجأة وجدت نفسي وجهًا لوجه مع الصمت والفراغ.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الثلاثاء ٢٦ أكتوبر ١٩٩٩

عندما ينتظرنا الموت على العتبات، تتغيّر العلاقة مع الزمن، ويتقلّص كلّ شيء، حتى أجسادنا. يضيق الزمن ويتكثّف، ويصبح ثميناً إلى أقصى الحدود. هذا ما أشعر به كلّما تذكّرتُ الموت.

بعد العلاج الكيمياويّ الموجّه لسرطان الرئة لتضييق مساحة انتشاره، بقيت في حالة أفازيا كاملة، مشدوهة، لمدّة يومين، أنظر إلى بياض السقف وأحلم أنّ أملأه بالألوان كما كان يفعل رفايلو داخل الكنائس والمعابد القديمة. أو أخربش قليلاً بعض الخطط للوحات في الأفق. أو بكلّ بساطة، أمشي قليلاً في حديقة المستشفى، وأرقب الطيور التي تبحث عن أعشاشها كلّما توقّفت الأمطار الخريفيّة الباردة عن السقوط.

شيء جديد كان يغلي في دماغي غير واضح المعالم. لم أفلح في أن أرتاح هذا الصباح كما سبق أن صمّمت ووعدت الطبيب هيرفي كروث ويوبا اللذين عاتباني على المبالغة في عملي، وإصراري على احترام الموعد ونسيان أنّي مريضة، وأحتاج إلى بعض الراحة لمواجهة صعوبة العلاج الكيميائي. عناديّة وميؤوس من إصلاحها، كانت مامي دنيا تقول لكونراد، ضاحكة من تعنّتي.

A Wolf in Sheep's Clothing[1] أسلاك شائكة، في عمقها لا تكاد قبة الصخرة تظهر، إلا قليلاً. على الحوافّ، أفواه ذئاب كثيرة، مفتوحة عن آخرها وكأنّها تعوي جوعًا وتنتظر مجيء الليل. شيء غامض في داخلي، هو الذي دفع بي إلى عنونتها بهذه التسمية التي كنت أشمّ فيها رائحة السخريّة. لا أدري لماذا؟ ربما لأنّي كنت أريد في أعماقي أن أنسى، دفعة واحدة، حرائق الموت وروائحها التي كانت تملأ كلّ الأمكنة بما في ذلك دماغي المنهك.

الغصّة التي كانت في الحلق انتفخت حتى كادت أن تخنقني. ولهذا كانت ألوان اللوحة داكنة، بما فيها النار التي كانت تقدح في العيون.

---

١ ـ **ذئب في هيئة حمل،** لوحة موجودة اليوم ببيت أحد الخواصّ. اشترتها سيّدة ثرية، من أصل فلسطيني، احتفظت بسريّة اسمها ولقبها. تعيش بنيويورك، وتملك غاليري خاصًا بالمقتنيات الشرقيّة العتيقة. وعدت أن تهديها لمتحف رام الله الجديد الذي هو الآن في طور الإنشاء. رقم الشراء المزادي في معرض نيوجيرسي: PC.WCCL.MKO /99-6754-PAL.

كـان الصـمت في بيت مـامي دنيـا يلـفّ كلّ شيء. ناداني بابا حسن بصوت به بحّة ثقيلة وكـأنّه يفعل ذلك للمرّة الأخيرة. لم يكن قادراً على تحمُّل ثقل الذاكرة لوحده. عندما صرت بجانبه، قال اقتربي أكثر. اقتربت. أكثر. اقتربت خطوة أخرى. نظر إلى عينيّ طويلاً ثم قبَّلني على جبهتي. شعرت بدفء القبلة، لكنَّ شيئًا ما فيها كان بارداً. موت أمّي وحده كان يشغلني، وكنت أريد أن أسمع ما يطفئ ناري. تماسكت حتى لا أنهار وأصرخ الصرخة الذي ظلّت مكتومة سنوات طويلة، ولم تخرج إلا عندما ذهب أبي وخرجت إلى الحديقة من جديد وعويت بأعلى صوتي: **يمّاااااااااااااااااااااااااا**... لقد انتهى كلّ شيء، ولم يكن بابا حسن قادراً على التمادي في كذبته. كانت عيناه مثل عيني ذئب مهزوم. كلماته الأولى بدت متلعثمة، قبل أن تستقيم:

ـ كما قلتُ لك... لم... لم... لم أكن مخيَّرًا أبدًا. كنت ممنوعًا من العودة إلى القدس. ستوكويل، القائد العسكري الإنجليزي، الذي ساعدني على الخروج، نصحني بالبقاء في بيروت. الإنجليز كانوا يريدون رأسي، وفرق الهاچاناه لا تتوانى عن ذبحي. جزء مهمّ من العائلة انسحب نحو الأحياء المسيحيَّة والجزء الآخر سار بلا وجهة، نحو الأردن أو الشام أو مخيّم نهر البارد، في لبنان...

ثم صمت قليلاً ليسترجع أنفاسه. شعرت بوجعه وبوجهه يزرورق مثل وجه المحتضر الذي يقاوم الموت الملتصق بحلقه. كان وهو يتحدَّث، يكزّ على أسنانه بصلابة وينظر إلى الفراغ لكي لا أعرف

الكذبة التي كان يتفادى كشفها أمامي. وهو يقسو على نفسه أكثر ممّا كان يقسو عليّ، كنت أشعر بأنَّه كان يخبِّئ شيئًا مفجعًا، كنت أشمّه بدون أن أتوصَّل إلى لمسه. مسح على وجهه كمن ينتهي من دعاء أو صلاة ثم تمتم:

ـ أستغفر اللّه. كلّ شيء كان ينذر بكارثة صارت اليوم مؤكّدة.

لم تقض معركة دير ياسين التي انتهت إلى مجزرة ٩ أفريل ولا سقوط حيفا، على روح المقاومة العربيَّة في القدس. فقد حاولتْ قوّات الهاچاناه استغلال ما حدث في دير ياسين لتعزيز قوّاتها المعزولة في جيب على جبل المشارف Scopus في القدس الشرقيَّة. بعد دير ياسين بأيام، أرسلت الهاچاناه إلى جبل المشارف، وعبر حيّ الشيخ جرّاح العربي، قافلة مكوَّنة من عشر مركبات: باصات مصفّحة وسيّارات شحن محمَّلة بالمؤن وسيّارتي إسعاف ومصفّحتي حراسة. كان على متنها جميعها أكثر من مئة شخص. وكمن لها المقاومون، وكانت النتيجة، تدمير معظم الآليات وقتل ما لا يقل عن ٧٧ من ركابها واعتقال الباقين. لكنَّ القدس كانت مستهدفة بموجب الخطة (د) ووضع لها اسم يبوسي Jevussi وجعل توقيتها متزامنًا مع يافا. في ٢٣ أفريل، في اليوم الذي كنت أواجهُ فيه الموت في حيفا، كانت قوّات الهاچاناه والإرجون واشتيرن، تشنّ هجومًا عنيفًا على أربعة محاور: الأوّل شمالاً، في اتّجاه قرية صموئيل المشرفة على القدس بأسرها من أعاليها، وكذلك على طريق المواصلات بين القدس والشمال. والثاني من جبل المشارف جنوبًا، في اتجاه جبل الزيتون المشرف من الشرق

على البلدة القديمة، وعلى طريق المواصلات بين القدس وشرق الأردن. والثالث على حيّ الشيخ جرّاح، الواقع شمالي البلدة القديمة. والرابع جنوبًا من الأحياء اليهوديَّة الغربيَّة في اتّجاه أحد أهمّ الأحياء العربيَّة في القدس الغربيَّة، حيّ القطمون، تمهيداً لاحتلال سائر الأحياء العربيَّة فيها. الهجوم صُدَّ في المحورين الأول والثاني بقوّة وبالوسائل المتوفِّرة، وقد أبلى المجاهدون بلاء حسنًا وهذا ليس كلام نشرات، ونجح على المحور الثالث، إلا أنَّ القوات البريطانيَّة تدخَّلت وطردت القوات اليهوديَّة من الشيخ جرّاح لأنَّ هذا الحيّ العربي كان يقع على خطّ سيطرتها الرئيسيّ، عند انتهاء الانتداب. بينما في المحور الرابع، دارت أفظع المعارك التي انتهت في ٣٠ أفريل، لمصلحة الهاچاناه، إذ تمكَّنت القوات اليهوديَّة هذه المرّة من احتلال حيّ القطمون، ومنه انطلقت لاحتلال الأحياء العربيَّة.

بدا لي بعيداً في حديثه عمّا كنت أنتظره منه.

لم أشعر، ولا في أيّ لحظة، أنَّ حديثه كان يعنيني. لكنَّ حزنه كان كبيراً وصادقًا. لم أستطع كتم أنفاسي أطول ممّا فعلت. طرحت عليه سؤالاً، شعرت بسرعة ببلادته، وشعر هو في أعماقه بسخفه.

ـ طيِّب، وماذا فعل جيش الإنقاذ؟ ماذا فعلت الجيوش العربيَّة التي كانت تهدِّد بالهجوم الجماعي المدمِّر لليهود، وأخرجت الناس من بيوتها لتسهل لها مهمّة تحرير الأراضي الفلسطينيَّة المسلوبة؟

ـ لا شيء. تريدين أن تعرفي الحقيقة المرّة؟ فقد أخذ زمام الأمور يفلت من يد القيادة العربيَّة العامّة. العمداء المصريّون عقدوا آمالهم

على سلاح الجو، ولكنَّ الطائرات التي أرسلت في النصف الثاني من شهر ماي، فشلت في أداء معظم مهامّها باستثناء غاراتها على تل أبيب. أداء الجيش السوري لم يكن أفضل. بعد الهدنة الأولى، عادت الجيوش العربيَّة إلى أراضيها. الفيلق العربي اكتفى بالدفاع عن الضفّة الغربيَّة التي اعتقد الملك عبد اللّه أنَّها يجب أن تكون حصّته من الغنيمة، في مقابل عدم دخوله المناطق التي عقدت الحركة الصهيونيَّة العزم على جعلها جزءاً من الدولة اليهوديَّة. وقد احترم الملك وعده حتى نهاية الحرب. الإنجليز لم يفعلوا الشيء الكثير لإيقاف المجزرة. فقد سمحوا للهاچاناه والبلماح في القدس، بحشد القوى الضخمة على حدود التماسّ وخارج الأسوار. صرنا نعرف بما لا يدع مجالاً للشكّ أنَّ المرحلة الثانية، كيلشون Kilishon أي عمليَّة المذراة ذات الأسنّة الثلاثة، يتم التحضير لها بقوة وهي أخطر من الأولى. وقد وصلت الأخبار للهيئة العليا للدفاع، أنَّ القوات اليهوديَّة كانت موزَّعة على ثلاثة محاور: محور الشيخ جرّاح، وهو ما يقطع عرب القدس عن الشمال وإحكام حصار البلدة القديمة، المحور الثاني يمسّ كلّ المناطق المؤمّنة من طرف الإنجليز، والمحور الثالث في اتّجاه سائر الأحياء العربيَّة في القدس الغربيَّة، وأهمّها البقعة الفوقا والبقعة التحتا والطالبيَّة. لم نكن نملك وسائل دفاعيَّة كثيرة، وكان لنا في الأسوار القديمة حصن حقيقيّ قد يسمح بالمقاومة حتى وصول الجيوش العربيَّة، وإلا فالمنطقة العربيَّة لن تقاوم أكثر من أسبوع، وفي أحسن الأحوال. الحماية كانت ما تزال إنجليزيَّة، لكنَّ الذي حدث بيّن عن تواطؤ مفضوح بين اليهود والإنجليز، خصوصاً بعد نهاية الانتداب في ١٥ ماي ١٩٤٨.

« ـ يا بابا يكفي... يكفي أرجوك ما بدّي أسمع هالحديث. تعبت من الحروب التي سرقت أمّي وخيّي وأختي وحنا وأخوالي... وطفولتي».

كدت أصرخ، ولكنّي هذه المرّة كذلك تمالكت صبري. كان أبي يتحدَّث بصوت أبحّ، كان يأتيني خافتًا وكأنَّه يأتي من بئر أو من قبر.

ـ بابا... أريد أن أعرف شيئًا آخر... غير هذا... أرجوك.

كنت أريد أن أعرف ماذا حدث لأمّي. لم يكن أبي قادراً على الإجابة مباشرة. هذه المرّة، وربما كانت الوحيدة والأخيرة، التي زمّ فيها أسنانه وقدم لي قصاصة صحفيَّة مؤرخة في ١٠ أفريل ١٩٤٨، جلبها معه وكأنَّه كان يعرف طبيعة أسئلتي.

ـ من حقِّك أن تعرفي التفاصيل. كنتِ صغيرة، ولم أكن أريد أن أكسر حياتك. فقد كنتِ هشّة إلى أقصى الحدود.

ـ وتظنّ يا أبي أنّي شُفيت من هشاشتي؟ لقد زاد الضرّ وأصبح الآن ينهشني من الداخل. أنت لم تختر أحسن الحلول يا أبي. لو ضممتني إلى صدرك، وحكيتَ لي الحقيقة كلّها في وقتها، لاستطعت أن ألملم جراحاتي وأعيش حدادي بقدر وأترك البقيَّة للحياة، ولكنَّك سرقتَ منّي كلّ هذه السنوات وعليّ أن أملأها نحيبًا وندبًا.

ذهبت عيناي باتجاه الكاتب: Dana Adams Schmidt، ثم نحو العنوان الكبير الذي احتلّ بالأسود العريض، الجزء الأيمن من جانبها

العلوي: ٢٠٠ Arabs Killed Stronghold Taken، كتب تحتها كذلك بحرف أقل بروزاً: Irgun and Stern Groups Unite to Win Deir Yacin - Kastel Is recaptured by Haganah. داخل المقالة شدني مربع صغير كتب بحروف صغيرة، كان عنوانه: [**الهاچاناه تعتدي على عائلة الحسيني. ثم ببنط أقل عرضاً: مقتل الزوجة الحامل والأم وحرق البيت، وسيِّدة مسيحيَّة تنقذ الابنة بأعجوبة**]. في اللحظة نفسها ارتعش كلّ شيء فيَّ، ولم أعد قادرة على التماسك، وضاق تنفّسي فجأة، وزادت دقّات القلب حتى خلته سينفجر. انزلقت عيناي مباشرة نحو بقيَّة النصّ الموجود داخل المربع الصغير المجلّل بالسواد [**القدس. حارة المغاربة. البارحة ليلاً وكعادتها، هاجمت مجموعات من فرق الهاچاناه بيت عائلة الحسيني العريقة بحثاً عن أحد الأفراد المقاومين. ولكنَّهم لم يجدوا إلا الزوجة التي رفضت دخولهم، وقاومت غطرستهم. وعندما تدخَّلت الأمّ بالوسائل التي توفَّرت لها لحماية كنّتها، أطلق عليها أحد عساكر الهاچاناه النار، بينما صعدت زوجة الابن إلى الطابق العلوي. وعندما اقتربوا منها رمت بنفسها من الأعالي. وكانت حاملاً في شهرها السابع. أمّا ابنتها الصغيرة والوحيدة، فقد قضت الليلة عند عائلة مسيحيَّة قامت برعايتها رعاية تامّة وحمتها من موت مؤكَّد**].

عندما فتحت عيني، كان والدي غائباً. كم اشتهيت أن أعانقه وأبكي في أحضانه ولكنِّي لم أستطع فعل ذلك أبداً. تدحرجت في حديقة البيت وسقطت. عندما أفقت من دوختي وسألت عنه، قالت لي خالتي دنيا: لقد ذهب لأنَّه لم يعد لديه ما يحكيه.

ـ كيف يذهب ويتركني في هذا الوضع؟ ألم يكفه أنَّه دمّرني بصمته وتلفيقه؟ ألم يكفِ تواطؤه مع الجميع، لكي يتمّ رميي في هذه المدينة كأيّ حيوان فُصل عن أمه؟

ـ لا تقولي هذا الكلام يا بنتي. أنت في قلبي.

ـ لولاك يا خالتي لأُصبت بجنون أكيد.

وبكيت حتى تقيّأت قلبي.

الزمن الذي كان يفصل بيننا كان واسعًا كالهوّة القاتلة.

في ذلك اليوم خرج أبي ولم يعد. وزاد اضمحلاله فيَّ. اشتهيت لو عادت تلك السفينة الثقيلة مرّة أخرى وأخذتني من ضمن ركّابها العائدين. لن أسألها عن شيء، فقط أغمض عيني ولا أسمع إلا صوت المضيف وهو يبشّرنا بوصولنا سالمين إلى أرضي الهاربة.

تدحرجت نحو سرير مامي ونمت في أحضانها. شممت رائحة أمّي ونسيت رائحة والدي. حتى رائحة الدخان القويَّة لم أشمّها في أواخر تلك الليلة. تمتمت مامي دنيا في أذني وهي تقبّلني على جبهتي:

ـ كلّ شيء سيصلح عندما تكبرين. أنا أسعد إنسانة أنَّك بقيتِ معي. لا تدرين ماذا تمثِّلين بالنسبة لي؟ أنت صرتِ كلّ شيء في حياتي. وكلّ يوم يزداد يقيني بأنَّك ملاك بعثه لي اللّه على جناح المآسي والخيبة.

أدخلت رأسي عميقًا في صدرها. شعرت براحة كبيرة. مامي أدركت من تلقاء نفسها أنِّي كنت أريد أن أنام، وأنِّي داخليًّا كنت متعبة وممزَّقة إلى ملايين الأجزاء، وكنت أحتاج إلى غفوة حقيقية لأتمكَّن من تجميعها جزءًا، جزءًا. أدخلت أصابعها في رأسي وبدأت تحكّ بنعومة. شعرت بلذّة كبيرة قادتني بسرعة إلى عمق عينيْ يمّا ميرا اللتين أراهما لأول مرة تضحكان وسعيدتين.

على هذا الألم بُنيتْ كلّ علاقتي الصعبة مع والدي. لا أنا استطعت أن أنساه نهائيًّا وأعتبره في عداد الأموات الذين خرجوا نهائيًّا من حياتي، ولا هو استطاع أن يتركني نهائيًّا لشأني، فحافظ على ذلك الخيط الحادّ والرقيق. كنت أجد له الأعذار، ولكن بيني وبين نفسي كنت أثقله بالتهم. أعرف جيِّدًا أنَّه كان يشتاق إلى حضوري، ولكنَّه يكابر باستمرار، حتى مضى العمر ولم نشبع من وجوهنا المنهكة.

كان للهوّة التي بيننا اسم أو أسماء لا يمكن تجاوزها أو القفز عليها: يمّا ميرا، أختي لينا، خيِّي عليان وحنا الطيِّبة، وكذبة قاسية سطَّرت كلّ حياتي، لم أستطع أن أغفرها له. يبدو أنَّها مصدر الألم القاسي الذي سيصاحبني حتى المحرقة، قبل أن يتحوَّل كلّ شيء فيَّ إلى مجرّد غبار وذرّات من رماد الحرائق والأيّام.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

السبت ٣٠ أكتوبر ١٩٩٩

صار وقتي مقسَّمًا بانضباط ودقّة.

لم أجد صعوبة في التآلف مع كلّ المستجدات. فقد صمّمت أن أعتبر مساعدة مامي، والوقوف بجانبها في عملها، جزءاً من عملي اليومي. لم تطلب منّي ذلك ولكنّي كنت في حاجة إلى أن أخفّف عنها همّ الحياة الذي كانت تحمله على ظهرها لوحدها. في الصباح أدرس دراستي العادية، وبعد الظهر أذهب إلى معهد الفنون الجميلة لبروكلين، ومساء، أتحمّل جزءاً من مسؤوليَّة تسيير المطعم الذي صار ملتقى للكثير من الفنّانين. الاتّصالات، والقضايا الإداريَّة التي لا تجد لها مامي دنيا وقتًا، كنت أنا أتولّى أمرها. كثيراً ما كنت أتعب، ولكنّي كنت أفعل ذلك كلّه بلذّة كبيرة. سوء العلاقة بين مامي وأختيها، زاد من مسؤوليّاتي. خالتاي ماجدة وسارة كانتا تريدان مطعمًا تقليديًّا بلا

روح، وتملآن فراغات التهوية بمزيد من الطاولات والكراسي لأنَّ الطلب كان يتزايد بقوّة. كان لمامي رأي آخر متأتّ من حساسيتها الفنيَّة، وهي التي أعطت للمطعم كلّ هذا الرواج. لم أقل هذا أبداً لمامي دنيــا، ولكنِّي كنت أشعر ببعض الغباء في اقتراحات أختيها، بل وأنانيَّة لا توصف، وذوق ريفيّ خشن وجشع لا علاقة له بالفنّ.

صارحتني مامي بما كنت أحسّ به ولا أراه:

ـ تصوَّري يا بنتي؟ ماجدة وسارة تريدان طرد لودميلا، يعني طردي، وإضافة طاولات بالمطعم. بالعربي الفصيح إزالة البيانو القديم من مكانه، وإلغاء معرض اللوحات. رأي واحد يجمع بينهم، هما وزوجاهما، وجوب توسيع المطعم، لأنَّه لم يعد يستوعب الزبائن الذين تكاثروا عليه. بالنسبة إليهم، يجب استغلال المكان الضائع، وكأنَّنا في مقهى مقدسي شعبي، أو في سوق الحميديَّة بالشام، أو في حي سوق ساروجا. أفهمتهم أنَّ الشعبي شعبي، وما أريده، شيء آخر. ولكنَّهم رفضوا بصوت واحد. استطعت فيما بعد أن أقنع سارة بدون زوجها. اضطررت في النهاية إلى تذكير الجميع بأنِّي المالك الأساسي للمطعم، ولا أقبل النقاش في مثل هذه الموضوعات، وأسدلت الستار. تصوَّري الجشع، أنا من أغراهما بالاستثمار في المطاعم الشرقيَّة وفي الأخير... أما عن البيانو ـ بار، فقد ضحكت طويلاً، لأنَّهم لا يعرفون أنَّ المطعم بطوله وعرضه، لا يساوي لحظة واحدة أجلس فيها وأعزف غوستاف ماهلر، أو هكتور برليوز، أو فرانتز شوبرت، أو موزارت، أو شوبان، أو بيزت، أو جون سيباستيان باخ، أو فاغنر، أو فيفالدي، أو فردي،

وغيرهم... ولا بديل لي عن لودميلا، أصابع ملاك، ولا تطمع في أيّ شيء. حالها حالي، رمتها الظروف على جسر بروكلين، بينما كانت في بلدها نجمة أوبّرا موسكو. سأدافع عن حقّك حتى موتي، وبعدها أتمنّى أن تكون الأمور قارّة ولا أورثك مشكلة لا تنتهي أبداً. لودميلا جميلة، ويحبّ عزفها روّاد المطعم، خصوصًا عندما أكون متعبة أو أضطرّ إلى التغيُّب أو رغبتي قليلة في العزف، ثم هي صديقتي وحبيبتي، وتحبّك جدًّا. ماجدة وسارة واقعتان تحت تأثير زوجيهما، ولا سلطان لي عليهما.

ـ مامي، غير معقول. إذا أردت أن أترك الدراسة والمدرسة الفنيَّة، وأتفرّغ للعمل معك، سأفعل.

ـ إلاَّ ذي، لا. مجنونة؟ أنا أرفض ذلك. مازلتُ قادرة على فعل كل شيء وحدي. مساعدتك لي في الحياة الفنيَّة للمطعم مهمّة، فهي تعطي للمطعم نكهة خاصّة. لقد أصبح المطعم جميلاً ومريحًا، وعليه لمستك، وأنا مرتاحة لذلك. منذ أن دخلته، تحوَّل إلى غاليري جميل ومطعم. على الأقلّ إذا لم أحقِّق حلم الأوبّرا، فأنا أحقِّقه معك بطريقة أخرى. لا يا روحي، خلّيك حيث أنتِ، أنا سعيدة جدًّا.

ـ خالتاي تخطئان إذ تظنّان أنَّ الذي يأتي بالناس إلى هذا المكان هو الأكل الشرقي فقط، المسألة أعقد من ذلك. الذين يزورون هذا المطعم بالذات لا يأتون فقط للأكل والشرب، ولكنْ للتمتع بالموسيقى والتجوُّل عبر المعرض الفنّي. للشرق رائحة يريدون أن يعثروا عليها في الألوان والوجوه واللغة. ولا أدري ما جدوى توقيف ذلك، فهو مهمّ

بالنسبة لحياة الحي الذي نعيش فيه. بيْع المعروضات وحده يغطّي أحيانًا نفقات المطعم السنويَّة وأقساط الضرائب؟ ربما تحتاجان إلى جلسة يتمّ فيها تبيين ذلك كلّه لهما. أشعر كأنَّ هناك سوء تفاهم؟

ـ لا. المخّ عندما ينغلق، كلّ شيء يطير في الهواء. كانتا مملوءتين بالنور عندما دخلتا إلى نيويورك. بعد سنوات، وضعتا الحجاب وتريدان الآن الانعزال في البيت، وتطلبان منّي أن أوقف البيانو ـ بار. عمل مثل هذا، في ظنّهما، معطى للرجال وليس للنساء. سمحتا لزوجين غبيّين أن يتصرَّفا في حياتهما. لا أريد أن أتدخَّل كثيراً، وإلا ستلصق بظهري تهمة الغيرة. لو كنت أريد أزاوجًا من هذه الشاكلة، لملأت لهم هذا البيت في ساعة واحدة. الحريَّة يا ابنتي شيء مقدَّس في حياة الإنسان. ثم إنَّنا لا نعيش إلا مرّة واحدة، وبعدها نسلّم المفاتيح لغيرنا. لتفعلا ما تريدان بحياتهما، أما المطعم، فهذا من مسؤوليتي ومسؤوليتك، الآن ومستقبلاً.

لم أعلّق. كنت أعرف أنَّ مامي دنيا عندما تتَّخذ قراراً لا تتراجع أبداً. علّمتها الحياة أن تكون صارمة في الوقت الذي يجب أن تكون فيه كذلك.

خفّفت عن خالتي دنيا الكثير من الأعباء الفنيَّة. كنت أقوم بكلّ ما يتعلّق بالاتّصالات الخارجيَّة. أتّصل بالفنّانين مباشرة، وأنظّم المعارض وأحيانًا عندما يزور نيويورك فنّان صيني أو عربي أو إيراني أو أوروبي أعرفه، أدعوه للعرض في مطعمنا لمدة أسبوع أو أسبوعين، مع إمكانيَّة بيع معروضاته طبعًا. مع الوقت، صار الناس يأتون باتّجاهنا،

وكان عليَّ أن أجد الأوقات والمساحات اللازمة للعرض. وجود المطعم الشرقي، جنوب المدينة، في **أطلنتك أفنيو**(١) وإشرافه على ساحتَي الغاردن بلاص، وسيدني بلاص المعشّقتين بالأشجار الجميلة والظلال الزاحفة نحو البيوت، أهَّله لهذا الاهتمام الزائد به. لقد غيَّرت كثيراً في مظهر المطعم بدون أن أمسّ نظامه. القاعات الثلاث التي يتشكَّل منها، صارت أكثر إشراقًا وانفتاحًا على بعضها البعض. حتى صالة استقبال الشخصيّات الاستثنائيَّة في المدينة وخارجها الـ VIP، غيَّر من وجه المطعم وأصبحت تُعرض فيه حتى المجوهرات النادرة والتحف المعروضة للبيع. هذا أعطى قوّة أخرى للمطعم. زارنا رجال كبار، وممثّلون مشهورون وكتّاب معروفون، ورئيس بلديَّة المقاطعة، ومدير الأوبّرا، ورجل الإشهار الكبير غويسبي ألفونسو Guiseppe، الإيطالي الأصل، الذي كان مرفوقًا بشاب طيّب، وخفيف الروح من أصل ألماني، اسمه كونراد. قضينا الأمسيَّة في المطعم حتى الساعات الأولى من الصباح. وجدت فيما كان يقوم به كونراد كباحث أنثروبولوجي، شيئًا خارقًا ومغريًا لعرضه. علاقته بالشرق كانت متينة، ويعرف أكثر من عشر لغات، من بينها العربيَّة. اقترحت عليه أن يعرض مقتنياته التي جاء بها من أغوار الأردن. كانت المرّة الأولى التي أراه فيها.

١ ـ من مقتنيات متحف بروكلين للفنون. مصنَّفة تحت رقم: .BMA.SK/6709 عبارة عن لوحة كبيرة يظهر فيها شارع الأطلنتك واسعًا، ومحاطًا بساحتي الغاردن بلاص وسيدني بلاص المليئتين بالعشّاق، بألبسة ذات ألوان فاتحة. الناس يتحرَّكون في داخله، بوجوه واضحة، سرعان ما تتحوَّل إلى نقاط سوداء في الخلفية، كلَّما تمادى البصر نحو الأفق البعيد. رقم الشراء المزادي: /BMAM.ATL.AVN/MAKON .9870&345D

أعجبتني بوهيميّته الكبيرة وانغماسه في عمله. في اليوم الموالي جاءني بقرابة المائة قطعة أثريَّة يملك عليها تصاريح بالشراء. تركها وذهب ولم يطلب منّي أيّ وصل. فيما بعد، عندما سألته، بعد غياب دام أكثر من شهر في الشرق الأقصى:

ـ ألم تخف أن أسرق لك كلّ هذه الكنوز؟

ـ يا ريت، كنت خلّصتني منها. لا... لا... لا تأخذيني بجدّيَّة. ثقتي كبيرة فيك. كنت أخشى أن أكون أنا المخيف. رجل بدائي، بين يدي فنّانة ناعمة؟ أيّ حظّ هذا؟

ـ أنا أحكي بجدّ سيّد كونراد؟

ـ أولاً ناديني كوني، أخفّ عليك وعليَّ، ثم، لا تخافي عليَّ، فأنا لا أترك أغراضي في أيّ مكان. أعرف الناس من عيونهم. ومطعمكم صار على كلّ لسان في بروكلين.

لا أدري إذا كان يومها جادًّا، أم كان يمزح، لكنّه سحرني بالفوضى التي كان يعيشها، وأشعرني في لحظة من اللحظات، بقيمتي في عينيه.

بعد أيّام، ساعدته كثيراً على تنظيم المعرض في المطعم.

أقنعت خالتي التي وضعت قضيَّة تنظيم المعرض كلّها بيدي، أنَّ هذا الرجل استثنائي، وأنَّ معرضه سيدعم المطعم ويفتح أعين البشر على أنَّ شرقًا جميلاً مدفونًا تحت الأرض لا يعرفونه.

كان روّاد المطعم يأكلون، وفي الوقت نفسه يتفحّصون التحف النادرة التي سعيت أن توضع في علب زجاجيَّة ثبّتت في ممرّات مواجهة للطاولات، حتى يتمكَّن الجميع من رؤيتها أو التقرُّب منها. كانت التجربة ناجحة. فقد باع كوني كلّ معروضاته التي قدمها. لا أدري لماذا بذلت ذلك المجهود الاستثنائي الذي لم أبذله مع غيره. كان قريبًا منِّي. اعتذر لي عن فوضاه التي لم يجد وسيلة لتنظيمها.

ـ سعيد جدًّا. لم يكن بذهني هذا. كنت أنوي فقط عرض هذه الموادّ التي أعجبتني، واقتسام الأحاسيس الجميلة مع الزوّار. اشتريتها على هامش عملي الأنثروبولوجي. أنا أشكرك يا مي. اعذريني عن فوضاي، أنا هكذا، عندما أثق في شخص لا أسأل عن البقيَّة. كنت أعرف مسبقًا أنّ تحفي بين أيد أمينة.

ـ مع ذلك، الحذر القليل لا يؤذي أحداً.

ـ معك حقّ. أحتاج إلى امرأة مثلك لكي أعيد تنظيم حياتي كليًّا.

قالها ضاحكًا، ومضى، ولكن الكلمة ظلّت تحفر في أعماقي.

كان حسّاسًا ورائعًا، ولكنَّه كان مجنونًا قليلاً، ولهذا لم أجد صعوبة كبيرة في الاطمئنان إليه وحبّه.

دعاني في مرّة من المرّات، وهو خائف من رفضي له ولهبله، ولم يكن يدري أنَّ الجنّي الذي كان في أعماقي مدفونًا، كان أكثر جنونًا منه. زرته في بيته، في مانهاتن، في ليتل ـ إيطالي. اكتشفت بالفعل،

رجلاً منسجماً مع فوضاه وهبله. شرّبني قهوة، احترقت على النار. ثم اقترح عليّ بيرة ونسينا القهوة الغريبة. اعتذر:

ـ أنت مع رجل بدائي، لا يدخل إلى هذا الجحر إلا لينام قليلاً.

لم يقل كوني يومًا شيئًا لم ألحظه في حياته. كان منسجمًا مع قناعاته وثقافته إلى أقصى الحدود. تكرّرت الزيارات، ونشأت بيننا علاقة جميلة، كلّما تذكّرتها، اهتزّت مشاعري. ذهب ولكنّه لم يخرج من حياتي أبداً. على الرغم من فوضاه، فقد كان بيته في ليتل ـ إيطالي رائعًا من حيث الموقع والاتّساع، ولكنّه كان مكدّسًا بالتحف والأواني والأغراض المتنوّعة والأفرشة الشرقيّة. طلب رأيي، ذات مرّة، إذا كان من الممكن تغيير مظهر البيت فقد صارت الفوضى تقلقه. فكّرت طويلاً قبل أن أقترح عليه مخطّطًا وضعته بين يديه ولا أعتقد أنّه تفحّصه. وضعه في جيبه وقال أنا موافق. سأسافر إلى البحرين للبحث في سرّ المدافن الكثيرة التي تمتلئ بها حوافّ المنامة، وعندما أعود أجد كلّ شيء قد تغيّر. قلت له إنّها حرفتي وعملي.

عندما عاد لم يعرف داخل بيته. وقّع شيكًا مقابل العمل ووضعه في عمق كفّي. أرجعته له وأنا منزعجة:

ـ لا. أنت ترشي قلبي. قمت بذلك من قلبي.

ـ ولكنّك شغّلت عمّالاً كثيرين.

ـ ليس شيئًا خارقًا. أقول لك إنّك منحتني فرصة للسعادة.

ولكونه كان مهبولاً رائعًا، لم أنزعج منه عندما هممت بالخروج وطلب منّي طلبًا غريبًا:

ـ هل تسمحين لي بأن أطلب منك شيئًا آخر؟

ـ اطلب، ولكن هذه المرّة سيكون الثمن غاليًا.

طبعًا لم أكن أعرف بما كان سيفاجئني به كعادته.

ـ أقبل أيّ ثمن. هل تقبلين الزواج من مهبول اسمه كونراد، من أب من أصل جرماني، وجدّ مستشرق شغل كلّ عمره على حوافّ برلين، يفلّي أسرار ألف ليلة وليلة وترجمتها، وأمّ من أصل إيطالي، أعتقد أنَّ كلّ جنوني متأتٍ من حماقاتها الجميلة.

صمت قليلاً، ثم أضاف بسخريته المعهودة.

ـ وهذا المخلوق البدائي الذي أمامك، يعدك بأنَّه سيتحضّر وسيصبح أعقل رجل في الدنيا... ما رأيك؟

ظننت أنَّه لم يكن جادًّا كالعادة.

ـ وإذا لم أقبل؟

ـ سأحزن كثيراً وربما سأنتحر. أمزح... سنبقى أصدقاء طبعًا.

ـ إذا كنت ستنتحر وتحزن، سأقبل. ولكن الآن لديّ موعد مع مامي دنيا، فهي تنتظرني على أحرّ من الجمر لكي أنبِّئها بالخبر السعيد.

كنت أظنّه بالفعل يمزح. لكنَّه في ليلة السبت دعاني إلى مانهاتن، قال عندما رآني: كنت خائفًا أن لا تأتي. وطار بي نحو

مطعمه المفضّل ذو كمبنغ روم كوفي(١) بمنطقة سوهو(٢). كان المكان جميلاً ومليئًا بالحياة وموسيقى الجاز، وقاعته الآجرّيَّة تعطي الإحساس بالبساطة والراحة. كان كوني مجنونًا على الجاز. بعدما تعشّينا، ودخلنا في دوخة الويسكي والجاز، أفهمني عن جدّيّته فيما قاله لي. عندما ذكرت المقترح أمام مامي، لم تصدِّق ما سمعته مني ولكنَّها سألتني سؤالاً واحداً وهي لا تستطيع أن تكتم سعادتها الخفيَّة:

ـ وأنت، هل تحبّينه؟ تقولين إنَّه مهبول، رائع ومدهش. هل تحبّينه؟ لا أريد منك أيّ تحليل ولا أيَّة فلسفة؟ إيه وإلا لا؟

ـ أيوه إيه يا مامي. أشعر بأنَّه قريب منِّي كثيراً وأنِّي تحت تأثير جاذبيّته المدهشة. لا أدري، أجد في فوضاه وعفويّته، شيئًا من الصدق.

ـ تعرفين، لو كان عمري أقلّ بقليل، ما كنت سألتك عن رأيك في كوني، كنت سرقته منك والسلام. إذا تركته يفلت من يديك، فأنت امرأة خائبة. اركضي ولا تلتفتي وراءك.

خالتي كلّ شيء تقلبه مزحًا، ولكنَّها شجّعتني على الذهاب نحوه، لأنَّها منذ اللحظة الأولى شعرت بصدقه واتّساع روحه وجنونه الجميل.

أدخلني كوني بسرعة في عالم الجاز الذي كان يذهله ويشعر بعمق الأشياء فيه. كلّما عاد من سفرة من سفراته، قبل أن يدخل إلى البيت، يعطيني موعداً في باره المفضّل في مانهاتن أو في مطعمه في

١ ـ The Camping Room Café

٢ ـ SoHo

سوهو. هناك نلتقي، نشرب ونرقص حتى آخر الليل. نترك بعدها مهلة لبعض الجنون الذي لا يخفق إلا للأشياء المدهشة. هو من علّمني التدخين وتجاوز كأس الويسكي الثانية. فقد ربطني بمثل فرنسي حفظه عن ظهر قلب من أحد أصدقائه: Jamais deux, sans trois وعندما أنتقل إلى الكأس الثالثة، يصبح من الصعب عليّ العدّ بعد ذلك. كان دائمًا يشعل سيجارتين واحدة له وواحدة لي، كان يتركها تحترق لوحدها حتى تنتهي. مع الزمن عشقت عادته، وبدل أن أترك السيجارة تذوب في الفراغ، صرت أشاركه في التدخين. علّمني كيف أنقر الكأسين وعلّمته، بعد النقر، كيف يسرق من كأسي رشفة وكيف أسرق من كأسه رشفة. ثم فجأة صار كلّ شيء يأتي من كونراد لذيذًا. وعندما نعود إلى بيته في ليتل-إيطالي، الذي أكون قد هيّأته، يصبح كلّ شيء رقيقًا، وخفيفًا، وناعمًا إلى أقصى الدرجات. ما زلت أتذكّر عبثيّته الساخرة، ووشوشاته الجميلة في الفراش الدافئ:

- مي... اللّه يعينك على هذا الإنسان البدائي المليء بالأتربة وأدخنة التاريخ.

- وأنا أحب هذا البدائي المهبول، وليس في نيّتي أن أحضّره. هو جيّد كما هو، في طبيعته الأولى وفي عفويّته الرائعة.

نضحك. نسخر من الدنيا وقصرها وأغيب في صدره وفي جسده. أضع كلّ حماقاتي العارية بين يديه وفمه وتفاصيله، ثم أنسى كلّ ما يحيط بي، ولا أتذكّر إلا ذلك اللون القزحي الذي يملأ عينيه عندما يفتحهما كالطفل وهو في قمّة انتشائه.

ـ ياه يا كوني، ما أحلاك وما أجمل النور الذي في عينيك.

كلّما دخلت في عمق الفراش مع كوني، تذكَّرت سعادة الألوان المتداخلة التي أراها في عينيه، والتي كانت تمنحني فرحًا عظيمًا. فقد عشت عليها زمنًا طويلاً قبل أن يأكله طين البحر الميت.

حتى عندما تزوَّجنا لم يكن كوني يقيم كثيرًا في نيويورك، ولهذا لم يكن له ثقل الزوج التقليدي. الفترات القليلة التي كنّا نقضيها مع بعض كانت كافية لأن تجعلني أسعد امرأة في الدنيا. أحزن عندما يعود إلى أدغاله وتربته الأولى في الأراضي المعزولة، ولكنِّي سرعان ما أبدأ في عدٍّ الأيام قبل عودته. أضحك من نفسي أحيانًا عندما أرى نفسي كبنيلوب، تنتظر عودة عوليسها الضائع.

هكذا كان ارتباطي بكوني، مجنون التربة والجاز ببساطة، وربما بسرعة كذلك. عندما أتذكَّر ما حدث لي معه، أشعر كأنَّ قدري كان مشدوداً إلى خيط رفيع من الجنون والألوان وموسيقى الجاز. وهكذا كان ولدي الأوّل، أجمل هديَّة في حياتي: يوبا.

يوبا حبيبي.

كنت في شهري الرابع بك. اتفقنا على اسم البنت: لينا. كنت أريد أن أجعل من تلك الغيمة التي فيَّ، طفلة حقيقيَّة من لحم ودم. أعجبه الاسم كثيراً. ثم قلت له: كيف نسمّيه إذا كان صبيًّا؟ فذكر لي قائمة، وذكرت له قائمة. كانت الأسماء طويلة وثقيلة في مجملها، ألمانيَّة، إيطاليَّة، لاتينيَّة، عربيَّة... كنت أحاول أن أجد اسمًا مشتركًا يسعده ويسعدني. تركنا حكاية الاسم، وذهبنا للسهرة الاعتياديَّة في

عمق مانهاتن. استمعنا إلى الجاز وكنّا سعداء. في منتصف السهرة، عندما كنت قد تجاوزت كأسي الثالثة ولم أعد قادرة على العد، سألني:

ـ هل وجدت اسماً؟

ـ طبعًا حبيبي. وجدته. الشرب والسيجارة والسعادة معك تدوّخ وتفتح شهيَّة الخلق.

لم أكن جادّة. كنت أسخر كما يفعل معي هو عادة. مع الوقت أصبت بعدواه، عدم أخذ أمور الحياة العامّة بصرامة وجديَّة فارغة لا معنى لها أمام سلطان الحياة. لم يكن في ذهني أيّ شيء. فجأة سمعت الفنّان يقدّم مقطوعته وهو يكرّر كلمة يوبا... يوبا... تذكَّرت بلاد أجدادي البربر، في بلاد المغرب، بدون أن أعرف بالضبط العلاقة... يوبا... كلّ شيء مرّ بسرعة ولم أكن مطلقًا جادّة ولا واعية أبداً لما كنت أقوله. كان ذلك كلّه من فرط سعادتي مع كوني. غرقت في كلمة يوبا طويلاً وتذكّرت ما قاله لي أخوالي ووالدي عن اسمي وقصّة جدّي الذي سجّلني بنشوة باسم مريم. لم يكن يوبا اسماً غريباً على ذاكرتي. استحضرته بسرعة وكأنَّه كان ينام في مكان معتم فيَّ، ولا يستيقظ إلاّ على وقع جنون لم أكن قادرة على فهمه. لست أدري إذا كان السكر هو السبب، ولكنِّي رأيت خالي غسان وهو يحكي ويتوقَّف من حين لآخر، لكي أستوعب، قبل أن يواصل: «يوبا... يوبا الثاني تحديداً، هو واحد من أجدادك البربر. هو ابن الملك البربري يوبا الأول الذي قهره الرومان. ولد في ٥٢ قبل الميلاد. وحكم من عاصمته

سيزاري[1] (شرشال) تحت وصاية رومانيَّة كثيراً ما تمرَّد عليها، وهو الذي تربّى في العزّ الروماني، في حماية أوكتافيا[2]، أخت الإمبراطور أوكتافيو[3] ومطلّقة مارك أنطوان[4]. اشترك يوبا الثاني في حملة الشرق بجانب أوكتافيو وكان بطلاً شجاعًا. وتزوّج بكيلوباترا سلينا[5]، ابنة ملكة مصر، كيلوباترا ومارك أنطوان، بعد أن قهرهما في حملة الشرق. ظلّ يوبا الثاني مرتبطًا باسم أجداده وببربريّته حتى موته. فهو من أشاع الثقافة والديمقراطيَّة على أرض كانت في طور التكوين وعرضة للتحوُّلات الكبرى، وترك نصوصًا كثيرة عن مختلف الفنون، خصوصًا الفن التشكيلي، وأساطير المنطقة والطبّ والمسرح والآداب...».

ـ ما هو هذا الاسم؟ قولي بسرعة...

سألني جادًّا، وهو يفرك يديه كالذي يستعدّ لرهان كبير.

ـ يوبا... يوبا كونراد ... أليس جميلاً؟ **Juba**.

شدَّدت على الكلمة الأخيرة. بقي مشدوهاً، واضعًا يده على فهمه، قبل أن يحضنني ويقبِّلني على مرأى من الزبائن الذين يعرفونه رجلاً متعقّلاً على الرغم من جنونه وهبله. حملني بين ذراعيه القويّتين وصرخ بأعلى صوته كالهنود الحمر وهم يستعدُّون لمعاركهم المصيريَّة:

---

١ ـ Cesarée (Cherchelle)

٢ ـ Octavie

٣ ـ Octavio

٤ ـ Marc Antoine

٥ ـ Cléopatre Céléné

ـ يوووووووه؟؟؟ لماذا لم أفكّر في الاسم قبل اليوم. ما أغباني. يوبا... يوبا كونراد، Juba Konrad... أجمل ما يمكن أن يفكّر فيه مخلوق استثنائي ومتوحّش مثلي. يوبا كوني ... ياه... بليسيمو... بليسيمو... بليسيمو... الدورة هذه عليَّ. وعليَّ وحدي ولن أقبل من أيّ واحد منكم أن يدفع سنتًا واحداً... هذه الأمسيَّة مهداة لحبيبي يوبا، القادم بعد شهور قليلة.

ثم طلب رفع الأنخاب على ابنه يوبا كوني. كنت غارقة في ضحكات ملأتني ولم أستطع مقاومتها. شعرت بنفسي خفيفة كالريشة. لم أسمع شيئًا إلا القهقهات والكؤوس وهي تُرفع عاليًا وتتناقر فيما بينها. وكوني لا يتوقّف عن ترديد: Juba Kony يوبا كوني ... يوبا كوني ... أيّ بهاء وأيّ سحر... يوبا... يوبا كوني.

في تلك اللحظة، في حالة سكري القصوى وسعادتي الكبيرة، تمنَّيت في أعماقي شيئًا واحداً، وطلبت من اللّه أن لا يخذلني في أمنيتي؛ فأنا في الحقيقة لم أطلب منه الشيء الكثير ولم أرهقه بشهواتي أبداً، فقد كنت دائمًا متواضعة وأطلب للآخرين أكثر ممّا أطلب لنفسي؛ أن يكون فقط المولود صبيًّا، لم يكن ذلك من أجلي ولكن من أجل مهبولي الرائع، كونراد. لم أر السعادة على وجهه مثلما رأيتها في تلك الليلة.

عند مخرج البار، كان الجوّ بارداً. شعرت برعشة غريبة انتابتني من شعر الرأس حتى أصابع القدم. فقد سرى في داخلي إحساس غريب بظلم لينا التي تصوَّرتها هي كذلك في بطني بعد أن تحوَّلت من مجرّد غيمة أو ضبابة هائمة، إلى سمسمة ثم حبّة قمح كما كانت تقول أمّي كلّما حملت، ثم إلى كائن حيّ. كانت لينا تنظر إليَّ بنوع

من الاستجداء. طلبت منها أن تتريَّث قليلاً ريثما يخرج يوبا وبعد عشرة أشهر بالضبط، سأطلب منها أن تأتي بنفس الفرحة والأنخاب، لترافق أخاها يوبا. ابتسمت بصعوبة قبل أن تندفن في نفس كومة الضباب التي خرجت منها لتعود إلى مكانها الذي كانت فيه دائمًا منذ أن أحببت كوني، في عمق رحمي المجروح.

كان ذلك حلمي وكنت جادّة.

لا أذكر أنِّي تمتمت، ولا أدري إذا ما كان كوني قد سمعني لأنَّه كان غارقًا في سعادته:

«حبيبتي يا لينا... ما أقسى أنانيّتي؟ اعذريني. أريد فقط أن أسعد كوني هذه المرّة، بعدها سأتفرَّغ لك وحدك. أنا كذلك أحبّك وأعرف أنَّك لن تؤاخذيني على هذا الطلب البسيط. تأخير مجيئك سنة أخرى لا يضرّك كثيراً، على العكس، ستكونين دلّوعة البيت وما فيه حدا يسترجي يزعلك. أخرب له بيته...».

فجأة، شعرت بها تتحرَّك في بطني وكأنَّها سمعتني، وتتحوَّل إلى غيمة بنفسجيَّة من جديد لتفسح المسالك ليوبا لكي يخرج قبلها وتستقرّ هي في زاوية صغيرة، في الجانب الأيمن من بطني. تتّخذ وضعًا جنينيًّا، ثم تضع رأسها على ركبتيها الناعمتين، وتحاول أن تنام. كنت أراها في كلّ تحوُّلاتها ولم أكن أحلم أبدًا. يحدث معي أن أرى الأشياء بعيون مفتوحة مثلما كنت أرى أختي لينا تختبئ وراء أشجار الزيتون والصفصاف وأنا أقبِّل خِفيةً يوسف.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الاثنين ١ نوفمبر ١٩٩٩

وسط هذا الصمت المتمادي في جبروته، لا سلاح لي سوى قلمي الذي بدأت علامات التعب ترهقه وتدفع به نحو زاوية الاستكانة، فرشاتي وألواني المائيَّة والزيتيَّة التي تتعالى وتنزل بالسرعة نفسها كراقصة باليه. أحاول أن أملأ هذا الخوف المتمادي في صمتي بشيء يشبهني ويختلف عنِّي في الوقت نفسه، لكي لا أستسلم.

بقدر ما أسعدتني ألوان **فراشات القدس**[١] الزهريَّة والبنفسجيَّة، وأنا أركض وراء سحرها الكبير، ورفرفة أجنحتها الهشّة

---

١ ـ واحدة من اللوحات التي رفضت مي وضعها في المزاد العلني الخيري في نيوجيرسي. احتفظت بها ضمن ممتلكاتها التي ورّثتها لابنها يوبا، لأنَّها تقول إنَّها تذكّرها بلحظة اكتشافها للونها الذي حملت سرّه معها ولم تفشه أبداً. كتب تحتها بخط ناعم: **اعذروني على أنانيتي الطفوليَّة، فهذا لوني وهذه هي ممتلكاتي. لم يبق من قدسي الأولى إلا هذا.** اللوحة مرقمة: PC.JERUS. MFQ.SK.000.

التي تطبعها مئات الدوائر الصغيرة، وأبحث في فجوات حيطان القدس العتيقة التي تظلّل فيها الفراشات عن أسرارها المدفونة، بقدر ما آلمتني **شرفات أورشليم**(١) التي استعصت على أصابعي وأحاسيسي فجأة، وغلّقت كلّ أبوابها في وجهي بحيث لم تترك أيّ ممرّ للنور. لم أجد في جريي المحموم وراء الألوان لا رائحة الياسمين، ولا مسك الليل الذي كان يملأ جنائنها ويغطّي شرفاتها الزاهية ودروبها الضيِّقة، ولا حيّي، حارة المغاربة الذي سُرِقتْ مساحاتُه وضُمَّتْ إلى حيطان الحي اليهودي القديمة، ولا وجه جينا الذي كان يحضر في شكل هالة تظلّل حزني وتمنحني بعض الراحة الداخليَّة، كلّما حملت الفرشاة وغرقت في ألواني المتداخلة التي رفضتُ دائمًا أن تكون مسطّحة وذات مستوى واحد. هناك دائمًا شيء خفيّ فينا هو الذي يصنع نظرتنا للأشياء، علينا أن نبحث عنه ونمنحه إشعاعًا خاصًّا. فالألوان هي نفَسُ الآلهة والأرواح الخفيَّة الطيِّبة. لم يبق من أثاثي الجميل الشيء الكثير إلا أوهام الشهوة الأولى التي تنهض كلّما أقدمت على شيء أحبّه. حاولت أن أنسى كلّ هذه الخيبات القاسية، وأذهب نحو الألوان الزهريَّة كما كان يفعل رودولف إرنست بألوانه المائيَّة كلّما اجتاحته عواصف الغربة والوحدة. كلّما ثقل الجوّ على صدري، أندفع مرّة أخرى نحو الرمادي، ويبقي اللون الزهري هامشيًّا. فالموت هو أسوأ خديعة، نسلّم بها، ولا نستطيع حيالها أيّ شيء. حتى المرض الخطير

---

١ ـ اللوحة اشتراها فلسطيني ثري من جنسيَّة نيوزلنديَّة. قدَّمها هدية لمتحف القدس الخاص الذي يتمّ إنشاؤه في الجهة الشرقيَّة من المدينة.. مرقَّمة تحت: PC.BALCONY JERUS/MK/067CC.

يمكن أن نحاربه، أن نمدّد قليلاً في العمر نكاية في طغيانه وسلطانه، لكنَّ الموت شيء آخر. ياه... كيف يتغيَّر الزمن دفعة واحدة؟ أين تلك المدينة المسروقة في غفلة اللّه والأنبياء؟ كانت شرفات القدس لا تغلق إلاّ يوم يُسمع خبرٌ مؤلمٌ لا يُمكن جبره. أو الموت. وعندما تُطوى الشبابيك ولا طيور في الشرفة، كان ذلك يعني حزنًا عميقًا مسّ أهل المدينة، وأنَّ سكان الشرفة غابوا في الجنازة. يفعلون ذلك، كما يقال، لصدّ الموت خارج البيوت، وكأنَّ الموت يدخل مع المداخل الشرعيَّة. مسالكه الدائمة هي المسارب الضيِّقة. يدخل من حيث لا أحد ينتظره. حتى في البرد القاسي كانت شرفات القدس تُفتح. تُشرَّع فجرًا حين تخرج الشمس من دكنة الغيوم، قبل أن يعاد غلقها بشكل نصفّي. أيام الفرح، تشمّ رائحة الياسمين التي تعبق من الشرفات التي يتظلّل ناس الشوارع تحتها، يشربون شايًا أو قهوة عربيَّة يتحسَّسونها جيِّداً، قبل أن يتركوها تنزلق بلذّة في دواخلهم.

كانت أمّي تكره الموت وترفض أن تتحدَّث عنه. علَّمت بابا حسن أن يعيش الحياة قبل أن يمجّد الموت والبطولات. كان مولعًا بالفروسيَّة وبأجداده، فصار أكثر التصاقًا بأمّي وبشأنها اليومّي ولو أنَّه لم يشبعها ولم تشبعه. ظلّ كلاهما ممتلئًا بالآخر. كانت تقول له، عندما تُصاب بالفقدان وتشعر بسطوة الموت من حولها: ألف بطولة لا تساوي رفّة عينك وأنت حيّ. أمّي كانت مثاليَّة. أرى في وجهها أحيانًا علامات سيِّدنا المسيح وخيباته وشجونه وآلامه الصامتة، بحرائقها التي لا تنتهي، وأرى فيها مأساة السيِّدة العذراء التي تمنّت،

وهي ترى ابنها معلّقًا على خشبة، أن تلثمه وتضمّه إلى صدرها للمرّة الأخيرة، لأنّه لم يمنحها فرصة فعل ذلك عندما كان حيًّا وحرًّا.

مرّة أخرى يختبئ الموت من وراء ثقب الباب. هكذا تعوّد أن يفعل معي. في كلّ مرّة يخادعني ويأتيني من حيث لا أنتظره. بهذه الطريقة لا يظهر إلا بعد أن يكون قد انتهى من وظيفته المشينة. ومتى كان الموت يسألنا عن أحاسيسنا قبل أن يجهز علينا أو على من نحب؟

مامي دنيا كانت مصابة بنفس جنون كوني وهبلي. غارقة في موسيقاها، وفي كلّ ما يمنحها دفئًا حياتيًّا آخر. لم تأبه لوضعها الصحّي. عندما قال لها الطبيب إنّ حالتها تدعو للقلق، لم ترد أن تخيفني. قالت لي وهي تحاول أن تخبّئ تساؤلاتها التي ظلّت طوال الزمن معلّقة:

ـ بوف... لا تهتمّي. الأطبّاء... هم هكذا دائمًا يضخّمون الأشياء للحصول على نقود أكثر. وأمراضنا في الواقع تأتي وتذهب عندما تشاء. أجسادنا، كما يقول الطبّ الحديث، هي أعظم مخبر لإنتاج المناعات والمضادّات للأمراض. أعظم من أيّ دواء يمكن أن ينتجه البشر.

ـ ولكن يا خالتي، ليست هذه هي المرّة الأولى التي تصيبك فيها مثل هذه الدوخة. الأمر بدأ يتحوّل إلى مسألة جادة.

قامت مامي دنيا باكرًا. كنت أظنّ أنّ الليل منحها فرصة للتأمّل. طلبت منّي أن أرافقها عند محاميها ثم إلى البنك. لم أفهم جيّدًا، ولم أكن قادرة على إحراجها. أحبّها ولا أريد أن أمسّها فيما

يؤذيها. خالتي تنفجر بسرعة كالقنبلة، ثم سرعان ما تعود وتعتذر. رأيتها تفعل ذلك مع أختيها على الرغم من أنَّها لم تكن مخطئة في أغلب الأوقات.

ـ مامي؟ ألا يمكن أن نؤجِّل البنك والمحامي قليلاً، ونذهب لمخبر الفحوصات كما طلب منك الطبيب؟

ـ المخبر ما راح يهرب.

عرفت السبب في المكان عينه. اكتشفت فجأة أشياء لم أكن أعرفها، أو أعرفها جزئيًّا. كانت مامي تملك، في المطعم، واحداً وخمسين بالمائة، وعشرة بالمائة باسم والدها، سجّلها على اسمها. المجموع، واحد وستون بالمائة. أدركت بسرعة لماذا صمتت أختاها فجأة، عندما أصرّتا على تغيير وظيفة المطعم؟ لم أكن أريد أن أدخل في هذه التفاصيل، وتركتها تتصرَّف كما تشاء. كانت هي سيِّدة الشأن. أبي وأمّي علّماني العيش على الكفاف، على الرغم من أموال جدّيَّ من أبي وأمي، الوفيرة. لم أكن أطلب من الدنيا شيئًا آخر سوى أن تمنحني زمنًا إضافيًّا أستطيع فيه أن أصل إلى ذروة إمكاناتي. أتعلّم، أرسم، أن يستمرّ حبّي لكوني، أن يكبر يوبا ويصبح كما يشتهي أن يكون، عالمًا، فنّانًا، رسّامًا، أو أنثروبولوجيًّا مثل والده، وإلاَّ لأيّ شيء يصلح المال؟

لم تسمح لي خالتي حتى بالتعليق الصغير. قالت بلا أدنى تردُّد: «كلّ ملاحظاتك اتركيها عندما نعود إلى البيت. الآن أريد أن أصفّي هذه الأشياء العالقة، حتى أرتاح منها نهائيًّا».

سجّلتِ العقد رسميًّا عند محاميها الخاصّ، والذي منحتني مامي دنيا بموجبه، كلّ ممتلكاتها. انسحبت دهشته عندما قدّمت له شهادة كفاءة عقليَّة، حتى قبل أن يطلبها منها. ثم مررنا على الموثّق، فسجّلت العقد ووضعت نسخة منه بجانب ذهبها ومالها الخاصّ، في صندوقها بالبنك وسلّمتني الرقم ونسخة من المفاتيح، بعد أن طلبت من الموظّفة البنكيَّة أن تضيف اسمي بجانب اسمها.

كانت مامي دنيا تتحرَّك وكأنَّها خطّطت لذلك كلّه.

ـ لم أعد أثق في شخصٍ غيرك، ولم يبق في العمر أكثر ممّا مضى.

ـ مامي... طول العمر.

ـ أدرك جيِّداً أنّك ستعرفين كيف تسيّرين هذه الأملاك. بنيت مدرسة في القدس لأطفال فلسطين الفقراء من المسيحيّين واليهود والمسلمين. ونسيت أنَّ في وسط ذلك وباء اسمه السياسة، لكنّ فلسطين التي أعرفها وأريدها هي هذه. لم يكن بالقدس، في زماني على الأقل، يهود ومسيحيّون ومسلمون، كان هناك سكّان فلسطينيّون وبسّ، البقيّة لم تكن مهمّة. ما زلت مؤمنة، إلى اليوم، أنَّ مقتل العمران والحضارات هي الأديان عندما يتمّ تسييسها وتسييرها وفق الأهواء البشريَّة. ساعديهم على توسيع المدرسة إذا اقتضى الأمر. ساعدي كلّ من يسعى إلى الخير، ولا تهتمّي بدينه إلاّ بالقدر الذي يحافظ على إنسانيَّته. فكرة أخرى، أريدك أن تعرفيها، لن تتعبي في دفني، فقد منحت جسدي للطبّ. فليفعلوا به ما يشاؤون. ربما أنقذ

شخصًا مريضًا ميؤوسًا من وضعه، أو أفيد في الشفاء من مرض ما. بين الحرق والطبّ، فضَّلت الأخير لأنَّه أكثر فائدة. ضعيني في قلبك، في المكان الذي تشتهين، وهذا يكفيني، وسأكون أسعد مخلوق في الدنيا.

شعرت أنَّ خالتي كانت تتكلَّم وكأنَّها ماتت أو في عداد الأموات، بينما لم يقل الطبيب أكثر من تحذير عليها أخذه بجديَّة، فقط. ومواصلة التحاليل المعمَّقة لأنَّه كان يشكّ في أشياء كان يريد التأكُّد منها.

في المساء طلبت منها شيئًا لم تكن تنتظره منِّي:

ـ مامي دنيا! هل يمكنني أن أطلب منك شيئًا خاصًّا؟

ـ عينيَّ الاثنتين.

ـ أريدك أن تخبري أختيك بكلّ ما فعلته معي وربما عن مرضك.

ـ لا.

أجابت ببرود. قبل أن تضيف.

ـ على الأقلّ ليس الآن، لأنِّي أعرف سلفًا أنَّهما ستسمّمان حياتك وحياتي. لن ترحماك. الجشع أكل فيهما كلّ عاطفة إنسانيَّة. أنا مازلت حيَّة، ولن أترك أحدًا يمسّ شعرة واحدة من رأسك.

ثم غابت في عمق البيت وجاءتني بكومة من الأوراق الطبيَّة. عرفت مباشرة أنَّ خالتي لم تكن مقصّرة في وضعها الصحّي، وأنَّها

كانت تعرف كلّ شيء بالتفصيل. قضيت يومًا بكامله وأنا أفلّيها ورقة ورقة، وأقرأها بتمعّن. عندما انتهيت منها والتفتّ نحوها، كانت هي عند الباب تستعد للخروج إلى العمل. قالت وكأنَّها تتحدَّث عن شخص آخر، قبل أن تنطفئ ولم تمنحني حتى فرصة السؤال:

ـ سرطان في البنكرياس. وزحف إلى الكبد والأمعاء. قد يكون وراثيًّا؟ الكثير من أفراد العائلة ماتوا به. ليس مهمًّا. مشكلة الإنسان أنَّه سيموت يومًا ما. المرض يُسرِّع الأشياء فقط لا أكثر، ولهذا فليس مضرًّا إلى الحدّ الذي نتصوّره. سأحاول أن أنساه إلى أن يأتي من تلقاء نفسه.

من يومها لم أسألها، ولكنّي كنت أذكّرها بدوائها في كلّ مساء.

الأيّام التي قضتها في المستشفى لم تكن نافعة كثيراً. على الرغم من العلاج الكيميائي والإشعاعي، لم يتحسَّن وضعها الصحّي. شعرها سقط كلّيًّا. لكنّ الطبيب طمأنها بأنَّه سيعود شيئًا فشيئًا، بمجرّد توقّفها عن المعالجة الكيميائيَّة. الأشعّة أحرقت جزءاً من جسمها، ولكنَّها كانت تشعر، على الأقل ظاهريًّا، بأنَّها كانت تتحسّن.

عندما تعبت، توقّفت عن الذهاب إلى المطعم، وعوّضتها أختاها. كانتا نشيطتين على غير العادة من خلال زوجيهما. أوّل من يصل، وآخر من يترك المكان. كنت أعرف أنَّهم لم يكونوا يضمرون أيّ حبّ لا لي ولا للودميلا ولا لمامي دنيا. كنت مصمِّمة على عودة

خالتي إلى عملها بمجرد قدرتها على فعل ذلك. حضورها في المطعم كان وحده كافيًا لتغيير العلاقات في المحيط.

ـ لا حبيبتي. ستتشفّيان فيَّ. لن أعود بهذا الرأس الذي لا شعرة واحدة فيه. لودميلا تكفي. تعوّضني ريثما يتحسّن وضعي. عازفة كبيرة، لن يجدوا مثلها ولو لفّوا الدنيا بكاملها.

ـ مامي، لودميلا رائعة ولكنَّها لا تكفي. حضورك يملأ المكان. أريدك أن تكوني بجانبي أنا ولودميلا. عن الشَّعر، ما فيه أيّ مشكل، لقد اشتريت لك باروكة بلون شعرك. أنا متأكِّدة من أنَّها تناسبك بشكل جيِّد. ولن يتفطّن لها أيّ شخص. جرّبيها فقط وسترين.

ضحكت خالتي بمرارة لم تستطع تخبئتها.

ـ لو كان هذا هو المشكل فقط، لاشتريت عشر باروكات. أفكِّر أكثر في أختيّ. تنتظران أيّ انكسار، لتنقضّا عليَّ. سبحان اللّه، كيف تحوَّلتا؟ لا أفهم كيف تنجب النار رماداً لا يصلح إلا لطمس العيون؟

ـ لا تهتمّي. كلّه رايح. أريدك أن تكوني جميلة، كما كنت دائماً. مامي. منشاني. جرّبي فقط.

ثم وضعت الباروكة التي كانت بلون شعرها، على رأسها ومتماشية جداً مع وجهها، وملامحها القمحيَّة.

ـ مـ...... ـام... كلّ هذا الجمال؟ هي من الشعر الخالص وليست من الموادّ المستخلصة. موقّتًا، في انتظار عودة شعرك إلى طبيعته؟ ما أحلاك يا مامي. كلّ روّاد المطعم والأصدقاء يسألون عنك.

تأمَّلت نفسها طويلاً في المرآة، وكأنَّها تآلفت بسرعة مع الباروكة.

ـ مادام هذا رأيك، فليكن.

بسرعة غريبة لم أعهدها في خالتي، تعوَّدت على الباروكة وأصبح تحضيرها على رأسها أمام المرآة جزءاً من يوميّاتها. ساعدتني لودميلا بلطفها الكبير وطيبتها، على عودتها إلى المطعم.

عندما جلستْ وراء البيانو، تحسّستْهُ كمن يتحسَّس جسداً سُرق منه مدّة طويلة. وضعت المقطوعة المكتوبة قبالتها. تنفَّست عميقًا. ثم مدَّت أصابعها تبحث عن أقصر طريق تختصر به الآلام التي كانت تتآكل في داخلها. لم ترَ إلا مقطوعة شوبير التي كانت أمامها. ثم فجأة، غاب كلّ شيء. أغمضت عينيها، وغرقت في إيقاعاتها التي استمرّت أكثر من ساعة قبل أن ترتاح وتعود ثانية.

بعد شهرين، عندما انتهت من المعالجة الكيميائيَّة، بدأ شعرها ينبت من جديد، وكلّما نزعت الباروكة مساء، بدا كأنَّها قصّته للتخفيف منه. عاد لها نشاطها وحيويّتها. كانت أكثر قربًا من الحياة وهي التي كادت أن تسلّم في كلّ شيء. قالت لي ذات مرة وهي تسترجع صورها في طفولتها وشبابها، أهلها وناس القدس، وأحياء المدينة القديمة:

ـ هل تدرين ماذا قالت لي اليوم خالتك ماجدة؟

ـ خير إن شاء اللّه. قنبلة أخرى؟

ـ كالعادة. صغرت إلى حدّ صار يؤلمني. قالت لي إنَّها تريد استلام حقّ والدها، وإنَّها تريد أن تناقش معي الخمسين بالمائة المتبقّية حتى لا يضيع مال الوالد وتأخذه الحكومة. طمأنتها بأنَّ الحكومة لن تأخذ منّا شيئًا عدا ما يتعلّق بحقّ الضرائب، وأنّي رتبت كلّ شيء قبل خروجي من هذه الحياة. وعندما لم تتوصّل معي إلى أيّ شيء، قالت: على كلّ حال، أنت في وضع صحّي صعب وسأستخرج لك وثيقة عدم الكفاءة في تسيير المطعم حتى أتمكَّن من تسييره أنا وسارة، وبذلك يبقى مال الوالد محفوظًا. طبعًا قصدها بعدم الكفاءة ليس الجسديَّة ولكن العقليَّة كذلك. لا أدري كيف عرفوا وضعي، هم وأزواجهم؟ ولكن يبدو أنَّهم يعرفون أدقّ التفاصيل عن مرضي. لم يفاجئني شيء منهم، العكس هو المستغرَب.

أردت أن أقول لها يا خالتي، أعط لهم زبالتهم أو بيعيها أو صدّقيها على بيوت العجزة، ابعثيها إلى أطفال فلسطين وأنت حيَّة، على أن يرهقوك وأنت في قبرك، ولكنِّي خفت من أن أصدمها.

ـ لم تسأليني كيف كان ردّي؟

ـ مامي، كنت سأفعل ولكنّي لا أريدك أن تتألّمي.

ـ طزّ فيها وفيهم جميعًا. طردتها، ولأول مرّة أدرك أنِّي لم أكن مخطئة في طمعها وطمع زوجها. تريد أن ترثني وأنا حيَّة. أيّ زمن هذا وأنا من ألبسها وتحمَّلها، وبحثتُ لها عن سكن قبل أن تستقرّ هي وزوجها. والدي كلَّفني بمهمّة أثقل منّي، اللّه يرحمه. تركت البيت من أجل ستيوورت. غضب منِّي ثم قال لي: بنتي، ربما كنتِ محقّة

في اختــيــارك. الأوضــاع هنـا كلّ يوم تزداد خـرابًا. أرجـو أن تتكـلّفي بأختيك وزوجيهـما قدر ما تستطيعين. أنت تعرفين المكان وأثق فيك كثيراً. ولم أقصّر يومًا في حقّهـما. المهمّ... طردتهـا، وقلت لهـا بلا أدنى تردُّد: لا أريد أن أراك، لا أنت ولا زوجك. قــــالتْ: سنرى، وخـرجت مـتبـوعـة بظلّهـا الذي يشبـه ظلّ سـارق، زوجـهـا. كـيف تريدينني أن أنسى هذا الألم... كيف... لم تسألني مرّة واحدة عن صحّتي ولا عن وضعيَّة هذا المرض الذي يشبهها في كلّ شيء. لو لم أمنح جسدي للطبّ، لقلت لك انقليني بعيداً عنهم، إلى القدس، أو إلى أيّ أرض بحيث لا أراهما أبداً حتى في موتي، ربما كانت أقلّ توحُّشًا وظلمًا وقسوة منهما.

احتضنتها، وتركتها تبكي طويلاً ولم أسالها في ذلك المساء عن أيّ شيء، حتى عن صحّتها وعمّا قاله لها الطبيب الذي قضت الظهيرة كلّها في عيادته.

ـ مامي... حبيبتي... ربّي يطوّل في عمرك ويحفظك لي.

ـ أرأيتِ لماذا ذهبت إلى الموثّق والمحامي والبنك؟ ما دمتُ هنا، لن يتجرّأ ولا كلب أو كلبة أن يؤذيك.

كنت أعرف أنَّها ستنكسر بسرعة. عادت متاعبها الصحّيَّة بحدّة أكثر. عندما دخلت إلى العيادة المركزيَّة لأمراض السرطان(١) بنيويورك، سألني الطبيب، بعد أسبوعين من العمليَّة الجراحيَّة التي أجراها لها، إذا ما كنت ابنتها. قلت نعم. هي أكثر من أمّي. أفصح

١ ـ NYU Clinical Cancer Center

لي عن كلّ شيء، ونصحني أن لا أتركها طويلاً في المستشفى. وأن أخرجها لتموت في دارها، لأنَّ السرطان كان قد انتشر سريعًا وأنَّ الطبّ عاجز عن أن يفعل أيّ شيء من أجلها.

أتذكّر أنّنا عندما خرجنا من العيادة، سألتني بنوع من القلق الداخلي:

ـ وضعي ميؤوس منه، أليس كذلك؟

ـ لا يا مامي، ليس إلى هذه الدرجة. بالمقابل، ألحّ الطبيب على ضرورة راحتك، وعلى وجوب احترام أوقات الدواء فقط، وأضاف إلى أدويتك السابقة، دواء جديداً، مسكّنًا للآلام.

ـ المورفين.

ـ لا يوجد في الوقت الحالي غيره.

ـ لم يقل لك شيئًا عن عملي؟ وهل أستطيع أن أذهب إلى المطعم وأعزف، كما تعوَّدت أن أفعل؟

ـ طبعًا يا مامي، ما تزالين مشرقة كالنوّارة ولا سلطان في الدنيا يستطيع منعك من ذلك.

ـ هذا هو طلبي الوحيد. ماذا يبقى من الدنيا غير غبار الأوهام وهذه السعادات المنفلتة من أسر الخوف التي لا شيء يضاهيها؟

في الليلة الأخيرة، وعلى الرغم من الآلام التي كانت تأكلها من الداخل، عزفت حتى كادت أن تنام على البيانو. الزبائن الدائمون الذين تعوَّدوا على عزفها، بقوا معها حتى فجر اليوم الموالي.

ساعدتها على الركوب في السيارة، وعندما اتّجهنا نحو البيت، كانت سعيدة ولكنّها كانت متعبة، وجهها شاحب مثل الخرقة. قالت وهي تنظر إلى الساعة:

ـ من زمان لم أسر على جسر بروكلين. هل يزعجك لو مررنا من هناك. أشتهي أن أجد حركاتي القديمة وأشواقي. أحببت بروكلين، لأنَّ بها ملامس أساسيَّة من حياتي. هي التي فتحت عيني على الحياة. كان العالم بالنسبة إليّ دربًا صغيراً من دروب حيّ المغاربة بالقدس الغربيَّة.

ـ أنت متعبة قليلاً.

ـ ولا يهمّك، عندما لا يسعفني الجسد، سنعود إلى البيت، ما رأيك؟

ـ مثل ما بدّك، مامي.

عندما وصلنا إلى بروكلين بريدج الذي يعبر البحر بكلّ كبرياء وثقة عالية، تركتها تمشي لوحدها كما كانت تشتهي. كنتُ وراءها. أتبعها على مسافة خمسة أمتار. كان جسدها مستقيمًا كنخلة. من حين لآخر تنظر صوب بحيرة هودسون. تتأمّلها عميقًا. تترك بصرها يذهب بعيداً. تأتيها الإيقاعات والأصوات التي لا تموت، قادمة من بعيد. صوت سوبرانو يخترق حزن الماء، مادًّا ذراعين تغرقان في عمق الضباب الذي يغطّي نيويورك في مثل هذه الأوقات. أو تتناهى إلى مسمعها أنّات صوت رقيق يتهاوى شيئًا فشيئًا حتى يصل قلبها،

تعرف أنَّه لإحدى ديفات[1] المدينة في بروكلين. تبحث عن اسمها. يغيب عنها. تحاول أن تتعرَّف على وجه الديفا، ولكنَّ الذاكرة لا تسعفها إذ يدخل الصوت قلبها وينحت له مكانًا في أقاصي القلب. تغمض عينيها. تلفحها ريح البحر الدافئة. تتنفَّس بكلّ قوّة. تملأ رئتيها. تقبض على ممسك جسر بروكلين. الشمس غابت وتستعدّ الآن للشروق من جديد. كانت مامي، في الأيام التي مضت، تعشق أن تأتي إلى هنا مع المئات، تودّع الشمس إلى آخر شعاع قبل أن تبعث لها بأمنيَّة كما يفعل جميع العشّاق باتّجاه بحيرة هودسون وتعود من حيث أتت. كان ستيوورت العقلاني جدًّا كما تعوَّدت أن تحكي عنه في لحظات خلوتها، مسحوراً برومانسيّتها ومتعلِّقًا بها؛ يسبقها قليلاً ثم يتركها معلَّقة بين جسر بروكلين وبحيرة هودسون. وعندما تنتهي، تلحق به وهي تتمتم في أذنه، ملتصقة بذراعه الأيمن:

ـ خلاص، طلبتُ أمنيتي وأعتقد أنَّ اللّه سمعها مني.

ـ اللّه أم البحر أم جسر بروكلين؟

ـ أنت بئيس وغير مؤمن. لم تسألني عن الأمنيَّة التي طلبتها؟

ـ كنت سأسألك.

ـ سأعطيك بعض العلامات وأترك لك متعة تخيُّلها. عليك أن تعرفها وإلا سأنكر أمام اللّه أنَّك حبيبي. أنتَ تعرف جيِّداً أنِّي ضيّعت كلّ شيء من أجلك، سأقتلك إذا لم تعرف أمنيتي.

---

١ ـ Diva

يضحك ستيوورت. يقهقهان. يحضنها.

ـ هذا حكم غير عادل. أنا أحبّك حتى ولو فشلتُ في معرفة سرّك.

ـ فكّر جيِّداً، استخدم كل إمكانات قلبك، لكي تتفادى الحكم. يا الله... العاشق يخطئ في كلّ شيء إلا في حبيبته.

وتظلّ تقدّم له العلامات الأولى لأمنيتها وتفكِّك الرموز حتى تقرّبه من سرّها، حتى تصل إلى فضح كلّ شيء بدون دراية منها. ثم تصيح بأعلى صوتها عندما يقول الكلمة التي تنتظرها:

ـ طفلة، نعطيها المحبّة والحياة وكلّ ما نملك من عاطفة؟

ـ برافو... يحرق دينك، من علّمك كلّ هذا السحر. ستأتي طفلتنا، أنا على يقين. سيسمع الله لنداءاتنا الداخليَّة.

يحتضنها، يقبّلها وينسى كلّ المارّة والجسر والشمس والرياح التي تحرِّك الجسر. ينسى أنَّه يقف على حافّة الفرح والموت.

الدنيا لم تمنح أمنيتها طول العمر، فقد افترقت مع ستيوورت بسبب سكتة قلبيَّة تافهة. عصفت في اللحظة نفسها بكلّ القصر الجميل الذي ظلّت تشيده من علامات المنفى وحبّ كانت تظنّ أن لا قوة تستطيع كسره. الصدفة أحياناً أكبر عدوّ للإنسان، ليس لأنَّها غير مرئيَّة ولكن لأنَّها غير منتظرة. الصدفة القاتلة أخطر حتى من الموت الذي نفترض حدوثه في أيّ لحظة من لحظات الحياة، ولهذا فهو وإن كان يخيفنا، لا يفاجئنا أبداً. لكنَّ الصدفة تتخبَّأ بين الضلع والضلع وتهزّنا بعنف.

مشت طويلاً على جسر بروكلين، وبذلتُ جهداً كبيرًا قبل أن أقنعها بضرورة العودة إلى البيت. قلت لها: مامي كلّ العشّاق ذهبوا ولم نبق إلا أنا وأنت. عندما استسلمت لي، رأيت لأوّل مرّة سعادة طفوليَّة في عينيها لم أرها أبداً في حياتي معها. هذه هي مامي، هبّة نسيم ترفعها، ولمسة صغيرة تبكيها. ويمكن، على العكس من ذلك كلّه، أن تنهار الكرة الأرضيَّة ولا تحرِّك ساكنًا، تظلّ مثل الصخرة، ثابتة في مكانها.

ليلتها، لم أنم. شعرت بنفسي وحيدة، تمامًا مثل ذلك اليوم الذي أخبرتني فيه مامي دنيا بموت أمّي. أغلقت كلّ المنافذ والأبواب، حتى معبر الحديقة، ونسيت، في غفلة منِّي، أنَّ الموت كان يكشّر ويسخر من سذاجتي، من وراء ثقب الباب ويمدّ أصابعه لاختطاف آخر النجوم في حياتي وأكثرها إشعاعًا ومحبة: مامي دنيا. لم يسألني عن رأيي يومها ولا عن قدر الفجوة التي سيخلّفها رحيلها فيَّ. فقد استعصت عليه زمنًا طويلاً بإرادتها الفولاذيَّة، ولكنَّه في النهاية خاتلها، فأدخلها في غفوة لذيذة ثم انقضّ عليها في نومها، تمامًا كما يفعل القتلة عادة. التفتُّ نحو السماء، وصرخت بلا وعي منِّي: حتى أنتَ يا اللّه، صرتَ تشبه الجميع، قاتلاً غير رحيم؟ لم أسمع شيئًا يؤمِّنني ويريحني، ولكنِّي سمعت زعيقًا شيطانيًّا يأتي من داخل فراش مامي، كان زعيق الموت.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الأربعاء ٣ نوفمبر ١٩٩٩

الرياح والأمطار لم تتوقَّف منذ أسبوع ولم تعد شمس نيويورك تظلل بحيرة هودسون، ملتقى العشّاق. لقد غزتها منذ الصباح الباكر أطياف الضباب التي محت كلّ المعالم وسطّحتها، وبدا كلّ شيء يعوم في ذرات صغيرة من الأنداء التي كانت تتهاوى قبل أن تلتصق بالأشجار والوجوه والنوافذ، مشكّلة كتلة بيضاء صغيرة تغلّف وجه المدينة. غابت كلّ النتوءات مثلما في بدء الخليقة وصار كلّ شيء أملس في الخارج، لا شكل له ولا ملامح ولا حياة. لم أفعل الشيء الكثير. ولكنّي وقفت أتأمّل **شموس أمي**(١). عندما نظرت إلى

---

١ ـ من مقتنيات متحف نيويورك للفنون الجميلة تحت رقم: MoMA.S.M/MKO/45G. عبارة عن بورتريه صغير، مركز، اعتمد الألوان الفاتحة القريبة من تشكيلات موني Monet. وتبدو واضحة فيه آثار المدرسة الانطباعيَّة. ضُمّ إلى قسم الانطباعيَّة الجديدة في متحف نيويورك للفنون الحديثة. رقم الشراء المزادي: NY.MoMA.SUN.MOTHER/MKONY/89076&25.

الساعة، كانت تشير إلى الرابعة صباحًا. كنت بين الألوان والسيول التي لم تتوقَّف طوال الليل. ولكنِّي كنت أستلذّ لهديرها القويّ، الذي كان يزداد نعومة، كلّما غرقت عميقًا في تفاصيل اللوحة.

تمدَّدت على الفراش وحاولت أن لا أرى شيئًا إلا ملامح مامي دنيا الطيّبة. كانت منكسرة، ولم تكن قادرة على الكلام. طلبتْ منّي بصوت خافت كمن يخاف أن يُرفض طلبه:

ـ مي... حبيبتي. أخاف أن أكون قد أزعجتك بطلباتي الكثيرة.

ـ حرام عليك يا مامي. تعرفين أنَّك كلّ شيء بالنسبة لي. بك أحيا وبك أتنفَّس. حبّك أنساني فقدان أمّي يا خالتي. لا تقولي مثل هذا الكلام.

ـ عمري... ضمّيني إلى صدرك واضغطي عليَّ قليلاً. جسدك يقلِّل من وجعي، ويمنحني دفئًا أفتقده. أنت ما تبقّى من رحلة العمر الصعبة. لا أريد أن أخاف من الموت. أحاول إذا استطعتُ، أن أظلّ في كامل وعيي وأن لا يسرقني في غفلة منِّي. وأن أملك قدرة اللحظة الأخيرة وأسمعه كلّ قاموس الشتائم الثقيلة التي ورثتها من حياتي الصعبة، وأن أرى وجهه الرمادي، عيني في عينه. ولهذا أريد أن أظلّ في كامل وعيي. ليس جميلاً أن يرتعب الإنسان أمام نهاياته الحتميَّة.

ـ مامي، طول العمر. ليس من حقّك أن تقولي مثل هذا الكلام. وعكة وتمضي مثلما مضى ما هو أخطر منها.

ـ حبيبتي مي. طلبت منك أن تضمّيني إلى صدرك فقط. أحتاج إليك الآن... الآن...

كنت أقرأ استعطافًا كبيرًا في عينيها، ورغبة عارمة في أن أظلّ بالقرب منها وأن لا أخرج. لم تنم طوال الليل. حتى المورفين لم يعد ينفع كثيرًا بالنسبة إلى حالتها الصعبة. أقبض على يدها اليمنى، وأضعها في عمق كفّي، وأضمّدها كما يضمَّد الجريح، وأُنصِت إلى قلبها الذي كان يتمزَّق مثل شراع داخل الهول.

«مامي دنيا؟ أمّي الصغيرة؟ حبيبتي... ماذا حدث حتى ينكسر كلّ شيء بهذا الشكل المفجع في عينيك؟ هل أقبل وأستسلم للأقدار التي تحاربنا دائمًا بالخديعات المتكرِّرة؟ لا تستسلمي يا مامي... أرجوك».

في الأسبوع الأخير لم تعد خالتي قادرة على التنقّل، واستسلمت للوهن الذي بدأ يتنامى داخل الجسد شيئًا فشيئًا ويتوغّل في عمق اللحم، كمنشار حادّ في حركته الدائبة. أجّلتُ كلّ شيء من أجل مامي، واعتذرت من مدرسة الفنون التي رفضت أن أغادرها، فهي التي تضمن عيشي خارج الخلافات بين الخالات وصراعهنّ على الإرث. أشعر بالمسؤوليَّة التي على عاتقي. لم أعد قادرة على تركها ورائي تواجه آلامها وحدها. أحيانًا أتركها مع لودميلا الوفيَّة جدًّا. تحرِّرني عندما تكون متفرِّغة من بعض الأعباء المنزليَّة وتقضي معها جزءًا مهمًّا من بقيَّة اليوم، تستعيدان الانكسارات والأفراح الصغيرة. لودميلا أغلقت ملفّ العودة إلى أرضها، وتريد أن تجد طريقها في أوبّرا

نيـويورك، أو أوبّرا بروكـلين التي صـارت على الأقل تعـرفـهـا وتعـرف مديرها.

وكلّما شعرتُ بالقلق، ناديت كوني لكي يصحبني في عزلتي مع مـامي. زارها قـبل مـوتهـا على الرغم من أسـفـاره المتكرِّرة وكـرهه لأجواء الموت التي يفضّل عليها بارات مانهـاتن الكثيرة، والاستماع إلى موسيقى الجاز وشرب البيرة السمراء، التي يقول إِنَّهـا تدفئ الداخل وليست مثل الشهباء المثيرة أكثر للحساسيّات الخارجيَّة البسيطة. لا أدري صحّة ما كان يقوله، ولكنّ الجلسات في بارات مانهاتن أصبحت عشقنا المشترك. عندما مازح مامي دنيا، قـالت له، مع ابتسامة سحبتها من أدفأ نقطة في أعماقها:

ـ كـونـي ابني. مي هـي روحي، نبض القلب ودمـه. قـبلت أن أمنحهـا لـك، لأنَّك تشبـهـا في سخـائهـا وحبّـهـا للخيـر. ضعـهـا في عينيك. لن تجد في هذه الدنيا القلقة امرأة تضاهيها. يمكنك أن تبقى هنا الليلة، المكان واسع وحـيـوي بالليل والنهـار، أحـسـن من ليـتل ـ إيطالي، المليء بالفوضى والضجيج والحمقى والمجانين. أكون سعيدة جداًّ بكما، في بيتي.

ـ مـامي دنيـا. المجنون والأحـمق لا يخـاف ممّن يشـبـهـه. لقـد تعوَّدت على هذا المرض الذي اسمه الفوضى. نريدك أن ترتاحي فقط من ألمك، ونشتـاق إلى سماع موسيقـاك وعزفك. لقد أصبح المطعم حزيناً في غيابك. نحتاج إليك أكثر من أيّ زمن مضى.

بنظرة منحرفة بعيني، ومؤنّبة بشكل خفيّ، نبّهته إلى لودميلا.

ـ طبعًا لودميلا تملأ المكان وصار الناس يحبّونها مثلما يحبّونك. إمّا أن تسرعي وتقومي حالاً من فراشك، أو ستسرق لودميلا منك كلّ الأضواء. أنا أدّيت ما عليّ من واجب، وعليك أن تقومي بالباقي.

تستلّ خالتي من أعماقها ابتسامة متعبة، وتتمتم بصوت خافت جدًّا:

ـ تظنّ يا كوني أنَّه بقي لي مكان أحتلّه، وأنِّي سأقوم من جديد؟ أنت متفائل جدًّا يا ابني. أنا أعرف أنَّ مي ستقوم بكلّ شيء لكي يظلّ المطعم حيًّا، وأنَّ لودميلا أصبحت سيِّدة البيانو ـ بار، وهي التي ستختار ما تريد عزفه. وإذا كتب لي اللّه عمرًا جديدًا، سأذهب لكي أجلس في أبعد طاولة في المطعم، وأغمض عيني، وأستمتع بإيقاعاتها التي أعرف جيِّدًا أنَّها تأتي من أدفأ زاوية في القلب. لودميلا ليست امرأة عادية، لكنَّ الزمن عَرْصٌ وابن كلب.

ـ لودميلا فنّانة كاملة، لكنَّنا نحتاج إلى وجودك كذلك. نسمح لك بالراحة قليلاً، ولكن عليك أن تعودي إلى مكانك الطبيعي، وإلاّ سنغلق المطعم ونرحل جميعًا، إلى بروكلين هايت، لنستمع إليك. سنسحب البيانو الثقيل، ونأتي به إلى سريرك، ونجبرك على الجلوس على كرسيّك فقط لنعيش الحبّ الذي تشيعينه كلّ مساء بين الزوّار والزبائن.

ـ حبيبي كوني ، أنت مثل ابنتي، تظنَّان أنَّ الموت يُخبَّأ. لم أعد خائفة منه، لقد شيَّعت كلّ أشيائي الجميلة منذ أن علمت بهذا المرض. لا تتصوَّر أنِّي أتخلَّى عن الحياة بهذه السهولة، فأنا لم أشبع،

ولن أشبع منها مطلقًا. أقول لنفسي دائمًا، ليكن، ما عشته كاف ليعطيني الإحساس بأنّني عشت كما أشتهي. خسرت الكثير، وربحت نفسي التي بنيتها حجرة حجرة. أشعر كأنَّ كلّ شيء قد انتهى. أريد فقط أن أرتاح قليلاً، وأن لا أُتعِب أحداً قبل رحيلي. لو تدري، كم أشتهي الآن أن أسمع شوبان. فيه لمسة بهاء استثنائيَّة غابت عن الآخرين. الوحيد الذي يعرف كيف يُدخلني في لعبة الموت بحزن، ويخرجني منها سعيدة.

وقبل أن تسمع شوبان في الجهاز، نامت وهدأت كطفلة يتيمة.

لم تكن سارة مرتاحة عندما دخلت على مامي دنيا. كانت مرتبكة وخائفة من ماجدة التي لم تزرها. كانت حزينة لرؤية أختها في وضعيّة انكسار واضح، على الرغم من مجهود خالتي لكي لا تظهر أيّ ضعف أمام زوارها. غادرت سارة المكان بسرعة وهي منكسرة. لودميلا التي وعدت بالعودة غداً، ذهبت إلى المطعم لملء فراغ مامي دنيا أمام البيانو ـ بار. كوني خرج على رؤوس أصابعه حتى لا يزعج أحداً. ولم أبق إلا أنا وخالتي. طلبت منّي أن أحتضنها. لا تريد أن تبدو ضعيفة أمام أيّ واحد.

عندما خرجت من بين ذراعي، كانت قد استعادت بعضًا من قوّتها.

ـ هل أنت أحسن الآن؟

ـ بكثير. في جسدك سحر كبير، يمتصّ كلّ الآلام.

ـ مامي... أما زلت تشتهين سماع شوبان؟

ـ لن أشبع منه، هو الذي جعلني أحبّ الحياة وألتصق بها. لا يوجد غيره وسط هذه الهزائم القاسية. كم أشتهي أن لا ألتفت ورائي لكي لا أرى شيئًا. أن لا أسمع الأخبار، لكنّ شيئًا عميقًا فينا يحسدنا في حياتنا وينغّص علينا هذه الأفراح الصغيرة. هل تدرين ماذا أتذكّر من هزيمة ٦٧؟ لا شيء سوى حارة المغاربة التي سُرقت منّا وأُبيدتْ ملامحها، لتصبح امتداداً لحارة اليهود؟ لم نعد نملك شيئًا من ذاكرتنا. سنشتاق إلى ممرّات طريق سيدي بومدين لمغيث، وحائط البراق، ومعابر الأسواق الشعبيّة القديمة. وسنصبح غرباء في أرض معجونة بنحيبنا وصراخنا الذي لن يسمعه أحد. عقدة الذنب التي يحملها العالم الحرّ، لن تفتح له أيّ مسلك للنقد وإدانة الجريمة.

ـ آه يا خالتي، كثرة الجراحات وتكرّرها المستمرّ، ستجعلنا نتحمَّل الصدمات والكدمات بلحم ميت. الجلد عندما يتعدّى حدّاً معيَّنًا، يصبح بلا جدوى ولا ألم.

صعدت إيقاعات شوبان عاليًا. كانت تسري في الروح كنسمات حيَّة. كلّ ما كان يحيط بنا في هذا البيت كان يبدو هادئًا وهاجعًا ومتماوجًا بهدوء كبير. حتى شجيرات الحديقة لم تعد تهتزّ بعنف، بفعل الرياح. في الخارج، شيئًا فشيئًا بدأت المدينة تغيب وتغرق في كومة من الضباب. من النوافذ، تبدو أضواؤها العائمة في لفافة من بياض كانت تتّسع باستمرار.

ـ لا بدّ أن يكون الجوّ بارداً في الخارج؟

ـ توقّفت الأمطار ونزل ضباب كثيف. الضباب فقط يا خالتي غطّى بروكلين حتى بدت كأنّها وراء ستار لا نهاية له من البياض والشفافية.

ـ إنَّه بالضبط الوقت الذي أشتهي أن أمشي فيه يا مي.

صمتت قليلاً. أغمضت عينيها. تركت ذراعيها تنسدلان عبر جسدها.

ـ أشعر بالعطش يا مي حبيبتي. كلّ شيء فيَّ صار جافًّا وكأنَّ التراب صار يملأ حلقي وفمي وصدري.

ـ مامي. ها هو الماء. العطش حالة طبيعيَّة، لا تقلقي.

ـ لست قلقة أبدًا، ولكنِّي أشعر كأنَّ اللّه بدأ يتخلَّى عنِّي، وبدأ ينسلّ من جسدي ويمنحني طعمًا سخيًّا للموت. خلّيك قريبة منِّي...

ـ أنا قريبة، ولن يأخذك منِّي أحد، ولا حتى الموت.

شربت بصعوبة، قليلاً من الماء. مسحت على شفتيها بظاهر يدها، ثمّ استسلمت من جديد للفراش، وذراعاها على صدرها. كانت عيناها وكأنَّهما تعومان داخل النور والبياض وتنغرسان في عمق المبهم.

تمتمت قبل أن يصبح كلامها أكثر وضوحًا.

ـ ... مي. روحي... أما زلت بجانبي على بروكلين بريدج؟ أنا لا أتحمّل زحام البشر عندما يكون ستيوورت معي. هذا المهبول

يعذّبني بحبّه... لم يرث عن أجداده الإنجليز إلاّ جنونهم. مثل الأحمق، لا يتدافع ليجدني ولكنّه يستلذّ لاهتزاز هذه الأمواج البشريَّة. أخشى أن يغيب عنِّي نهائيًّا ولا أعثر عليه. سأقتل نفسي لو أفقده.

كدت أبكي، ولكنِّي تماسكت.

ـ أنا بجانبك يا أمّي الحنونة. أنا بالقرب من نفسك. أنا فيك يا أمّي. أنا هنا حيث تريدينني أن أكون، لا أقهر حبّك وانسيابك، ولا أترك أمواج جسر بروكلين تسرقك منِّي.

ـ ياه... أيّ بذخ هذا الذي أنا فيـــه، بروكلين بريدج... المغيب... وستيوورت حبيبي الذي ترك كلّ شيء من أجلي في القدس، أعماله وسلطان دولته وركض ورائي. يدعوني للرقص معه. أيّ حظ هذا يا مي، أن تجدي نفسك بين أحضان من تحبّين، بعد غياب دام دهراً؟

وضعت يدها في عمق يدي. كانت دافئة ومليئة بالحياة. كلّ شيء ينبض ويلتصق بقوة بهذا النزف العميق الذي اسمه الذاكرة. بدأ شعور عميق من الخوف ينتابني. كنت خائفة على خالتي من أن تذهب وتتركني لهذا الفراغ المهول. أشعر أنَّ بيني وبين مامي دنيا قدَرًا مشتركًا لا أستطيع توصيفه. لا أريدها أن تموت هكذا، كنت أرى نفسي فيها.

ـ مامي، أمّي... أنا بالقرب منك. عند نَفَسِك. ألا تحسين بي؟

ـ أحسّ بك. مي... روحي وابنتي الوحيدة. أحسّ بك...

شعرت بألم كبير. لأوّل مرّة أسمع كلمة ابنتي بهذا الشكل اليائس، دافئة ومليئة بالنور الممزوج بالفقدان. لقد سُرقت منّي هذه الكلمة زمنًا طويلاً قبل أن أستعيدها مع مامي دنيا. هل الذي قتل أمّي وسكن بيتي، يسمع الآن الجدران اليتيمة وهي تصرخ بكلّ ما أوتيت من قوّة؟ أم أنَّه صمّ أذنيه لكي لا يسمع إلا تاريخه الذي صنعه كما اشتهاه؟

ـ أنا بجانبك يا أمّي... أنا هنا، في عمق كلّ أشواقك ونداءاتك.

كانت دموعي منكسرة، يائسة، وباردة كدموع الموتى.

ـ هل ترين هذه الشمس الجميلة التي لم تغب في وقتها كما تعوّدت، وكأنَّها تريد أن تمنح العشّاق مزيداً من الوقت للتمتّع بالدنيا؟ هل ترين الجسر؟ جسر بروكلين؟ ياه... ما أطوله... انظري إلى الأضواء التي تخترقه وتتمدَّد خيوطًا بآلاف الألوان. انظري... انظري... انظري... كلّ هذه التمزّقات التي تحدثها الألوان والرياح في أمواج البحر؟

نظرت تلقائيًّا صوب النافذة، فلم أر شيئًا سوى إشعاعات صغيرة كانت تأتي من شارع الفولترن الواسع والطويل. حتى الشجيرات التي تحاذي حائطنا غابت نهائيًّا. تأكَّد لي بأنَّ مامي كانت تهذي ولم أرد إيقافها، فقد كانت سعيدة جدًّا في عالمها الذي كانت فيه.

تمتمت بدون أن تحرِّك يديها، ولا فتحت عينيها:

ـ أين يتَّجه كلّ هذا العدد من السيّارت؟ لا بدّ أنَّهم يمشون باتجاه بحيرة هودسون التي لا تملّ أبدًا من عشّاقها الذين ينحنون كلّ صباح ومساء لشمسها الجميلة... ستيوورت... ستيوورت... هذا المهبول لا ينتظر أحداً. لن أتركه يذهب لوحده لعناق شمس بحيرة هودسون... اعذريني حبيبتي مي، سألحق به قبل فوات الأوان، لأنِّي كلّما أغضبته هدّدني بالرحيل... فعلها مرّة، ولا أريده أن يكرّرها أبداً... باي يا ابنتي... سنلتقي فيما بعد، سأركض الآن وراء هذا الإنجليزي المهبول.

أمدّ يدي. تقبض عليها بقوة. تشدّها. تقبّلها طويلاً، ثم تنام عليها وهي تمتم بحنان كبير أشعرني برقّتها وطفولتها:

ـ ستيوورت... حبيبي كنت تريد أن تكون عشيقًا متفرِّدًا؟ سأكون معك. لن تكون هذه المرّة وحدك. لن أتركك تسبقني ولو بخطوة. رجلي على رجلك، كما كانت تفعل نساء أرضي البعيدة. سنعبر جسر بروكلين أنا وأنت فقط، وسنوقف الزمن والناس حتى نصير في الجهة الأخرى من الجسر. سأرى إذا كنت ما تزال تملك القوة التي تؤهلك لقطع الجسر... حبيبي... روحي... عمري... مد يدك ولا تسأل كثيراً.

ثم تنام على كفّي وتتهادى شيئًا فشيئًا حتى يهدأ فيها كلّ شيء. تنقص حرارتها، أشعر بأنَّ كلّ ما حدث لها كان بفعل الحرارة

التي ارتفعت فجأة. أسلّ يدي بهدوء. لا تحرِّك ساكنًا. ما تزال نائمة كطفل. أنزل الستائر وأُسكت كلّ شيء في البيت، حتى نَفَسي.

ما أزال أراها إلى الآن وكأنَّها كانت فقط نائمة، بعينيها المغمضتين، بشفتيها المورّدتين وبوجهها الوضّاء الذي ارتسمت على خطوطه العميقة غلالة حزن هاربة مثل غيمة.

ماتت مامي وهي غير آبهة بالحياة التي قاسمتها الشقاوة والحبّ والخيبة والعزلة. ماتت وقد خدعها الموت كما يفعل دائمًا، ولم يُتح لها فرصة الصراخ في وجهه كما اشتهت. ولكنِّي صرخت في مكانها، ثم فجأة صمتٌ وقلتُ للموت الذي بدا لي بشعًا أكثر من أيّ زمن مضى: مثلك مثل اللّه الذي وضعك على رؤوسنا كعقاب يتهدَّد به عواطفنا وحواسّنا وأجسادنا، لا تستحقّ حتى أن ألومك، فأنت أقلّ من شتيمة.

أعقب ذلك صمت غريب خلت أنَّ الأرض ستنفجر بعده. ثم لا شيء. غمرتني راحة غريبة. لأوّل مرّة أحسّ أنِّي آذيت الموت وأصبته حيث لا يستطيع أن يخبِّئ آلامه.

ذهبت مامي دنيا وتركت فجوة كبيرة فيَّ وجرحًا يصعب رتقه. في لحظة من اللحظات، شعرت كأنِّي كنت أبكي أمّي. كلّما قبَّلت وجهها، وخبَّأت رأسي في عمق صدرها، شممت رائحة أمّي. أمّي فقط.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الجمعة ٥ نوفمبر ١٩٩٩

بمجرّد موتها، دخلت كلّ خالاتي في حداد الذئاب، **Bereave-ment Wolves**[١]، ولم يكن في رؤوسهنّ إلا قسمة التركة والبكاء في الوقت نفسه. لا أدري إن كان ذلك حزنًا على مامي، أم فرحًا لذهابها، لأنَّها كانت سدًّا منيعًا أمام شهواتهنّ الريفيَّة الفجّة، وأشواقهنّ المتخلِّفة.

١ ـ اسمها الأصلي: سباعية حداد الذئاب. هي أول شيء بدأت به عندما دخلت مي إلى المستشفى ولكن اللوحة ظلّت في سياق التخطيط، قبل أن تصمّم على إنجازها. وتحتوي على سبع لوحات مائية صغيرة، لكل واحدة منها عنوان فرعي خاص: **١ ـ سرير الموت، ٢ ـ العزاء، ٣ ـ الأزواج والزوجات، ٤ ـ ماجدة وسارة، ٥ ـ كم نحبّك لو تدرين، ٦ ـ مطعم شرقي، ٧ ـ بيانو ليتل ـ مام**. وكل اللوحات ذات شكل طولي، اعتمدت فيها مي على فنّ الغروتسك الذي تجربه للمرة الأولى. السباعية اقتناها متحف سان فرانسيسكو للفنون الحديثة. رقم الشراء المزادي: .SFMA.BR.WOL/MAYKON/76-45

كلّ شيء تغيَّر بذهابها وكأنَّها كانت تحمل كلّ المصاعب على عاتقها؛ لتبدأ معركتي مع أختيها. معركة كنتُ أشمّ رائحتها القبيحة ولكنّي لم أكن مستعدّة لها. تدخّلاتهما المشينة في كلّ شيء، غيّرت نظام المطعم والزبائن. تركتْ لودميلا العزف على البيانو- بار والتحقت بأوبّرا بروكلين، وهو ما بحثت عنه طوال إقامتها بالمدينة. شيء واحد كنت مستعدّة للقتال من أجله، السكن. هو إرثي الوحيد الذي كنت أشمّ فيه رائحة مامي دنيا، ولم أكن مستعدّة للتفريط فيه.

محامي خالتي الذي أصبح محاميّ الخاص، وضع ماجدة وسارة وزوجيهما بين خيارين، إما القضاء لفكّ التناقض العميق، وهذا ليس في صالحهم لأنَّ كل شيء كان موثّقًا، أو حلّ التراضي الذي يقتضي بعض التنازلات من كلّ الأطراف. وضع كلّ الوثائق بين أيديهم. لم يكن هناك أيّ مجال للمناورة. كلّ شيء كان واضحًا. ابتلعوا ذلك بمرارة بدت واضحة على وجوههم التي اصفرّت فجأة. عندما رأوا كلّ شيء في غير صالحهم، سلّموا في قضيَّة البيت واعتبروها محلولة، وقبلوا بالحلّ الأسهل، والأقلّ كلفة، حلّ التراضي.

اختصر المحامي الطريق أمامهم وأمام محاميهم:

- موكّلتي سهلت لكم كلّ شيء. تبيعون، هي تشتري، تشترون هي تبيع... ولا أعتقد أنَّ هناك عرضًا مشابهًا لهذا، وإلا ستستمرّ مالكة لأكثر من ٦٠٪ من أسهم المطعم، أي المسؤولة الأولى. وإذا شئتم القضاء، أنتم تعرفون جيِّداً أنَّها ستربحكم بلا أدنى شك. وكما تعرفون أنَّ محاولاتكم استخراج وثيقة تثبت أنَّها مختلة عقليًّا

ولا يؤخذ بوصيتها، باءت بالفشل. السيّدة دنيا كانت تتوقّع حدوث شيء كهذا، فسارعت إلى استخراج وثيقة تثبت تمتّعها بكامل قواها العقليَّة.

رأيت في عيونهم حقداً دفينًا واستسلامًا مكرهًا لقدر كان أكبر من خبثهم. بعد يومين جاءت العائلة بكاملها عند المحامي ثم الموثّق ليرسِّموا عمليَّة الشراء. كنت أعرف أنَّ الطريق سيكون مسدوداً والعمل معهما مستحيلاً. اعتذرت كثيراً من مامي، وكنت مدركة أنَّها لن تعارض وتعفيني من حرب كانت في الجوهر حربًا خاسرة. عندما وصلتني حقوقي، قسمت الكلّ إلى ثلاثة أقسام: الأول بعثت به إلى القدس للمدرسة التي أوصتني عليها مامي، واحتفظت بقسط في البنك، للسنوات القادمة لتدعيم المدرسة أطول مدّة ممكنة، قسط ثالث أرسلته لمركز الأبحاث، في مرض السرطان. أعتقد أنِّي بهذا أكون قد أسعدت مامي دنيا.

ذهبت مرّتين مع لودميلا لمطعم مامي دنيا. كان الجوّ محزنًا ولكن لم يكن بمقدوري أن أخوض حربًا خاسرة لم أكن قادرة عليها. الشيء الوحيد الذي أخرجته من المطعم، بحسب الاتّفاق مع المحامي، هو بيانو ريشاردسن، فأسديت لهما خدمة جليلة. وبعدها بأيام قلائل، دُعيتُ لاستلام لوحات الفنّانين العارضين في مطعم خالتي، وكانوا من مونتسوريا. عندما اعتذرتُ لهم، قدروا الوضع بعدما عرفوا مآل المطعم الحزين.

وقفت أنا ولودميلا عند المدخل طويلاً. حزنت كثيرًا أنَّه لم يعد هناك شيء يحيل إلى حالة من الحياة والأناقة التي كان عليها. لم نسمع موسيقى، ولكنَّنا سمعنا ضجيجًا، وصراخ الزبائن، وهم يتنافسون على الأمكنة المطلّة على الشارع، والشباب وهم يترافسون في الزاوية التي خُصّصت للألعاب الإلكترونيَّة العنيفة. العقل الذي كان يسيّر المطعم كان عقلاً يبحث عن ربح سريع، أكثر من ربح صديق أو زبون جميل. لم تعد في المطعم أيّ ممرات داخليَّة، واحتلّت طاولات الأكل كلّ فضاءات التهوية الفارغة. حتى فضاء البيانو الذي كان يمنح لمحبّي الموسيقى فسحة للهرب من ضيق الحياة والانكسارات الداخليَّة، وضعوا مكانه العديد من الطاولات بعد أن نُزعت النخلة التي كانت تظلّل المكان. حتى اسمه تغيَّر وصار ملائمًا للتغيرات التي حصلت فيه: من **دنيا** إلى **عند ماجدة وسارة، أكل شرقي سريع Chez Magda & Sara,** oriental fast food. صار المطعم يعجّ بالناس العوامّ القادمين من كلّ الجهات. وحُوِّلت القاعات الثلاث إلى صالة واحدة، لا يسمع فيها إلا ضجيج العمّال والأواني وهي تنزل على الطاولات، وتُسحب من مكانها، أو وهي تُغسل في الزاوية المظلمة لأنَّ جزءاً من المطبخ ضُمَّ إلى الصالة.

لم يدم الوضع طويلاً، لأنَّ كلّ ما ربحه المطعم من زبائن عبر السنوات، خسرته الإدارة الجديدة التي لم تعرف كيف تربح محبّي المكان. بعد سنة واحدة، أعلن المطعم إفلاسه، ولم يعد الزبائن يغطّون المصاريف المتزايدة. فقد هجره الأصدقاء والفنّانون والذين تعوَّدوا

عليه، وانتقلوا إلى مطعم القنديل، المنافس له. اشتراه فيما بعد، صاحبه الأوّل، اللبناني، بنصف ثمنه، وحاول أن يعيده إلى سابق عهده ولكنّه لم يستطع. طلب مساعدتي ومساعدة لودميلا، لكن لا واحدة منّا كانت مستعدّة لذلك فاعتذرنا. قالت له لودميلا:

ـ تستأهل كلّ خير، أنت رجل طيّب، وأنا متأكّدة من أنّك ستجد مسلكًا آخر لهذه الأزمة التي لن تكون إلاّ شيئًا طارئًا. نتمنّى لك كلّ النجاح، لكن عذرًا، المطعم بصورته الجميلة مات مع السيّدة دنيا. من الصعب عليّ الآن الجلوس على مقعد البيانو ـ بار، والعزف. ومن المستحيل على مي أن تعيد ترتيب قاعة العروض الفنّيّة من جديد، كما كانت تفعل بكلّ حماس. كلّ شيء انكسر. حقبة وانتهت بموت صاحبة المطعم الحقيقيّة، وعلينا أن نقبل بهذا القدَر القاسي.

لم يخبِّئ حسرته وحزنه.

ـ حتى أنا لم أعد متحمِّسًا. فقد خرّبوه في العمق، واستعادته، كما كان في أيام عزّه، تحتاج إلى عمل كبير وتغيير جذريّ في هندسته التي شُوِّهت، واسترجاع الزبائن. بدونكما يكاد يكون الأمر مستحيلاً.

كان لبنانيًّا طيِّبًا ومحبًّا للفن، ولكنّ مصالحه العليا كانت لها الأفضليّة في سلّم الأولويّات. لم يكن مستعدًّا لإفلاس جديد. لم تستمرّ حيرته زمنًا طويلاً، فقد دفعت به براغماتيّته إلى إيجاد الحلول

المناسبة. أعاد تركيبه من الداخل، بعد أن هدم كلّ حيطانه العازلة، وحوله إلى فضاء لعرض السيارات اليابانيَّة الأخيرة التي بدأت تغزو السوق وتزعج الصنّاع الأميركيين. كان سعيداً بعمله الجديد.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الثلاثاء ٩ نوفمبر ١٩٩٩

البارحة لم أستطع كتابة أيّ شيء في كرّاستي النيليّة. فقد أنهكتني الأدوية الكثيرة. شعرت بتعب كبير أقعدني في الفراش ولم يمنحني أيّة لحظة للراحة. آلمني أنّ شعري بدأ يتساقط كأشجار الخريف الميتة. وأصبح العمر جافًّا كأنّه حطبة ميتة مرميّة في قفر بعيد. لقد وجدت لذّة كبيرة في تصفية حساباتي القديمة في سباعيّة **حداد الذئاب**. لوّنت كلّ الضباب الثقيل الذي كان يتماوج في داخلي.

جشع خالتيّ وضعني مباشرة داخل السواد والألوان الثقيلة، ووجهًا لوجه أمام الوحش الضاري الموجود في داخل كلّ واحد فينا.

عندما غرقت في تِيمة : **الأرض الميتة**[١] التي لم أجد لها إلا اللونين الأسود والرمادي، كنت في صلب الأرض الجافّة والمشقّقة التي كنت أمشي عليها وأنا أرسم قبح خالتيَّ وزوجيهما. لم أستطع أن أقاوم الخيبة البليدة، والألم الذي ظلّ يثقل كلّ حركة من حركاتي ليدفع بي، في النهاية، نحو هاوية المورفين. المورفين؟ لا. كنت مصمّمة أن لا أعود له. أغمض عيني بحثًا عن راحة غائبة، وأرفض بشدّة جنّة المورفين، فقط لأثبِّت لنفسي أنِّي أستطيع أن أداوي القبح والألم باللون فقط. كان اللون مساحتي الوحيدة للسكن في بهاء النور والبياض اليتيم.

على الرغم من مقاومتي، فقد بدأ بعض الظلام يسكنني. ظلام كنت رافضة له في أعماقي. حدث لي تقريبًا ما حدث لمامي دنيا. وكان عليَّ أن أقنع نفسي بارتداء الباروكة التي جاءني بها يوبا، إذا أردت أن أبدو مثل جميع النساء، ظاهريًّا عل الأقلّ. أقنعت نفسي بجدوى ذلك. وعندما رأيت وجهي في المرآة، لاحظت أن الباروكة لم تكن شيئًا سخيفًا. فقد كانت بنفس لون شعري. ذوق يوبا رفيع. هو يعرف جيِّداً أنِّي أكره الألوان الصارخة، ولهذا لم يجد أيّ حرج في إهدائي باروكة مثل لون شعري. في البداية لم أتقبَّل حتى فكرة التفكير في إهدائي باروكة. قلت: هذه أنا، من أرادني هكذا فأهلاً به، ومن أراد غير ذلك فليبحث عنِّي في ألبوم صوري القديمة الموجودة في

---

١ ـ اللوحة موجودة بمتحف طوكيو لفن القرن العشرين. في الرواق العاشر من قسم الفنون المعاصرة. رقمها في المتحف: .MTCA-S/90654Tok رقم الشراء المزادي المسجل في معرض نيوجيرسي: .TOK.M.EARTH.DEATH/MAK/45-543-5.

كلّ مكان في الأنترنت. لكنّي سرعان ما تآلفت مع أوضاعي المستجدة. كنت أدرك أنّ يوبا كان يرفض أمّه مستسلمة لمرض يقتل اللمعة في العين قبل أن يجهز عليها. ربما كان يتخيّلني من القوّة أكثر ممّا كنته بالفعل. أصرّ عليّ:

ـ أعرف أنّ شخصيّتك قويّة يا يمّا، وأنّك ستقولين طزّ في من يراني خارج أعمالي. ولكنّي أريدك أن تظلّي في حالة إشراقك. جرّبي ولن تخسري شيئًا أبدًا؟

ـ لا أظنّ أنّ ذلك يغيّر شيئًا في نظام الأشياء. المرض يأكلني والعلاج الكيميائي أكل شعري، وربما يكون قد أحرق حتى الجذور.

ـ يغيّر في نظرة الناس إليك. فقد تعوّدوا عليك في قمّة فرحك وجمالك. ولا يمكن أن تذهبي منكسرة. جرّبي فلن تخسري شيئًا.

لست أدري ما الذي ذكّرني بكوني، ولكنّي شعرت به قريبًا منّي أكثر من أيّ زمن مضى. كوني منحني في حياتي الخاصّة ما لم يمنحه لي أيّ رجل آخر. فقد غمرني بحبّه وجنونه الذي كان عليّ أن أبذل مجهودات مضاعفة لتحمّله ولا أعدّ له إلا لحظات الصفاء الكبيرة، وأحاول جاهدة أن أنسى كلّ حماقاته الكثيرة. أقول في خاطري كلّما صفا قلبي تجاهه: مجنون ولا يقصد أيّ أذى، فوق كلّ هذا يحبني.

منحني الحبّ والرغبة في المقاومة والتضامن المتزايد مع الحياة. لم يكن مخلوقًا عاديًا، وإلاّ لتحوّل إلى مجرّد توتو صغير كما كانت تقول

مامي دنيا عن أزواجها، أو إلى زوج يأكل البؤس كلّ يوم فيه مساحة جديدة من النور الخفيّ. في البدايات، لا يخرج للعمل بدون أن يطبع قبلة على شفتيّ، ومع الزمن، يعوض ذلك بقبلة على جبهتي. بعد عشر سنوات أُخَر، يخرج بدون أن يلتفت وراءه لتصبح تلك عادته الجديدة. وفي مساءات أيام السبت يدعوني إلى أحد مطاعم المدينة الجميلة، نتعشّى، نضحك ونعود إلى البيت مليئين بالجنون، ونُقسم بكلّ الآلهة التي لا نؤمن بأيّ واحد منها، أن لا ننام الليلة إلا إذا أفرغنا أجسادنا من كلّ بارود اللذّة الذي يملأها. ومع الزمن تنسحب هذه العادة الجميلة. ينتابنا تعب غريب من أنفسنا، فنكتفي بالتجوُّل في المدينة قليلاً أو مشاهدة التليفزيون في البيت، ثمّ ننكفئ في الفراش نلصق الظهر بالظهر فقط لكي لا نبرد. وبعد سنوات، حتى هذه العادة الميتة، تنطفئ وتعوّضها عادة الخروج أيام الآحاد إلى أسواق السوبر ـ ماركت. نشتري كأيّ زوجين معتوهين حاجاتنا الاستهلاكيَّة، ثم نعود إلى البيت ونحن نناقش غلاء الأسعار ونفصِّل طويلاً في الحديث عن الماركات الجيّدة التي يجب التنبّه لها والتسلّح لشرائها في المرّات القادمة. في البيت، لم نعد نملك ما نتقاسمه، فينكفئ كلّ منّا إلى شأنه الخاصّ ويحاول أن يحلم لكي لا يموت بالوحدة القاتلة. لمعة الجنون التي كانت تبرق في عيني كوني، من حين لآخر، كانت فوق ذلك كلّه، وتمنحه ما يجعله متفرِّداً من بين كلّ الرجال.

يوه... هذه الآلام قاسية جدًّا. فوق طاقة التحمُّل. تتلوّى في عمق الجسد كأفعى فاض عليها سمّها وتبحث عن جلد تخترقه لكي تضعه في عمقه.

ليكن... ليكن...

نكاية في هذه القسوة سأكتب. أحيانًا تتحوَّل الكلمات إلى أغلفة سميكة لتغطية الألم وتجبير شقوق الروح.

ياه... هل يكفي الكلام لكي يهدأ الأنين والآلام؟ أقاوم ولكنَّه صعب عليَّ تحمل التمزُّقات الداخليَّة عندما تأتي متلاحقة، وتعطيني الإحساس بأنَّ عمري الهشّ سيخرج من أنفي ومن عيني، وربما من مسامّات جلدي.

ليكن... لكن لن أعود للمورفين... لا. سأتشجّع بالنسيان...

ألحّ كوني عليَّ أن أسافر معه، ولكنِّي كنت دائمًا أؤجّل هذه الرحلة تحديداً. كان الشرق الذي فيَّ يخيفني. يأكلني من الداخل كالدودة العمياء. لم نكن، أنا وكوني، متَّفقين في الكثير من الأشياء، هو كان يريد الذهاب إلى إسرائيل بوصفها أرضًا كبقيَّة أراضي الدنيا، وكنت أريد الذهاب إلى فلسطين. فأنا عندما غادرت أرضي قسراً، كنت أعرف أرضًا يسكنها المسلمون والمسيحيُّون واليهود اسمها فلسطين، غير ذلك، لم يدخل رأسي. كان يمنّي النفس بزيارة حائط المبكى، والحفر عميقًا في ما يتخفّى من وراء ذلك كلّه، وكنت أشتهي أن أزور حائط البراق والعبور، كما كنت أفعل وأنا صغيرة مع أمّي، باتّجاه مقام سيدي بومدين لمغيث عبر معبر المغاربة. لم تكن المسألة لغويَّة ولكنَّها كانت أعمق من ذلك. خفت من عدم القدرة على تحمّل الصدمة عندما تلثم قدمي أرضًا فيَّ ولكنِّي لا أستطيع تحمُّل جرح عدم

رؤيتها كما تركتها. كم كنت أشتهي أن أزور قبر أمّي، وكبير أخوالي أبو شادي، الذي لحق بها بعد مدّة قصيرة ضحيَّة للعمى المعمّم. موته ظلّ لغزًا غامضًا. مامي دنيا تصرّ أنَّه قتل في ساحة الأقصى مع الكثير من المصلين وكان عضواً بارزاً في المقاومة، والبعض ممّن كانوا معه، يقولون إن المقاومة هي التي قتلته لأنَّها شكّت في تعامله مع بقايا الإنجليز والإسرائيليِّين حول صفقات بيع الأراضي. كان مهندس خرائط ويحتاجه الإنجليز والإسرائيليّون أكثر ممّا كان يحتاجه الفلسطينيّون. كل هذه التفاصيل لم تكن مهمّة، فخالي أبو شادي مات وترك فجوة كبيرة فيَّ وفي مامي دنيا. عندما سمعت بخبر وفاته، سامحته في اللحظة نفسها على كذبته التي منعتني من زيارة قبر أمّي. لا بدّ أن تكون المقبرة الصغيرة الآن اتّسعت، وزاد عدد الذين علينا زيارتهم والوقوف على شواهدهم. موته لم يمرّ عليَّ بسهولة. فقد ورَّث لي عقدة كبيرة لم أستطع أبداً تجاوزها. ذنبه كان أخطر من ذنب بابا حسن، غفرته له ولم أغفر لوالدي حماقته أبداً. مات والدي ولم أستطع أن أجد له ما يخفّف عنه من أحقادي. لم أعرف الشيء الكثير عن حياته؟ فقد ظلّ مثل المحارة مغلقًا حتى مات. كم كنت أشتهي، عندما تأكلني الآلام، أن أركض، أن أركب أوّل طائرة متَّجهة إلى سياتل، وأرتمي بعد ذلك على صدره وأنسى كلّ ما حصل بيننا؟ لكنِّي تركت ذلك للزمن وحده، الذي لم يعرف كيف يسيّر تفاصيل الحياة المبهمة، فاختصر كلّ شيء بالموت والقلق المستديم.

في الأخير، سافرت مع كوني إلى مدينة عمّان. وعرفت كيف أندغم في عمله بمجرّد وصوله، ونسيت كل شيء يخصّني. كان

يهمّني كثيراً نجاحه. كانت بترا ومخطوطات البحر الميت ومدافن المنامة، هي سرّه وسحره. يخرج صباحًا ولا يعود إلا منهكًا ومهدودًا بعد يوم أو يومين أو حتى أربعة أيام. كنت مع رجل آخر، غير الحبيب الذي لا يعرف النوم خارج فراشنا. لم نكن في مانهاتن، ولكنِّي كنت أبحث عن رجلي الذي عرفته في نيويورك. وهذا الرجل كان سيِّد الأتربة والرفات والغبار والحجارة وممرّات بترا الضيّقة والمدهشة.

ـ كوني حبيبي، أنا تعبتُ في هذا النزل، قلت له ذات مرّة وأنا أبحث عن كلماتي بدون أن أجرحه، إنِّي أشعر بضيق كبير في تنفسي.

ـ ألم يعجبك المكان؟ كنت أظنّ أنَّك في أرضك وأرض أجدادك؟ نعود حبيبتي إلى نيويورك إذا شئت؟

ـ لا أدري إذا ما كان بمقدوري أن أسمي هذه الأرض أرض أجدادي. مات عليها الكثيرون لكن الذين استلموها لم يطلقوا، للدفاع عنها، رصاصة واحدة. لقد اندثر عند أسوارها وزيتونها وحجارتها الصمّاء، الذين دافعوا باستماتة فقط ليصلوا إلى جوامعها، أو ليروا أهاليهم ثم يعودوا إلى قلب النار. أيّ أرض يا كوني ، كلّ شيء تغيَّر ولم أعد قادرة على تحمُّل هذه التفاصيل. الذاكرة قد تتغيَّر بفعل الجغرافيا والتاريخ كذلك. ماذا سأقول لابني عندما يكبر؟ وماذا سأحكي له؟ عن أرض لم تعد موجودة وعن ناس لم أعد أعرف أماكنهم؟ لا أملك شيئًا. هل سأحدِّثه عن أرض أصبح يسكنها آخرون وعمَّرتها أقوام وأجناس جاءت من كلّ أصقاع الدنيا؟ أريد فقط

أن أشمّ رائحة هذه الأرض من بعيد، أن ألمسها بشفتيّ ورؤوس أصابعي، ثمّ أغمض عيني، ثمّ أتخيَّلني في داخلها وأنا طفلة تبحث عن أدفأ مكان لتمارس حماقاتها الأولى.

ـ أدرك جيِّداً أنّي حصرتك في هذا المربّع الضيق. كثرة أعمالي لا تترك لي أيّ فرصة للراحة. أنا في سباق محموم مع الزمن. سنذهب إلى نهر الأردن، ونقضي النهار في البحر الميت. ترينه وإذا كان الجوّ جيِّداً، سترين جزءاً من أرضك، ولو من بعيد.

ـ أتمنّى فقط أن أفتح ذراعيّ على وسعهما، وأوقظ كلّ حواسّي للإصغاء الجيِّد، وأغمض عينيّ وأستمع إلى الأصوات التي تأتي من هناك. من تلك النقطة بالذات التي لا يراها أحد غيري. أتلمّس النداءات التي تنام في قلب الناس منذ عقود. أتمنَّى أن أرحل ولو بروحي وآخذ حفنة من تراب القدس وأشمّها، ثم أزربعها على الفراش وأتوسَّدها كأيّ درويش مأخوذ بسحر المبهم. أحلم أن أقطف كلّ نجوم الدنيا، وأرصّع بها كلّ زوايا بيت المقدس وقبر أمّي. أعرف أنَّ غيابك في صلصال البحر الميت وممرّات بترا يأكل كلّ وقتك، وغضبي من ذلك ليس إلا سبباً واهياً. الذي يقتلني هو الإحساس بهذا التلاشي لذاكرة سقط الآلاف من أجلها وبعدها، كأنَّها لم تكن؟ أتساءل أحياناً إذا كانت تستحقّ منّا كلّ هذا العناء؟

كوني كان يشعر بحزني، ولم يكن يريد الدخول في التفاصيل التي تؤذيني. على عكس ما يبدو عليه ظاهريًّا، كان يعرف كلّ شيء ويملك حساسيَّة مرهفة تجاه ما يشغلني عميقاً. لكنّ بوهميّته توحي

بأنَّك أمام درويش، ربّما ذلك هو ما جعله محبوبًا لدى كلّ الناس، من الإداريّين الذين يسهّلون له وثائق البحث، إلى الرعاة الذين يرافقونه في رحلاته باتّجاه بترا، أو ضفاف البحر الميت.

في أعماقي، تمنَّيت لو لم آت إلى عمّان. لم أشعر ولا في أيَّة لحظة أنَّ الأرض التي مات عليها أجدادي كانت ترحِّب بي. في المطار سألني الشرطي وهو يقرأ جواز سفري: مي... فلسطينيَّة؟ أجبته بلا تردُّد: أميركيَّة. نظر إليّ بعينين حادّتين: أسألك عن أصلك. قلتُ: أميركيَّة. ولا أدري إذا ما كنت أنتقم منه أم من نفسي. أميركيَّة. نعم؟ تلك أرضي ولا أعرف غيرها. ولا أدري إذا كنت بالفعل صادقة ولو جزئيًّا، أم أنِّي كنت أعبّر عن صراخ ظلّ مدفونًا في أعماقي وعن نداءات لم يسمعها أحد؟ لماذا أخرجتم السكّان من القدس وقلتم لهم بأنَّ طلائع جيش الإنقاذ ستقوم بتطهير المدينة من اليهود ثم تعيدها لكم؟ بدل أن تطهّروها من القتلة رحتم تفتكون بالناس باسم الدين. في الأخير، سلّموكم الضفّة الغربيَّة، فحللتم جيش الإنقاذ، وعاد كلّ فيلق إلى بلده بضمير مرتاح، وأنَّه قدم ما عليه، ليش؟ ليش؟ فوجئ شرطي الحدود بتمتمتي. هدَّأ من روعي بلغة إنجليزيَّة منكسرة: سيِّدتي، أنا لم أقل شيئًا غير لائق؟ عندما رآني كوني على هذه الحالة، هدّد بالاتصال بوزارة الداخليَّة والسفارة الأميركيَّة، فهو يملك رخصة للعمل في آثار المدينة وأنَّه لا يقبل أن تُهان زوجته. لم يكن الشرطي يعرف ما كان يدور في رأسي وإلا لأرجعني من حيث أتيت. في النهاية تركونا نمرّ، ولكنِّي في أعماقي تمنَّيت أن أعود في أوّل طائرة،

حتى في تلك الذاهبة إلى جهنّم. حاولت أن أنسى. باستثناء كوني، لم يكن أحد قادراً على قراءة جرحي.

على حوافّ البحر الميت نسيت كلّ شيء، حتى وجه الشرطي. شممت رائحة القدس وحليب أمّي وأحسست بطعم القهوة المسائيَّة على لساني. كان الضباب يلفّ المكان الذي نزل عليه البرد فجأة. عندما أغمضت عيني وجدتني أدور في الحارات القدسيَّة حارة حارة، وبابًا بابًا: الحرم القدسي الشريف وقبّة الصخرة والمسجد الأقصى مع باب الرحمة الذي لا أدري ماذا بقي منه اليوم، حارة الشرفة وحارة اليهود في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة، وحارة المغاربة مع باب المغاربة، ثم حارة الأرمن وباب النبي داوود وجبل المشارف، وحارة النصارى في الجزء الشمالي الغربي من المدينة وكنيسة القيامة والباب الجديد، وحارة السعديَّة وحارة باب حطّة .... وغيرها... ماذا بقي اليوم من كلّ هذا الإرث؟ لا أدري ولا أريد أن أعرف حتى لا أصير مثل الجرس المعلّق في كنيسة مهملة، كلّما مسَّته يد تداعى ألمًا ثم هدأ على أنينه وحزنه. طنَّت في رأسي كلمات مامي دنيا. حاولت أن أتماسك وأن لا أبكي. شعرت بعبثيَّة الحياة. لم يكن بيني وبين تربتي إلا خطوة باتجاه الضفّة الأخرى من نهر الأردن، أو تحليق بسيط باتجاه الجهة المقابلة من البحر المثقل بالأملاح والأسرار. ليست الأملاح هي التي أثقلت هذا البحر، اعوجاج الأرض وخراب منطق الأشياء هو السبب. كنت حزينة لأنّ كوني وجد ضالّته وأحجاره، وكان يظنّني وجدت بعضًا من أشواقي القديمة. فقد وجدت ألمًا طاغيًا وقدرًا لا

يطاق من الأحزان والجراح المرتّقة والمفتوحة من جديد. كلّما عبرت حوافّ البحر الميت أو المرتفعات المطلّة على نهر الأردن، انتابتني الرغبة برمي نفسي كالشراع الهوائي، في عمق أليم والفراغ. هل يعلم الذين لهم وطن قسوةَ أن تكون أرضك على مرمى حجر، ولا تلمسها حتى بعينيك؟

مع ذلك، فقد منحني كوني فسحة للذهاب بعيداً في عمق أشواقي.

كوني كان فنّانًا مغامراً في كلّ شيء. يركض وراء الأتربة والمخطوطات الضائعة. ساعدته كثيراً في رحلته لعمان. زرت معه مركز الوثائق لمعرفة تاريخ المنطقة. في النزل، وضعني أمام جبل من الأوراق المصوّرة، كان عليّ معرفتها وتدقيقها ودراستها وكتابة ملخّصات عنها، خصوصًا تلك المكتوبة بالعربيَّة. لم يكن يريد أن تفلت منه تفاصيل الأشياء. وجدت أنَّ العالم الذي أنتمي إليه لم يكن عالمًا مثاليًّا. عالم من الغموض والمبهم، والمقدّس، والاقتتال القبلي والنظم الغريبة. عالمي كان أبسط وربما أجمل، عالم تتداخل فيه الألوان والحساسيّات المرهفة. عالم لا تدخله الشمس كلّ يوم فقط، ولكن في كلّ ثانية. يستيقظ عليها وينام على أشعّتها.

قال كوني عندما رآني غارقة:

ـ عذراً حبيبتي، أقلقتك بشيء ربما كنتِ ترفضين العودة إليه.

ـ لا تهتمّ. تقول مامي دنيا: الهمُّ يفني ولا يقتل. أتعلّم كثيراً من هذه الوثائق. عندما تنتهي من عملك سنعود، اشتقت إلى بارِنا

في مانهاتن، والجاز في ظلمة الحانات المليئة بروائح البيرة والويسكي والأدخنة القويَّة، وفراشنا الدافئ. أفتقد ليتل ـ إيطالي، وبروكلين وجسرها، ووجه لودميلا. اشتقت إلى كلّ ما يبعدني عن هذه الآلام التي قتلت سيِّدنا المسيح.

ـ مي... أنتِ تهربين من عالم ينام فيك وكلّما استيقظ، شعرتِ به جرحًا عميقًا. كنت أفكّر أن ندخل من هنا إلى إسرائيل، أو فلسطين، لا تهمّ التسميات، الأرض نفسها. لا شيء يسطّح الأحاسيس إلا كثرة النعوت والتسميات. وكنت أتمنَّى أن تري أهلك وتلمسي طفولتك.

ـ لا. قلتها ببرودة كبيرة. لا أحد لي هناك إلا القبور، ولا أريد أن أرجع لكي أزور القبور فقط ثم أنزوي مع أشباحي وأبكي. أريد أن أرجع نحو مدينة تمنحني الحياة وتغبطني في طفولتي الجميلة. أريد أن أرى مدينة تكون فيها أمّي هي أوّل المرحّبين بعودتي. أخاف. كيف سأتعامل مع من طردني من أرضي وقتل أمّي وأهلي؟ لست حقودة ويمكنني أن أغفر وأنسى، ولكنّ الألم ما يزال حيًّا، والجرح مفتوحًا. أستغرب من شعوب قُهِرت وكادت تنقرض، تمارس اليوم الشيء نفسه مع شعوب أخرى ليست في الأصل عدوّة لها، وليست هي من تسبّب في مآسيها؟ لا أفهم؟ اليهودي الذي بكته جدّتي عندما اقتيد لحمّامات الموت والهولوكوست، وبكاه أخوالي وأمّي، هو نفسه الذي قتلهم ونكّل بهم واحتلّ بيوتهم؟ وكأنَّ الحروب لا تعلِّمنا إلا كيف نصمت موقّتًا ثم نعود مدجَّجين بالأحقاد العمياء ضدّ كلّ من ليس

نحن، كيف نفسِّر ما يحدث هناك؟ ربما كان والدي على حقّ عندما أغلق كلّ الأبواب التي تأتي منها رياح الشرق، ليتفرَّغ نهائيًّا لموته. فقد كان يعرف، أكثر منّا جميعًا، أنَّ زمنًا انسحب ومات، وأنَّ زمنًا آخر كان قيد التكون، لا أحد يعرف ملامحه ومؤدّياته وناسه الذين سيسيّرونه.

ـ يجب أن نكون موضوعيّين يا مي. العرب كذلك لم يكونوا طيّبين مع اليهود. رفضوا كلّ الحلول والمقترحات التي قُدّمت لهم.

ـ حبيبي كوني ، لا يمكنك أن تفهم مقدار العناء والشطط. لا أتصوَّر أنَّ الموضوع يُطرح بهذه الطريقة. المشكلة أحيانًا أبسط من كلّ التحاليل المعقَّدة. هناك شعب مسالم مكوّن من مسلمين ومسيحيّين ويهود، يُطرد من أرض عاش فيها قرونًا متعاقبة وهي جزء حيوي منه، ويُستورد شعب من الخارج لا علاقة له بتلك الأرض. هذا هو جوهر المشكل. الكثير من الذين وفدوا من أراضي الدنيا اغتصبوا حتى حميميَّة اليهودي الطيّب وابن البلد، الذي توارث تلك الأرض أبًا عن جدّ.

ـ الشعب اليهودي.

ـ أنا لم أعرف فلسطين أخرى، بكلّ مشاكلها، إلا فلسطين التي سكنها العرب واليهود والمسيحيّون، ولا أرى أي مشكل في ذلك، كلّهم فلسطينيون. اليهود المقيمون في أرض فلسطين أبناء البلد، ولا يوجد عاقل في الدنيا يطالب بطردهم أو رميهم في البحر. المشكل ليس في اليهودي ابن تلك الأرض، ولكن في الذين لم يعيشوا يومًا

واحداً في فلسطين، وجاؤوا غازين، قتلوا وسرقوا وأبادوا وأضافوا مسامير جديدة في تابوت الأحقاد الذي لن يخفت أبداً. يا اللّه حبيبي أنت باحث، خلِّك من همٍّ السياسة. إذا أردت الذهابَ، افعل ذلك وحدك، سأنتظرك في عمان، وأحسدك في أعماقي كما أفعل عادة مع من أحبّهم.

في الليل عندما مشيت في شوارع عمّان بصحبة كوني، هو الذي أخرجني من ضيق الغرفة، شممت رائحة تأتي من بعيد، تشبه رائحة القهوة المسائيَّة التي كانت تعدّها جدّتي. كانت لا ترتاح إلا إذا اجتمعت كلّ العائلة حول قهوة مسائيَّة كانت إيذانًا بأنَّ كلّ العائلة في مأمن وبخير. شممت رائحة ياسمين البيوتات القدسيَّة في حارة المغاربة. يقال إنَّ أجدادنا الأوائل الذين أتوا من الأندلس، مسلمين ويهوداً، هاربين من دمويَّة محاكم التفتيش المقدّس، أتوا بالياسمين من إشبيليا ورموه على هذه التربة التي يلتصق بها كلّ شيء جميل ومريح، فنبتت مع فصل الربيع، عندما بدأت الشمس الدافئة تبزغ بأشعّتها الهادئة.

كانت عيناه هاربتين في أفق ملتبس. أحسّ كوني بأنيني الداخلي. لأوّل مرّة أشعر به جادًّا. كانت عمان قد بدأت تضيق على رؤاي وقلبي:

ـ مي، هل لي أن أسألك سؤالاً سخيفًا؟

ـ لا توجد أسئلة سخيفة. الخوف من السؤال هو الشيء السخيف.

ـ تشتاقين إلى أهلك؟

ـ لا أدري. وحياتك لا أدري. أحيانًا أتمنَّى أن أرحل في أول طائرة وأعود إلى المدينة التي منحتني السعادة والأشواق. أشعر بحالة اختناق لا أعرف مصدرها. اليوم بكامله ظللت على هذه الحالة. تخيَّل أنا الأميركيَّة، الفلسطينيَّة روحًا وقلبًا، لا حقّ لي في الدخول، وإذا دخلت سأذهب إلى أين؟ الزمن تغيَّر، حاراتنا رحلت. ومن أذعن للأمر الواقع يتمنَّى أن لا يُزعج في راحته. تخيّل امرأة تأتيهم وتتحدَّث لهم عن فلسطين ٤٨؟ من سيصدِّقها؟ أيّ أناس سيتحدَّثون إليها؟ أيّ قوّة وقتها تستطيع أن تشدّها إلى الأرض التي تقف عليها. ألسنا في عمق لوحة عبثيَّة وخرافيَّة تمامًا؟

ـ أعرف شعورك ولهذا لا ألحّ عليك كثيرًا، ولكن على ظهرك ديْن الحِداد مع طفولتك، وعليك أن تعيشيه لكي تتخلَّصي منه؟ تعرفين جيِّدًا أنَّ الذاكرة عظيمة، رابطنا القويّ الذي يجعل الحياة تستمرّ بعد موتنا، ولكنَّها أيضًا مرض مزمن، إذا لم نعرف كيف نوقفها عند حدّها. فكِّري جيِّدًا؟ لا يمكنك أن تستمرّي هكذا. زيارة الأماكن التي تتفادين اليوم رؤيتها قد تكون مثل المنبّه لهذا الخطر، وتدفع بك إلى فقء الدمّلة نهائيًّا.

ـ المرض فيّ وليس في غيري. أحمله على جلدي وفي دمي. ومن قال لك إنَّني أريد أن أتخلَّص منه؟ مشكلتي هي هذه؟ أتساءل أحيانًا إذا كنت حقيقة أريد أن أنسى؟ مامي دنيا عاشت عمرها كلّه في نيويورك، وعندما داهمها الموت، قالت لي جملة ما تزال تطنّ في

رأسي تمنيت يومها أن لا تصل إلى والدي، حتى يعيش وحدته الداخليَّة بنوع من الراحة التي اختارها: لو لم أمنح جسدي للطبّ، لقلتُ لك انقليني إلى القدس، إلى تلك الأرض، ربما كانت أقلّ توحُّشًا. ولم أكن قادرة على أن أقول لها إنَّ كل من يغادر أرضًا يحتلّها بالضرورة صدى آخر، مخالف له في كلّ شيء، حتى في تنفُّسه وأحلامه.

في الليل عندما عدنا إلى النزل، تعشّيت أنا وكوني بصمت. كنّا خارج صخب السيّاح الذين كانوا يملأون المكان. أوّل ما وضعت رأسي على صدر كوني، نمت ولم أحلم بأيّ شيء، لا بأمّي ولا حتى بأرضي التي كانت على مرمى القلب والعين والأصابع، ولكنّي شممت رائحة الياسمين الإشبيلي، وملوحة البحر الميت القاسية والحادّة جدًّا.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الخميس ١١ نوفمبر ١٩٩٩

حياتي مع كوني لم تكن دائمًا طيِّبة كما اشتهيت، ولكنَّها كانت حيَّة، أحيانًا مليئة بالجنون الذي لا حدود لتيهه، على الرغم من أنَّه غرق في وقت مبكّر في **طين البحر الميت**[١] الملتبس. كان يحبّ الأتربة والعظام كموادّ وموضوعات جافّة، تقول تاريخ بشر انقرضوا، وكنت أحبّ نفس الأتربة لأشمّ رائحتها، لأرى الناس وهم يتباوسون ويحبّون بعضهم البعض، أو هم يصرخون ضدّ مضطهديهم. لم تكن التربة موضوعًا للدرس، ولكنَّها كانت استيقاظًا دائمًا لكل الحواسّ الخافتة أو الميتة.

---

١ ـ لوحة اشترتها جامعة بركلي. مصنَّفة تحت رقم :UoBERK.MK.1234.kh تحت عنوان: **رؤية أخرى، أمل جديد**. وقعت مي في أسفلها بالحرفين الأولين فقط MK من اسمها: رقم الشراء المزادي لصالح الأطفال المصابين بالسرطان: /BRK.UNIV.DEAT.SEA .MKONY/675-23&12.

الحروب المتتالية عطّلت مجهوداته في تلك المنطقة. كادت واحدة منها أن تودي بحياته بصدفة ملعونة، لو لم يخرج بسرعة عن طريق السفارة الأميركيَّة في الأردن. لم يسألني أبداً عن رأيي في القتال. كان يعرف جيِّداً آلامي العميقة. بعدما هدأت الصراعات في الشرق الأوسط بعد حرب رمضان، أو Yom Kipour (يوم الغفران)، وبدأت كلّ جهة تلملم جراحاتها، عاد له حنينه إلى الخروج نحو المنطقة، من جديد.

ـ الأمور الآن استقرّت. لم يعد أكتوبر إلا شهراً من الشهور العاديَّة ولم تعد سنة ١٩٧٣ التي كانت قاسية، إلاّ سنة كغيرها من السنوات، وعُقد الصلح، ولم يعد هناك ما يمنع عودتي إلى البحر الميت والأردن.

ـ كوني حبيبي، قلتُ له وأنا أشعر برجفة داخليَّة نزلت عليّ كالحمّى الباردة، أليس من الأفضل أن تعطي لنفسك بعض الوقت؟ يمكن للوضع أن يندلع من جديد وتجد نفسك داخل كمّاشة قد لا تخرج منها حيًّا هذه المرّة؟ فكّر قليلاً قبل الإقدام على مشروع مثل هذا؟ لا أريد أن يعيش يوبا يتمًا آخر أو ضياعًا لا حدّ له.

ـ تبالغين. مي؟ هناك أشياء إذا مضى وقتها تنتهي وتموت. وأنا أريد أن أكون قريبًا بجانب كلّ ما يحدث. أسرار البحر الميت تشغلني، وأنا أركض حاليًا وراء مخطوطات مدفونة، مخطوطات البحر الميت، لقد أصبحت حقيقة ولم تعد مجرّد تخمينات. قبل أن أذهب

نحو مدافن البحرين الغريبة التي يتجاوز عمرها الخمسة آلاف سنة. لا أدري كم بقي في العمر، ولكن عليَّ أن لا أتوقَّف أبداً.

ـ وأنا داخل كلّ هذه الحسابات؟ وهذه السفرات المتتالية؟ هل لي مكان ولو صغير؟ لا أريد أن أحجزك، ولكنِّي بحاجة ماسّة إلى وجودك. أريد أن نفرح قليلاً مع بعض، أم هذا كثير علينا؟

يصمت ثم يعانقني، ولا يقول شيئًا.

عندما كنت أذرّ الملح، مخلوطًا بتربة الرخام البيضاء التي جاءني بها يوبا، على لوحة **طين البحر الميت**، كنت أفكِّر في كوني بالضبط. استرجعته بكلّ حضوره، ولمعة عينيه الذكيّتين. أتعبت يوبا بطلباتي، فقد بعثته من جديد ليأتيني بالتربة الآجرّيَّة المعجونة، التي أضفت عليها قليلاً من الماء حتى صارت رخوة، وبدأت أدخلها في كلّ الأماكن النافرة للبحر المهجور، البحر الميت.

وكلَّما ذُكِر أمامي البحر الميت، لم أر وجهًا آخر إلا وجه كوني وضحكته العالية عندما أدخلني أوّل مرّة في البحر الميت الخالي من البشر، وقال لي: ارمي بنفسك فيه، أليس هذا البحر بحرك؟ قلت نعم؟ قال: ارمي إذن بنفسك فيه! وارتميت فيه بكلّ قواي، بينما جلس هو تحت الشجرة الوحيدة في المكان، ولم يتمالك ضحكاته وقهقهاته. عندما خرجت منه، كانت عيناي حمراوين مثل جمرتين، ومنتفختين بسبب الملوحة الكبيرة التي تثقل مياه البحر الميت. لم أكن أعرف أنَّها تُدمي العيون ولهذا لا حياة فيها. ركضت وراءه. كنت أضربه على ظهره وهو يقهقه عاليًا:

ـ أرأيت يا مي؟ يجب أن نعرف كلّ شيء في هذه الدنيا. في المرة القادمة سأقودك من الجهة الثانية من البحر الميت، وسترين مقدار الملوحة هناك.

لم ألتفت نحوه، لأنّي كنت أعرف جيّداً ما كان يعنيه، وكان ثقيلاً عليّ سماعه. أشباحي كثيرة، ولم أكن في حاجة إلى المزيد منها.

ما كنت أخافه من كوني، وأحاول جاهدة تفاديه، قد حدث بالفعل.

كنت أخشى أن أرتبط به بجنون ويتركني، هو الرجل التائه في هذه الدنيا التي لم تكن دائمًا سهلة معه. لم أقف يومًا في طريقه، ولكنّه كان يشعر دائمًا بعقدة ذنب تجاهي، لأنّ أسفاره كانت تمرّ قبل كلّ شيء آخر، حتى قبل نفسه وصحّته. ولم أكن سهلة دائمًا عندما أراه يعبر العتبة، أقول في خاطري، رجل بهذا القدر من الحريّة لن يبقى طويلاً في هذا القفص الذي أسعده للحظة، ولكنّه أدخله في حياة ليست له. كلّ صباح يطلّ من شرفة البيت، ويرمي بصره بعيداً، وراء بحيرة هودسون. لا يرى إلا السفن الهاربة، وجدّه من أمّه الذي لا يتوقّف وهو يبحث عن مرفأ جديد لمدينة أخرى رسمها في رأسه ونحتها بأحلامه وأشواقه. لم يكن كوني مجبراً أن يخبر أحداً بسفره، يقرّر ثم يفعل. أشعر بقلقه المتزايد. شيء ما يسرق حرّيّته التي ورثها عن أمّه وعن جدّه البحّار المغامر. أتساءل أحيانًا إذا لم يكن زواجه لحظة مخطوفة من حرّيّته وجنونه؟

عندما رتّب أمتعته، شعرت من عينيه أنَّها المرة الأخيرة. لم أسأله. لم أكن أريد أن أثقل عليه. لا أدري ماذا حدث لي، ولكنِّي شعرت بعطف نحوه. لم يكن مرحًا كعادته. كان صامتًا وكأنَّه كان يستعدّ للذهاب نحو الموت. كلّ شيء فيه كان يوحي بقلق ضامر. عندما انتهى، قبّلني بصمت وخرج. بعد ساعة سمعت صوته من وراء التليفون:

ـ حبيبتي هل لديك بعض الوقت. لأوّل مرّة أسمع منه هذا الكلام.

ـ طبعًا حبيبي. قل لي ماذا تريد؟ أنت بخير؟ أين أنت؟

ـ أنا في بارنا المعتاد، أسمع إلى الجاز، أتمنَّى من قلبي أن تأتي. أعرف أنَّك متعبة ولكنِّي سأكون سعيداً لو بذلت مجهوداً قليلاً للالتحاق بي.

لم أفكِّر طويلاً. لملمت يوبا في غطاء خشن، فقد تعوّد على نظامنا وفوضانا، وركبت سيّارتي وركضت وراءه. شعرت به رقيقًا وحسّاسًا مثل المرّة الأولى عندما منحتنا الصدفة لقاء جميلاً.

عندما وصلت وكنت أرتدي ـ مثلما يشتهي ـ فستانًا ربيعيًّا، ذا لون بنفسجي، ووضعت على ظهري معطفي الإيطالي الخشن. سلّمت يوبا للسيّدة البورتوريكيَّة التي كانت تقوم بهذه المهمّة في المطعم ـ بار لإبعاده عن الأدخنة. أعتقد أنِّي كنت جميلة ومثلما كان يشتهي كوني أن يراني في ذلك اليوم الأخير. عندما وصلت، رأيت

السعادة تخرج من عينيه ملفوفة في مزيج من الهشاشة. عانقني طويلاً، كأنِّي عدت من سفرة من آخر الدنيا. تساءلت: ألم أكن في آخر الدنيا؟

ـ مي، أنا خائف؟

ضحكتُ. شعرتُ بأنَّ الكؤوس التي شربها في غيابي فعلت فعلها.

ـ كوني، لا تكن مجنونًا أنت شربت كثيراً وكان يجب عليك أن تقلِّل من حماقاتك، أو على الأقلّ أن تنتظرني. تشرب لوحدك يا مهبول؟

كان كلّ كلامه يثير فكرة الموت، ونهاية الأشياء الجميلة وقصر عمرها، والرحلة التي لا تتوقّف والطيور المهاجرة. كنت أظنّ أنَّها حالة متولّدة عن الشرب والسجائر المدوّخة، التي عرفت من أدخنتها وروائحها أنَّها كانت محشوّة بالقنّب الهندي.

ـ سأسافر.

ـ ليست المرة الأولى.

ـ سأذهب إلى أبعد نقطة في الدنيا.

ضحكتُ:

ـ قصدك قلبي؟

أسدل عينيه وكأنِّي وطئت على أعمق جرح حسّاس فيه.

ـ إلى البحرين للبحث في المدافن والقبور التي تملأ البلد. أكثر من مائة مدفن. هل تعرفين أنَّ البحرين لم تكن أكثر من مدفنة للأراضي الأخرى. تخيَّلي مدينة لا وظيفة لها إلا استقبال الموتى؟ شيء يستحقّ أن نقف عنده، على الأقلّ لفهمه. وقد أعود من جديد إلى البحر الميت ولكن هذه المرّة من الجهة المقابلة...

ـ قصدك إسرائيل؟ ليكن. ليست المرة الأولى التي تسافر فيها إلى إسرائيل. طيِّب وهل هذا يحزنك؟ أم أنَّ غيابي هو الذي يؤذيك؟ أعرف أنَّك ستشتاق إليَّ كثيراً. أنا كذلك سأفتقدك حبيبي. لا تهتم، اشرب ودخّن كما تشتهي، وسافر، المهمّ أن تعود بكلّ سلام. احذر من أن تزوغ بعينيك، من هنا وهناك. لو سمعت أنَّك مع إحداهنّ، سآكلك.

استلّ ضحكة متعبة من أعماقه. كنت أريد أن أدخله في جوّ أكثر بساطة وأكثر هدوءاً وأن لا يشعر بعقدة ذنب تجاهي، ولكن ما كان في رأسه، فشيء آخر، لم أكن قادرة على الوصول إليه لحظتها.

ـ طبعًا غيابك يؤذيني ويؤلمني، ولكن كنت أريد أن أقول شيئًا آخر ضيَّعه حبّك منّي. معك، على الإنسان أن يتسلَّح بحب شاهق وبذخ عاطفيّ كبير، لكي يستطيع دفعك إلى الإنصات إليه. ليس مهمًّا حبيبتي... ليس مهمًّا... الدنيا لا تمنحنا إلا ما نسرقه منها.

ـ وأنا سعيدة لذلك.

لم يقل أكثر من تلك الكلمات، ولكنَّه شرب كثيراً وحشَّش بشكل مقلق، وأشركني في جنونه بعض الشيء. عندما عدنا إلى البيت كان بالكاد يستطيع الوقوف على رجليه. عدنا في سيّارتي لأنَّه لم يكن قادراً على القيادة. أكثر من ذلك، لم يجد مكان توقّف سيارته. لم يتذكَّر أين تركها بالضبط. درنا طويلاً في الفراغ وضحكنا كثيراً لأنَّ كلّ شوارع نيويورك بدت مسطَّحة بعد المطر ومتشابهة. أعادتها لنا الشرطة بعد يومين، بعدما لاحظوا أنَّها لم تتحرّك من إحدى زوايا شارع برودوي مدّة طويلة. كانت ليلة جميلة مارسنا فيها كلّ الحماقات التي اشتهينا، وزاد السكر فضول اكتشاف أجسادنا المغلقة. الحشيش الذي لم يكن سيِّئًا بالشكل الذي تصوَّرته، جعلني أحلّق معه على نفس الوقع ولم أكن أبداً غريبة عنه. حالة من الفيض كانت تصل حدّ الجنون. عندما استفاق قبلي بقليل، تأمَّلني بعيني طفل سُرقت منه أمّه. تمتم... كنت أريد أن أقول شيئًا آخر... كنت أريد أن ... لم أرد أن أقاطعه كما تعوَّدت من حيث لا ينتظر. صمتَ قليلاً متأمِّلاً السقف. كانت نظرته فارغة، تبحث عن شيء لم يكن قادراً على إيجاده. ثم بكى بدموع حارّة. كنت أعرف أنَّه سيسافر طويلاً، ولهذا خطّطت لتوديعه في المطار كما أشتهي أنا، على الرغم من رفضه لهذه الممارسة. يقول دائماً عندما أطلب منه ذلك:

ـ لا يا حبيبتي. عندما أسافر لا أريد أن ألتفت ورائي، كلّما التفت زادت رغبتي في العودة من حيث أتيت. أنا إنسان حسّاس. لا أستطيع أن أركب الطائرة وأترك ورائي عيونًا ترفرف وحدها من أجلي.

يورثني ذلك عقدة كبيرة من الذنب. جريمة في حقّ من يودّع وليس من يسافر. لا.

هكذا كنت أنوي، أن أكسر حجرة أخرى من نظامه المغلق ولكنّي لم أستطع؛ فقد كان محاطًا بسياج من اليقين كان من الصعب حتى هزّه أو تحريكه ولو قليلاً. مع أنّه كانت لديَّ رؤية مخالفة تمامًا. السفر يشبه الموت. يختلفان في الاحتمال الصغير. الموت سفرة أبديَّة بينما السفر موت مؤجّل. أشتهي دائمًا أن يكون وجهي وعيني هما آخر ما يراه من يودّعني ممّن أحب. لحظة مواجهة الموت لا تبقى أمامنا إلا الشهوات الصغيرة، العيون التي رفرفت قبل أن نندفن في الإجراءات التي تُنسينا موقّتًا الشقاوة التي نتركها وراءنا، ولكن بمجرّد أن نجلس في الطائرة ونواجه الفراغ والمطلق والعجز الكلّي لفعل أيّ شيء، يستيقظ هاجس الموت بقوّة والأسئلة القلقة... ماذا لو يتوقّف محرّك الطائرة... ماذا لو تميل ولا تعود إلى استقامتها؟... لو تتدحرج من السماء كصيد ميت، ماذا سنفعل وكيف ستكون اللحظات الأخيرة؟... ماذا لو تنفجر في طيرانها؟ وعلينا في النهاية أن ننسى وأن نؤكّد لأنفسنا أن لا خطر علينا وأنَّ الحوادث المميتة لا تحدث إلا للآخرين. وعندما نصل إلى نقطة العبور من الجهة الأخرى، ينتابنا إحساس غريب من السعادة المبهمة، كأنَّ الموت تخلّى عنّا موقّتًا، وكُتبت لنا حياة جديدة، فنعاود التفكير في كلّ اللحظات التي تخلّينا عنها طواعيَّة عندما ابتلعتنا الطائرة.

أشتهي أيضًا أن أكون أوّل من يقاسم كوني فرحة العودة. ولكن معه الأشياء المتعلّقة بالموت والحياة لها طابع عبثي، العودة لديه ليست خروجًا من موت احتمالي، ولكن لذّة الركض نحو أحد بارات الجاز في مانهاتن والاختباء هناك مدّة من الزمن، قبل العودة إلى البيت الذي يسمّيه القبر الجميل والمنمّق.

في الصباح لم يقل شيئًا. لبسنا، ونزلنا. قلت له إنّ وقت الطائرة لم يحن بعد وإنّه ما يزال لدينا متّسع من الوقت للبقاء مع بعض. لم يجب عن حيرتي ولكنّه سألني إذا ما كنت أحمل جوازي أو بطاقة تعريف معي. قلت لا يوجد أيّ إشكال. لم أتوغّل أكثر في استفساراته. سحبني من يدي. أردت أن آخذ مفاتيحي، قال إنّنا سنذهب في سيّارته، المكان ليس بعيداً. عن أيّ مكان كان يتحدّث؟ لم أسأل متعمّدة. لم أكن أريده أن يسافر وهو منشغل بأوهامي وارتباكاتي. كان على موعد مع موثّق. صديق قريب منه جداً. استقبلنا ببشاشة في مكتبه في نوليطا(١) (شمال إيطاليا الصغيرة) [في تقاطع شارعي البرنس سترويت(٢) الذي ينزل من الأعالي مخترقًا الليتل-إيطالي قبل أن ينتهي في تشاينه-طاون(٣) جنوبًا والتي تعجّ بالناس في مثل هذا الوقت. مدينة في مدينة، كعادة الصينيّين منذ القديم. أكّد لكوني بأنّ كل شيء جاهز. وضع الموثّق العقود بين أيدينا وطلب منّا أن نوقّع فقط. نظرت إلى عينيه ووقّعت بدون أن أسأل ماذا

١- Nolita (North of Little Italie)

٢- Prince St

٣- Chinatown

فعلتُ ولا عمّا وقعتُ. لقد كتب كوني شقّته في ليتل ـ إيطالي باسمي واسم يوبا.

شدّ على يدي بقوة، شعرت فجأة بحرارتها القويَّة والأخيرة.

ـ لم أكن زوجًا جيِّدًا دائمًا يا مي، ولكنِّي كنت دائمًا معك صديقًا ناجحًا وأبًا عاشقًا لابنه. أنا ذاهب وراء المدافن أولاً، ثم مخطوطات البحر الميت، وعليَّ أن أجدها أو أبقى هناك. هذا جزء من عملي، وقد لا أعود أبدًا من هذه المغامرة.

ـ كوني... حبيبي. لا تكن مجنونًا. اذهب حيث شئت، وعد لنا فقط. أنا أحبّك مثلما أنت وأنتظرك. وإذا شئت أن أرافقك، سأفعل وسأترك كلّ شيء ورائي مقابل رفقتك؟ لا تقلق. سأجد حلاً ليوبا وعملي.

ـ لا. أنتِ كذلك لك عملك في مدرسة الفنون الجميلة، ولا أريدك أن تتركيه من أجل جنون أصابني، لا أدري متى وكيف، سوى أنِّي أحسّ، كما قلت لك ذات مرّة، بأنَّ لعنة جدّي القرصان الجنوي الذي لم يستسلم لقهر الأتراك حتى عندما ألقوا القبض عليه وهو في طريقة إلى جزيرة كريت، ما تزال ترافقني. المهمّ، هذا البيت لك وليوبا. ليس قصرًا ولكنَّه يحلّ بعض مشكلات الحياة. عندما يكبر يوبا، سيجد أمامه بيتًا جميلاً يساعده على تحمُّل قسوة الحياة. أنا أعرف جيِّدًا ما معنى أن يعيش الإنسان مضغوطًا بين فراغين مهولين: الحاجة والعراء.

ـ كوني!!! أنت تقول كلامًا يخيفني. يوبا ما يزال صغيراً، ولن يعاني من أيَّة حاجة، أنت تعرف ذلك جيِّداً!

ـ مجرّد احتياط لا أكثر، شعرت بحاجته الآن. لم أعد بحاجة إلى هذا البيت. الزمن قاهر، ولا يرحم أحداً. أسافر كثيراً ولا أضمن شيئًا في هذه الحياة، إلاّ ما نسرقه من الدنيا.

ظلّ صامتًا. رجعنا إلى البيت، طلبَ طاكسيًّا. رجوته أن أرافقه، ولكنَّه كرَّر جملته التي لم ينس منها حرفًا واحداً منذ أن عرفته وصرت أطلب منه أن أتقاسم معه لحظة المطار النادرة.

ـ عندما أسافر لا أريد أن ألتفت ورائي، كلّما التفتُّ زادت رغبتي في العودة من حيث أتيت. أنا إنسان حسّاس. لا أستطيع أن أركب الطائرة وأترك ورائي عيونًا ترفرف لوحدها. جريمة في حقّ من يودّع وليس من يسافر. لا.

كوني لا يعرف اليوم أنِّي منذ أن خرج ولم يعد، أنزل إلى مطار ج. ف. كندي وحدي مرّة في الأسبوع. أدخِّن سيجارة، وأشرب بيرة باردة جدًّا هناك وأستلذّ بسماع مكبرات الصوت في المطار وهي تعلن عن وصول الطائرات القادمة من عمان أو من المنامة أو من صنعاء أو... من تلّ أبيب. منذ سنوات أفعل ذلك بلا هوادة. أتأمَّل الوجوه واحداً واحداً. بعدها أعود بخيبات صغيرة، وأمني نفسي وأقول: ربما يكون كوني قد أجّل سفرته أسبوعًا آخر وسيأتي في الأسبوع القادم. وأنا في سيّارتي أقسم مع نفسي أنَّه في المرة القادمة، بمجرد نزوله من الطائرة، سألتصق في عنقه ولن أتركه يسافر وحده وسأغرقه قبلاً وحبًّا.

فكّرت مـرّة من المرّات أن آخـذ إجـازة وأتبـعـه ولا أعـود إلاّ وهو معي. ثم تعقّلت ولم أفعل. خفت أن أكتشف شيئًا آخر فيه لا أحبّه، ثم لا أريده أن يشعر بثقلي وراءه. لا أريد أن أكون ظلاً خانقًا له. كان عليَّ أن أتركه للحياة التي اشتهاها واشتهى أن يعيشها.

في مرّة من المرّات قرأت في إحدى جرائد بروكلين خبر مـقـتل عـالم أمـيـركي من قـبل الرعـاة في بتـرا، لم أصـدِّق الخـبـر وحـزنـت في أعـماقي ولكنّي أقنعت نفسي بأن لا عداوة لكوني مع رعاة بترا. فقد كان محبوبًا من الناس جميعًا، ويمكنه أن يختلط مع أيّ شخص بدون أدنى خوف أو شكّ. أعرف جيِّدًا كوني، لا يذهب نحو أرض لا يشعر تجاهها بأمان. سألت طويلاً في السفارات ووزارة الخارجيَّة، حتى كدت أن أرحل وراءه. وبعد شهرين من الركض المستمر، جاءني الخبر اليقين وسعدت أنَّ المقتول كان إيطاليًّا بينما كان كوني أميركيًّا. حزنت للعالم الإيطالي، ولكنّي شكرت اللّه أنَّه لم يكن كوني . ثم أنَّ صورة العالم التي بُعثت لي، وطمأنتني، لم تكن صورته. بعد سنوات، كنت قد بدأت أنساه، وقلّلت من المطارات والانتظار الفارغ. رأيته في شريط عن إسرائيل وهو يتحـدَّث عن أبحاثه، وعن مـخطوطات البحـر الميت التي وجد بعضها وكان بصدد فكّ أسرارها. عندما كتب اسمه في الشريط الوثائقي: **الباحث الأنثروبولوجي الأميركي كونراد سميث Konrad Smith**، تأكّدت أنّه هو ولا أحد غيره. حبيبي كوني. مع ذلك، انتابتني موجة حزن بدل السعادة وبكيت. لقد شاخ بسرعة غير معهودة، وصارت لحيته بيضاء على الرغم من احتفاظه بكلّ ملامحه

وخزرته العميقة، ونحف وجهه كثيراً حتى برزت قليلاً عظام الفكّين، ولكنَّه كان سعيداً باكتشافه. فرحت أنَّه ما يزال حيًّا، وماتت الشكوك الصغيرة التي ظلّت تؤرقني نهائيًّا.

أدركت يومها أنَّ كوني قد أصيب بسحر تلك الأرض، ولن يعود أبداً إلى نيويورك. ربما كان محقًّا، فهو دخل حياة الزوجيَّة حبًّا، وعن طريق الغلط وربما الصدفة. لا يمكن حصره في زاوية، وإلا سيموت حزنًا. فهمت ذلك متأخِّرة وقبلتُ به.

اليوم كلّما رأيت يوبا، شعرت بغبطة كبيرة وأنَّ حياتي لم تذهب هدراً. لقد حمل معه تيهه في الموسيقى، وجنونه ليصنع منه ما يشتهي، إذ يمكن لشيء صغير أن يرميه في آخر الدنيا، أن يسافر نحوه. لقد سافر حتى القاهرة فقط لسماع عايدة لفيردي التي عُرضت لأوّل مرّة في الأهرامات وعاد ممتلئًا بها. مجنون على طريقته. لكن قلب يوبا هشّ مثل قلبي. يكفيني هذا الشبه الذي أخذه منِّي.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

الخميس ١٨ نوفمبر ١٩٩٩

كان عليّ انتظار أسبوع بكامله بلا حركة حتى شعرت بأنَّ أصابعي تكلّست وماتت ولم تعد تسعفني. فالعلاج الكيميائي الثقيل كان متعبًا، تقيَّأت كثيرًا، ولكن سرعان ما عادت الأمور إلى طبيعتها وشعرت بعودة التوازن إلى جسدي. استغرب الدكتور هيرفي كروث أنِّي لم أسأله عن وضعي الصحيّ المباشر، أكثر من سؤالي متى يمكنني أن أقوم وأمشي بشكل طبيعي؟ كان قد منعني من فعل أيّ جهد يمكن أن يزيد في إنهاكي. أصلاً لم أكن قادرة بسبب الدوخة الدائمة التي كانت تنتابني من حين لآخر.

ـ متى يُسمح لي أن أقوم؟

لم يبد عليه أيّ استغراب.

ـ عندما لا تشعرين بالدوخة. أنت في حالة معالجة كيميائيَّة ثقيلة، وتحتاجين إلى الكثير من الراحة. جسدك أخذ يتشكَّى منك. لقد أثقلت عليه كثيراً. على كلّ حال حالتك الصحّيَّة التي لم تسأليني عنها تسير بشكل جيّد، وكلّ الفحوصات بيّنت تحسُّنًا واضحًا، و أنَّ مساحة الانتشار صارت ضيِّقة وهو ما يبشّر بخير. ما تقومين به جميل ولكنّ وتيرة العمل زادت بقوّة لديك أكثر من اللازم.

ـ ولأنَّكَ دعمت العلاج الكيماوي بالأشعّة، فهذا يعني أنَّ المسألة أصبحت خطيرة ويجب التعامل معها على هذا الأساس؟ هذا ما فهمته من هذه الإضافات الاستشفائيَّة الثقيلة؟

ـ مي؟ وجودك في المستشفى وحده يعني أنَّ مسألة مرضك جادّة. قلت لك إنَّنا نستبق المرض ونتفادى بذلك إمكانيَّة الانتشار المتسارع. أنت تعرفين جيِّداً أنَّ الخلايا المريضة لا تؤتمن أبداً. هذا النوع من السرطان يجد راحته في تدمير خلايا الأعضاء الرخوة. كلّ هذا تعرفينه جيِّداً، وما نقوم به، للاطمئنان ليس أكثر. ولهذا فأنت تحتاجين إلى قدر كبير من الراحة. أعرف التزاماتك، ولكنّ صحّتك قبل كلّ شيء. يمكن لمنظّمي معرض نيوجيرسي أن ينتظروا قليلاً، أسبوعين أو شهراً، لن يضرّهم في شيء. إذا شئتِ أن أعاود الاتّصال بهم، سأفعل.

من عينيه ومن ارتباكه، تأكَّدت من أنَّ الطبيب لم يكن صادقًا معي ولم يكن كاذبًا. لم أسأله أكثر، لأنِّي كنت خارج كلّ تلك المعادلة التي لم تكن تعنيني إلا بالقدر الذي يساعدني على الانتهاء من مشروعي. لقد رأيت كيف ماتت مامي دنيا، وهذا وحده كان

يكفيني لفهم الصورة جيِّداً. كان دافعي في تلك اللحظة هو اللون لا أكثر. لم أكن خائفة أبداً من المرض، فقد استوعبته بما يكفي، وتحمَّلته مثلما يتحمَّل المريض دواء مرًّا عليه أن يشربه ذات يوم، ولكنِّي كنت مرعوبة من أن يقلّ حماسي في الانتهاء من مشروع معرض **لايف پاور Life Power** (قوّة الحياة) بسبب الراحة الإجباريَّة التي كانت تنهكني وتمرضني أكثر مما تفيدني صحيًّا. أتصوَّر عمل الأطباء أحيانًا مثل عمل مصلح السيارات، يبحث عن القطعة الخربة، فيصلحها أو يغيّرها أو يرقّعها ولا تهمّه السيّارة ككلّ. كلَّما توقفت قليلاً أو أخذت نفسًا خارج دائرة العمل الشاقّ، شعرت أنَّ الموت يحتلّ مساحات جديدة فيَّ ويقرّبني بجنون من فجوته الكبرى التي كنت أرفض رؤيتها. كنت أرسم بعيني وأصابعي وكلّ حواسّي الحيَّة، وأنا نائمة في الفراش. أرى الألوان وهي تتداخل بين أصابعي، أخلط، أنزع وأضيف حتى يستقرّ كلّ شيء مثلما أشتهي أو مثلما ارتسم في رأسي منذ اللحظة الأولى. أنظِّف يدي أحيانًا وكأنِّي بالغت في ملء الفرشاة. لم يكن لديّ أيّ حلّ آخر لكي لا أموت إلاّ ألواني التي ظلّت تؤثّث خيالاتي. شيء ظلّ يملأ ذاكرتي وحضوري وأنا لا أعرف بالضبط مصدره الحقيقي، شيء اسمه **عدوى الأرض**[1]. رسمت الثلاثيَّة لأوّل مرّة في رأسي، ولم

---

١ ـ لوحة ثلاثية تحمل عنوانًا كبيراً هو **عدوى الأرض**. عنونت مي أجزاء اللوحة الثلاثة بالفرنسية: ١ ـ تربة النور، (Terre de lumière) ٢ ـ الأرض المغتصبة (Terre violée)، ٣ ـ الأرض الأخرى (L'autre terre). من مقتنيات متحف نيو جيرسي للفنون البصرية. رقم التصنيف: NJ.ERL.6785RT-ER رقم الشراء المزادي: .NEW.JERS.Earth.Rap.Light.MAYK/.0003-34&90

أنفصل عنها أبداً وكأنَّ الأسبوع جعل كلّ شيء يختمر في ذهني. حتى شكل اللوحة الطولي حدَّدته بثلاثة تنويعات للّوحة نفسها، التي تتغيَّر عندما نتوغَّل في تفاصيلها الدفينة. يبدو أنَّ يوسف ترك أثره فيّ بشكل واضح في التخفّي وراء التفاصيل الدقيقة. الألوان كانت تنزاح من الحارّ نحو البارد، بسلاسة كبيرة، وكأنَّ الأرض كانت تغيب بهدوء، وبشكل فجائعي، وراء شيء كان يصعب عليَّ اللحاق به.

شعرت بأنَّ يوبا الذي وعدني بالمرور تأخَّر كثيراً. قلت في خاطري: سأمشي قليلاً ريثما يحضر ونتحدَّث في ما فعله مع المنظّمين.

عندما خرج الطبيب، جرّبت بدون مساعدة الممرّضة التي مدّت لي يدها، لأقوم. انزلقت من فراشي، وذهبت باتجاه ساحة المستشفى لاختبار قواي. لم أستطع التحمّل، فقد كان الألم مؤذيًا ولم تكن لديَّ الطاقة الذهنيَّة لنسيانه كما تعوَّدت أن أفعل. كانت الدوخة ما تزال تتحكَّم في مفاصلي وحركاتها. لقد بدأ المرض يحفر أخدوده في الأعماق، وأشعر بالموت يحتلّ، كلّ يوم، مساحة جديدة في جسدي.

عدت إلى مكاني من تلقاء نفسي. سحبت الجرائد الصباحيَّة. كانت أخبار معرض **لايف پاور** تملأ الصفحات الثقافيَّة، ممّا زاد من خوفي. فقد بدأت الإعلانات عن التظاهرة قبل الوقت. فالوهن الذي بدأ يدبّ في الجسد لم يشجّعني على الذهاب إلى أقصى الحدود في استنهاض جسدي ومع ذلك، فلا خيار آخر لديّ سوى الانتهاء من

المشروع الذي لم يبق عليه الكثير. الكثير من الأعمال تمّ إنجازها وتهييئها للمعرض.

شربت القطرة الأولى من القهوة التي شعرت بها وهي تنزل، ثم وهي تسقط في بطني محدثة صوتًا يشبه الدويّ في الفراغ. حاولت أن أنسى بالقراءة ما كان يتمزَّق في داخلي. فجأة شدّ انتباهي خبر في الصفحة الدوليَّة، وكان يوبا قد تخطَّى العتبة:

هيلين شميت. يد الموساد تصل إلى سيِّدة نازيَّة. عن عمر يناهز الثمانين عامًا، وُجدت السيِّدة هيلين شميت، وهي مواطنة نمساويَّة، معلَّقة في سقف مطبخها، تتدحرج على حبل رُبط حول عنقها بإحكام، وعلى صدرها ورقة كتب عليها: لقد انتحرت لأنِّي مللت من تأنيب الضمير. ويبدو أنَّها كتبت الوثيقة تحت التهديد. كانت تسكن في فينا منذ مدة قصيرة ولا يوجد اسمها في مصالح البلديَّة. الشرطة النمساويَّة وجدت آثاراً تدل على أنَّ العمليَّة لم تكن انتحاراً، ولكن جريمة سياسيَّة. وليست من فعل اللصوص لأنَّه لم يؤخذ من بيت السيّدة العجوز أيّ شيء. كلّ المجوهرات ظلّت في مكانها على الرغم من الفوضى التي أحدثتها عمليَّة التفتيش عن شيء مجهول. كلّ شيء يقول إنَّ عناصر الموساد السرّيَّة مرّت من هنا، ويوجد لدى قوّات الأمن التي استلمت القضيَّة أكثر من دليل.

ـ هيلين شميت؟

لا أعرفها ولكن الاسم لم يكن يحمل أيَّة غرابة. شعرت بقربه منِّي. شممت رائحة فيه سبق أن عرفتها. ثم نسيت الأمر.

علّقتُ وأنا أسلّم على يوبا.

ـ أرأيت يا يوبا؟ يبدو كأنَّ الحرب العالميَّة الثانية لم تنته بعد. نصف قرن وما يزال الناس يقتلون باسمها. ما يزال حتى اليوم يدفع الناس ثمن أخطائهم وحماقاتهم. أرأيت كيف تقود الذاكرة نحو الجريمة كذلك؟ أكثر من نصف قرن وما يزال الانتقام هو السيّد. من عرف مكانها؟ من اقتفى خطاها؟ ماذا فعلت لتُقتل وهي في نهاية عمرها؟ ما هو الدرس العظيم الذي أوصله لنا القتلة بإعدامها؟ يا اللّه خلِّ البئر بغطاه، لأنِّي لو بدأت أعدّ الأخطاء، سأمرِّض نفسي وأمرِّضك معي.

لم يعلِّق يوبا، ولكنَّه طلب منِّي فقط أن أرتاح قليلاً.

ـ هل من جديد؟ أعتقد أنَّ المعرض أصبح الآن على الأبواب بعد الإعلان عنه، ولم يعد من الممكن تأجيله. ماذا فعل فرانشيسكو معك؟

ـ لقد قام بكلّ ما طلبته منه. سلّم كلّ اللوحات المنجزة لورشة التأطير بالمواصفات التي طلبتها منه. متعوّد على ذوقي.

ـ خفّفي على نفسك. مديرة غاليري سيتي ويذاوت وولز، في قمّة السعادة أنَّك لم تؤجّلي المشروع لأنَّها تراهن عليه كثيراً، ولكنَّها لا ترى مانعًا من أن تتمّي عرضك ببعض لوحاتك القديمة ومنحوتاتك الأخرى.

ـ أعرف يا يوبا. أعرف أنَّك تعمل ما في وسعك لكي لا أرهق نفسي. ولكنّ كلّ ما أقوم به هو الحياة نفسها بالنسبة لي. لا تقلق

عليّ، فأنا أعرف جيِّداً اللحظة التي عليَّ أن أتوقّف فيها وأصغي إلى جسدي. الجسد مثل الجرس، مثل جذع الشجرة عندما ينزل عليه ثقل، يعرف جيِّداً متى يصيح عليك: توقّف. لم أصل بعد إلى هذه المرحلة. أعتقد أنِّي تجاوزت المراحل الصعبة في الإنجاز وأنِّي أسير نحو النهاية.

ـ وصحّتك يا أمّي؟ صحّتك قبل أيّ شيء آخر.

ـ أحاول أن أجمع بين الاثنين. لا تخف على أمّك، هي تعرف جيِّداً متى تضع حدًّا نهائيًّا لهذا الجنون. قل لي أنت عن مشروع السوناتا؟

ـ سأعزفها لك، على الأقلّ في صورتها الأوليَّة، عندما نحتفل بعودتك إلى البيت. كلّ الأصدقاء الذين تحبّينهم وترفضين رؤيتهم، ينتظرون عودتك بفارغ الصبر.

ـ أنا لا أرفض رؤية أصدقائي، ولكن لا أريد أن يروني منكسرة، أنا التي عوّدتهم على العوم في الألوان. في الوقت الحالي أنا جيِّدة مثلما أنا، ولا أطلب أكثر من ذلك.

ـ طيِّب، وما رأيك لو قلت لك إنّه بإمكاننا الدخول معًا إلى بروكلين؟ وما رأيك لو أسمعك بعضًا من السوناتا على بيانو مامي دنيا، في بروكلين؟

ـ أنت تمزح، الطبيب سيقيم علينا الأرض ولن يقعدها.

ـ لن يقيم الدنيا ولن يقعدها، هو موافق، ويقول إنَّ وضعك متحسّن، وبإمكانك أن تقضي نهاية الأسبوع في بروكلين وتغيير جو المستشفى.

أضاف يوبا مازحًا:

ـ يبدو أنَّك تفضّلين البقاء هنا... طيّب...

لم أسأله عن سخريّته، ولكنّي حضَّرت نفسي بسرعة، للخروج من هذه الدائرة المغلقة التي تشبه قاعة ترانزيت نحو الموت.

* * *

مرتفعات بروكلين

السبت ٢٠ نوفمبر ١٩٩٩

أخيرًا وجدت حديقتي وكلّ ما يؤثّث ذاكرتي المنهكة.

وضعت اللوحة العذراء على مسندها الخشبي. تأمَّلتها طويلاً. مددت يدي نحو البياض وكأنِّي ألمسه للمرّة الأولى، من كثرة ما بدا لي غريبًا. لم يكن لديَّ أيّ مشروع للبداية. ارتعشت الفرشاة بين أصابعي قبل أن تستقرّ على اللطخة السوداء التي لم أبدأ بها أبدًا أيًّا من لوحاتي. تعوَّدت أن أخترق البياض بالألوان الحارة أو الدافئة كالأحمر والأصفر، أو التشكيلات الزهريَّة وتنوُّعاتها. لست أدري ما الذي قادني هذه المرّة للعمل بالأسود. فجأة بدأ ينزل من رأس اللوحة شكل لم أكن أعرفه في البداية، قبل أن يتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى حركة دون كيخوتيَّة على حصان جامح. نفعل كما تفعل الغيوم، شيء ما عميق، يحكم حركاتها وأشكالها، قبل أن تستقرّ نهائيًّا على صورة

نستطيع قراءتها. قد يكون هو من ذكّرني بجدّي ثم بإسبانيا؟ لا يمكن للأشياء أن تنشأ فينا هكذا بدون ضابط يحرِّك نواتها الصغيرة التي لا نستطيع أن نلمسها بسهولة.

قد تكون الأسفار رغبة مبطّنة ويائسة لمحاربة الموت الذي يشتهي أن يحبسنا خارج الجاذبيَّة الجميلة واكتشاف بعض أسراره المتخفيَّة؟ أشعر أنَّنا كلّما مرضنا، امتلكتنا شهوة العودة إلى الوراء، واكتشفنا فجأة أنَّ النسيان هو أقسى مرض يمكن أن يصيبنا في الصميم. الشيء الوحيد الذي لا نقبل به ولا نناقشه هو قدر الموت لأنَّنا لا نملك حياله أيّ شيء.

أتذكَّر بالضبط اللحظة التي ذهبت فيها لاستلام نتائج التحاليل. شيء فيَّ كان يقول لي بأنَّ وضعي لم يكن سليمًا. خفت من الدخول إلى مستشفى نيويورك المركزي. درت مرّتين حوله، في شارع ليكسنغتون والجادّة الثالثة[١] اللذين يحتضنانه، قبل أنَّ أستقرّ عند بوابته الواسعة في الجادة ٣٤[٢]. عندما أخبرني الطبيب بنتائج التحليلات، ركبتني فجأة رغبة زيارة مدينة جدّي. بل صارت تلحّ عليّ لدرجة أنِّي صرت أشعر بألم في القلب. لقد أحسست فجأة بأنَّ الموت كان قريبًا منِّي أكثر ممّا تصوَّرته. لم أكن أريد أيّ شيء سوى أن أذهب نحو الأرض التي شقّت جزءاً من ذاكرتي ولم أكن أعرف السبب بالضبط: تساءلت في أعماقي: أبَعْد كلّ هذا الزمن أتذكّرهم؟

---

١ ـ Lexington and Third avenues

٢ ـ the Street 34

ما الذي يقودني نحوهم ونحو الأندلس، جنّتي الملتبسة؟ لم تكن لديّ أيّ رغبة للبحث في الأسباب، فقد كنت مشبعة بشيء غامض لا سلطان لديّ عليه. **الأندلس، جنتي الملتبسة**[١] **Andalousia, my ambiguous Heaven**، فجأة تملّكني مسار اللوحة ولم تكن اللطخة السوداء جزافيّة، ولم تكن حيرتي حالة خوف من الموت. ارتسم بين أناملي شوق غريب، وبانت لي آلاف الوجوه مرميّة على سواحل المارية[٢] تنتظر سفن القراصنة الإيطاليّين التي سترميهم نحو العدوة الأخرى. كنت مقتنعة أنّ أجدادي استعمروا مدنًا لم تكن لهم وكان لا بدّ أن يغادروها يومًا، لكنّي كنت مقتنعة أيضًا أنّ أجدادي شيّدوا عقلاً وحبًّا، لم يكن من حقّ القادمين الجدد محوه.

بمجرّد ما ركبتني فكرة السفر إلى الأندلس أو بقاياها، قضيت وقتًا كبيراً في قراءة مسارات جدّي كلّها. من أندلسه الجميلة، إلى حزنه على حروب الطوائف، حتى استقراره في طليطلة لأنّها كانت خارج هذه الحسابات كلّها. تمنّيت أن أقرأ عن شجرة العائلة التي حدّثني عنها والدي كثيراً، ولكنّها كانت هناك، حيث الأرض المسروقة. ربّما تكون قد أُحرقت أو ماتت مثلما البشر من كثرة الإهمال. ينتابني الإحساس وأنا أقرأ مسارات جدّي، بأنّ التاريخ لا يمكنه إلاّ أن يدور في حلقة مفرغة ومجترّة بشكل دائم، لدرجة أنّ عقول البشر تنغلق على الحقائق الزائفة. لم يكن قرار طرد

١ ـ **الأندلس، جنتي الملتبسة**. اقتناها المركز الثقافي الإسباني بنيويورك.

٢ ـ Almeria

الموريسكيّين الذي اتَّخذه فيليب الثاني بعد انتفاضة جبال البشرات، طيِّبًا ولا عاقلاً. أبو عبد اللّه سلّم المدينة والمفاتيح وانزوى إلى حضن أمّه يبكي مجداً ضائعًا. لم يتح لسكانها فرصة الدفاع عن مدينتهم الأخيرة، التي سُلّمت لإزابيلا وفرديناند مقابل سلامة الحاكم الذي وقف حائرًا ومرتبكًا، على هضبة زفرة الموريسكي الأخيرة El ultimo suspiro d'el Morro. أجدادي الموريسكيّون، أطلقوا رصاصة الرحمة على أنفسهم، بدل أن يطلقها أبو عبد اللّه على رأسه حفاظًا على بعض كبريائه. لكن هذا مجرّد حلم مثقفين. للحاكم منطقه الخاصّ. الحاكم في بلداننا البعيدة، عندما يدخل بيت الحكم لا يخرج منه إلاّ محمولاً على نعش، أو مُقاداً إلى سجن ينهي فيه ما تبقّى من حياته كأيّ رئيس عصابة. الموريسكيون أطلقوا رصاصة الرحمة واليأس على أنفسهم قبل إطلاقها على غيرهم. استرداد الأراضي الأيبيريَّة من المسلمين كان قد تمّ. والوحدة بين الأطراف المسيحيَّة المتصارعة قد أصبحت حقيقة ميدانيَّة ولم يبق للموريسكيّين المحاربين في البشرات أيّ حظّ في الانتصار. كانوا يعرفون ذلك كلّه، ومع ذلك اختاروا موتًا مجنونًا على موت في البحر. تمَّ طرد الكلّ، ولم يأمن من العقاب أيّ واحد كانت فيه رائحة اليهوديَّة أو الإسلام. حتى الموريسكيّون الذين كانوا يشكِّلون في بعض المناطق أكثر من ثلث السكان، وبقوا في كاستيا وأراغون وفالانس وماروسيا، يشتغلون في أعمال الزراعة متحمِّلين طغيان السادة الجدد من ملاّك الأراضي، ولم يحملوا السلاح وظلّوا يتفانون في خدمة النبلاء الذين طالبوا بإبقائهم للحاجة الماسّة

إلى حرفهم وصناعاتهم وشطارتهم، سرعان ما أُلحقوا بالبقيَّة، خارج أسوار مدنهم، وطُردوا ليكونوا الشاهد العظيم على أكبر عمليَّة ترحيل عرفها العالم الجديد وهو في بدايات تكوُّنه. لا بدّ أن يكون في عمق البشريَّة شيء من التسلُّط المرضي لم تتخلَّص منه أبداً، يعطيها لذّة كبيرة لرؤية هذه المشاهد البشريَّة المتدافعة نحو البحر، ونحو أراض لا تعرف شيئًا عنها؟ وقد سهّل بعض القساوسة ورجال الدين المتطرفين عمليَّة الطرد هذه. أسقف فالانسيا الأكبر l'archevêque Ribera مثلاً، كان مستميتًا في تطبيق قانون الطرد الجماعي والنهائي، خصوصًا بعد وفاة فيليب الثاني. ساعدت اتفاقيَّة السلام التي عقدتها إسبانيا مع هولندا على التسريع في العمليَّة. إذ تحرَّر الأسطول الإسباني من مهامّه الحربيَّة، فسُخِّر، بمساعدة سفن القراصنة الإيطاليّين، لمهمّة ترحيل الموريسكيّين باتّجاه إفريقيا الشماليَّة وغيرها. وتمّ تهجير قرابة النصف مليون نسمة من شبه الجزيرة الأيبيريَّة في مدّة قصيرة نسبيًّا. دراما مشهديَّة حقيقيَّة تعيدني إلى زماننا الذي لم يتعلَّم الشيء الكثير من تاريخه الذي تصنعه أياديه في كلّ قرن. فقد زجّ بآلاف البشر إلى حوافّ السواحل المطلّة على الواجهة الجنوبيَّة للمتوسّط، ولم يلتفت لهم إلا القراصنة وقطّاع الطرق. لم تكن طليطلة، المدينة التي استقرّ فيها أجدادي، أوفر حظًّا على الرغم من أنَّها كانت مثالاً للتسامح والمحبّة.

القراءات المتتالية زادت شهوتي للسفر. أقنعت يوبا بذلك. لم يمانع، بل تحمَّس أكثر منِّي للمشروع.

عندما عبرت بوابات طليطلة القديمة، شعرت براحة داخليَّة قلّما شعرت بها سابقًا. تمتمت في أعماقي بشكل لا إراديّ: إذن، هذه هي مدينة أجدادي الذين سُرق مجدهم ورُموا في عرض البحر؟ شعرت بنسيم خفيف يعبر المكان محمّلاً بعطر لم يكن بعيداً عن رائحة الياسمين ومسك الليل. بان لي فجأة وجه جدّي صافيًا ومتألِّقًا وأنا أعبر شوارع طليطلة وألمس الحيطان التي يكون قد تشبَّث بها للمرة الأخيرة وهو يُساق إلى المحرقة. كنت لا أتوقَّف عن تكرار جملتي الدائمة: المدينة الوحيدة التي دخلها أجدادي وزرعوا فيها دفئهم. وجدوها قرية مغلقة على إيمانها وعاداتها، وغادروها مدينة تضجّ بالحياة والمحبّة والامتلاء الروحي. ثم اندفنت في عمق الحي اليهودي، وعبرت نحو زقاق ضيّق باتّجاه شارع صامويل ليفي، حيث متحف الغريكو Le Gréco الذي جئته هذه المرّة مصمِّمة على رؤية كلّ تفاصيله. عندما زرته في اليوم الأول من وصولي مع يوبا، وجدته مغلقًا، ما عدا قاعات العرض الدائم لأعمال فكتور يوهاشو.. في اليوم الثالث عندما فتح جزءاً من قاعاته، كنت أقف عند الباب باستقامة وبحنين تراقص في بؤبؤ عيني. تأمَّلت واجهة المتحف التي توحي بكنيسة قديمة من كنائس روما. أحسست بقرابة غريبة بينها وبين ما ارتسم في ذاكرتي عن القدس: باب خشن من أبواب القرون الوسطى، وقوس يرتكز على عمودين من الرخام، تلمّستهما، أحسست بالنعومة التي لم يخدشها الزمن، بل زادها استقامة وملاسة. ثم توغّلت عميقًا لأجد نفسي داخل بيت مركزي من بيوت القرن السادس عشر وقاعة

ملحقة بواسطة الحديقة. بدا لي كأنّ الزمن الذي ذهب ما يزال ينبض بالحياة. وقفت قليلاً أمام الأثاث الخشبي وقطع السيراميك قبل أن أغرق في لوحات غريكو في مرحلته الأخيرة. شيء بقي في ذهني: غريكو لم يتخلّص أبداً من أصله الكريتي المتصلّب والخشن أحياناً، في فضاءاته وألوانه وظلمته. كان غريكو ابنًا وفيًّا لأرض كريت التي وُلِد فيها سنة ١٥٤١ وغادرها نهائيًّا، ليستقرّ في ١٥٧٧ في طليطلة. لقد هرب بأمكنته وبروائحها وعاداتها. أكثر من ثلاثين سنة، لم تفعل في ألوانه الكريتيّة الشيء الكثير. فجأة انتابتني رغبة مجنونة في إعادة سحب شريط التاريخ إلى الوراء، ومحو كلّ ما كان يضايقني في هذا الرجل الذي اندهشت في عبقريته منذ أن شاهدته لأول مرّة في معرض القرون الوسطى، في نيويورك، إذ قادتني إليه ميس يوهانا، أنا وبعض زميلاتي في مدرسة الفنون الجميلة. كانت قوّة غريكو تأسرني، ولكنّي لم أكن سعيدة به لأنّه استجاب وصفّق لطارد أجدادي، فيليب الثاني، عندما انتُزِعوا من مدنهم وحقولهم وبيوتهم. تلك قصّة أخرى لا أشتهي الغوص فيها لأنّها تذكّرني، وبشكل غريب، بمدن وناس أرضي الأولى الذين استيقظوا ذات صباح على الدبّابات وهي تهدم البيوت على رؤسهم، ويُخرجون ليلاً منها أو فجراً، ويُجبرون على مغادرة الأرض التي لم تعد لهم، وصارت لغيرهم.

كان يوبا مندهشًا، ولكنّه لم يعكّر عليّ صفو اللحظة بكثرة الأسئلة، إلاّ عندما كلّمته وأنا أحاول عبثًا أن أكتم غيظي من البشر.

ـ أرأيت يا يوبا كيف يبتئس البشر، وكيف تُعمي الأحقاد أجمل الوجوه وأكثرها نوراً؟ لا شيء يُضمن في هذه الدنيا، كلّ شيء يمكن أن ينزلق في ثانية واحدة نحو ضدّه.

لم يردّ. استنشق عميقاً عطر المساء حتى شعر بصدره فجأة يمتلئ بهواء لم يكن يشبه هواء نيويورك. بادرته كعادتي في مثل هذه اللحظات.

ـ تنهيدتك الحزينة لا تعجبني كثيراً يا جاز... ؟

قلتها وأنا أشعر بألمه العميق الذي ارتسم على ملامحه الضائعة وهو يتأمّل مدينة طليطلة من الأعالي.

التفتَ نحوي. كنت ما أزال في غفوتي ودهشتي.

ـ غريب يا يمّا... بدأت أدرك لماذا اختار جدّي هذا المكان ليموت فيه، ولم يرحل إلى مدينة غرناطة التي كانت ما تزال تنعم بقدر كبير من الحريَّة. لا أعرف جيِّداً هذه المدينة، ولكنِّي أشعر أنَّ بها رائحة تسحر كلّ من يزورها. رائحة قريبة منِّي كثيراً؟

« ـ أنت لا تعرف يا يوبا أنَّ الموت عندما يقترب منّا، ولا نملك قوة لصده، نلجأ إلى أقلّ الميتات عزلة وبرودة. هكذا أشعر بجدّي ».

كدت أقولها ولكنِّي أحجمت عن الكلام حتى لا أربك يوبا.

ـ أشعر فقط بحزن كبير من جشع الناس وعدم قدرتهم على التفكير عندما يصبح سلطان القوّة بجانبهم.

ـ رأيت ذلك كلّه في عينيك يا أمي وأنت تحاولين أن تحضني دفعة واحدة طليطلة الأندلسيَّة. كأنَّك كنت تريدين أن تأكلي ترابها وتشربي مياه التاج، رئة المدينة التي تتنفّس منها الشوارع والحقول؟

ـ أنا على يقين من أنَّك تفهمني جيِّدًا، أكثر من أيّ شخص آخر. نحن لا نأتي نحو هذه المدن بالصدفة. هناك شيء غامض لا ندركه من الوهلة الأولى. المدن كالنساء وربما كالرجال أيضًا، لا يدخلون الغواية هكذا. هناك فجوة ما تحدّثها فينا الرؤية الأولى للأشياء وتستمرّ في الحفر فينا، وتحت أرجلنا حتى نجد أنفسنا في عمق هوة اللذة وخوف الفقدان. لا تهتمّ، جدّك كان عارفًا بخياراته، لم يأت بالصدفة نحو هذه المدينة. يبدو لي أنَّه كان أوفر حظًّا منِّي ومن بابا حسن! له مدينة يلجأ لها عندما تنغلق سبل الدنيا في عينيه.

ـ يا يمَّا؟ أما آن لك أن تنسي قليلاً آلامك؟ أنت الآن في طليطلة ولست في القدس؟ لا أدري لماذا نجلّ الموت وهو شيء كريه. أيّة قداسة تبرّر الانتفاء يا يمّا؟ خروجك كان صعبًا، ولكنَّك عرفتِ كيف تجعلين من حياتك في نيويورك مساحة من اللون والضوء والحبّ، وتنجحين حيث أخفق الكثيرون؟

ـ لا أدري ما الذي دفع بجدّي إلى الالتصاق المجنون بأرض لم يعرف غيرها، ولكنِّني أتصوَّر عناده من حماقات أقاربي. أبي وأنا كنّا نتشابه كالنجوم التي تصطدم ببعضها البعض، وهي لا تدري أنَّها تحرق نفسها. ربما شعر والدي بأنَّه سيزداد يتمًا بعد ذهابي، ولهذا سبقني إلى الموت. كان يعرف جيِّداً أنَّ صورته ستموت معي. وأنَّ

مرآته الأكثر صدقًا اندثرت نهائيًّا. لو مات بعدي، كان سيتعرَّض لهزّة عنيفة تقرّب مصيره من مصير نارسيس ابن إله الأنهر سيفيز. والدي مثل نارسيس، طول عمره كان مشروطًا بعدم معرفة نفسه. لم يتخلَّص من سحر وجهه الذي رآه في البحيرة عندما شرب الماء إلا عندما أصبح نوّارة نرجس. فكرة النرجس مربوطة بالربيع والنوم والموت والبعث. مرآة أبي كانت ستنكسر إلى آلاف القطع بخروجي من الحياة. أعرف مصيره. كان سيعيش عالمًا موحشًا بدوني، وقسوة داخليَّة لا يحسّ بها إلاّ هو... هو الوحيد الذي كان يعرف سرّها الغامض.

لم تستطع نظرات يوبا أن تتفادى وجهي السعيد جدًّا، على الرغم من خطوط المرض التي ارتسمت على ملامحي كظلال خادعة. كنت كمن يذهب ليحجّ للمرّة الأخيرة. وكنت أدرك في أعماقي أنِّي لم أكن أفعل شيئًا سوى أن أعيش لحظة كان يمكن أن أعيشها منذ زمن بعيد.

تحضرني الآن كلّ التفاصيل عندما طلبت من يوبا أن يرافقني. في البداية لم يفهمني جيِّدًا، قبل أن يتحمَّس بقوّة للفكرة. قلت له:

«ـ يبدو أنَّ الشتاء سيكون طويلاً هذه السنة؟ بدأت ملامحه تظهر في الأفق. قل لي هل ترافقني إلى طليطلة؟

ـ أخاف أن أنغّص عليك الذكرى.

ـ وجودك معي يريحني. أشتهي أن أرى معك أمكنة لا أريد أن يسبقني الموت إليها. حدَّثتك عن جدّك الموريسكي الذي قتله الحنين

إلى أرضه وإلى مدينته التي اختارها لحياته وموته. تمنيت أنَّ أعبر شوارعها وأنا في صحة جيّدة، ولكنِّي أدرك اليوم جيِّداً أنَّ المرض لن يترك لي الوقت الكافي لفعل ذلك، ولهذا أريدك أن ترافقني إذا رغبت في ذلك.

ـ ولكن يا يمّا... لماذا تذهبين نحو كلّ ما يلهب حنينك؟ أشعر بك فعلاً معلّقة كجرس الكنيسة القديم كما كنت تقولين عن مامي دنيا؟ علّمتني أن لا نلتصق بالموت وأن نتوجَّه نحو الحياة لأنَّها موقّتة وعزيزة، بينما الموت دائم ومقيت؟ وها أنت الآن تنقضين كلّ ما بنيته معي؟

ـ المسألة أعقد من ذلك. لا أريد أن أذهب وفي ذاكرتي شيء جميل كان يمكن أن أفعله ولم أفعله. جدّي الأوّل هو ذاكرتي، ولا يمكنني اليوم أن أعيش بلا ذاكرة. ربما كانت هي حائطي الأخير قبل أن أُسند جسدي للمرّة الأخيرة. لست مجبراً حبيبي للذهاب. أعرف مشاغلك وأعذرك.

ـ لا يا يمّا. لا. أريدك فقط أن ترتاحي قليلاً، فقد تعبتِ في حياتك كثيراً. سأكون محظوظًا طبعًا برفقتك. أنا كذلك في حاجة لاكتشاف مدينة عبرها أجدادي ولا أعرف عنها الشيء الكثير. أريدك فقط أن لا تنظري لذلك كلّه بمنظار الموت.

ـ لا أريد أن يأخذني الموت على حين غرّة، ما عدا ذلك فالرغبة قديمة وكبيرة. العين عندما ترى تستطيع أن تدرك سحر الدهشة وتعرف حجم الخسارات التي لا تعوّض أبداً. في تلك المدينة، عندما

رأى جدّي الذي كان يسمى الروخو[1] لحمرة شعره، الحرائق وهي تأكل الكتب والأوراق، ويُجرجَر الفقهاء والعلماء من المسلمين واليهود على مشارف المدينة وفي ساحات كنائسها، عرف أنَّ الثمانية قرون احترقت، وأنَّ زمنًا أعمى كان يدقّ على الأبواب. إسبانيا لا تعرف حجم الخسارة التي تسبّبت فيها، والضرر الذي جرحت به المدينة. البشريَّة هكذا للأسف، ذاكرتها محدودة وخادعة. بسرعة تنسى أفراحها وتترك أحقادها تلعب بالسعادة المحتملة. عليها أن تنتظر قرونًا عديدة لكي يعبر من هذه الدنيا شخص استثنائي، ينبّه للخسارات الفادحة.

ـ البشريَّة هي هذه يا أمّي، تصنع حدود اللعبة، ثم تنسفها، ثم تعود إلى صنعها وفق أهواء تناسبها، وهكذا حتى النهاية. ولا يبقى في النهاية إلا التاريخ، ليدوِّنها ويسجِّلها وفق ما يشتهي الذين يقفون وراءه. بيننا وبين محاكم التفتيش المقدَّس زمن بعيد، ومع ذلك فهي حاضرة بصراخها وظلمها، في كلّ شيء فينا.

ـ يكفي أن ننظر من حولنا لندرك أنَّ هناك عودة محمومة إلى التقاليد الميتة، ومحاكم التفتيش المقدّس على الأبواب. تغيَّرت الأسماء فقط والآلات، لكن العقل الطاغي هو نفسه وكأنَّه لم يتحرّك قيد أنملة».

اكتفى يوبا بابتسامة هاربة وهو يرى عينيّ ترفرفان مثل عيني عصفور كلّما داهمتها قصّة جدّي الأول. الجدّ المجنون الذي اضطرّ إلى

---

١ ـ el Rojo

الاندفان في أعماق الأرض، لا لينقذ حياته من موت مؤكّد، ولكن ليتمّ مخطوطته، قبل أن يندثر قتلاً أو انتحاراً.

كلّ شيء بدا مدهشاً. وأنا في الطائرة، ارتسمت طليطلة بكلّ ألقها. كانت تتسرسب من الأعالي بشكل ثعباني، ترى من أعالي القصر القديم[1] الواقع على مرتفع المدينة وهي تتدحرج تجاه نهر التاج الذي يعبرها متعرّجاً في تدفّقه في اتجاه لشبونة، قبل أن يندفن نهائيًّا في أعماق المحيط الأطلسي. كنت نهمة وجائعة إلى تلك التربة بشكل لم أحسّ به مطلقاً قبل ذلك التاريخ، وكأنّ العمر الذي مضى لم يزدني إلاّ التصاقاً بكلّ مفقوداتي أنا التي نصحت يوبا بالتخلّي عنها. كنت أعبر الدروب الضيّقة والعتيقة وأتأمّل الحيطان المتآكلة. من حين لآخر أتوقف عند أسماء الشوارع التي تحيل كلّها إلى ذكرى المدينة القديمة. فجأة قفزت أمامي مدرسة الترجمة التي جمعت بين حيطانها كبار علماء الدنيا في نسخ الأعمال النفيسة وترجمتها. قلت ليوبا بصوت خافت كمن يفشي سرًّا كبيراً:

ـ هل تعرف، يمكن أن يكون جدي قد مرّ على هذه المدرسة. أنا متأكّدة من أنّه كان هنا. لم نأخذ من اسمه إلا الروخو الخطّاط. كان يعمل في دار الترجمة بطليطلة، ويقال إنّه اشترك مع ابن رشد في ترجمة أعمال أرسطو واستمع إلى ملاحظات موسى بن ميمون في منفاه بطليطلة، في زمن ألفونس السابع المسمّى بالرجل الطيّب أو ملك الديانات الثلاثة. وأنّ جدي هو من نقل مخطوطة فنّ الشعر

١ ـ Alalcazar

الأساسيَّة التي ترجمها إلى العربيَّة أحد العلماء المغمورين، وهو الذي أنقذها من الحرق بعد أن احترق جزء من أطرافه ووجهه. جدّي المروخو لم يكن شخصيَّة عادية.

ـ سمعت هذا في مرّة من المرّات من بابا حسن اللّه يرحمه.

ـ كان الفقهاء وحرّاس النوايا في محاكم التفتيش المقدّس يريدون معرفة مكان مخطوطته السرّيَّة، وكان هو يريد دفنها في قلبه وذاكرته لكي لا يراها أحد. خبَّأها ولم يعد يعمل عليها إلا ليلاً قبل أن يفضي بالسرّ إلى الأوفياء إلى قلبه. ففقهاء الزيف والظلام هم أوّل من باعه لمحاكم التفتيش. كانت المدينة تشتعل في الأطراف وكان حزيناً أنّه لم يتمّ ترجمة ونقل مخطوطته «**فصل المسالك عن المهالك**. اختصاراً: **كتاب المسالك**». التي احتفظ بها كمن يحفظ كنزاً ثميناً. مخطوطة حول فلسفة الدنيا. يقال إنَّ بها نواة فكرة فصل الدين عن الدولة وتحديد المسالك الصحيحة لبناء مجتمع سليم خارج سلطان رجال الدين. ويقال أيضًا إنَّ العلامة ابن خلدون أخذ منها الكثير ليغني مقدّمته العظيمة، لأنَّ أحد باعة المخطوطات وضعها بين يديه صدفة.

ـ يقول جدي بابا حسن، إنَّهم خدعوه بالوشاية وإلاّ ما عثروا عليه في مخبئه. كان قد اتّخذ كلّ احتياطاته ولكنّها لم تكن كافية لحمايته.

ـ صحيح. عندما خاتلوه، بعد وشاية ودخلوا عليه من سقف البيت، لم يعرفوا أنَّه كان قد انتهى من جزء كبير من التدوين

والتخطيط والترجمة. فقد قضى قرابة السنة في فكّ رموز المخطوطة وبعث بها مبتورة إلى بلاد المغرب لكي ينجيها من الحرق. ولم يطمئنّ إلا عندما دخل عليه خطّاطه اليهودي يوسف بوخريس وطمأنه على وصول المخطوطة إلى العدوة الأخرى سالمة كاملة. عندما تخطّى المفتّشون العتبة بصحبة فقيه المدينة. لم يسألوه، كانوا يعرفون كلّ شيء. التفت نحو الفقيه ولم يقل له شيئًا ولكنّه عوى كالذئب في خلاء موحش ونظر إليه بعينين حمراوين. ثم اقتيد إلى ساحة الكنيسة الكبرى مكبّل اليدين. وطُلب منه أن يعلن توبته ويلعن دينه. التفت نحو الرجل الذي كان يقف وراءه، وفي يده مشعل لحرق الكتب التي كانت تُرمى أكداسًا أمامه. عضّ على شفته السفلى بقوّة حتى أدماها. عندما علت ألسنة النار، ملأ عينيه بجبال المدينة للمرّة الأخيرة ونهر التاج الذي يطوّقها. لم يكن جدّي يأبه بما كان يحيط به. نخسه الفقيه المرتدّ بقضيب الزيتون الذي كان يحمله، قبل أن يمدّ له يده ويتمتم في أذنيه:

«ـ هذه يدي ضمانة، إذا أردت أن تتفادى المحرقة ولا تصبح رمادًا مثل هذه الكتب وتنجو بجلدك مثلي، تمسَّح، فلن تخسر شيئًا وقل لي أين وضعت مخطوطة المسالك التي يحكي عنها الرواة. تنجو بنفسك».

التفت جدّي نحو النار التي تعالت ألسنتها أكثر. وبقوّة تجمَّعت فيها كلّ الخيبات المدمّرة، رمى بنفسه في عمقها ساحبًا وراءه الحارس الذي كان يقبض على القيد ويد الفقيه الذي طلب منه أن

يعلن توبته، وغاص الجميع بسرعة في عمق اللهب الذي زادت شعلاته وهو يأكل الأجساد الثلاثة التي تحوَّلت بسرعة إلى حطب متفحّم. في المساء نفسه أُحرِق خطّاطه يوسف بوخريس مع عشرة من أصحابه في الساحة نفسها بتهمة الهرطقة، وعلى مرأى من العامّة الذين ظلوا يتصايحون للتعجيل بالحرق.

ـ ليكن. ذاك زمن وهذا آخر. املئي عينيك بالنور يا يمّا...

ـ لست نوستالجيَّة إلى هذا الحدّ يا يوبا. أنت مع امرأة ما تزال أصابعها مدمّاة بالألوان، ولست مع أمّ فقط. لا أخرِّف، إلاّ أنِّي أعرف أنَّ أكبر خطأ ارتكبه الأسبان هو تفريغ مدنهم من الذين صنعوها وعمّروها. لو بقوا، لو فقط عرفوا كيف يحافظون على الإرث العظيم الذي تركه لهم الأوائل، لتغيّر وجه العالم الأحادي اليوم. تخيَّل هذه المدرسة، مدرسة الترجمة، التي كان يرتادها العلماء من كلّ النواحي وترجموا أكبر المصنّفات التي أغنوا بها عقل البشريَّة المعطّل وقتها، ماذا كان يضيرهم لو أبقوا علماءها وفقهاءها وناسها الطيّبين؟ ربّما أحلم. ولكنّ العالم صنع طرقات ومسالك وعمارات كان هو أول من هدمها وأحرقها أو نسفها. يبدو أنَّ قدر البشريَّة هو هذا، السير المستمرّ نحو الحتف والمحو، مثلما يفعل الأطفال الأشقياء بلعبهم.

دخلت إلى الكنيس اليهودي، ووقفت وقتًا طويلاً عند الكتابات العربيَّة التي كانت تكسو الحيطان. كلّ ما فيها كان مدهشًا. حتى طرازها ومنمنماتها لا يمكن أن تدفن نورها، رهافة اليد المتشبّعة التي صنعتها ونحتتها قطعة قطعة. شعرت بالهوّة تزداد عمقًا فيَّ.

ـ هل تصدّق هذا؟ خطّ عربي، زخرفة إسلاميَّة أنيقة، داخل كنيس يهودي؟ أي زمن نعيش؟ صحيح أنَّ الحياة لم تكن سهلة، لكنَّهم كانوا على الأقلّ، ههنا يجلسون، يتبادلون الأفكار، يتناقشون وربما يتخاصمون أحيانًا، ويصطدمون بسبب الاختلافات في التصوُّر، لكنَّهم كانوا يجلّون بعضهم بعضًا. تصوّر عندما غادروا البلاد للمرّة الأخيرة، الكثير من هؤلاء العلماء وقفوا على الموانئ وهم لا يصدقون أعينهم. كانوا ههنا يتباكون كالأطفال، يندبون زمنًا أسود حلّ بينهم، أو يلقون بأنفسهم في عمق التهلكة لكي لا يروا خرابًا كان مكتوبًا؟

ـ وهل يبكي يا أمّي المنتصر على المنهزم؟

ـ نعم يا حبيبي يوبا. بكى الرومان الحقيقيّون علماء أثينا الذين أكلتهم الأحقاد والحروب، وبكوا المدن التي أحرقت بشكل همجي. بكى المسلمون الأتقياء والرهيفون علماء فارس وبخارى وداغستان الذين أُبيدوا وقت الفتوحات وسُحلت أجسادهم لأنَّهم رفضوا الوافدين الجدد. بكى الكثير من عساكر الحلفاء، الحرائق التي التهمت برلين مجّانًا وخربت متاحفها وكنوزها. بكى الكثير من اليهود الطيّبين عندما أُتلفت أجزاء كبيرة من المسجد الأقصى، وساهموا في إعادة تأثيثه وشراء أخشابه وأبوابه...

ـ الزمن تغيَّر رأسًا على عقب يا يمّا. ويبدو أنَّ عظماء هذا الزمن صغار في الأصل، ولا يُنتظر منهم ما يُعيد التوازن لأرض أصبحت اليوم تميد في كلّ الاتجاهات.

ـ في الدنيا يا يوبا، دائمًا هناك من يرفض القسوة المجانيَّة. الزمن الأندلسي كان زمنًا عسكريًّا قاسيًا. أنا لا أبكي محمّد الصغير، لقد كان غبيًّا مشنوقًا بين نساء حي البيازين ومصالحه الصغيرة وأوهامه الكثيرة. نفذ برأسه نحو فاس، وترك ناسه يواجهون عذاب محاكم التفتيش المقدَّس وبرد جبال البشرات. أَبكي البيوتات الصغيرة التي أُخليت من علمائها وعرفائها. أبكي المداد المقدّس الذي ساح في الساحات العامة مثلما سال دم العلماء. أبكي نساء الأحياء اللواتي عندما خاب ظنّهنّ في الرجال، وهبنَ أجسادهن الزكيَّة للنار. أبكي جدي وأصحابه الذين دفنوا حياتهم في عمق الأوراق الصفراء والمخطوطات ولم يأبهوا لا بالسلطان ولا بالمال. جديرٌ أن نبكي الأبكار اللواتي رُمِّلن في عزّ العمر. أبكي زمنًا انسحب نحو الخراب ولم يخلّف وراءه إلا كومة من رماد، يُذرّ اليوم في الأعين لتنام من جديد. المشكلة ليست في أن تتنصّل من إسلامك أو من يهوديّتك وتصير مسيحيًّا أو بوذيًّا، وليس أن تبدِّل دينًا بدين وخياراً بخيار، ولكن أيّ دين يمنحك قدراً أكبر لحبّ الحياة والحريَّة؟ أيّ خيار يقودك نحو أعمق ما فيك من حبّ وإنسانيَّة؟ لم أكن أعرف أنَّ طليطلة جميلة إلى هذا الحدّ؟ وأنَّ تسامحها دخل إلى بيوتاتها المقدَّسة ومعابدها. الآن أفهم لماذا اختار جدّي وخطّاطه المساعد سيدي يوسف بوخريس أن يحترقا بدل أن يبيعا مدينتهما مثلما فعل الفقيه. المدن عندما نبيعها، لن تذرف على غيابنا دمعة واحدة. وجدّي يكته طليطلة برمّتها.

كنت سعيدة، في عيني إشعاع لم يره يوبا منذ أن أُصبت بالمرض الخبيث. لكنَّه عندما رآني أقف طويلاً أمام بعض اللوحات، تأكَّد أنَّ كلّ شيء كان قد انتهى، وأنَّني لا أخفي ألمًا لم أكن قادرة على إظهاره. تأمَّلت طويلاً مريم المجدليَّة وهي تضع يدها على صدرها، تدافع عن تهمة غامضة، داخل لباس أحمر لم يزدها إلا غواية على جمالها، غطّى جزأه العلوي، شعرٌ منتشر بشكل حرّ. لم يكن أحد أمامها إلا الظلال التي كان عليها أن تواجهها. اقتربت أكثر من وجه مريم المجدليَّة، دقّقت في عينيها، في ملامح وجهها، ثم تمتمت: «يا الله ما أبشع قسوة البشر؟ كلّ الظلال كانت مخطئة، كلّها بدون استثناء، فليس هناك أيّ داع لرجمها على حماقاتها العشقيَّة. مَنْ مِنَ الراجمين كان بلا خطيئة؟».

وعندما دخلت متحف سنتا ـ كروث، ذهبت مباشرة نحو لوحة غريكو: **المسيح يودع أمّه**. وضعت باقة الورد التي كانت في يدي تحتها. بدت سماحة المسيح ملائكيَّة، وكان واضحًا أنَّه يتَّجه لا محالة نحو الموت الأكيد. لم تلتفت مريم نحوه، ولكنَّها كانت تنظر إلى أفق بعيد لا شيء فيه إلا الظلمة القاسية. هي نفس الظلمة التي خطّ بها غريكو لوحته: **منظر طليطلة** التي رأيتها قبل سنة في متحف نيويورك ميتربوليتان ميوزيوم أوف آرت(١). الذي تبدو فيه المدينة الزرقاء المحاطة بنهر التاج تنزلق نحو المنحدرات والأخاديد، هاربة باتجاه حتفها الأكيد. وضعت ملمسي على صدر المسيح وكأنّي كنت أنا أمّه،

---

١ ـ New York Metropolitan Museum of Art

شعرت به ينبض بقوّة. رأيت الدم يسيل حتى قبل أن يكلّل بالشوك والموت. لحظتها تأكّد لي أنّي كنت في عمق آلام مريم، سوى أنَّ هذه المرة، مريم هي التي ستذهب مبكّرًا وليس ابنها.

كان يوبا يتأمَّلني في أدق حركاتي. ولم يقل أيّة كلمة. قبَّل جبهتي. كان سخيًّا بقُبله ونظراته. ثم مدّ يده إليَّ، وغادرنا المكان.

في المساء عندما عدنا إلى النزل في الحيّ اليهودي القديم، غرق يوبا في إيقاع حزين كان يأتيه من وراء حفيف الأشجار التي كانت تتقاطع بأعناقها وأغصانها الكثيرة. سحب ورقة مرة أخرى من على المكتب. خطَّط عليها بعض العلامات. تحوَّلت إلى أشكال معقوفة ونوتات موسيقيَّة متداخلة. دوَّن كلّ مشاهداته صوتيًّا. كان يدرك جيِّدًا أنَّ الموسيقى مثل النسمة الفجريَّة، عندما تأتي، تمرّ بسرعة ولا تنتظر. ونقول لأنفسنا عندما نفتقدها، للتخفيف من الأحزان «خلاص، في المرة القادمة لن نترك النسمة تهرب منّا. سنقبض عليها وهي في ألقها العالي». ثم نكتشف فجأة أنَّ النسمة جميلة ولكنَّها ليست نسمة البارحة، فهي غير محمَّلة بنفس نداءاتها الطبيعيَّة ونداها وعطرها. الطيور التي أعارتها ألحانها البارحة لم تعد اليوم موجودة في الأمكنة نفسها، والفراشات التي كانت تبلل أجنحتها بنداها انسحبت هي الأخرى ولم تعد هناك.

تأمَّل يوبا الغيوم الثقيلة التي كست السماء وهي تسرع للهرب باتّجاه آفاق أخرى أكثر دكنة، مخلّفة وراءها سماء بلا ملامح ولا نتوءات. سماء صافية، بلا تجاعيد ولا لغة:

ـ هل تدرين يا يمّا. هذه الرحلة أفادتني كثيراً في كتابة السوناتا. ستحمل من روحك الكثير. سأسمِّيها: **سوناتا لفراشات القدس**.

ـ أنت تضعني في مصافّ القدّيسين يا ابني. هل أستحقّ كلّ ذلك؟

لم يردّ عليَّ. كان قد غرق من جديد في أوراقه ورموزه.

كانت طليطلة نائمة داخل شعاع ذهبي، تسرّب دافئًا من وراء الستائر الخفيفة التي كانت تغطّي جزءاً من نوافذ الغرفة الواسعة، وكنتُ أستمع لأدقّ النداءات المتأتيَّة من بعيد، وأتساءل هل هي تأوّهاتي أم صرخات جدّي الذي أكلته نار التفتيش المقدّس، أم آلام والدي الذي كانت سكاكين المشرحة تتوزَّع كلّ ما كان ينبض في جسده المنسيّ؟

حاولت عبثًا أن أنام. لأول مرّة يتحالف النوم مع الحياة!

* * *

مرتفعات بروكلين

الأحد ٢١ نوفمبر ١٩٩٩

...

منذ أن اتّخذت قراري بتوقيف المورفين، زادت الآلام حدّة وقوّة وتواترًا. لا أعلم السبب سوى أنّي في أعماقي كنت أختبر قدراتي على التحمُّل. ثم أنّي صرت أكره كلّ الأدوية التي عليّ أن لا أنسى أيّ واحد منها في انتظام دائم. لم أكن قادرة على التحوُّل إلى آلة تافهة. ما كان في داخلي من ألوان كانت تصعب مقاومته.

الآلام التي مزَّقت جسدي طوال ليلة البارحة انسحبت دفعة واحدة لتمنحني بعض الوقت للكتابة والتأمُّل، ورسم خربشات جديدة على كتّان الخيش الأبيض، مادّتي الحيوية التي أشعر أنَّ بها بعضًا مما أشتهي من المقاومة. الفرشاة لا تنزلق بسهولة وكأنَّك تحرث عليها مثلما كان يفعل جدّي من أمّي على أطراف القدس.

فجأة صرت أشعر أنَّ كل ما يحيط بي أصبح جميلاً ولدنًا كالضباب.

... آخ يا يمَّا العزيزة...

مجرَّد شهابٍ اخترق جسدي ثم انسحب... أستطيع الآن أن أواصل الكتابة. يصعب عليَّ النوم ومقاومة هذه الشهوة الكبيرة.

تسقط أمطار الخريف الأخيرة، وتهبّ الرياح مكنّسةً ساحات نيويورك وحدائقها وشوارعها. كلّ شيء يأتي سريعًا وفي غفلة من حساباتنا لبدايات الفصول ونهاياتها.

كنت منكبّة على اللوحة التي اخترت أن تكون هي الأخيرة في عرض **باور لايف**. لم أجد أشهى من مدينتي التي منحتني حياة أخرى، نيويورك وورق البلاطان الذي يملأ شوارعها ودروبها الخلفيَّة، في مثل هذا الموسم البارد الذي تنفصل فيه كلّ الأشياء عن بعضها البعض، لتلتقي بعد فصل أو بعد زمن قصير. أنا كنت أعرف جيِّداً أنَّ فصلي انتهى ولم أحلم إلا برؤية القرن الجديد، وأيَّة غرابة سيحملها. مذهل أن تعيش قرنًا ينسحب بحروبه وكوارثه، وآخر يدخل بأسئلته وخوفه. تحتاج إلى قدر كبير من الصدفة لكي ترى ذلك. وهل سيمنحني الموت المتربّص بي في أيّ لحظة فرصةً لمشاهدة نهاية قرن لم يكن جميلاً على البشريَّة وعليَّ؟ أحتاج إلى شهر واحد فقط كي أتمكَّن من ذلك. يبدو لي أحيانًا أنَّ رحلة هذا القرن الصعب طالت كثيراً. لا أدري ما السبب، ولم أعش قرونًا متوالية ولكنِّي أشعر أنَّ القرن العشرين هو أطولها وأكثرها قسوة.

ياه... كم هي سريعة الأيام وكأنَّها مجرّد لحظة عابرة. نصف قرن وتسع سنوات وكأنِّي لم أعش منها ولا لحظة واحدة؟ أين أنا من تلك البنت الصغيرة التي دخلت نيويورك وهي لم تتجاوز الثامنة من عمرها، ثم وهي تنجب ابنها الأول والأخير حينما كان العرب يبكون هزيمة ٦٧. لم تؤذني الهزيمة كما كانت تقول خالتي، فهي كبقيَّة الهزائم المتراكمة التي صرنا نخاف من تعدادها، إذ لا يهتمّ الميت بالضربات التي تحرق جلده، ولكن لأنَّ حارة المغاربة التي كبرت فيها مُسِحت نهائيًّا وضُمَّت إلى حارة اليهود بالقوّة، وشُرِّد أهلها. في السنة نفسها التي ذهبت فيها مامي دنيا، وهي تحاول أن تضع رأسها تحت الوسائد الكثيرة وتحت الأغطية الصوفيَّة الثقيلة، لكي لا تسمع أخبار الراديو التي تناقلتها الوكالات.

«ـ في أوضاع الخيبة المدقعة، كيف يمكن أن يقاوم الإنسان رغبة الالتفات إلى الوراء»؟، تردّدها مامي دنيا، كلّما امتلأ قلبها بالنار.

كلّ شيء في البيت كان هادئًا ومستسلمًا، الورود، اللوحات القديمة، البيانو، الخزانة العتيقة، الصندوق الصغير الذي خبَّأت فيه ذات زمن شؤوني الصغيرة وأسراري، إلاّ نقرات المطر والفرشاة التي كانت تصعد وتنزل في حركة موسيقيَّة شبه رتيبة.

يداخلني إحساس غريب، وأنا أنسحب بهدوء من هذه الدنيا بعيون شبه مفتوحة، لولا إغفاءات المورفين، وكأنَّ كلّ الزمن الذي مرَّ قد حاذاني فقط ولم يمسسني! وعندما صرخت في وجهه، امتطى سكّينة حادّة وشرح جسدي قطعة قطعة. يقولون في نيويورك إنَّ خواتم

الخريف تعرف بأمطارها وضبابها، وها هي ذي تهجم دفعة واحدة بأمطارها ورياحها وما تخلّفه من إحساس بالوحدة والعزلة والاستيقاظ المفاجئ لكلّ ما ينام تحت الرماد والأحجار الميتة.

تنحدر قطرات المطر على زجاج النافذة متلاحقة، الواحدة بعد الأخرى، في تتابع مستمرّ، ثم تنكسر وتتلاحق مكوّنة قطرة مثقلة، سرعان ما تنزلق على الزجاج لتنتهي بدورها على الحواشي والأطراف. ثم تعاود من جديد في التكوّن وعلى نفس الوتيرة، مختزلة في حركتها الوجودَ بكلّ تعقداته وأزليَّته المتكرِّرة. هكذا أشياء الدنيا، تبدأ صغيرة، ثم تمتلئ كالسنبلة، ثم تجفّ بعد أن تخرج منها حياة جديدة، ثم تتهاوى في مشهد جنائزي مقلق. يبدو المشهد المتخفّي وراء الأشجار العملاقة وكأنَّه لوحة مُوِّهتْ فيها الوجوه والعلامات في شكل مضبّب يعطي الانطباع بالانزلاق والهرب لدرجة التلاشي. المطر يوقظ الحنين المتخفّي في الأعماق، وشيئًا من التفاصيل التي سهونا عنها في رحلة الحياة. تبدو الحديقة في بيتي في بروكلين، التي رسمتُ بها الجزء الأكبر من لوحتي التي أتعبتني كثيراً وأرهقتني في تفاصيلها الدقيقة: **نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة**[1]، معزولة

---

١ ـ اختيرت لوحة: **نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة**، لتحتلّ صدر غاليري City Without Walls، في معرض نيوجيرسي، بالضبط في الركن، على اليمين قليلاً من مدخل الزوار، لأنَّها الأكبر من ضمن لوحات معرض Power Life. كانت الوحيدة التي كتب تحتها: مهداة وليست للبيع. PC.GIFT.MAKON/000. أنجزت بتقنية عالية، إذ كلّما سُلّط الضوء الخافت عليها، أعطت لمتأملها الانطباع بأنَّه جزء من اللون، داخل مدينة تهمّه أسرارها.

ووحـيـدة. لا شيء إلا السـيـول التي يأتيني صـوتهـا خـافـتًـا، وأشـجـار البلاطان العالية التي كـانت كأنَّهـا تختبئ بين أغصانـها مقاومة الرياح العنيفة التي كـانت تهـزّها بعنف، لتجريدها من آخـر أوراقـهـا التي قاومت عواصف الفصل كلّه، وظلت عالقة حتى النفس الأخير، بخيط الحياة، قبل أن تستسلم لجبروت الفصل وقانونه.

أسمع صوت أمّي يأتيني من بعيد نقيًّا وهادئًا، وهي تضع على رأسها كيسًا بلاستيكيًّا، لأنَّها فوجئت بالمطر في الطريق. تسحبني من يَدَيْ طانت جونيفـيـيف، التي كـانت قلقة علينا من الخروج في ذلك الجوّ:

ـ وحـيـاتك أنت مـجنونة يا مـيـرا؟ مـش معقـول تروحي بهـيك أمطار؟

ـ حـبـيـبـتي جـينا، أمطار القـدس مـثل نـاسـهـا، في كـلّ قطرة عـاصفة، وفي كـلّ شخص قنبلة موقوتة. لازم أروح، بعد شويَّة عائلة الحسيني ستبدأ في عمليّات البحث عن ابنتهم وحفيدتهم المخطوفة من طرف العصابات اليهوديَّة، وتتحوَّل القصّة إلى قتال بيننا وبين اليهود واختطافات لا تنتهي أبدًا. الجوّ قد لا يتحسَّن أبدًا، ولهـذا عليَّ أن أخرج الآن.

ـ أخـشى أن تمرضي بهـيك حـالة وبهـيك وضع. الأمطار باردة جدًّا. على الأقل اتركي مي عندي بالبيت، هذه الأمطار باردة وثقيلة.

تلتفت أمّي نحوي تستفسر بعينيها:

ـ شو رأيك حبيبتي؟

ـ أنا بموت في طانت جينا بسّ... ما بدّي إياك تروحي لحالك.

ـ مفهوم... مفهوم...

تستسلم طانت جينا لرمشات عيني المرتبكتين.

تضع أمّي على رأسي كيسًا بلاستيكيًّا، وتصنع لي به قبعة كما يفعل الفلاّحون عندما يخرجون نحو حقولهم في الأيّام الماطرة. نودّع طانت جينا ونخرج ركضًا. الناس يجرون في كلّ الاتجاهات. كانت الأمطار تصفع الوجوه بقوّة. أشعر بلذّة غريبة. أجري وسط صرخات الأطفال شبه العراة. أشتهي أن أنزع قبّعتي البلاستيكيَّة أنا كذلك، وأترك المطر يتسرَّب إلى جسدي، ويملأ رأسي، شعري ولباسي. نركض. تكاد السيول أن تغلق الطريق. أفتح الخيوط في غفلة من أمّي. نضحك عاليًا مثل الأطفال، يطير الكيس من على رأسي وتسرقه الرياح بسرعة وترفعه عاليًا عاليًا. أواصل الركض بدون توقُّف حتى ندخل عمق حارة المغاربة. لا أدري أيّ سعادة يشعر بها المرء وهو يدخل بيته وهو يتقاطر ماءً؟ كنت أسعد طفلة في الدنيا. أمي غيَّرت لي بسرعة ملابسي ووضعتني أمام المدفأة التي كانت تأتي منها رائحة الخبز المحروق الذي كان جدّي يشتهي أن يضعه على المدفأة وعلى الجمر قبل أن يأكله، ورائحة خشب الزيتون والدالية. كان الزمن مشابهًا لليوم. في الليل كدت أموت بالحرارة. تملَّكتني حمّى حادّة لم يستطع جسدي النحيف مقاومتها. اضطرّت أمّي إلى أن تضعني في حضنها طوال الليل وأن تثقل جسدي بالبطانيات الكثيرة. أمّي ندمت

كثيراً لأنَّها لم تسمع لنصيحة طانت جينا التي ألحّت على بقائي عندها. اكتشفت فجأة أنّي بقدر ما كنتُ قويَّة، كنتُ هشّة مثل جناحي فراشة.

الأمطار زادت حدّتها.

المرض أكبر حالة قهر تصيب الإنسان. أحيانًا نقبل بقدر الموت بسهولة أكثر من قبولنا لسلطان العجز. كنت أشتهي مثلاً أن أطير الآن، أن أخرج إلى شوارع بروكلين الهادئة والمستسلمة لأنين الماء. للمطر وقع كبير عليَّ وعلى شوارع هذه المدينة. ليس الموت هو من يقف في وجهي، ولكن المرض الذي اغتصب شهوتي. أرى كلّ شيء من هنا كأنَّه لوحة بكلّ تفاصيلها الدقيقة. لا أستطيع الخروج ولا الوقوف أكثر من ربع ساعة ولا الجلوس طويلاً. أحاول قدر المستطاع أن لا أنهك جسدي. نصحتني الممرّضة بأن لا أعرض نفسي للبرودة كثيراً، ولا حتى للحرارة. وأن أتفادى الجهد العضلي والضغط على أطرافي، لتفادي انتفاخ الذراع الذي يمكن أن يكون خطيراً.

«ـ أعرف أنَّك فنّانة كبيرة، ومن ينصح فنانًا كمن يقدّم نصيحة لمجنون ولكن مع ذلك، المسألة جادّة لأنَّها تهمّ حياتك.

لم أكتم سخريتي المرّة.

ـ معك كلّ الحقّ، ولكن إذا لم أستعمل يدي ماذا سأستعمل بدلها؟ ثم بصراحة، هل يبقى للحياة معنى بدون يدي وأصابعي؟ ماذا سأفعل بالحياة؟ كيف أهرِّب اللون من رأسي إلى الريشة ثم إلى اللوحة؟ الألوان في الرأس قبل أن تلصق على جسم ما.

ـ ومع ذلك، لجسدنا حقّ علينا».

المشكلة كلّها هنا. الاعتراف بالذبول والموت البطيء هو المشكل. ربما كان ذلك رهانًا على الحياة المتبقيَّة فينا، التي ترفض الاستسلام والانحناء أمام حصاد الموت. تعوَّدت، كلّما مرّ الدكتور هيرفي كروث، من أمامي، أن أقرأ كلّ شيء في عينيه أولاً، وعندما يغادرني وهو يداعبني:

«ـ كيف فنّانتنا الكبيرة الآن؟

ـ تحلم بيوم أفضل، مليء لحدّ الغرق بالفراشات الملونة.

يبتسم بإشراق. ترتسم غمازتان في وسط خدّيه بوضوح، على الرغم من سنّه المتقدِّمة وشعره الأبيض.

ـ مي، أنتِ تعرفين أن لا شيء يربطنا بالحياة الصعبة إلا الحلم. عندما نفقده، كأنَّنا نسلم أمرنا للموت. الحلم يوقظ فينا الرغبة في الاستمرار والحياة... المهمّ... أرى أنّ وضعك اليوم أحسن بكثير.

ـ ممتاز.

ـ وذراعك؟

ـ جيدة، لأنَّه ظلّ نائمًا ولم يفعل شيئًا إلاّ الحركات اليوميَّة التي لا معنى لها. لم أعد أرسم يا دكتور منذ أيّام. هل هناك أمل في وضعي؟

ـ أنت تعرفين أنَّ الشفاء من هذه الأمراض مربوط جزئيًّا بإرادة المريض والدواء المناسب. والشيئان متوفران فيك، ولا مبرّر للقلق».

ثم يلقي نظرة أخيرة على التقارير الموضوعة على حافّة السرير، في جيب بلاستيكي صغير. يسجّل بعض الملاحظات للممرّضات، ثم يمضي في حركة شبه آليَّة نحو مريض آخر.

أشياء كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها، لكنّ صفائي الذهني يخذلني. منذ مدّة لم أعد قادرة على التركيز. الآلام المفاجئة لا تترك لي وقتاً للتأمُّل ولا للكتابة ولا حتى للصراخ. أشياء مبهمة تذكّرني بهذا المرض الذي قتل جزءاً كبيراً من العائلة بمن فيهم مامي دنيا، التي منحتني كلّ شيء بسخاء لم أره عند أيّ قريب. قد تكون السيجارة هي السبب، ولا بدّ أن أدفع ثمن متعتها الاستثنائيَّة، ولكن عليَّ أن أعترف بأنِّي جررت ورائي، من مدينتي وأهلي، جينات قاتلة مثل القنابل الموقوتة، تستيقظ الآن فيَّ لتخبرني بنهاية المطاف. موت مامي دنيا هيّأني للنهاية بشكل لم يعد يخيفني كثيراً. أتمنّى فقط أن يُسند رأسي شخص يمنحني فرصة أخيرة للحلم وأن أتلاشى في عمق الغفوة.

كلّما خرجت من العلاج الكيمياوي الثقيل، زاد انتفاخ جسدي وثقله، ودخلت في حالة أفازيا يتعطَّل فيها كلّ شيء، وفقدتِ الأشياء القريبة منّي أجسامها بما في ذلك اللغة، وأفلتت منِّي السيطرة حتى على الذاكرة التي لا تعود إلا في الوقت الذي لا أنتظرها فيه ولا أكون مهيَّأة لاستقبالها. تستعصي عليّ أحياناً الأشياء الصغيرة لدرجة البكاء والحنين إلى طفولتي التي كان كلّ شيء فيها يتحرَّك بقوّة ويتّقد فيَّ. ولكن يتغيَّر بسرعة كلّ شيء، في لحظات الصحو النادر.

أراني على أجنحة فراشات القدس، في أقصى درجات النعومة والعذوبة. أعبر بلا خوف ولا أسئلة، الحقول المكتظّة بالنباتات الكثيرة والمتوحّشة، بعضها أعرف اسمه والبعض الآخر لا علم لي به لأنّي أراه للمرّة الأولى في حياتي. عرس من الألوان التي تخترقها الأنوار التي تأتي من كلّ الجهات. أرى الناس يركضون نحو حقولهم وهم يحاولون جاهدين أن يتفادوا بصعوبة الأمطار الثقيلة والبروق التي تلمع في كلّ الجهات عندما تنغلق سماء القدس. أهمهم في أعماقي بسعادة لا حدود لها: ياه.. من أين يأتي كلّ هذا البذخ الكبير؟ يكفيني أن أعيش هزّة احتفاليّة بعرس النباتات مثل الفراشة، وبعدها أموت. الفراشات لا تضيق ذرعًا بي، كلّما تعبت واحدة، سلّمتني للأخرى في غنائيّة لا حدود لها من الألوان. تتجاور الفراشتان، تميل إحداهما قليلاً نحو اليمين، تفرش أجنحتها عن آخرها، ثم تزحلقني باتّجاه الأخرى التي تكون قد فرشت جسراً من الأجنحة ذات الألوان المدهشة، لتعلو بي فوق الزهور والنوّار والأوراق وندى النباتات. لا شيء غير الدهشة والفيض اللامحدود من الكمال. أيّ يد عظيمة تولّدت عن لمستها السحريّة كلّ هذه الألوان المدهشة؟ طغيان الطبيعة، فوضاها، وقوّتها، حفيفها المهدهد، تذهلني إلى أقصى الحدود ولا أملك حيالها إلاّ دهشة طفل يفتح عينيه لأوّل مرّة أمام زهرة تلبس نداء الفجر ونعومة الليل.

الآلام المتكرّرة لا تترك لي وقتًا كافيًا للصفاء. عليّ أن أقاومها بشدّة، بالدخول في فجوات الخيال. وكثيراً ما أفشل في ذلك فلا يبقى

أمامي إلا طريق المورفين السهل الذي يرميني مباشرة على تخوم نوم لا شيء فيه إلا السكينة البليدة التي توسّع من فجوة البياض. أكرِّر دائمًا على نفسي: لماذا النوم؟ **لنا كلّ الموت لننام**، كما كان يقول لي بابا حسن عندما يتعب من الحديث عن الموت. لهذا كنت لا ألتجئ إلى المورفين إلاّ عندما تزداد قوّة طاحونة الألم، وتصبح فوق طاقة التحمُّل.

ياه... ما أوسع هذا الجرح الذي فتحته؟ كنت أظنّ أنَّ فتحه هو الصعب وأنَّ إغلاقه هو السهل، وخلتني كأنني أمام باب يُفتح بصعوبة إذ يحرن المفتاح في قفله، وللإغلاق يكفيك سحب الباب. أدرك الآن أن لا قوّة قادرة على غلق الجراحات المفتوحة إلاّ الموت والآلام الحادّة التي تشتعل داخل الجسد كالقنابل الموقوتة، تفكّك واحدة، تنفجر أخرى متخفيَّة تحتها، ساحبة في أثرها كل الأشواق الصغيرة الدفينة. أشعر أنَّه ما يزال أمامي الشيء الكثير ممّا أريد قوله، لكنَّ الوقت كالحياة الوهميَّة، كلّ يوم يزداد ضيقًا، والشمس كلّ صباح تزداد انكماشًا وضموراً، وحركتي كلّ يوم تنحصر في مربّع جديد وضيّق. كنت لا أرتاح إلاّ على حوافّ بحيرة هودسون وأتأمَّل مغيب الشمس أو أعبر بروكلين ـ بريدج وأنتظر الشروق والغروب، فأختصر كلّ شيء في مستطيل لا شيء فيه يخيف إلا الانتظار في قاعة الاستقبال في المستشفى. حتى هذا المستطيل زاد ضيقًا إذ أصبح من الصعب عليّ الخروج إلى ساحة الحديقة للرسم. ثم ضاقت القاعة وبدأت منذ أيّام أكتفي بمساحة صغيرة اسمها السرير. وأعتقد أنَّ السرير نفسه سيزداد ضيقًا ليصير قبراً. بعدها بمدّة قليلة، ينتفي كلّ شيء، الأحلام،

الأسماء، والأخبار والأشواق الدفينة، وكأنَّنا لم نوجد يومًا على هذه الأرض المتهالكة. الغريب في كلّ هذا أنَّ أشياءنا الصغيرة والجميلة في الحياة أكثر مقاومة منّا. كلَّما وقفت أمام تمثال جميل، تساءلت عن الزمن الذي قضاه صاحبه وهو يفكّر في إنجازه؟ كم مرّة أصيب باليأس وهو غارق في عمله؟ الهزّات الجميلة التي شعر بها وهو يشارف على النهاية؟ سهر أيامًا وليالي وهو ينحت، ينحني ويقوم، يعطّل أكله وشربه حتى النهاية، يتأمَّل عمله فجرًا قبل صعود الشمس، يتتبّع الأشعّة وهي تنعكس على سطحه الأملس... ثم ألتفت نحو الفراغ وأسأل نفسي: ماذا بقي اليوم من ذلك الرجل التي التهمت القرون وجوده الفيزيقي ولكنَّها فشلت في محوه؟ وعندما أتخطَّى عتبة متحف الفنون، أتأمَّل سحر الألوان التي مرّت عليها الأزمنة الغابرة ولم تحلْ. أنكمش في فراشي في وضع شبه جنيني، وأتمتم في أعماقي حتى لا يسمعني أحد: ماذا بقي من تلك اليد السمحة والرقيقة التي لوّحت كثيرًا في الفضاء، وهي ترصّع البياض بالألوان الساحرة؟ أندهش من هذه القوّة الباطنيَّة التي تحافظ على الحياة حتى بعد اندثارها وأفولها.

مشكلتي التي تعذبني هي أنَّ جسدي مهزوم جزئيًّا ولا أملك حياله أيّ شيء. أعضائي الحيَّة، أحاسيسي، بصري سمعي، قلبي، جهاز تنفُّسي، باطني العشقي، بعض أطرافي، جلدي... كلّ شيء فيَّ ما يزال ينبض بالحياة كما في الزمن الأول. فكيف يعيش النصف الحيّ ساحبًا وراءه، في رحلة يائسة، نصفه الميت؟ لولا هذا اللغم الذي

استقرّ حيث لا يجب أن يكون، لمرَّ كل شيء عاديًّا ودون قلق أو فوضى. ما تزال الحياة تسري في أعضائي السليمة، فبأيّ حقّ تأخذ الأعضاء المتهالكة كلّ شيء قائم ومقاوم فيَّ؟ ما زلت قادرة على أن أقبض على الحياة بأسناني وأصابعي وأحاسيسي الجميلة.

سعيدة على الأقلّ أنِّي في بيتي. الأمطار لم تتوقَّف. تبدو السيول واضحة من وراء لمبة الحديقة الصفراء، أرى كلّ ذلك من هنا، من فراشي.

منذ لحظات انزاح الألم ليترك لي فسحة العودة إلى نفسي قليلاً. كنت أريد أن أواصل الرسم، ولكنِّي أعتقد أنِّي سأتعب كثيراً، ولهذا اخترت أن أكتب قليلاً وأنا أعرف مسبقًا أنَّه كلّما عاد الألم، انسحبت الذاكرة نحو بياض الموت. يأتيني نشيج مبهم من بعيد ساحبًا في أثره أشواقي وأفراحي الصغيرة. أسمع أصوات كلّ الذين أحبّهم وأشتاق باستمرار لرؤيتهم، بدءاً من حبيبتي لينا، ظلّي الجميل، وغيمتي التي غطّت كلّ حماقاتي، وجدّي الأول الذي فضّل حرائق المحاكم في طليطلة على الهرب بجلده، وجدّي من والدي الذي عُلّق على خشبه ذات فجر في ساحة المرجة، في دمشق، لأنَّه حلم أنَّه يمكن أن يخرج من قفص الأتراك ليبني وطنًا ليس على الورق الملوّن ورمل الصحراء، ولكن وطنًا من تراب وماء، ثم جدّي من أمّي الذي أعرف وجهه، وهو من ركض نحو البلدية لتسجيل اسمي: مريم، مثلما سمعه لأوّل مرة. فقد أصيب بالقنطة القاتلة، لأنَّ الوطن الذي تصوَّر أنَّه حماه بعدم بيع الأراضي وحرثه بالأظافر، سُرق بعنف وأُبيد كلّ من

احتجّ على الجريمة الموصوفة. من أكون إذن في سجّل أجدادي العظام؟ لقد اختصرت المسافات وحاولت أن أضع كلّ ذاكرتي في برّاد مغلق، أو في الوسادة كما كان كبارنا يفعلون، حتى يتفادوا رمي الألبسة غير المستعملة التي كانوا يحشون بها الوسائد كلّما حلّ الصيف، ولا يخرجونها إلا عندما تدور السنة دورتها ويأتي الشتاء من جديد. المشكلة، أنّه كلّما صار الموت على مرمى بصر، اندلعت كلّ التفاصيل دفعة واحدة كالحرائق، ويحتاج المرء إلى قدر كبير من الصفاء الاستثنائي لكي يتمكّن من فهمها والدخول فيها. قد لا أكون شيئًا مهمًّا في هذا السجل، ولكنّي ابنة ذلك الخيط الرقيق الذي يشبه الشعاع الحادّ الذي مشى عليه السابقون من أهلي مثلما يفعل البهلوان العاشق لمهنته، على الرغم من مخاطرها القاتلة.

أتساءل في غفوتي التي بدأتُ أخرج منها من ثقل المورفين: كيف سيكون خريف القرن القادم يا ترى؟ منذ خريفين وأنا أقول لو تمنحني الدنيا مزيداً من الحياة، سأنتهي من آخر لوحة في يدي. لكن الحياة كانت في كلّ مرّة تهديني خريفًا جديداً مليئًا بالانتشاء والأشواق ولوني الذي لا أراه إلا نادراً في السماء أو وهو يتسرّب بين الأشجار، فأسعد إلى أقصى الحدود لأنّي أوّل من اكتشفته. كنت في بهاء نيوتن، ولكن على طريقتي الخاصّة. أنا كذلك اكتشفت قانونًا جديداً للجاذبيّة: جاذبيّة اللون السرّيّ؟

يبتعد النوم عنّي مثل النجمة الهاربة.

عندما يزيد الألم ويبلغ درجاته القصوى ويفوق طاقة تحمّلي، أحلم بإغفاءة واحدة، واحدة فقط، لأقوم من جديد إلى عملي، ولكنَّها لا تأتي.

أشعر بالخوف الكبير ممزوجًا بالآلام الحادّة، لا لأنَّ الموت صار قريبًا، مجرّد رمشة مخطوفة، ولكن لأنِّي لم أعش كلّ أحلامي على هذه الأرض. أشعر كأنَّ مهمّتي مبتورة، أو كأنَّ جزءًا مهمًّا منها قُتل في جسدي ودُفن فيه حتى قبل نهايته. الذي يخيف ليس الموت، نتعوَّد عليه مع الزمن ونُدخِله ضمن انشغالاتنا، لكنَّ هذا البتر المؤذي الذي لا حلّ لنا أمامه ولا سلطان لنا عليه، هو المقلق والقاتل في الآن نفسه. تخيَّل نفسك في قمّة انفتاحك على الألوان والأضواء الملتبسة بآلاف القطرات من الندى، تكتشف فجأة أنَّ الأقدار وضعتْ لغمًا فيك، وفجّرته مبكّرًا، وأنَّك ستحرم من الحياة ومن كلّ احتمالات السعادة القادمة، بضربة بليدة؟ ولكن... فجأة أشعر بسذاجتي الطفوليَّة. منْ مِنَ البشر أنهى مهمّته في هذه الحياة أو شبع من الدنيا؟ لست إلا ذرّة ضائعة في هذا الفضاء الواسع، كلّما التصقت بجسم عابر مثلها، ظنّته هو حقيقتها وجوهرها، ولكنّها سرعان ما تنفصل عنه لتلتصق بجسد آخر وتعود لها نفس الأسئلة، قبل أن تنفصل مرّة أخرى، إلى أن تتآكل وتضمر وتنتهي.

يخفّ الهسيس الذي كان يشكّل خلفيَّة كلّ الأصوات التي كانت فيَّ. توقّف سقوط المطر واتَّضحت الرؤية أكثر من وراء زجاج النافذة المندّى. تبدو الحديقة مغسولة ومشعّة تحت ضوء لمبات الشارع

الرئيسي، التي اشتعلت قبل ساعات، الواحدة تلو الأخرى بشكل منتظم. زادت خضرة نباتات الحديقة وأشجارها. وبدأت الحركة المنتظّمة تدبّ في الساحة من جديد. من حين لآخر أسمع من بعيد أصوات سيّارات الإسعاف وهي تأكل الطريق بسرعتها الجنونيَّة. أقول في خاطري، لا بدّ أن يكون المريض في حالة خطيرة ويحتاج إلى مساعدة. تأخذني الشهوة للخروج وتأمّل المشهد ثم العودة بسرعة لرسم أحاسيسي الداخليَّة، لكنَّ شيئًا ما يعطّل فيَّ كلّ شيء. أشعر برجليّ مسمّرتين في مكانهما وكأنَّهما شُدَّتا إلى حديد السرير بإحكام. أستسلم لقدر المرض وأحاول مرّة أخرى أن أغمِّض عيني، وهذه المرّة بدون الاستعانة بالمورفين.

باستثناء الرمادي، كانت سمائي الليليَّة مفرغة من أيّ لون جذّاب. يبدو لي أنَّ كل شيء قد انتهى، وعليَّ أن أتحرَّر من هذا الخيط الرفيع الذي يشدّني إلى الحياة، وأدمى يديَّ وعمَّق جروحي. لقد تعبت من القبض عليه بأسناني وكفّي ورجليّ، وآن الأوان لأن أستسلم للّحظة القاهرة حيت تنسلّ فيها الأرواح عن أثقالها وشططها. لم يعد هناك من داع لتمطيط الألم وقهر شهوة الموت. أشعر بتعب كبير يأخذني من جلدة الرأس المتعب كثيراً حتى أخمص القدم التي رقّ جلدها وصار المشي عليها مؤذيًا. عليَّ أن أترك الخيط الرفيع لمن هو أقدر منِّي على مقاومة الموت، وأدع نفسي تتهادى قليلاً نحو السكينة الأبديَّة بدون ضجيج يُذكر، مثل الريشة.

لقد ماتت الصبيَّة المقدسيَّة عند بوّابات السفينة الثقيلة عندما أدركتْ أنَّ رحلتها لم تكن مجرّد لعبة موّقتة، ولحقتْ بها المرأة المشدوهة بالألوان التي ظلَّت معلّقة على حلم مستحيل والتباس لم تفهمه أبداً؟

سأعود يوم السبت إلى قاعة ترانزيت الموتى، المستشفى. وسأحاول أن أُنهي ما عجزت عن فعله اليوم في بيتي.

عذراً يا ميرا... أمّي الحبيبة، لم تعد المسافات التي تفصلنا كبيرة.

عذراً يا لينا، لن أغضب منك بعد الآن.

عذراً... أشهد أنّي تعبت ولم أعد قادرة على التحمّل.

بعينين متعبتين، بحثت عن حبّة المورفين المخبَّأة تحت الوسادة. نسيت الوعد الذي قطعته على نفسي.

«ليكن... إنّها المرة الأخيرة».

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

السبت ٢٧ نوفمبر ١٩٩٩

...

مرّت الأيام التي قضَّيتها في البيت، في أعالي بروكلين بسرعة غريبة. لم أتفطّن لانتهائها إلاّ عندما وجدت نفسي في مستشفى نيويورك من جديد، في مواجهة الدكتور هيرفي كروث وجيشه من الممرّضات والمساعدين. بقائي في البيت، ولو لمدّة قصيرة، منحني فرصة جميلة لاستعادة ردود فعلي وعاداتي الصغيرة، التي بدأتُ أفتقدها: النوم في سريري، تنظيف الورود من الأوراق الميتة في حديقتي، تأمُّل فضائي الذي يحيط بي، ولوحاتي القديمة، النبش في أوراقي، على الرغم من الآلام الحادّة التي أرجعتني موقّتًا إلى المورفين.

الحركة في المستشفى كبيرة. وجوه الناس مبتسمة، حتى أكثرها حزنًا أو التي مسّها أذى، في حركتها وفي ملامحها شيء من الإشراق

لم يستطع الفقدان كسره. لا أدري لماذا انتابتني حالة من الصمت منذ أن عدت من بروكلين باتّجاه المستشفى، على الرغم من تحسُّن حالتي الصحّيَّة، أو على الأقلّ هذا ما قاله لي الطبيب. كانت الأيّام التي قضّيتها في بروكلين غالية أرجعت لي بعض التوازن الغائب. حتى الآلام التي بدأتني ليلة عودتي إلى بروكلين، وضيّقت على تنفّسي، سرعان ما سكنت عندما انغرست في ترتيب بيتي وتفاصيلي الصغيرة، حتى أنِّي فكَّرت في لحظة من اللحظات في البقاء وعدم العودة إلى المستشفى. أعدت ترتيب لوحاتي وقرأت رسائلي القديمة والجديدة التي كانت في معظمها دعوات أو استفسارات إداريَّة من مدرسة الفنون لبروكلين عن غيابي الطويل. لقد بعثت ملفًّا بكامله ولا أدري أين وصل؟ وأخبرت الإدارة بوضعيّتي الصحّيَّة من قلب المستشفى الذي بعث مذكّرة بهذا الصدد موقَّعة من الطبيب المسؤول. في بروكلين، نحتاج دائمًا إلى كثير من الصبر لتخطّي الحماقة الإداريَّة. كلّما فتحت رسالة من رسائلي القديمة، كنت أقرأ عنوانها أوّلاً لأتفادى أيّة مفاجأة أو هزّة عنيفة. في أعماقي، كنت خائفة من الرسائل غير المنتظرة مثل تلك التي بعث بها يوسف والتي لم أقرأها أبداً. لم أكن مستعدّة لتحمّل صدماتها. ومع ذلك لم أستطع تفاديها. كانت مع المجموعة الكبيرة التي وصلتني من القدس. لم يكن وقتها شيء يهمّني سوى أخبار أمّي وتاريخ وصولها إلى نيويورك وحالة خيّي عليان. مددت يدي نحو الكومة الكبيرة المربوطة بحزام مطّاط. تصفّحتها واحدة واحدة من أغلفتها المغلقة بإحكام. كلّها

كانت من يوسف مكتوبة بخطّ لاتينيّ أنيق وكأنَّه رسم. كلُّها موقّعة بعد ٦٧. انتابتني رغبة لفتحها، ولكنّي عدلت عن الفكرة لأنّي لم أكن قادرة على تحمُّل أيّ شيء زائد. أشباحي التي كانت فيَّ كانت تكفيني وزيادة. ثم إنَّ فتحها بالنسبة لي كان يعني اقتناعي بالموت، أو هكذا بدا لي، بينما كنت ما أزال أصرّ على حقّي في الدقائق الأخيرة من الحياة. لملمتها من جديد، ثم وضعتها في صندوق الوثائق وحاولت أن أنساها مرّة ثانية.

في الليل، عندما جلست مع يوبا رأيت في عينيه حيرة خاصّة، وحزنًا كان ينزلق على ملامحه مثل الغيمة الثقيلة. كنت صامتة. على الرغم من شروده، فقد ظلّ يتعمَّق تفاصيل ملامحي بدون أن يتكلَّم. هكذا كان يفعل عندما كان صغيراً. ينظر إلى وجهي دائمًا قبل أن يسألني: ماما هل هناك شيء أغضبك؟ هل أزعجك بابا؟ وأجيبه، وأنا أحاول أن أخبّئ حزني عن غياب كوني بعيداً، في خراب البحر الميت أو على حوافّ مدافن البحرين: لا، حبيبي، لا يوجد أيّ شيء. فقط سأشتاق إلى والدك. فيتمتم وهو ينام على صدري: بابا هكذا دائمًا... يغيب ويظهر... يظهر ويغيب... سيعود يا ماما... سيعود. حركات يوبا لم تتغيَّر إلا قليلاً. أعرفه حتى عندما يريد أن يخبّئ خبراً يخاف أن يزعجني به. رأيت أشياء غامضة في عينيه. يوبا عندما ينكسر، ويصل ألمه درجاته القصوى، يصمت، ولكنّه ابني وأعرفه جيّداً.

ـ يوبا... حبيبي. هل قال لك الطبيب شيئًا أزعجك؟

ـ لا يا يمّا. لا يوجد ما يخيف. منشغل فقط براحتك ومعرضك الذي أصبح على الأبواب. لا أريدك أن تتعبي كثيراً. يجب أن ترتاحي.

ـ يعني؟

ـ مستر هيرفي كروث يرى أنَّ عليك أن تهتمّي قليلاً بصحّتك. جسدك صار هشًّا يا يمّا، ويحتاج على الأقلّ إلى بعض الراحة. حاولي أن توازني بين وضعك الصحّيّ وعملك الفنّيّ

ـ لم أفهم. الطبيب كان متسامحًا معي إلى أقصى الحدود. سمح لي بقضاء نهاية الأسبوع بكاملها في البيت، هو الذي كان يصرّ دائمًا على ضرورة بقائي في المكان نفسه تحت الرقابة الطبّيَّة.

ـ هو طبيب ويعرف ما يجب فعله، وإذا سمح لك فلأنَّه مدرك بأنَّه لا خطر عليك. لكنِّي أنا ابنك، وأحسّ بآلامك أكثر. أعرف أنَّه من المستحيل عليك ترك كلّ شيء. عندما تطلب من فنّان أن ينضبط، أنت تقتله كليًّا. أعرف هذا كلّه يا يمّا وأحسّ به، لكن على الأقلّ...

ـ لا تقلق يا يوبا. أنا اليوم كما تراني... في أسعد حالة صحّيَّة. هل هناك أفضل من أن يستعيد الإنسان رغبة الفرح والعودة إلى الحياة؟

أردت أن أقول له إنَّ طبيب خالتي مامي دنيا عندما لاحظ أنَّ أمرها أصبح ميؤوسًا منه، قلّل من الضغوطات عليها، وسمح لها بحريَّة

كبيرة. أطلق سراحها نحو الموت ولم يعد يقلقها. من حين لآخر يطمئنّ عليها ثمّ ينساها. ربّما هذا ما فعله معي الدكتور هيرفي كروث؟ أردت أن أقول له كلّ هذا، ولكنّي فضلت أن أصمت وأن لا أرهقه وهو يحضّر، مع صديقه العازف الإيطالي، لاحتفالات أعياد الميلاد، في أوبّرا نيوجرسي.

ـ طيّب، كيف تشعرين الآن.

سألني وكأنّه كان يريد أن يخرج من قوقعة الأسئلة المغلقة:

ـ أفضل بكثير. ولكنّي أشعر برغبة كبيرة للنوم. كأنّ إنهاكًا كبيرًا يسحب جسمي بعنف نحو الأرض. لا يوجد أيّ ألم، ولكنّي أشعر بثقل كلّ شيء. ربّما كان تعب الشهور الأخيرة. لا تهتمّ لذلك. أنا سعيدة أنّي معك، وأنّك هنا في البيت الذي فتح الحياة أمامي. بيت مامي دنيا.

واجهني بيانو مامي بكبرياء وعنفوان. فقد قاتلت من أجله لكي لا يُباع في سوق العتيق من جديد واسترجعته. كان ذاكرتها وحياتها. قمت من مكاني بجهد واضح، واتّكأت عليه قليلاً.

ـ هل تدري قيمته يا يوبا؟

ـ طبعًا يا يمّا. يكفي أنّه لريشاردسن العظيم الذي باع جزءًا من بيته وأثاثه ليشتريه، قبل أن يبيعه الأغبياء الورثاء في أقرب سوق للأغراض القديمة؟ أيّ عقل وأيّ إحساس هذا؟ كبرت بجواره. وملامسي الطفوليّة كلّها عليه. أين تعلّمت العزف حقيقة؟ أنا أدين

بالكثير لهذا البيانو وللودميلا التي كانت تأخذ أصابعي وتضعها على الملامس وتسألني عن اسمها. إلى اليوم أتذكَّر تفصيل ملامحها كلّها، وجهها المدوّر والممتلئ، عينيها الذكيتين، أصابعها الطويلة التي اشتهيت دائماً أن تكون أصابعي يوماً مثلها، خزرتها الهادئة، صوتها الدافئ والناعم مثل الهسهسة. لم أسمعها يوماً ترفع صوتها في وجهي غضباً، حتى عندما أخطئ. خالتي دنيا كانت على حقّ عندما قاتلت من أجل هذا البيانو وحدَّت من بلادة أختيها. المصالح المادّيَّة أعمت الناس إلى درجة لا يمكن تصوُّرها.

ـ أرجو أن تحتفظ به بعد موتي. حتى السكن بإمكانك بيعه إذا ارتأيت ذلك، لن أغضب منك، على الرغم من أنَّه جزء مهمّ من روحي. فيه من نفس خالتي التي أراها في كلّ مكان. أصبحت في الآونة الأخيرة تؤثّث أحلامي أكثر من أمّي. لن أطلب منك أن تترك مانهاتن وتأتي إلى هنا. أعرف أنَّ الجو في بروكلين هادئ كثيراً وليس في مستوى طموحات شاب مثلك، مليء بالأحلام والحياة. ولكن البيانو... هو أجمل ميراث لي ولك. فقدت لودميلا التي كانت تعطيه حياة خاصّة. فهو لك.

ثم تذكَّرتُ كومة رسائل يوسف.

ـ وهذه كذلك لك. احتفظت بها ولم أفتحها. كنت خائفة من أن أخون والدك ولو بالحلم. عندما أخبرت كوني عنها، سخر منّي كثيراً وشجّعني على فتحها، ولكنّي لم أفعل. قال لي: لن تعيشي حياتك بدون الانتهاء من حداد مدينتك وطفولتك. كان على حقّ.

واليوم كلّما فكّرت في فتحها، شعرت بأنّ الموت يقف عند العتبات ويتأمّلني بتلذّذ، فألغي الفكرة. احتفظْ بها، ولك أن تفتحها إن شئت، وأن تقرأها، أو أن ترجعها إلى البريد نفسه أو تحرقها معي. فأنا ظللت معلّقة، لا استطعت إرجاعها، ولا امتلكت القدرة على قراءتها. أكثر من مئة مرة. كنت أتمنّى أن تحرق معي، ولكنّي لم أعط لنفسي هذا الحقّ، فهي ليست ملكي وحدي. ميراث ثقيل يا يوبا. أعرف مسبقًا أنّ يوسف، كما عرفته في طفولته، بجنونه وحمقه، لن يكتب إلاّ عن الحرائق التي أكلت مدننا وناسنا، وعن الهزائم المتتالية التي صُنِعتْ لنا. لا أعلم ما هي القوة الكامنة في هزيمة ٦٧، ولكنّه منذ تلك اللحظة زادت شهيّته للكتابة.

ـ هذا ميراثك يا يمّا، ولا حقّ حتى لوالدي فيه. الموت... لا يا يمّا، لا تقولي مثل هذا الكلام. كلُّنا سنموت يومًا، ولا أحد يدري ساعته الخاطفة. المهمّ أنّك هنا، كما كنت تقولين دائمًا، ومليئة بالحياة والأشواق. البقيّة لا أحد يتحكّم فيها. قد أسقط أنا الآن عند الدرج بسكتة قلبيّة، وينتهي كلّ شيء؟ الحياة هشّة ومشكلتها الكبرى أنّها موقّتة، الموت وحده هو الأبديّ. هكذا الدنيا يا يمّا. ثم لماذا هذه الحالة من الكآبة؟...

ـ طيّب هل يمكن أن نغيِّر هذا الحديث؟

ـ كنت سأقترح ذلك. هل تريدين أن أسمعك شيئًا من السوناتا التي استعصت عليَّ نهاياتها؟

ـ لا تقلق، النهاية ستأتي. كلّ شيء في وقته. كنت خائفة أن أطلب منك ذلك. أنت متعب وتحضيراتك لا تترك لك وقتًا كبيراً. لكنَّك سهّلت عليَّ الطلب. اعزف لي المقاطع التي انتهيتَ منها.

لا أعرف بالضبط الوقت الذي مرّ، ولكنَّه عزف طويلاً وكان رقيقًا إلى أقصى الحدود. وهو غارق في السوناتا، رأيت دمعات تلمع في عينيه، تحت شعاع اللمبة الخافت الذي كان يتدلّى على رأسه، ومن خلال الشمعات المعطّرة التي كثيراً ما أشعلها بنفسي عندما أدخل إلى البيت بعد يوم مرهق. كانت دمعات ثقيلة، لا تتحرَّك على الخدّ إلاّ بصعوبة، وكان هو يتفادى أن ينظر باتّجاهي. فكلَّما انتهى من مقطوعة ربطها بأخرى بلا توقُّف أو تنفُّس ولا التفات. حتى عندما أغمغم من مكاني:

ـ برافو حبيبي... يا اللّه ما أحلاها مقطوعة...

كان يردّ بدون التفات:

ـ نامي يا يمّا... نامي... ما زلتُ هنا.

كنت أنظر إليه، وأسمع، وأغرق في نعومة اللحظة. أجوب بعيني المتعبتين في تفاصيل بيتي الأنيق. هكذا أريده. أكره الغبار والأوساخ. كان منظّمًا. أشعل الشموع المعطّرة لأنَّه يعرف عاداتي جيِّداً. لا أستسيغ الأماكن الفوضويَّة، وأريد كلّ ما يضفي على المكان شيئًا من السحر. بهدوء بدأت الآلام تذوب ولم يبق إلاّ الصوت الناعم الذي كان يأتي من بيانو خالتي ووجهها الذي بقي في ألقه الدائم على

الرغم من صعوبات الحياة. شعرت بنفسي أنحدر شيئًا فشيئًا نحو عذوبة كانت تدخل فيَّ كحبّات الرذاذ الدافئة، وتدفع بي عميقًا نحو الاستكانة. ليلتها، رأيت خالتي وهي تلبس الأبيض. الناس عندنا يتطيّرون من الأبيض ويقولون إنَّه نداء الميت للحيّ، ولكنَّني ظللت مشدودة إلى وجهها المشرق الذي ظلّ صافيًا وجميلاً ومدهشًا. كانت حيويتي فوق أيّ خوف. فأكملت مهمّة تنظيم المعرض وهي بين عيني ولم أحسّ مطلقًا بأيّ أذى منها، إذ تذكَّرت وجهها أكثر من لباسها.

نسيت للحظة سلطان الموت، وفتحت عينيّ المتعبتين على الحياة التي كانت تتضاءل كالنور أمامي.

الطبيب نفسه استغرب من حيويّتي وقدرتي على تحمُّل المعالجة الكيماويَّة الثقيلة. قال بأنَّ ذلك كلّه علامات إيجابيَّة، وأنَّ جسدي يستجيب بشكل جيِّد للعلاج. في الحقيقة، لم يكن ذلك يهمّني إلاّ بالقدر الذي يمنحني فيه زمنًا آخر للانتهاء من مشروعي.

غابت ليالي بروكلين من ذاكرتي فجأة، واستعدت بسرعة علاقتي بحديقة المستشفى التي تعوَّدت عليها وصارت جزءاً من مخيِّلتي، خصوصًا في أوقات الصحو. قوّة طاغية كانت تأكلني من الداخل وتدفع بي للذهاب بعيداً نحو عمق الأشياء. أخرجت بعض اللوحات القديمة التي جئت بها معي من بيتي، إذ ارتأيت أنَّها تحتاج إلى بعض التنظيف والإضافات الخفيفة، وبدأت أشتغل عليها بحماس منقطع النظير. لم يكن بذهني ما سأفعله بها سوى الحاجة الماسّة لإعادة قراءتها وخدش ثباتها المميت، حتى أنِّي وجدت لذّة كبيرة في

إدخال تحسينات كثيرة على بعضها بدون مسّ جوهرها. الاستثناء الوحيد هو لوحة **قبر على حافة الحياة**(١)، فقد شعرت بأنَّها غير كاملة، وأنِّي كنت متسرِّعة في إنجازها وإنهائها. فغيّرت نظامها الداخلي كليًّا وكأنِّي كنت أعمل على شيء جديد. لم أحتفظ إلاّ بتفصيلات هامشيَّة. حتى ألوانها الباهتة التي شعرت بالموت يتخبَّأ بين تفاصيلها، أصبحت أكثر حيويَّة، على الرغم من تيمة الموت التي بنيت عليها اللوحة أساسًا. لا أدري مصدر العاطفة التي تربّت تجاه هذه اللوحة، فقد شعرت بها قريبة منّي إلى أقصى الحدود، بل جزءاً من ذاكرتي وقطعة من أحاسيسي. صمّمت أنْ أهديها ليوبا، فهو يستحقّها. فهي من أولى لوحاتي، في غمرة هذا المرض المدمّر، بل تجسِّد أوّل حركة قمت بها على البياض، عندما أخبرني مركز التحاليل بالمرض. لم أنم تلك الليلة، فقد بتّ واقفة أتأمَّل البياض قبل أنْ أُغرِق فيه صدمتي وكلّ الخوف الذي اعتراني لحظتها.

---

١ ـ **قبر على حافة الحياة**. من المجموعات الخاصة. مرقّمة تحت: PRIV.COLL.MAYKON/000/GIFT جاءت بها مي من بروكلين في زيارتها الأخيرة وأعادت صياغتها كما اشتهت لأنَّها كانت تظنّ دائمًا أنَّ شيئًا مهمًّا كان ينقصها. لهذا لم تعدّها من آخر ما أنجزته. على الرغم من أنَّها صارت لوحة جديدة، لم تحتفظ فيها إلاّ بشعلات النار التي كانت تصعد من الأطراف، والشاهدة الغائمة في عمق المقبرة. فالمقبرة التي كانت خالية في الأصل، صار بها أناس كثيرون يشبهون الأشباح. في الزاوية، وجه نصف ملتفت نحو اليمين، ينسحب مكتئب الملامح، وعلى ظهره المنحني شيء ثقيل، يغيب وسط الضباب الذي كان يلفّ المقبرة متبوعًا بحيوان أقرب إلى الذئب منه إلى الكلب.

التأمَتْ بذهني فكرة المعرض جيِّداً وأصبح كلّ شيء واضحًا. قرابة الخمسين لوحة، وأكثر من ثلاثين منحوتة غير معروضة من قبل، على الطين الآجرّي، والزجاج البلّوري، والبرونز، وعلى خشب الزيتون النادر الذي تبقى رائحته قويَّة حتى عندما ييبس، وعشر منها نُقِشتْ على مادة الرخام الأبيض، النبيلة. مجموعة لا بأس بها من الإيقونات على الأواني الرخاميَّة، أنجزتها في أوقات متفاوتة. عندما فاتحت مديري الفنّي، فرانشيسكو، في موضوع الديزاين والترتيبات، كان قد حدَّد كلّ علامات المعرض الفنيَّة الكبرى. أكَّد لي أنَّه دخل في مرحلة التخطيط النهائي لإخراج المعرض، وأنَّ كلّ شيء في طريقه إلى الإنجاز. عادته. بمجرّد أن أكلّفه بالإشراف الفنّي، يبدأ في العمل الصامت والدؤوب، حتى يفاجئني بشيء استثنائي، كنت أتخيَّله، ولكنِّي عاجزة عن تجسيده بالدقّة التي ينفّذها به فرانشيسكو. يردِّد دائمًا:

«أيّ معرض كيفما كان، احتفاليَّة للفرح والدهشة. متحف مؤقّت. يجب العمل وفق هذا المنطق إذا أردنا النجاح لعملنا. الاهتمام بالتفاصيل الإخراجيَّة جزء حيوي من العمليَّة الكليَّة. المكان الذي نعرض فيه ليس مجرّد مساحات باردة وحيطان عالية، أو حاوية واسعة، هو أيضًا روح ولكنَّها خفيَّة، علينا فقط أن نجعل هذه الروح الهشّة والجميلة مرئيَّة بالنسبة للزائر الذي يأتي وهو يبحث عن شيء واحد وأساسي: الدهشة. العادي المسطّح، لا يخرجه عن نظام المألوف، الذي يهرب منه».

هذا هو فرانشيسكو، يؤخذ ككلّ، أو يُرفض ككلّ. عناديٌّ في قناعاته، واحترافيٌّ إلى حدّ الجنون في عمله.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

السبت ١١ ديسمبر ١٩٩٩

لم أجد أيّة لذة، لا للرسم ولا للكتابة.

زادت قوّة الأمطار وضعفت مقاومة الأشجار العملاقة التي انحنت الكثير من أغصانها ولم تقم. كانت السيول الشتويَّة تغطّي كل علامات المدينة التي كنت أراها كلّ صباح من وراء نافذة المستشفى الواسعة. وصار فجأة كلّ شيء متلبِّداً بالظلمة والصمت.

جاراي اللذان كانا يحتلاّن غرفتَي اليمين والشمال رحلا البارحة في وقت واحد تقريبًا. الأول بسرطان الرئة الذي انتشر بقوّة غير محسوبة، فالتهم كلّ الأعضاء الرخوة. والثاني توقّفت جلّ أعضائه عن العمل منذ أسبوع، وظلَّت حياته كلّها ملتصقة بالأجهزة الطبيَّة، التي طالب أهله بنزعها بعدما يئسوا من أيّ تحسُّن. بذلت مجهوداً لكي

أقف على قدمي، وأساند أهل وأصدقاء الفقيدين. كانوا قلّة. تمتم أحدهم في أذني ولم يكن يعرف مرضي، كان يظنّني قريبة الفقيد الثاني.

ـ الحياة ضربة حظّ. سيُدفن في كارولين الجنوبيَّة. زوجته العمياء تنتظره هناك لكي تدفنه. كان يمكن أن يصاب بأيّ مرض آخر ويشفى منه؟ للأسف أصيب ليس فقط بالسرطان، ولكن بأردأ أنواعه، سرطان الرئة الذي لا يرحم صاحبه. نسمّيه سرطان الجوع، سرطان العالم الثالث. يلتهم كلّ شيء.

لم أردّ عليه، ولكنِّي هززت رأسي بالموافقة وعدت إلى غرفتي. شعرت بعدها بتعب غريب نزل عليَّ فجأة، وأصبح كلّ ما يحيط بي هادئًا وميتًا، بل ويدور حول نفسه، على عكس عقارب الساعة.

انتابني إحساس غريب بأنَّ الموت صار قريبًا منِّي. أسمع تقطُّعات أنفاسه الخشنة كالوحش الضاري، وأشمّ رائحته التي تشبه رائحة الحمَّامات التركيَّة، ممزوجة بالبيض الفاسد ورائحة الحلزون في فصل الربيع عندما يخرج من خلوته وانغلاقه، وينزلق على كومة الحشائش المندّاة. ولم يكن إحساسًا طارئًا، فقد لازمني اليوم بكامله.

لم أكن مخطئة حينما أغمضت عيني واخترت أن أتحوَّل إلى كومة رماد، وليس إلى مستخلص الماسة زرقاء أو خضراء أو برتقاليَّة، كما نصحني كريستوف ابن السير جون وهو يشجّعني على آخر أشكال الاندثار، وأجمل فتوحات الموت. في عمقي، لم أكن أريد أن أُبقي شيئًا من أشباحي الكثيرة لابني. فهو لا يحمل وراءه أيّة ذاكرة

مثقلة بالصرخات والخيبات والرماد. ما معنى أن تحمل ميتًا على صدرك ؟ أيّ لذّة تشعر بها وأنت تتأمَّل الماسة الموضوعة على الطاولة، وأنت تعرف سلفًا أنَّها مستخلص إنسان كنت تحبّه؟ لم تُغْرِني حكاية الورشات التي فتحها السير جون وابنه كريستوف بجانب المحرقة لتحويل الماسة المستخلصة وتقطيعها وفق أشكال جماليَّة متعدِّدة، نزولاً عند رغبة الزبائن: إسوارة مهمّة أو قرط معشّق، أو حزام مرقّط بحبّات الماس المستخلص والصغيرة. لم تكن غواياته قادرة على إقناعي، على الرغم من ذكائه في تجارة الموت، وإلحاحه قبل أن يستسلم لجملتي التي كرّرتها قبل أن يستوعبها.

«أفضّل المحرقة، وأن يُمنح كلّ رمادي، وبقايا عظامي، لابني وفق وصيّتي، هو يعرف جيِّداً ما عليه فعله».

فالمحرقة والرماد كانا هما خياري الأوّل والنهائي، ولا أدري لماذا هذا الاختيار الذي لم أفكّر فيه قبل مرضي. بحرقي، كنت ربّما، أُتلف معي كلّ الأشباح التي يمكنها أن تنغّص على يوبا حياته ووجوده. البعد يعلّمنا ليس فقط تحمّل حياتنا، ولكن كذلك يعلّمنا اختيار موتنا. والمنافي لا تقتل الأشباح أبداً، ولكن تمنحها فرصة التوالد المجنون لدرجة أنَّها، في لحظة من لحظات حياتنا، تشدِّد علينا الخناق وتهدِّدنا بالقتل. حرقي يبيدني ولكنَّه يبيدها معي، وربّما بشكل نهائي.

لأوّل مرّة، منذ توقيعي على عقد الحرق، بدأت أتأمَّل الخطوات المتّبعة في المحرقة كما قرأتها في المطويَّة التي سُلِّمت لي. رأيتني، في لحظة من اللحظات، في عمق اللهب. أسمع بقوّة فرقعة صوت النار

وهي تلتهم جسدي اليابس، في حرارة تصل إلى ٨٥٠ درجة مئويَّة تنطفئ معها كلّ حياة ممكنة، ولا شيء يقاوم الاندثار إلا العظام التي تصبح بيضاء كالحليب وهشّة كالغبار. النار القويَّة لا تحتفظ إلاّ بما هو كلسيّ فقط، كلّ شيء يتبخّر. رفضت أن أتحوَّل إلى مستخلص الماس. لا أريد من يوبا أن يظلّ على ذكرى تعذّبه كلّما تحسَّسها. أو أن يترك نفسه عرضة لنهش الأشباح القلقة. أفضّل أن يرمي رمادي في الأمكنة التي بقيت في القلب، ويحتفظ بقليل منها في أقرب مقبرة إليه لكي يتذكَّر قليلاً أنِّي هنا، وأنَّ شيئًا فيّ لا يموت ويحرسه عن قرب، وأنَّه بإمكانه أن يزورني عندما تتكاتف عليه مشقّات الدنيا وأحزانها.

كرَّرت عليه، عندما زارني في آخر مرة، قصّة جاريّ اللذين ذهبا وتركاني بدون جناحين. قلت له وأنا أضحك: يبدو أنِّي محظوظة، الموت يضرب على شمالي وعلى جنوبي بدون أن يتمكَّن من إصابتي؟ أم تراه يلعب معي لعبته القذرة لتخويفي قبل أن يجهز عليَّ؟ هو لا يعرف عنادي إذن، ولا يعرف أنَّه أصبح عاديًّا مثله مثل كلّ الأشياء التي أصادفها يوميًّا. ارتسمت ضحكة باردة على وجه يوبا ولم يقل شيئًا. تمنَّى في أعماقه أن لا يرى الغرفتين الباردتين المجاورتين لي. كان يعرف الرجلين ويحيّيهما كلّما زارني في المستشفى. كان حزينًا ولكنِّي أكّدت عليه مرّة أخرى على ضرورة قراءة الوصيَّة جيِّدًا وأن يحاول تنفيذها بالحرف الواحد، حول مراسم دفني.

ـ أعرف أنِّي سأُتعبك بآخر أشباحي ولكن هذا هو طلبي الأخير، إذا استطعتَ طبعًا. اقرأ الوصيَّة جيِّدًا، فهي عند المحامي. أدرك

مشقّة الرحلة حتى القدس. قليل من رمادي على قبر أمّي سيذكّرها بوجودها الدائم فيَّ، وعلى قبر يوسف، وفي نهر الأردن، وفي مزار جدي سيدي بومدين لمغيث وحارات القدس. عمقي الذي لم يمت على الرغم من أنّي حاولت قتله بدون أن أعيش حدادي كما ينبغي.

ولكنَّه فاجأني بنباهته التي لا تنام أبداً:

ـ يا يمّا، كلّ هذا أعرفه. ارتاحي قليلاً فقط. مزار سيدي بومدين الأندلسي لم يعد موجوداً. كلّ حارة المغاربة انطفأت كما تعرفين منذ ٦٧، وأصبحت امتداداً للأحياء اليهوديَّة. الزمن تبدَّل يا يمّا، ولا يمكنك أن تُبقي على ذكرى عمرها نصف قرن حتى ولو كانت صادقة؟ ألم تقولي لي يوميًّا: حذار من أن تصبح مثل الجرس المعلَّق في كنيسة مهملة، كلَّما مسّته يد تداعى ألماً، ثم هدأ على أنينه وحزنه الأوّل. حفظت الجملة عن ظهر قلب.

ـ أفهمك جيِّداً يا يوبا. قلها صراحة: لماذا اخترتِ حلّ الحرق؟ أليس هذا هو قصدك أو ما تريد أن توصله لي؟

ـ بالضبط. طبعًا خيارك يا أمّي وأحترمه ولكن... يجب أن نتشبَّث بالحياة حتى عندما تكون الآمال قليلة. المشكل أنَّ كلّ هذه الوصايا تعلَّمتها منك وصارت مثل حجابي الداخلي من حياة ليست دائمًا رحيمة.

قرأت ذعراً كبيراً في عيني يوبا، لم أره من قبل، وكأنَّه كان يشعر أكثر منّي أنَّ النهايات أصبحت على مرمى اليد.

ـ أفضل للجميع يا يوبا. ربما كنت في أعماقي أنتقم من جدّك الذي منح جسده للمشرحة. قد يكون جسده منح الحياة لأناس كثيرين. من يدري؟ قد يكون هيكله العظميّ يُدرّس الآن لأطفال مدرسة صغيرة في كاليفورنيا؟ فقد داوى الغياب بغياب أمرّ. أنا لن أترك ورائي سوى الرماد. ربما كانت نهاية ماريا كالاس هي التي ملأتني ووضعتني أمام هذا الخيار. غبطتُها والناس يضعون رمادها في بحرها باليونان. أيّ حظّ أن تعود إلى أرضها وتسقي برمادها كلّ الزمن الجافّ الذي مضى. ربما عاود صوتها الحياة في شدو الطيور والعصافير والنباتات والزهور التي مسّتها ذرات الرماد. ثم... هي على الأقلّ كانت لها أرض وأهل هناك، أمّا تربتي فلم تترك لي خياراً كبيراً سوى هذا الرماد. أشتهي أن توصلني إلى تربتي ومائي. أن تصرخ بأعلى جرحي الذي لن يسمعه أحد غيرك. الذين كان يمكن أن يسمعوه ذهبوا ولم يعودوا اليوم بيننا. يصعب رتق جروح عميقة انفتحت عن آخرها حتى أكلت كلّ شيء جميل فينا! صعب يا يوبا.

ـ سأفعل يا أمّي، وأنا لا أدري من يسبق الآخر في مغادرة هذه الحياة. ولكنَّ الحياة يا يمّا تستحقّ أن تعاش. أمامك الآن كلّ عناصرها الجميلة، رسمك وألوانك، وأرضك، وكلّ ما يجعل الحياة مستساغة.

ـ هذه مسألة أخرى. لو يُمدّد عمري قرن آخر، مقابل أن أترك فرشاتي وألواني، لن أقبل. لن أبدِّل اللون بحياة بلا لون. أنا مرتاحة داخليًّا هكذا يا يوبا، ولا يجب أن تتصوَّر أنِّي حزينة لخروجي من هذه الحياة. لو دامت، لدامت لغيرنا. المرض هو الموت الصغير، في كلّ

لحظة يذكِّرنا بأنَّ أجسادنا قابلة للعطب في أيّة ثانية، ريثما تأتي اللحظة الصعبة التي يكون المرض قد ربانا على تقبّلها. مشكلتي الوحيدة هي أنِّي كنت عبثًا أشتهي أن أفرغ كلّ هشاشتي الجميلة وأحاسيسي العميقة المندفنة في أجمل الزوايا في جسدي ولكن... ولهذا تراني اليوم أسرع في عملي، ليس لتدمير جسدي أو حتى لما تبقّى منه، ولكن للوصول قبل الموت، في سباقي المستميت معه، إلى نقطة النهاية والضحك عليه بملء شدقيّ.

ـ أفهم شعورك العميق يا يمّا، وبكلّ ما تفكِّرين فيه الآن. أنا منكِ، ولستِ في حاجة للشرح. ولكنِّي قلق عليك فقط.

كان يوبا قلقًا. قرأت ذلك في عينيه الهاربتين منِّي. عندما همَّ بالخروج، شعرت بدمعة محتقنة في عينيه. ربّما تأكَّد، ولأوّل مرّة، من أنَّ موتي أصبح مسألة وقت فقط. التفتَ بسرعة نحو الباب لكي لا أرى دمعته التي ارتسمت على خدّه، ثم استقام وكأنَّ شيئًا لم يكن، وغادر المستشفى.

فجأة أصبحت الغرفة فارغة وزادت بياضاً مثل غرفة الموتى، قبل أن يملأها وجها الجارين اللذين تركا فراغًا كبيراً في محيطي. لا أدري ما الشيء الذي ألصقني بهما ما عدا مشتركنا المخيف: الموت؟ لكن ذهابهما المفاجئ في يوم واحد، بل في وقت واحد، ترك فيَّ فجوة. كانا نحيفين جداً مثل شجر الخرّوب في القدس، عندما يفقد نسغه ويصبح حطبة يابسة تقاوم، بوقوفها، فعل الزمن والسوس والدود، الذي ينخرها من الداخل. أراهما الآن وهما يعبران البهو بخطوات

بطيئة، كلّ واحد في اتّجاه، وعندما يلتقيان في نقطة تتغيَّر باستمرار بحسب سرعتهما، يحيّيان بعضهما بعضًا بالرأس، يبتسمان قليلاً، ثم يمضيان كلّ واحد في اتّجاه، في حركتهما الرتيبة. ارتسم في ذهني فجأة جسداهما اللذان يشبهان هيكلين عظميّين. الخطّ الأول الذي نزل من الوسط باللون الأسود، إلى أسفل اللوحة، كان كافيًا ليشكِّل مسنداً للشبح الأول. وهكذا فعلت بالخطّ الثاني الذي استقام بتوازٍ مع الخطّ الأول، ولكنَّه كان أنحف وأطول قليلاً. لم أجد معاناة كبيرة في تجسيد شكليهما في لوحة صغيرة، اعتبرتها في البداية مجرد استراحة: **عزلة الجسدين**، قبل أن تتحوَّل إلى عمل أخذ منّي وقتًا كافيًا. كانا مثل الظلّ الذي انشطر إلى اثنين، وبدا كأنَّ كلّ واحد منهما يزداد نحولاً عن الآخر، على أرضيَّة صفراء تميل نحو حمرة رمليَّة، تبدو رجراجة ومليئة بالنتوءات والفراغات الكثيرة. كان الظلان يتحرَّكان ببطء تحت سماء ليليَّة حانية بلا حياة ولا نجوم، مليئة فقط بالغربان والكواسر ذات الشكل الهندسي الغريب، فوقها، بالضبط وراء الخطّ الأزرق الذي كان يفصل الأرض عن السماء، حمامة هاربة تبحث عن مخبأ داخل فراغ بلا حدود.

غرقتُ في التفاصيل الدقيقة والألوان التي سحبتني نحو عوالم مبهمة، كنت أتخيَّل أشكالها بصعوبة كبيرة. لم أستيقظ من غفوتي إلاّ عندما نبّهتني الممرّضة إلى الأدوية التي عليّ أخذها في الوقت، وإلى أنَّ الطبيب المناوب ينتظرني غداً صباحًا في الحجرة المقابلة.

لم أسألها لماذا الطبيب المناوب وليس طبيبي الذي يعرفني، الدكتور هيرفي كروث؟ كنت أخمِّن تقريبًا ما كانت ستقوله لي بشكل بارد وهي

لا تدري بأنَّ الإجابة لم تكن تهمّني مطلقًا، بقدر ما يهمّني البحث عن لحظة استئناس داخل عالم تنهكه العزلة ومسلّمات المرض والموت:

« ـ نعم ميس مي. لا أملك جوابًا عن سؤالك. عندما يزورك الطبيب، اسأليه، هو يملك الإجابة الحقيقيَّة وليس مجرّد التخمين كما أفعل ».

ما إن سدّت الممرّضة الباب وراءها وسمعت صوت انغلاقه، رجعت إلى عملي شبه مغمضة العينين، واندفنت من جديد في اللوحة. وجدتُني فجأة أضيف لها شبحًا ثالثًا يشبه الظلّ الأنثوي المنفلت أو الهارب من شيء ما، ولهذا يبدو مائلاً إلى الأمام ومنسحبًا من قبضة الشبحين. هذه المرّة كان شكله أقلّ طولاً من الاثنين، ولكن أكثر امتلاء منهما. فوجئت وأنا أتفحّصه لترتيب الألوان التي بدت لي باردة، أنَّه كان يشبهني إلى حدّ كبير، فغيَّرت اسم اللوحة نهائيًّا: **ثلاثة أجساد في الدوامة**[1].

* * *

١ ـ كان يمكن أن تكون هذه آخر لوحة رسمتها مي، لولا عودتها المستمرة إلى أكبر لوحة لها: **نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة**، التي شكّلت محور عرضها، والتي ظلّت تشتغل عليها حتى النهاية. **ثلاثة أجساد في الدوامة**، لوحة صغيرة في شكلها، مرقّمة: Free.col/067/Mak وُضِعتْ تحت إنارة صفراء داكنة، في معرض نيوجيرسي، فزادت من عزلتها وأغوت كثيراً الزوار للذهاب نحوها وتأمُّلها عن قرب. كانت بحجم الجوكندا فقط. من أولى اللوحات التي بيعت في معرض نيوجيرسي **لايف پاور**. اشترتها سيّدة لصالح ثري خليجي أنشأ متحفًا خاصًّا. رقم الشراء المزادي: PC/T.BD.WIND/MK/65-543-&23.

مستشفى نيويورك المركزي

الأحد ١٢ ديسمبر ١٩٩٩

... لم تكن المسافة الفاصلة بيني وبين الطبيب كبيرة جداً. كان وجهه يبدو طفوليًّا، لم تكن تعلوه أيّة تجاعيد يمكن أن تجعل النور لا ينزلق بانسيابيَّة على جبهته وخدَّيه. كان هو أوّل من تكلّم.

ـ ميس مي. أنا الدكتور ستيفنسن. مكلَّف بمهمّة مراقبة وضعك بعد غياب الدكتور هيرفي كروث لأيّام قليلة. كيف حالك الآن؟

ـ دكتور ستيفنسن، أريد أن لا نمرّ عبر المسالك الوعرة، هل من جديد في وضعي الصحّي؟ ثم... لا أفهم مصدر غياب الدكتور هيرفي إلا يأسه من حالتي التي، ربما، يرى أنَّها أصبحت أكثر صعوبة؟

ـ لا، أبداً. الدكتور مشغول خارج الولايات المتحدة للإشراف على مؤتمر نيوزيلندا حول وسائل مكافحة السرطان الجديدة. أنا لا أعوّضه، ولكنّي هنا فقط لمساعدتك وتسليمك نتائج الفحوصات الأخيرة، وشرحها لك.

ـ طبعًا ليست جيِّدة!؟

ـ دعيني أقول لك إنَّها ليست سيِّئة. المرض يتمدَّد، ولكن ببطء كبير، وهذا يدلّ على أنَّ جسدك يستجيب للعلاج الكيمياوي والإشعاعي. ولكن، كما تعرفين، هذا الجسد يحتاج إلى راحة كبيرة لكي يستطيع تحمّل المراحل القادمة التي ستكون أثقل قليلاً. ولهذا فنحن نفكِّر في أن...

ـ أن تعودي إلى البيت، لترتاحي قليلاً ويستعيد جسدك عافيته ونباشر بعدها المرحلة الثالثة من العلاج. في هذه المدّة بإمكانك أن تأكلي جيِّداً حتى يسترجع الجسد عافيته... أليس هذا ما كنتَ تُريد أن تقوله لي يا دكتور، أم أنا مخطئة؟

ـ ممتاز. أنتِ قرأتِ كلّ ما كان على لساني وحرفيًّا تقريبًا. هذا كلّ ما كنت أريد أن أقوله لك. طبعًا، مع مواصلة استعمال الأقراص واتّباع نفس التنظيم، وتفادي مصادر الحرارة وعدم الإجهاد حتى نتفادى انتفاخ الذراع اليمنى التي تستعملينها كثيراً. هل هناك أسئلة؟

ـ شكراً مستر ستيفنسن. كلّ شيء واضح.

ـ على فكرة، كنت أريد أن أقول لك إنِّي اشتريت بطاقتَيْ دخول، لأتشرَّف بحضور عرضك **لايف پاور**، في نيوجيرسي، يوم ٢٤ ديسمبر، أنا وزوجتي. ستكون سهرة جميلة.

ـ سأكون سعيدة لو فقط... يا من عاش؟

ـ طول العمر ميس مي... طول العمر.

قالها ثم غادر المكان متبوعًا بالممرضة التي كانت تصحبه.

عرفتُ كلّ شيء بحاسّتي الحيوانيَّة وخبرتي. تذكَّرتُ بقوّة مامي دنيا. شعرت في تلك اللحظة بالذات، بطاقة غريبة من الحريَّة كانت تريد أن تنفجر في داخلي، إذ بمجرّد خروج الطبيب وابتعاد خطواته في البهو، كدت أصيح بكلّ ما أوتيت من قوّة: **هوووورررااااااااااه**... وكأنِّي تلقيت خبر شفائي بشكل فجائي. فقد نزع مستر ستيفنسن من على ظهري ثقلاً كبيرًا لم أعد قادرة على تحمُّله. من حيث لا يدري، فقد عبّد لي الطريق لكلّ حماقاتي القادمة، حيث لا ممنوعات ولا مرض يعطّلني.

كان كلّ شيء هادئًا فيَّ. لم أتحسَّس وجهي الذي كان كلّ يوم يزداد صفرة وتصلُّبًا، لم أنظر إلى المرآة، لا خوفًا منها ولكنِّي لم أشعر بالحاجة إلى ذلك. لم أنظر في السقف، ولا في الفراغ ولا حتى إلى الحديقة، بحثًا عن ألواني، ولكنِّي تزحلقت نحو أدفأ نقطة في أعماقي، ثم رشقت عينيّ في النور الخفيف الذي كان يتسرَّب من فجوة الباب الذي كنت قد فتحته قليلاً، حتى تماديت في لحظة نوم

هادئ، لولا أنَّ الجسد انتفض فجأة في منتصف الليل وكأنَّ تمزُّقًا مفاجئًا حدث فيه. أنَنْتُ بقوّة، ولكنّي كنت الوحيدة التي سمعت صرخة الألم هذه.

تأكَّدت من شيء واحد هو أنَّ الموت أصبح الآن في مرمى البصر. ربما أكثر من ذلك. لم يعد في الخارج تمامًا ولكنّ شيئًا منه كان فيَّ.

ليست مجرّد أحاسيس وهميَّة كتلك التي كانت تنتابني طوال حياتي، إنَّها بالفعل هزّات الموت العنيفة التي تغزو الجسد بسمومها القاسية كسمّ أفعى عمياء، حيثما لدغتك أسكنت جزءًا من جسدك، تعطّل كلّ حركاته حتى يصبح كتلة بلا حراك، قبل أن تجهز عليه نهائيًّا. من حين لآخر يعبرني ألم حادّ كأنَّه سكّينة ساخنة تقشّر الجلد قطعة قطعة... ثم يبرد كلّ شيء فجأة وتمتلئ عيناي بالنور من جديد، ووجهي ببعض الحمرة التي تكاد تنتفي نهائيًّا بعد أن أزاحتها صفرة عميقة لا تذكّر إلاّ بالموت القريب...

عندما تتمنّى الموت السريع، هذا يعني أنَّ الآلام وصلت إلى سقفها. ساورتني رغبة العودة إلى المورفين، ولكنّني عدت إلى قراري الأوّل الذي كنت قد اتّخذته، واخترقته في لحظة إخفاق. قلت في خاطري: هذه المرّة لن أعود إلى المورفين لتسكين الآلام أبداً، مهما كلّفني الأمر. أريد أن أموت بعينين مفتوحتين عن آخرهما، ممتلئين بالنور وليس بالظلمة والتراب أو رماد الحرائق. اندهشت الممرضة، التي وقفت على رأسي، من قراري الغريب. لا يمكن لمخّها الصغير، الموضوع

داخل مربّع المواضعات الاجتماعيَّة، أن يتصوَّر مخلوقًا أرضيًّا يرفض مسكّنًا لآلامه. تنسى أنَّ الآلام الصعبة، عندما تصل إلى درجاتها القصوى تفقد سلطان الخوف، بل ومعناها نفسه. المشكل هو كيف نروّض أجسادنا لتقبّل ذلك؟ هذه هي الصعوبة الوحيدة التي تتجاسر علينا قبل أن تسلِّمنا للنهاية. بعدها، يصبح بإمكاننا تصريف الآلام بسهولة بما في ذلك ألم الموت.

كنت أتلوَّى في فراشي.

قالت الممرّضة وهي تحاول إقناعي:

ـ لقد سمعتك من عمق البهو. آلامك صارت حادّة يا سيِّدة مي، وأنينك زاد ولا يمكنك أن تتحمَّلي كلّ هذه الآلام الصعبة. أرجوك، المورفين يخفّف عليك التمزُّقات الداخليَّة، وينوّمك قليلاً.

ـ شكرًا. أعرفها جيِّداً. لم أحسّ بالخراب الذي يحدثه فيَّ يوميًّا هذا السرطان المشؤوم. لا أريد أن أموت بشكل مؤقّت أو أغفو مخافة أن يخدعني الموت نهائيًّا على حين غفلة. أثق في كلّ شيء إلا في خديعاته المستمرّة. أريد أن أموت مفتوحة العينين. وأنا في كامل وعيي، ولو كان ذلك داخل موجة من حرائق الألم الحادّة. المورفين ينوّمني ويقتل كلّ أحاسيسي الدفينة والجميلة، ويسطّح ذاكرتي ومحيطي ونظري، ويضع حاجزاً بيني وبين أشواقي الصغيرة. أريد أن أموت مفتوحة العينين وأنظر إلى قاتلي بجرأة. من كثرة ألفته، لم يعد الموت يخيفني كثيراً. لا أريد أن أنسحب في الظلام. العتمة ترعبني. إنَّها أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان متعطِّش إلى النور والألوان مثلي.

ـ ليس الموت يا سيِّدتي ولكنَّها الآلام الحادّة التي يمكن تسكينها. قرارك غير صائب. يمكن أن نوفِّر لك بعض الراحة بالمورفين، فلماذا تصرِّين على جلد جسدك وتمزيقه؟

ـ إنَّه جسدي يا روحي، وأعرف كلّ مخابئه وانكساراته... لا تهتمّي بشأني، لقد وجدت كلّ حلولي المناسبة.

حاولت أن أدرِّب نفسي وأن أنسى كلّ شيء ولكنِّي لم أستطع، إذ كانت الممرّضات يقبضن على يدي ويحقنّني بالمورفين. كانت آلامي محرقة. فجأة نزلت عليَّ غمامة ورديَّة كانت ساحرتي الكبيرة التي أسافر عليها كلّما أصابني قهر داخلي. وكانت الأناشيد تسمع من بعيد في شكل كورس جنائزي مدجّج بالخوف والأحزان؟ وكانت شقوق الروح تنسلّ بعنف من جسد لا يريد أن يتركها بسهولة. عندما سألتهما، الجسد والروح:

ـ أيّ فائدة للبقاء عندما يتكاره الاثنان؟

«نحن لا نكرهك يا سيدتي».

تناهى إلى مسمعي صوت إحدى الممرّضات.

واصلت هذياني الذي كنت واعية به تماماً.

«أيَّتها الروح القلقة، اتركي الجسد يمضي حيث مآله بين النار والتربة والصمت المزمن. اتركيه يمضي والتصقي أنت بأيّة ذرة تشائين يقودك رحيلها العالي نحو شهوة المنتهى. نحو سماء غامضة مثل الموت. تشتهين السفر؟ حرّريه إذن منك وبشكل نهائي...».

ربما كـان المورفين هو السـبب؟ ولكنّي أسـمع كلّ شيء وكـأنّه يأتي من بعيد متقطّعًا... ممزّقًا... مبتوراً... ولكنّه واضح تمامًا... أغنيتي التي جعلتني أعشق هذه المدينة التي لا شيء يشبهها. سلطانها كبير وجبّار إلى حدّ لا يوصف. نيويورك صارت ما تبقّى من ماء فيّ، قبل أن ينشف الجسد نهائيًّا. إنّ انفصالها عنّي يتمّ بنفس القسوة التي تَسرقُ منّي الآن فراشات القدس.

نيويورك... نيويورك...

أريد أن أفتح عيني في مدينة لا تنام...

أشعر كأنّ حبات المطر توقّفت وبقيت معلّقة بين السماء والأرض، وتحوّلت تحت أشعّة الشمس إلى آلاف النقاط المتلألئة في الفراغات، ولا حدّ لنورها الذي يُعمي الأبصار. أحزن لأنّ الدنيا ما تزال جميلة ولكن الموت لا يسألني عن رأيي. لا أدري كم مرّ من الزمن ولا كم هي الساعة الآن سوى أنّ سيارات الإسعاف تتكاثر أصواتها وتزداد حدّة وكأنّها صفارات إنذار. تعبت من اليقظة الفجّة، سأحاول أن أنام قليلاً كما أشتهي، على الرغم من سطوة الآلام النائمة بفعل المورفين. يحتاج المرء إلى طاقة لا حدّ لها في قوّة الآلام أو أكثر منها لتجاوز لحظات التكسُّرات الأكثر قسوة. لا أعلم إذا كان سيكتب لي غد آخر أم لا، لكنّي متأكّدة من أنّ الموت صار يتشمّم جسدي المعطّر بكلّ شهواته الدفينة؟

ياه يا يوبا؟ هل بعد هذا ليست الدنيا ظالمة؟ لم تبق على القرن القادم إلاّ أيّام قلائل. هل سيمنحني القدر بعض الوقت لأرى سماء

نيويورك من جديد وهي تمتلئ بالبالونات الزرقاء التي تستقبل قرنًا جديدًا وهي تتمنّى أن يكون زمنًا بدون حروب؟ أغمض عيني وأحلم مثل الأطفال والعشّاق الصغار أن تستمرّ أيامي قليلاً، وأدفع بأشلاء الخسارات والخوف لكي أشقّ طريقًا نحو القرن القادم وأغلق العصر الذي عشته نهائيًّا، وأضعه في قنّينة وأسدّ عليه بإحكام قبل أن أرميه في عمق البحر.

أحاول أن أنام. أن أسترجع كلّ الحنين الذي كان يملأ قلبي في طفولتي، ولكنّه يخذلني مثل بقيّة الأشياء الجميلة. تسبقني التمتمة الأخيرة التي تتقطّع في داخلي، منسلّة من روحي المتعبة بقسوة عالية:

أحاول أن أتذكّر ما حدث لي ليلتها، أغيِّب نفسي في متاهات غابة من الكلمات، وأغمض عيني ثم أكتب بدون أدنى تفكير:

«ها هو الموت يقفز فرحًا مثل الجرذ، ينطّ من مكان إلى مكان، مستبيحًا كلّ مساحاتي الحميميَّة، جسدي، نبضي، فراشي، قهوتي، عجزي، ولا أملك حياله أيّة قوة. كلَّما التفت نحوي، دارت عيناه في مكانهما وكأنَّهما قطعتا زجاج تلعبان في محبس مائي لزج. تزداد سطوته بحس انتقامي ولذة ساديَّة غير مسبوقة. أعتقد أنَّه لن يكون سخيًّا معي هذه المرّة مثلما فعل مع أناس غيري، ولن يأخذني على أجنحة فراشات القدس المفتوحة عن آخرها كما كنت أتخيَّل في غفوتي الهاربة، مثلما حدث معي في المرة الأولى عندما سحبني خالي أبو شادي من مدرسة طانت جينا وجاء بي إلى بيروت في مهمّة خطيرة لإنقاذ بابا حسن الذي خلت في لحظة من اللحظات أنَّ حياته كلَّها كانت على

كتفي، على الرغم من غضبي منه عندما سمعت خالاتي يتحدَّثن عن علاقته بإيفا كراوس موهلر ويشتمنه، كيف بدّل أمي بقطة لا شيء فيها يغري (كنَّ مخطئات طبعًا، إيفا كانت جميلة ونظرتها مليئة بالحيويَّة والذكاء واللذة ويمكنها أن تخترق عفّة أيّ رجل. تردَّدت يومها في أخذ صورتها والرسائل الملصقة بها: هل أتركها مع حوائج والدي وأنساها، أم آخذها؟ ربّما، من كثرة تأمُّل وجهها، قد أحبّها وأجد لها الأعذار التي تبرِّر عشقها لوالدي؟ كانت جميلة ووالدي كان حنونًا وهشًّا مع النساء. أخذتها بشكل يكاد يكون لاشعوريًّا وكأنِّي كُنت أبحث عن مزيد من الألم، ولكنِّي لم أبذل أيّ جهد لقراءة ما كتب على ظهرها باللغة الألمانيَّة، بل إنِّي رفضت القراءة خوفًا من أجد لها الأعذار)، ولو طُلِبَ منِّي يومها أن أذهب نحو الجحيم لإنقاذه، ما تردَّدت لحظة واحدة. لن يتركني الموت هذه المرّة أنعم بالعزلة، سيجبرني على عبور البوّابات الثقيلة التي شيَّدها منذ بدء الخليقة. لن يتركني وحيدة... سأكون غنيمته الجميلة، هكذا تعوّد أن يفعل مع جميع البشر».

* * *

مرتفعات بروكلين

الثلاثاء ١٤ ديسمبر ١٩٩٩

مرتبكة على الرغم من صفائي الداخلي. لم يبرحني وجه مامي دنيا طوال المدّة الأخيرة. ندمت أنّي رجعت إلى المورفين، ولكنّي لم أحمّل المسألة أكثر ممّا تستحقّ. ما زلت مقتنعة، طبعًا، بعدم تناوله. واعتبرت الليلة الماضية هي ليلة خاصّة، لحظة دلع عابرة، لن تتكرّر مرّة أخرى. ليلة وداع المستشفى، مقبرتي الصغيرة، أو ترانزيت الأحياء نحو الموت الصامت، كما أسمّيه.

موعدي مع الوجبة القادمة من العلاج بالأشعّة، في ٤ جانفيي. كم تبدو المسافة بعيدة ومستحيلة. أمامي على الأقلّ وقت كاف للانتهاء من التحضير لمعرض غاليري **سيتي ويذاوت وولز**، في نيوجيرسي.

رجعت إلى البيت محمَّلة بآخر أعمالي الفنّيَّة. كنت منشغلة قليلاً ولم أكن حزينة أبدًا. لأوّل مرّة أشعر أنّي عدت إلى مكاني

الطبيعي. استعدت من جديد علاقتي بالحديقة، وبوجه مامي الذي كنت أراه في كلّ مكان. وعلى الرغم من حضور الخادمة الدائم، فقد كنت أتجرَّأ وأحاول أن أقوم بكلّ شيء وحدي. أخرجت كلّ لوحاتي القديمة والجديدة قبل تكليف فرانشيسكو باختيار أطر مناسبة لها. يعرف أنَّ ذوقي يميل دائمًا نحو البساطة. كان عدد اللوحات القديمة كبيراً، فانتقيت عدداً منها كنت قد بدأت العمل عليها في زيارتي الأخيرة لبروكلين، ارتأيت أنَّها تتجاوب مع شعار المعرض: **قوة الحياة، Life Power**. وأعدت تنظيمها وحتى تأطيرها. حتى أنِّي وجدت لذّة كبيرة في إدخال بعض التحسينات على بعضها بدون مسّ جوهرها العميق. لم تعد تشغلني الحياة الأميركيَّة اليوميَّة بفجاجتها، بقدر ما يشغلني خوف الناس من المبهم المرتسم على ملامحهم وحركات أوجههم، ولا أسلاك المخيَّمات والخيام وغيرها بقدر ما أصبحت مرتبطة بشيء غامض لا حدود له ولا وطن. هو الإحساس الذي يشعر به المرء فجأة وهو يقف في مكان لا شيء فيه يستطيع أن يتَّكئ عليه. شيء يُحَسُّ بعمق ولا يلمس أبداً. لا تهمّني كثيراً الخطوط المستقيمة ولا الحدود الوهميَّة الفاصلة بين الأشياء. تشغلني حركة طيران النسر وكبرياؤه أكثر من الوجود الفيزيقي للطير نفسه، تسحرني التلوّنات وهي تلتقي بذرّات خفيَّة في الطبيعة، تزيد أو تنقص من قوتها ليتغيَّر شكلها نهائيًّا، أكثر من أشعّة الشمس ذاتها. يهمّني الأنين الخفي أكثر من الجرح النازف، والرعشة في عيني الصبيَّة أكثر من عسكر القتلة. يشغلني الإحساس بالموت أكثر من الموت نفسه.

نسيت مرضي فجأة وعادت لي كلّ قوتي. العمل الدائب في الأيّام التي سبقت المعرض، جعل رغبتي في الحياة تكبر وتتّسع، ونسيت كلّ ما قاله لي الطبيب، باستثناء الأدوية التي فكّرت في لحظة من اللحظات بإيقافها، مثلما أوقفت المورفين لزمن، وأكتفي بالغوص في ألواني وخطوطي. ولكنّي تعقّلت وعدلت عن جنون لم يكن له أيّ معنى.

هدأت الآلام وسكن كلّ شيء. حتى الجسد تجاوز حدّة الآلام المتواترة، وحاول أن يستقرّ قليلاً على دهشة المبهم الذي لا يفهم فيه الشيء الكثير. الليل انسحب بسرعة على غير عادته، والرياح التي هبّت بعنف في الأيّام الأخيرة، سكنت بدورها وكأنّها تستعدّ لسماع أناتي الأخيرة وأنا أحاول أن لا أرى شيئًا آخر ينغّص عليّ متعة لمس الوجوه التي أشتهي لمسها برؤوس أصابعي التي ما تزال عليها بقايا الحياة، والألوان الباهتة وفراشات القدس والألوان المرّة.

مازلت في الرجفة الأخيرة والسنة لم تنسحب بعد. تطول وتطول، وكأنّها مشدودة بشيء يسحبها إلى الوراء كلّما حاولت أن تتنصّل منه. كم أشتهي أن أرى خاتمة قرن يمضي وفاتحة قرن يجيء؟ شهوتي التي لا أستطيع صدّها كلّما تذكّرت أنّ القرن القادم لم تبق له إلا أيّام قلائل. أريد أن أغادر هذه الدنيا وعلى رأس لساني لذّة الزمن القادم. أيّ هزّات جميلة، يا ترى، سيحملها معه القرن القادم وأيّ آلام ضامرة يخبّئها للّذين سيكون لهم حظّ عيشه؟

نشتهي كثيراً سجن الزمن داخل الأكفّ والعيون، ولكنّ خديعة الأعمار لا تمهلنا ثانية واحدة؟ أحيانًا، في لحظات الغفوة، أطلب من

اللّه أن يضعني تحت جناحيه لأنّي سأصل ملكوته بردانة، مرتجفة ومبلّلة كعصفور، وأن لا يُدخلني الجنّة ولكن بيتًا صغيرًا وبه حديقة من مترين أملأها بالنرجس وياسمين أجدادي، وتفّاح نيويورك وكثير من الماء. وعندما يسألني هل أريد شيئًا آخر؟ أرجوه أن يمنحني رجُلاً لدرء وحشة الجنّة. ومن هو صاحب الحظّ، يقول الربّ ساخرًا من سذاجة طلبي؟ أجيبه بلا تردُّد: يوسف إذا كان ما يزال يحبني؟ يوسف يا ربّي. يوسي حبيبي الذي لم أشبع منه ولم يمسسني، ولم يكتشف جسدي أبداً. يوسف الذي كان يمدّ يده إلى وجهي بخجل وخوف مضمرين، ولم أكن أستطيع أن أقول له إنَّ أنامله تريحني وتمنحني حالة من التلاشي والراحة. لم أحسّ يا ربّي بلذّة لسانه وهو يبحث على لساني، أو هو يتمتم خوفًا من زعلي: أحبّك. أحبّك يا مهبولة. يوسف فقط، ولن أطلب شيئًا آخر. وعندما يتفرَّسني ربّي، وينظر إليّ بمكره المعهود، مَكْر العارف بكلّ الخبايا، سأقول له بدون أن أحيد بنظري عنه: فهمتك يا ربّي. أنت أعلم منّي، ولكن هل تدري سرّ المشكلة؟ كوني سميث، اختار شهوته ومصيره وفضّل عليَّ معابر بترا الضيقة، وطين البحر الميت ومدافن البحرين العتيقة، ولهذا فأنا لا أخونه في حضرتك. فقد منحني أجمل لحظات العمر التي تتمنّاها أيّة امرأة. لكن يوسي يا ربّي؟ يوسي بقيَ وحيداً على حافّة الطرقات المقفرة، بعد أن سُرق منه كلّ شيء، حتى حقّه في أن يكون طفلاً. ألا ترى الفارق يا ربي، كم هو شاسع وكبير وغير عادل؟

أشعر بلذّة غريبة، ربّما كانت بفعل المورفين فقط، ولكنّ حزنًا واسعًا يعبر جسدي وعينيّ ويخترق ذاكرتي. بدأت الأشياء المحيطة بي

تفقد أشكالها المعهودة، وتتحوَّل إلى مجرّد هلامات غريبة متحوِّلة باستمرار. أحسّ كأنِّي بدأت بالفعل أتدحرج من الجهة الأخرى من الوادي؟ ها أنا ذي قد دنوت من حافّات النهاية القاسية، ولا خيار لي أمام الأقدار الصعبة. فقد منحتني الحياة الكثير من الهزّات الجميلة وفراشات القدس، اللون المقدَّس الذي لن يعرفه أحد، الذي قضيت العمر أبحث عنه. لم تكن الدنيا ظالمة معي إلا في شيئين لا أستطيع أن أغفرهما: نهبت منّي يوسف ورمته للفراغ، خارج حوافّ مدينته وأشواقه، وسرقت منِّي أمّي في وقت مبكر، ومحت صورة أبي قبل أن أتوغّل في قلبه. حزينة لأنِّي سأدخل قبري وأنا مثقلة بهذا الهمّ الذي لا أملك حياله إلا الهدوء والاستسلام. كم اشتهيت أن أداعب رؤوس أصابع يوسي بكلّ حريَّة، وأن أتوسَّد فخذ أمّي وأنام غير عابئة بما ينتظرني. ربّما استطاعت النار التي ستأكل لحمي والتربة التي ستلفّ بعض عظامي، أن تدفن كلّ هذا الشوق العارم.

«ـ هل تدري يا يوبا كم سأفتقدك؟ تخاف عليَّ، ولكن هل بقي فيَّ شيء يُخاف عليه أيُّها الغالي؟ قل لي فقط إنَّك تحبني، أشتهي أن أسمعها من حين لآخر، لأنَّها توقظ غروري الجميل، وإنَّك ستظل وفيًّا لأجمل شيء فيك: عنفوانك الطفوليّ وموسيقاك التي لن تموت أبداً.

ـ نعم يا يمّا. أرجوك ابقي فقط قليلاً. لحظة أخرى، نشرب قهوة أو كأس شاي في حديقة مامي دنيا التي تحبّينها؟ هل الطلب كبير؟ لا. لماذا ترحلين الآن إذن؟ السهرة لم تنته، ولم نقل كل ما كان يجب أن يقال. ما يزال القلب ممتلئًا بالأشواق الدفينة يا يمّا».

أسمع صوتك يأتي من بعيد، مخترقًا كلّ الحواجز. كلّ حقائبي جاهزة، أنتظر وصولك فقط. لا أطلب منك شيئًا آخر سوى ما سبق أن دوّنته في وصيّتي وقلته لك. بعثرني كما كان يفعل أجدادك عندما يزرعون أرضًا بورًا، على أرضي الأولى، إن استطعت إلى ذلك سبيلاً، وادفن بقايا عظامي وبعض رمادي حيث تشاء، ولكن لا تبعدني عنك كثيرًا. لا تَنْسَني في قبري، القبور تموت بفعل النسيان. لا أتحمَّل الأماكن الموحشة حتى وأنا ميتة. كلّما وجدتَ بعض الوقت، مرّ على بائع الورود في نيويورك، في ليتل-إيطالي، الذي أحبّه، حيث بيتك. إذا سألك عنّي قل له إنَّها متعبة وستمرّ عليك غداً لتحيّيك. اشتر باقة ورد من الألوان التي أشتهيها. وعندما تزورني في وحدتي القاسية، ضعها عند رأسي، فهي تؤنسني في لحظة غيابك. هل طلبتُ الشيء الكثير منك؟ اعذرني حبيبي على دلعي حتى وأنا تحت التراب، فلا خيار لديّ لقهر الموت إلاّ ورودك ووقوفك عليَّ كلّما كان ذلك ممكنًا.

عمري ... أحبّك ولا شيء في الدنيا يوازي كلمة يمَّا التي أسمعها من فمك وأنت تحدّثني عمّا يشغل قلبك وفكرك وأحاسيسك الأكثر عمقًا وتوغّلاً فيك، لا تحرمني منها. وكلّما اشتقت إليَّ، افعل ما كنّا نفعله ونحن صغار، عندما كنّا نصعد في القدس، إلى جبل الزيتون ونصرخ بأعلى أصواتنا ثم نصيخ السمع إلى نداءات أصدائنا التي تندفع بقوّة وبوضوح كبير. اصعد إذن إلى أعلى قمّة، في مرتفعات نيويورك، على طول بحيرة هودسون، وصِحْ كالهندي الأحمر، بأعلى صوتك: يمّاااااا وسأسمعك. الأموات يسمعون ويشعرون بالسعادة أيضًا، ويخافون الموت ثانية داخل ظلام النسيان الذي لا يرحم أبداً.

* * *

نيوجيرسي، غاليري سيتي ويذاوت وولز

الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩

عندما انتهيت من كلّ شيء، سلّمت أمري لفرانشيسكو كما أفعل عادة، فأدخلني، بعمله المتقن، في حالة من الشفافية أنستني كلّ شيء.

عندما انتهى فرانشيسكو من تهيئة كلّ المعرض في صورته شبه النهائيَّة، وعلّق اللوحات والأضواء المسلَّطة عليها، مرّ عليّ صباح يوم الجمعة في بيتي، في مرتفعات بروكلين. كان بشوشًا كعادته عندما ينجز عملاً متميِّزاً.

ـ كلّ شيء على ما يرام يا سيِّدة مي. ممتاز. وستصابين بالخبل عندما ترينه.

ـ فرانشيسكو!؟ اترك لي على الأقلّ حقّ الدهشة بدل أن تفرضها عليّ الآن!

ـ سنذهب الآن إلى نيوجيرسي، كما اتّفقنا لأتمكّن من ترتيب النقائص قبل افتتاح المعرض. لن تتعبي في الطريق. لم أرد إزعاجك قبل هذه اللحظة. أنت تعرفين عملي، وأنا أعرف حساسيتك تجاه الأشياء الجميلة.

رافقني فرانشيسكو إلى غاليري سيتي ويذاوت وولز City Without Walls، بنيوجيرسي، بصحبة إحدى الممرّضات، لإلقاء نظرة أخيرة على معرض **لايف پاور**، وترتيب آخر اللمسات. لم أفاجأ في عمله. فقد كان كلّ شيء مرتّبًا بالمليمتر وواضحًا، بشكل فاق كلّ تصوُّراتي. وأعتقد أنّه أحلى معارضي الفرديَّة. لم يخطئ فرانشيسكو في أيّ تفصيل صغير وكأنَّه كان في عمق دماغي، سواء اللوحات أو الأطر التي اختارها لبعضها، أو المنحوتات أو الفيشات الشارحة الدقيقة التي وضعها في أسفل كلّ لوحة. فقد قضى يومًا معي في تدقيقها واحدة واحدة، وتصحيح بعض تفاصيلها. الغريب أنّي لم أشعر بأيّ تعب ولا أيّ ألم. كان المكان واسعًا، وكنت أعوم في البياض. كالفراشة، أنطّ من مكان إلى مكان بدون كلل ولا ملل. وكعادة فرانشيسكو، لم يترك شيئًا للصدفة. حتى الإضاءة التي اختارها بيّنت إلى أيّ حدّ يمكن لهذا الرجل أن يجعل من الأشياء العاديَّة حالات من الاستثناء. كانت الأنوار على العموم دافئة جدًّا وغير صادمة للنظر. يُظلّل عندما يكون ذلك ضروريًّا، يُضيء عندما تكون هناك رغبة لإظهار الملامح الدقيقة للوجوه أو للحالات التي تجسّدها اللوحات، ويخفي عندما تكون للظلال جدوى في إضفاء سحر الإدهاش والتساؤل. عمل الإضاءة أضاف لمسة كبيرة للمعرض، ولموضوعته الأساسيَّة التي هي قوّة الحياة، أو سلطان الحياة.

ـ ما يسعدني يا سيّدة مي . . .

ـ بعد كلّ هذا الزمن تردِّد عليَّ كلمة سيّدة؟ مي تكفيني.

ـ مي . . . أحلى. الجميل يا مي أنَّك لم تظهري الحياة بشكل سياحي، ولكن من عمق الألم والسعادة معًا. الأغبياء هم من ينظر للحياة كخطّ مستقيم. ولهذا فحماسي لهذا المعرض لا يوصف. أيّ معرض هو متحف، وإن كان متحفًا موقّتًا. الإضاءة التي لا ينتبه لها معظم الناس وكأنَّها شيء زائد، هي الأساس في كلّ حالة فنّيَّة شفّافة.

ـ أمامك لا أجد ما أضيفه. لمستك سحريَّة إلى أكبر الحدود.

كنت أمشي بين اللوحات، وأحسّ بأنَّ جزءًا مهمًّا من حياتي الجميلة والصعبة كان منثوراً داخل هذا الفضاء الجميل. أقرأ بطريقتي الخاصّة كلّ التفاصيل الغامضة وأفكّكها. المسافة الآن بيني وبينها صارت واضحة ويمكنني أن أراها كما يراها عشاق اللّون والنور. لم تكن مجرد ألوان ولكنَّها كانت حياتي مجزّأة إلى أشلاء صغيرة. كلّما وضعت لونًا على لوحة، تساءلت في أعماقي، ما الذي يتخفّى وراء البياض. أيّ مفاجأة ستقف في وجهي عندما أنتهي من اللوحة؟ مثل الجنين، تنمو التفاصيل في الخفاء. أشعر بها كالخيط الرقيق، كالشعاع، تلبّستني يوم فتحت عينيّ على اللون لأوّل مرّة، عندما رسمت شيئًا غامضًا لم أفهمه، ولكنّي شعرت بأنّي استطعت القبض على جزء كان متخفّيًا في ذاتي كنت أبحث عنه باستمرار ليكمل جزءاً مكسوراً. ولهذا، كلّما شعرت بأنَّ لوحتي تشبهني في كلّ التفاصيل الخفيَّة، أحسست بقربها منّي، وكلّما انتابتني حالات عكسيَّة، كان عليّ محو

كلّ شيء والبدء من جديد، من تلك اللحظة الغامضة التي تأتي بدون أن نتمكّن من القبض عليها.

توقّفت طويلاً عند الكثير منها، كـ: **أسرار الكرّاسة النيليَّة**، التي رمتني في أحضان أمّي منذ اللحظة الأولى. سمعت صراخها وهي تدافع عن نفسها قبل أن تستسلم للموت. **آلام يوسف الخفيَّة**، التي حرَّكت أصابعي المرتجفة، وجعلتني أتحسَّس أوّل قبلة مسروقة. **وجه أمي**، الذي رسمته من بقايا ملامح ظلّت مخزّنة في ذاكرتي. فقد ركّبتها قطعة قطعة حتى أصبحت وجهًا طيِّبًا، بملامح، كلّما اقتربت منها، زادت بعداً وغياباً. **طعم الكوليرا الكاذب**، **معابر إليس آيلند**، **أميرة في معطف أبي**، **مامي**، **باصات بروكلين الصفراء**، **مأتم عائلي**، **ذئب في هيئة حمَل**. عند هذه اللوحة ضحكت كثيراً، ولا أدري لماذا، على الرغم من قسوة مشهديّتها. **أطلنتيك أفينيو**، **فراشات القدس**، **شرفات أورشليم**، **شموس أمّي**، **سباعيَّة حداد الذئاب** (سرير الموت، العزاء، الأزواج والزوجات، ماجدة وسارة، كم نُحبّكِ لو تدرين، مطعم شرقي ومامي)، التي جمعت في مكان واحد. **الأرض الميتة**، **طين البحر الميت**، **عدوى الأرض** بأجزائها الثلاثة (أتربة النور، الأرض المغتصبة والأرض الأخرى). **الأندلس**: **جنتي الملتبسة**، **نيويورك**: **هسهسة الأوراق الميتة**، **ثلاثة أجساد في دوّامة** التي وُضعت داخل إطار مذهّب صغير، كانت فيها الظلال تحاول أن تتماسك في مواجهة العاصفة التي كانت تمتدّ من الأرض إلى السماء، باستثناء الجسد الثالث الذي مال وارتبك في توازيه مع الأجساد الأخرى. كان بين حمامة فوق الخطّ الأزرق، وغربان كثيرة تنتظر لحظتها لتنقضّ على الظلال مجتمعة.

هسهسة الأوراق الميتة، كانت أكبر لوحاتي المعروضة، وهي التي كانت تتصدّر أجمل مكان داخل الغاليري، وتُرى من بعيد، بحيث إنّ كل من يدخل من الباب، لا يمكن لبصره أن يخطئها أو يزيغ عنها. كانت علامة المعرض الكبرى مثلما قال لي فرانشيسكو. **قبر على حافّة الحياة** التي اختار لها زاوية مضاءة قليلاً، موزّعة بين بياض ينزل من الأعلى وضوء أصفر باهت، كان يذهّب الطرف السفلي من اللوحة.

حظّي كان كبيراً. والحياة التي منحتني قنبلة موقوتة في صدري هي نفسها التي أنقذتني ورمت بي وسط مساحة واسعة من النور. انتمائي لمدرسة بروكلين للفنون، كتلميذة وكأستاذة وأخيراً كفنّانة، خدمني كثيراً. لولاها لما كنت شيئًا يُذكر في بلاد يظهر فيها الفنّانون كلّ صباح، ومع كلّ نشرات الأخبار والحصص الفنيّة، كنباتات الفطر. في الصباح الموالي ينطفئون، لتكتشف فجأة أنّ الهالة لم تكن إلا وهمًا جميلاً سرعان ما حلّ محلّه وهمٌ آخر. كنت دائمًا أحسّ بانتمائي للجيل الضائع Lost génération الذي أكلته خرابات الحرب العالميّة الأولى ولم تترك له فسحة للحلم. أفهم جيّداً لماذا كنت أحبّ **جاك كرواك** وجنونه وضياعه هو وصديقه نيل كسادي(١). من خلال كلّ أسفاري الكثيرة ومعارضي في الولايات المتحدة، لم أرجع يومًا بلوحة واحدة. هناك شيء ما لم أكن قادرة على تفسيره، لا أعلم إذا كان فيّ أو في لوحاتي. كلّ شيء يباع أو تشتريه مؤسّسات عامّة ومتاحف حكوميّة أو خاصّة. من قال إنّ الأميركيين مجانين، لم يكن مخطئًا. شيء واحد

١ ـ Nell Cassady

يمجّونه، لا تقدّم لهم المكرور والمبتذل، لأنّك ستصادف واحداً على الأقلّ، من بين العشرات من الزوّار، من يردّك إلى حجمك الحقيقيّ.

كنت أتّكئ على ذراع فرانشيسكو وأستمتع بضحكاته السعيدة، وبلذّة الغوص في تفاصيل لغتي وألواني، والتماهي في الإضاءة الناعمة وموسيقى ماريا كالاس التي ألححت عليها كخلفيّة.

وأنا أسير في الرواق الطويل، لمع شيء غريب في عمق عيني. لم يكن ألمًا ولكنّه كان أقسى. اكتشفت فجأة أنّه لا يوجد أيّ شيء عن والدي، لا في لوحاتي القديمة ولا الجديدة. حتى في لوحة المعطف، كان التركيز على القطّة أميرة ونظرتها الذكيّة، أكثر من والدي. وكمن يكتشف خطأ قاتلاً على حين غرّة، قلت لفرانشيسكو وأنا مصابة بحالة غريبة:

ـ أرأيت كيف تخدعنا الذاكرة، لا يوجد شيء أحقد منها وأسوأ من جبنها. تضربك حيث لا تنتظرها أبداً. كيف لم أفكّر في والدي؟ أستغرب ذلك بالفعل، في معرض هو، بلا شك، آخر معارضي في هذه الدنيا. والدي حلقة مهمّة في حياتي، ولا يمكن أن أغمض عينيّ وأمضي وكأنّها لم تكن؟ لا أدري، ولكنّي أشعر بحزن عميق. بل أشعر بأنّ المعرض سيكون ناقصًا من شيء مهمّ.

ـ ما العمل إذن؟ تدارك فرانشيسكو.

ثم فجأة انتابتني فكرة نزلت عليَّ كالوحي، فأنارت مخّي بقوّة.

ـ هل يمكنك أن تأتيني بلوحات عذراء؟ أو بقماش؟ لا يهمّ الحجم.

ـ عندي في السيارة ثلاث أو أربع لوحات، متفاوتة المقاييس؟

ـ ثلاث؟ هو العدد المطلوب بالفعل. لا تهمّ الأحجام.

لوحتان صغيرتان، وثالثة أكبر قليلاً. شعرت كأنّ ملاكًا سمعني في تلك اللحظة، فقلّل من متاعبي وعقدتي تجاه والدي. قادني فرانشيسكو إلى ورشته داخل الغاليري، في حجرة صغيرة مليئة بالأخشاب واللمبات الكهربائيّة والخيوط. لم أهتمّ لذلك. ارتديت بلوزة العمل البيضاء التي كانت على الطاولة. جمعت اللوحتين اللتين لهما نفس المقاس. نزعت الإطارين المحيطين بهما، وقرّبتهما من بعضهما حتى التصقتا، وبدأت أشتغل عليهما، وكأنّي كنت أعمل على لوحة واحدة. وضعت أول نقطة لون زيتي ساخنة، ثم اللون الأحمر الحادّ، وضعت بعدها خطًّا مستقيمًا يبدأ من اللوحة الأولى وينتهي في الثانية. ثم تحوّل الرسم عندما دخل عليه الأسود إلى وجهين مقسومين متداخلين عندما تُجمع اللوحتان، وممزّقين عندما يتمّ إبعادهما عن بعض. هشاشة الحدود والفواصل. في اللحظة تلك تذكّرت محمد اسياخم الذي لم يخرج من وجه أمّه. ثم نوّعت بين الأحمر والأسود بتدرُّجات بينت الملامح المنكسرة أكثر، حتى ظهرت حالة الخيبة التي كانت تقطر من العيون المنفصلة في اللوحتين. سمّيتها بلا أدنى تفكير: **وجه مكسور بالأسود والأحمر**(١). قال فرانشيسكو:

---

١ ـ من مقتنيات جوني كلارك روتشيلد، تاجر تحف أمريكي، معروف في الأوساط الفنيّة. من سكّان بوسطن. رقم الشراء المزادي. /PC/BRKEN.FACE.BLRED MKON.345ED-656.

ـ لن نلصقهما. سنترك بينهما فجوة صغيرة، مُنارة قليلاً من الخلف، وتعمق الهوّة الفاصلة بينهما بالظلّ والنور الخافت الذي سيكون هو نفسه الخيط الهشّ الرابط بينهما.

في القطعة الثالثة، رسمت معطفًا بالألوان المائيَّة. كان كلّ شيء يتحرَّك في يدي بسرعة مجنونة. لم أكن أرى حركة أصابعي التي كانت تذهب وتجيء داخل آلاف الخطوط الرقيقة التي كانت تبدو وكأنَّها معبّدة سلفًا. لأوّل مرّة أجرّب أن أرسم تحت ضغط الوقت والفقدان، والخوف من نسيان أيّ تفصيل صغير كان يجب أن يظهر، ولم يظهر. لم يأخذ منّي العمل وقتًا كبيراً، فقد أنجزته بسرعة وكأنَّه كان في رأسي منذ زمن بعيد. كانت الأرضيَّة مبهمة، وكان المعطف الذي يرتديه والدي أسود وجميلاً. ركّزت على إظهار علامة **كاشمير**، في كمّه الأيمن، فهي أوّل شيء رأيته في معطف والدي عندما استيقظت بين ذراعيه، في إليس آيلند. تحت انثناءاته الكثيرة، كانت قطّة صغيرة بشاربين، تنام، تشبهني في كلّ شيء، فسمّيت اللوحة بلا أدنى تفكير ولا تردُّد، واعتماداً على حاسّة الجنون فيَّ: **معطف والدي**(١).

بعد أن جفَّت اللوحات، وجد لها فرانشيسكو مكانًا يليق بها. لم أعطه أيّة توجيهات مسبقة. كنت كمن خرج من معركة صعبة ضدّ السراب، لم يكن مهيَّأ لها، ولكن كان عليه أن ينتصر فيها؟

---

١ ـ اللوحة تحمل رقم: -LAMA.FAT.CL-MAKO/567من مقتنيات متحف مدينة لوس أنجلس للفن، الكائن في ٥٩٠٥ بويلشير بولفار (WilchireBoulevard Los Angeles Country Museum of Art) الذي يحتوي على أعظم المجموعات الفنية العالمية. رقم الشراء المزادي: LAMA/FATH.CLOTH/MYK/453-56-543&123.

اليوم أستطيع أن أقول إنَّ رهاناتي الكبرى كانت كلُّها صائبة، إلاّ رهانًا واحدًا، ظلّ متأرجحًا بين أسئلة شقيَّة لم أحسمها في أيّ يوم من الأيام. لا أعرف جيِّدًا لماذا أذهب إلى جدّي الذي صارت عظامه تربة أكلتها القرون الأربعة الفاصلة بيني وبينه، ولا أزور مثلاً جدّي وأخوالي وأرضي ومدينتي التي وُلدت فيها؟ أيّ جاذبيَّة قادتني نحو هذا وأبعدتني عن ذاك؟ ربما كان الخوف هو السبب، لأنِّي كنت مدركة أنِّي سأدخل مدينة لا أعرفها أبدًا، وسأضطرّ إلى رؤية وجوه ليست مرتسمة بذهني أبدًا، وقد لا أرى أبدًا ما ذهبت من أجله. ناهيك عن رفض السلطات الإسرائيليَّة لطلبي بالدفن في القدس، الذي لم أعره أيّ أهميَّة. تخيَّل نفسك تطلب إذنًا للدخول إلى تربة هي منك وفيك؟ لأنِّي لو كنت مقتنعة بجدوى الرسالة التي بعثتها، كنت دخلت بأيّ شكل من الأشكال، ولو محمولة في تابوت ولكنّ شيئًا مهمًّا كان ينقصني، وكنت أحسّه ولا أدركه جيِّدًا. الإحساس الغريب أنَّك تعود إلى أرض لم تعد لك؟ أرض سُرقت منك، ثم نُسبت لسارقها الذي يمنعك اليوم من العودة؟ كلّ المذكّرات التي كتبها العائدون حسّستني بهذه العبثيَّة الغريبة: لحظة الوقوف على الحدود، وأنت ترى أرضك على مرمى البصر، ويأتي من يقول لك، من عساكر الحدود، ليست أرضك. ثم يتفحّص وجهك جيِّدًا ويثقلك بإجراءات إداريَّة لا طاقة لك على تحمُّلها، قبل أن يعتذر منك ويمنعك من المرور.

قضيت ليلة العرض مثل طفلة صغيرة منشغلة بجمالها وهندامها وتفاصيلها الصغيرة. ونسيت أنَّ الآلام التي كانت تأكلني

قد زادت حدّتها ولكنَّها لم تكن تعنيني ولم أفكِّر أبداً في المورفين هذه المرّة. كان المكان مضاء بشكل مذهل وكان عليَّ أن أكون قويَّة لاستقبال الحاضرين في احتفالات الميلاد التي كنت ضيفة شرفها هذه المرّة في غاليري سيتي ويذاوت وولز.

شيء واحد بقي في ذهني، تلك الرعشة التي أحدثتها اللوحات في الناس والتنظيم المحكم والإضاءة المذهلة التي انتقاها فرانشيسكو بحسب موضوعة أيّ لوحة. كنت أجيب على الأسئلة براحة ظاهرة، ولم يكن أحد يدري بأنِّي كنت أتمزَّق ألماً من الداخل ولكنِّي لم أكن أعبأ لذلك. كنت قادرة على تصريف الآلام بطريقتي الخاصّة. كان فقط عليَّ أن لا أسقط في القاعة، وإلا ستكون الدنيا قد وصلت إلى قمّة ظلمها. كلّ شيء مرّ كما تمرّ الأحلام الجميلة التي تنطفئ بسرعة. كنت داخل فقّاعة مذهلة من الألوان. أتكلَّم وأجيب، ولكنِّي كنت خارج كلّ شيء، ولم أكن أخضع لأيّة جاذبيَّة، بما ذلك الجاذبيَّة الأرضيَّة. مجرّد هيولى في سماء بمئات الألوان ومدينة بآلاف الجسور، محاطة بنهر يتلوَّن بألوان السماء.

أحلى المفاجآت حدثت عندما اقتادني فرانشيسكو إلى القاعة الشرفيَّة. لم يكن يوبا موجوداً، وكنت حزينة لغيابه على الرغم من أنِّي كنت أجد له كلّ أعذار الدنيا. أجلسني ثم همَّ بفتح زجاجة الشمبانيا النائمة في سطل مليء بالثلج. كان كلّ الزوّار قد حضروا لرؤية المعرض والمشاركة في عملية البيع والشراء لصالح الأطفال المرضى بالسرطان التي كانت تشرف عليها شركة خاصّة بالبيع المزادي،

والاحتفال بليلة الميلاد. كان اللقاء احتفاليًّا. عندما سُحبَ الستار، ظهر يوبا من ورائه. وقف قليلاً. انتبهت فجأة أنَّه كان يتَّكئ على بيانو مامي دنيا. كدت أن أُجهش، ولكنِّي اتَّكأت على كتف فرانشيسكو العريضة، وتماسكت لكي لا أفسد لحظة الفرح، وتمتمت بالكاد:

ـ يا أجمل أحمق في الدنيا!

ابتسم، وتركني لحيرتي ودهشتي. لم أجد كلماتي، فقد هربت منِّي كلُّها، دفعة واحدة. رفع يوبا يده من المنصّة، وطلب أن يقول كلمة. صفّقت القاعة بينما شعرت، ربّما بفعل الهزّة العنيفة، بثقل كبير يستولي على أصابعي. تنفَّست بصعوبة، بينما كانت كلمات يوبا تنساب مثل ماء الجنة كما تخيَّلته دائمًا. سائل تبقى حلاوته عمرًا بكامله.

ـ يا أجمل أم وأرأف قلب وأحنّ امرأة. ها أنا ذا آتيك زحفًا على القلب، وأشعر دائمًا أنِّي قصَّرت في حقّك. أنتِ نور يوضع في العين والقلب بشكل دائم لكي لا ننسى أبدًا أنَّ الحياة تستحقّ أن ندافع عنها، لأنَّها بكلّ بساطة تستحقّ أن تُعاش. لقد رتَّبت كلّ شيء مع أوبّرا نيوجيرسي لتقديم برنامجي، تركتُ البقيَّة لصديقي جيوفاني غواردي، البيانيست الإيطالي المعروف. اخترت، عن سبق إصرار وترصّد، أن أقضي الليلة الاستثناء هذه، مع أمي، أو على الأقلّ الجزء الأهمّ منها. كلّ شيء نجد له البدائل الجميلة والأقلّ جمالاً، ولكنَّ الأمّ مثل النسمة الفجريَّة المحمَّلة بعطر ليلة واحدة، عندما تمضي فهي تفعل ذلك بامتلاء، لكي لا تعود ثانية. لقد ألِفتُ كثيرًا، لكنَّ هذه السوناتا التي لم تنته منذ زمن بعيد، عزيزة عليَّ. سمَّيتها: **سوناتا لأمي**.

أعتذر أنَّها غير منجزة بشكل تامّ، فهي تستعصي عليَّ كثيراً، ولكنَّها مقبولة في صورتها العامّة. أرجو أن تتحمَّلوا أخطائي، وأن تتقبَّلوا أنانيَّتي. فهي مهداة لمي، أمّي. أجمل أمّ في الدنيا.

اهتزّت القاعة الواسعة بالتصفيق. شعرت برغبة كبيرة للصعود إلى جبل الزيتون والصراخ بأعلى صوتي: يمّاااااااااااااا حتى يسمعني الأموات في المقابر السفليَّة، ولكنِّي أغمضت عيني، وتركت كلّ صرخاتي تذوب لتندفن في الأعماق. كلّ شيء هرب منِّي. شعرت بنفسي أتحوَّل فجأة إلى ريشة في مهبّ الريح. كانت غفوتي لذيذة وسحر المكان زاد من قوّتها. انسحبت الآلام، لأنَّ جسدي كان قد انسحب عنِّي كلّيًّا، وتركت نفسي أنحدر نحو حالة تلاشٍ، لا أدري إذا كنت قد عشت مثلها في كلّ حياتي. لم أستيقظ إلاّ عندما سمعت صوت سدادة قنّينة الشمبانيا تصطدم بالسقف محدثة فرقعة كبيرة، صاحبتها ضجّة جميلة من الحضور.

«حياة أطول لمي، وعمر مليء بالألوان».

أغمضت عينيّ لكي لا أرى إلا ما يشتهيه قلبي.

ودخلت في عمق دوار لذيذ.

* * *

مستشفى نيويورك المركزي

ليلة الأربعاء ٣١ ديسمبر ١٩٩٩،

وفجر الخميس ١ جانفيي ٢٠٠٠

لا شيء سوى لحظة ارتخاء كلّ شيء، وكأنِّي أصبحت بلا جسم. وبياض المستشفى الذي يشبه لحظة البياض التي تسبق الموت.

هاهي ذي السنة تنسحب، يلهث وراءها قرن بكامله، مخلِّفًا وراءه نثاراً كبيراً من الضوء المعمي للأبصار والغبار المليء بالصرخات والأنين والأفراح المسروقة.

لست أدري ماذا حدث لي، أنا لم أستيقظ إلاّ ليلة البارحة، في ساعة متأخِّرة جدًّا. قالت لي الممرّضة وهي تتلعثم مخافة إحراجي، بأنِّي بقيت أسبوعًا في إغماءة كلّيَّة لا أتكلَّم ولا أتحرَّك. أتأمَّل حركة الناس وهم يذهبون ويجيئون بدون أن أتمكَّن من سؤالهم وكأنِّي لا

أعرف أحداً. بينما نفى الطبيب المداوم الذي كان في المعرض والحفل، هو وزوجته، ذلك بصرامة. قال مجرّد إغفاءة دامت أيّامًا معدودات، ولكنّ وعيي ظلَّ معي ولم تكن حياتي مهدَّدة بالخطر أبدًا. أما يوبا فلم يقل كلمة عن الأسبوع الذي مضى، ولكنَّه قال إنّي كنت رائعة. استعمل كثيراً كلمة مدهشة التي تردَّدت على لسانه مرّات عديدة، وإنَّ معرضي كان ناجحًا، وإنَّه باستثناء ما رفضتُ أنا بيعه، فكلّ اللوحات اقتُنيت، وإنَّ فرانشيسكو وضع كعادته سجلاً دقيقًا دوَّن فيه كلّ المبيعات، وأمكنة اقتنائها، وأسماء الأفراد والمؤسّسات والأثمان. وإنَّ إدارة غاليري **سيتي ويذاوت وولز**[1] كانت في قمّة السعادة. فقد استطاعت أن تجمع من وراء معرضي، مالاً معتبراً سيذهب برمّته لمستشفيات الأطفال المرضى بالسرطان. وإنَّ كلّ شيء سار وفق وصيّتي المكتوبة، والموجودة لدى إدارة الغاليري والجمعيَّة التي أشرفت على العمليَّة. وإنَّ عليَّ فقط أن أرتاح قليلاً، وأن لا أهتمّ سوى بصحّتي. أردت أن أسأله عمّا حدث لي طوال أيام الأسبوع الذي أعقب المعرض، ولكنّي فعلتُ ما فعله هو أيضًا: صمتٌ، لسبب بسيط: الزمن عندي توقّف عند لحظة كانت شبيهة بالحلم. لم أكن مستعدّة أن أخسر لذّة الدوار الذي أحسست به ليلتها، وأنا غارقة حتى التلاشي في المشهد.

ما زلت أحسّ بنظام الأشياء عندما يختلّ. أشعر ببعض الانكسارات التي كانت تحدث هنا وهناك مخلّفة وراءها فجوات كنت أراها وأسمعها. نظرت إلى الساعة الحائطيَّة. لقد تأخّر يوبا عن

---

١ - City Without Walls (CWOW)

الوصول، مع أنَّ إدارة المستشفى طلبته في الوقت الذي طلبوا فيه السير جون وابنه كريستوف. فعلوا ذلك بصوت خافت، لكنِّي سمعتهم بشكل واضح. ربما يجعل الموت حواسّنا حادّة على غير المعتاد، ونستطيع أن نسمع حتى خطوات الموت وهي تقترب من أجسادنا. ربما شعر الطبيب بأنَّ الموت قد حضر وعليَّ أن أقابله برأس مرفوع ولو أنَّ الآلام التي كانت تحفر كامل جسدي لم أعد أسمع لها أيّ صدى فيَّ. لقد انتفى كلّ شيء حيّ، ما عدا عينيّ ويدي اليمنى التي مازالت تسعفني للكتابة. ربما كانت هي الشيء الوحيد الذي ما زال يتحرّك فيَّ.

سألني الطبيب في هذا الصباح، وكان مصحوبًا بجيش من الأطبّاء والممرّضات، بعضهم من المستشفى المركزي، والبعض الآخر من المقيمين المتدرّبين:

ـ هل تشعرين بألم؟

ـ لا.

قلت. هذه المرّة لم أكن أكذب. لم أحسّ بأيّ ألم لم أتعوَّد عليه. كان ثمن تفادي المورفين باهظًا ولكنِّي كنت سعيدة. تلمّسني من جديد في أمكنة عديدة من جسدي. لم أشعر بأيّ شيء، حتى بلسمته الدافئة التي تعوَّدت عليها. لاحظ ذلك في عينيّ الباردتين:

ـ هل تشعرين بشيء؟

ـ لا.

ـ أنت خائفة؟

لم أسأله حتى سؤالي المعتاد: ممّن؟ قلت بدون أدنى تفكير:

ـ لا. لماذا أخاف وأنا لا أشعر بأيّ ألم؟ أشعر بأنَّ كلّ الأشياء صارت قريبة منّي، على مرمى بصري ويدي، حتى الأشياء التجريديَّة، كالموت والحبّ والخوف. يوبا تأخَّر كثيراً عن المجيء يا دكتور هيرفي؟

ـ رأس السنة. زحمة نيويورك في مثل هذا الوقت، لا تطاق. لا تشغلي بالك. ارتاحي الآن قليلاً، سنخبرك بمجرّد وصوله.

أردت أن أقول له: وإذا لم يجدني؟ ولكنّي فضَّلت غلق باب أسئلة كان سيفتح من جديد، لم أكن مستعدّة له.

غطّى صدري بهدوء، ثم انسحب وتبعه جيش الأطبّاء والممرّضات. كانت ملامحه هو كذلك باردة. أشعر بأنَّ عناصر الحياة فيَّ بدأت تتضاءل وتموت، الواحد تلو الآخر.

لم أعد أسمع الشيء الكثير، باستثناء صوت تلك الطاحونة الذي يأتي من بعيد، من مطحنة عمّي رزق الله بمحيط القدس. أو صوتًا مخنوقًا يشبه إلى حدّ بعيد ألسنة اللهب التي تحدث زئيراً غريباً عندما تصل إلى سقفها أو نداءات أختي لينا التي ماتت قبل ولادتي، وظلّت فيَّ، إذ إنَّ موتها هو الذي فسح المجال أمام دعوتي للحياة. لو بقيت حيَّة لما ولدتني أمّي. لقد خفت كلّ شيء. وبدأت الحياة تنسحب بهدوء وتنسلّ مخافة أن أحتجّ عليها أو أطالبها بالبقاء ولو للحظة بجانب سريري أو أحاسبها لأنَّها لم تكن طيِّبة معي. حتى

دقّات القلب تضاءلت وتكاد لا تسمع. الجسد فقد حركته كلّيًّا وأصابعي لم تعد تسعفني للكتابة إلاّ قليلاً. لا شيء سوى الصمت وذلك الصوت الأعمى الذي يأتي من بعد سحيق بموسيقاه الحزينة وكورسه الجنائزي الموشّى بالسواد، وألوان القيامة وأنين القرآن وأناشيد التوراة والإنجيل.

كلّ شيء صار الآن مغلقًا وباهتًا ما عدا اللمبة الصغيرة التي تضيء بالكاد المساحة التي أنا فيها. أسمع دقًّا عنيفًا على الباب، ربما كان يوبا؟ ولكنّي أعرف جيِّداً خطوات يوبا ورائحته حتى قبل أن يطلّ من الباب بوجهه السمح. ثم أتساءل في خفائي: هل جاؤوا؟ من أين دخلوا يا ترى؟ من أيّ حقل عبروا ومن أيّ ممرّ سلكوا وجبل الزيتون يغلّف المدينة ويحضنها من الغرباء؟ ولكنّي لا أرى إلاّ ظلالاً متكاتفة وكأنّها لا تستطيع أن تقف إلا بالاتكاء على بعضها البعض. ربّما كان الموت.

أشعر بثقل في رأسي. ياه.. كم أنا متعبة. لماذا يكثرون الدقّ على الأبواب، فأنا منذ أيّام لم أعد هنا. اعذرني يا يوبا، اعذرني أرجوك، أريد فقط أن أتوسّد ذاكرتي ومدينتي التي هربت منّي في وقت مبكّر وأنسى كلّ شيء وأنام، ولا أريد بعدها أن أفتح عيني مطلقًا، تمامًا مثل فراشة جدّي الأندلسي الذي فهم العلامة قبل أن يندثر.

يوبا... هل الخطوات الثقيلة التي توقّفت فجأة عند الباب ولم تبق إلا ظلالها، هي خطواتك؟ فهل تسمعها؟ خفّف الوطء قليلاً. أنا

أسمعها بوضوح لأنَّها صارت الآن فيَّ، في الرأس وفي عمق الجسد المعطّل والمتعب. لقد بدأ النور الغامض يعمي كلّ شيء. يبدو أنَّها شهوة المنتهى التي حكى عنها جدّي الأندلسي وهو ينام في مقامه الأخير، في أرض بلا تربة ولا ماء، ولا هواء. جدّي الذي لم تفهمه إلاّ فراشته.

يوبا أخيراً جئت؟ إنّي لا أراك إلاّ في شكل هيولات يصعب القبض عليها، ولكنّي شممت رائحتك قبل دخولك. أستطيع الآن أن أنام. الساعة تزحف نحو منتهى القرن. أشدّ على عقاربها بقوّة لكي تنقلني نحو زمن آخر. تدور وتدور وأنا أدور معها. أصاب بدوار الزمن الآتي. لا شيء.

لا شيء سوى الموت الذي أسدل أخيراً ستارة الحياة بحركة يده الخشنة. يوبا... هل ترى ما أراه؟ إنّي أرى الآن غيمة بنفسجيَّة لا تستقرّ على شكل، ظلّت هاربة منّي طوال الزمن الذي مضى. تتحرَّك بثقل نحوي. تغمرني. تضيع أشكال الأشياء المحيطة بي وتفقد متانتها لتصير رخوة مثل العجينة. يتجلّى من الغيمة نور حادّ مغيم للرؤية، أغلق عيني قليلاً لكي أتفادى قوّة النور. أسمع أذانًا خفيًّا يأتي ملتبّسًا بنداءات الموت الغامضة، ورنين أجراس كنيسة القيامة، في عمق المدينة القديمة، وهي تستقبل السنة الجديدة... ياه كم هو مذهل هذا الزمن الصعب... لا بدّ أن تكون شوارع نيويورك ممتلئة بالبشر حول الكرة الملوّنة. أسمع أصداء الألعاب الناريَّة. أسمع صوت يوبا وهو يردِّد: كلّ سنة وأنت بخير يا أمّي. صوته ورائحته. ولكنَّ الظلمة تدخل إلى

جـسـدي، ويد قـويَّة تحـشـو أذني بالقطن حـتى لا أسـمع الأصـوات والنداءات التي تأتي من بعـيد. شـيئًا فشـيئًا يتـحـوَّل كلّ شيء إلى قتامة، كلَّما زاد لونها تفحّمًا ورماداً، ذكَّرتني بأنَّه آن لي أن أتوقَّف عن الكلام... عن الكتابة... عن الحياة... عن...

ياه يا يوبا، حـبيبي، كم أشعر بالإنهاك والعجز؟ حتى ذراعي اليمنى تثقل ثم تموت تقريبًا. أحـرِّكها، لا تسعفني كـمـا أشتهي. أجهد نفسي لكي لا أستسلم بهذه البساطة. أكتب كلماتي الأخيرة. أدوّن شططي وسط حالة شـبيهة بفقدان البصر والشلل العامّ الذي يسبق الموت عـادة. أغـمض عـيني لكي لا أرى الألوان التي بدأت تتداخل بقوّة وتسودّ أكثر فأكثر. ما زلت أسمع صوت يوبا ولكنِّي لا أفهمه لأنَّه يغيم وسط همهمات كثيرة لأناس يرتدون السواد. لا يوجد أيّ ألم ولكنّ ثقلاً كبيراً في جسدي ينهكني. أحاول جاهدة أن أتشبَّث بعقارب الساعة وهي تركض لكي ترميني من الجهة الأخرى من القرن الجديد الذي بدأت تعلن عنه أجراس الكنائس والاحتفالات وفوضى السيّارات التي تأتي من بعيد وأسمعها بالكاد.

أحاول أن أمدّ رأسي وأنام، ثم... فجأة يصبح كلّ شيء لدنًا ولذيذاً مثل الإغفاءة الخاطفة، بلا شكل ولا وزن، ولكن بملايين الألوان المتداخلة التي يصعب تحديدها...

أحاول أن أمدّ رأسي وأنسى أنِّي أموت.

* * *

الفصل الثالث

سوناتا الغياب

ـ ١ ـ

كلّ شيء كان هادئًا.

حتى الموسيقى التي انبعثت شجيَّة من بيانو مامي دنيا لم تعكِّر صفو حالة الصمت التي لفَّتِ المكان. الزمن نفسه انحسر، وبدا كأنَّه مجرّد لحظة هاربة في فراغ يستحيل القبض عليه.

عبثًا حاول يوبا، وهو يواجه ثلوج نيويورك من وراء زجاج النافذة الواسعة، أن يتفادى المشهد الأخير. فجأة انتابه وجهها الطفولي بكلّ صفائه الجميل على الرغم من علامات الموت المرتسمة على محيّاها.

«ـ قيل لي إنَّها كانت تنتظرني، وقاومت الموت حتى رأتني للمرّة الأخيرة. عندما دخلت عليها قادمًا من الأوبّرا بعدما انتهيت من أدائي وتركت الفرقة لصديقي الإيطالي، البيانيست جيوفاني غواردي. كانت يدها اليمنى ترتجف، تحاول أنَّ تلتصق بالقلم وتقبض باستماتة على كرّاستها النيليَّة التي كانت تغطّي جزءًا من صدرها الذي تعرَّى

قليلاً بسبب اللباس الطبّي المفتوح وانحنائها. عندما انكفأت على خدّيها لأقبّلها، كانت ما تزال تتمتم وتحاول أن تكتب: **يوبا أخيراً جئت؟ إنّي لا أراك إلاّ في شكل هيولات يصعب القبض عليها، ولكنّي شممت رائحتك قبل دخولك. أستطيع الآن أن أنام. الساعة تزحف نحو منتهى القرن. أشدّ على عقاربها بقوّة لكي تنقلني نحو زمن آخر. تدور وتدور وأنا أدور معها. أصاب بدوار الزمن الآتي. لا شيء. لا شيء سوى الموت الذي أسدل أخيراً ستارة الحياة بحركة يده الخشنة. يوبا... هل ترى ما أراه؟ إنّي أرى الآن غيمة بنفسجيّة لا تستقرّ على شكل، ظلّت هاربة منّي طوال الزمن الذي مضى. تتحرّك بثقل نحوي. تغمرني. تضيع أشكال الأشياء المحيطة بي وتفقد متانتها لتصير رخوة مثل العجينة. يتجلّى من الغيمة نور حادّ مغيم للرؤية، أغلق عيني قليلاً لكي أتفادى قوّة النور. أسمع أذانًا خفيًّا يأتي ملتبّسًا بنداءات الموت الغامضة، ورنين أجراس كنيسة القيامة، في عمق المدينة القديمة، وهي تستقبل السنة الجديدة... ياه كم هو مذهل هذا الزمن الصعب... لا بدَّ أن تكون شوارع نيويورك ممتلئة بالبشر حول الكرة الملوّنة. أسمع أصداء الألعاب الناريّة. أسمع صوت يوبا وهو يردِّد: كلّ سنة وأنت بخير يا أمّي. صوته ورائحته. ولكنَّ الظلمة تدخل إلى جسدي، ويد قويَّة تحشو أذنيّ بالقطن حتى لا أسمع الأصوات والنداءات التي تأتي من بعيد. شيئًا فشيئًا يتحوَّل كلّ شيء إلى قتامة، كلّما زاد لونها تفحُّمًا ورمادًا، ذكّرتني بأنَّه آن لي أن أتوقّف عن الكلام... عن الكتابة... عن الحياة... عن...**

«ـ يمّا... هل تسمعينني؟ أنا يوبا يا يمّا... كلّ سنة وأنت بخير يا يمّا... كلّ سنة...».

لا تردّ. يرتعش القلم بين أصابعها. تواصل الكتابة التي بدأت تنزلق تحت الخطوط وفوقها وتفقد الأحرف أشكالها وروابطها، قبل أن تتضاءل وتتداخل في شكل رموز غير واضحة. لم أحاول أن أزعجها، ولكنّي ظلّلت واقفًا على رأسها.

كلّ ما حدث لم يكن مجرّد كابوس عابر. لقد اختارت مسلكها ولم تسألني عن رأيي. حتى موتها وتوقيته وطريقته، اختارته كما يفعل عادة الساموراي وهو يواجه قدره النهائي. لم أستطع أن أكتم نداءاتي الكثيرة التي تزاحمت في حلقي:

«ـ يمّا... هل تسمعين أناشيد آخر يوم في السنة؟ إنَّ القرن ينسحب بكامله بجبروته وأثقاله وضحاياه وأفراحه. لم تبق إلاّ دقائق. حرّكي عينيك قليلاً لأعرف أنَّك تسمعين هذه الأفراح الجنائزيَّة. افتحي عينيك قليلاً يا يمّا، فقط بالقدر الذي يسمح للنور بأنَّ يتسرَّب داخلهما، لتري كرة نيويورك التي تشبه المرايا اللامعة التي تخترقها ملايين الألوان».

أخذت رأسها بين يدي، كانت خفيفة وباردة كالظلّ. رجوتها أن تفتح عينيها للمرّة الأخيرة: أرجوك يا يمّا، افتحي... من أجل يوبا... هكذا... فتحت عينيها للمرّة الأخيرة. تسرَّب نور إليهما فبانت فيهما كلّ الألوان التي اشتهتها، بما فيها فراشات القدس. تفرَّستني جيِّداً. ابتسمت. بعدها سكن كلّ شيء فيها، وانطفأت

الأنوار التي برقت في عـينيـهـا للحظة. صـرختُ بأقـصى ألمي: يمّـ.......ـا... يا يمّـ.......ـا... كان كلّ شيء قد انتهى ولم تبق إلا الوصايا القدسيّة التي كانت تثقل كاهلي وشوق مبهم ظلّ معلّقًا بين حلم بعيد وحياة انسحبت بسرعة.

التفت يوبا مرّة أخرى صوب الفراغ. بدت له نيويورك، من وراء النافذة، مدينة هاربة نحو حزن جنائزي ثقيل، ملفوفة كليًّا داخل رداء أبيض كان يغطّي كلّ شمالها. شيئًا فشيئًا تتراكم الثلوج مكوِّنة هضابًا صغيرة هنا وهناك، تتخبًّأ تحتها البنايات الواطئة وآليات العمل والطرقات ومنحدرات بعض الجسور المهملة والأجزاء السفلى للرافعات العملاقة، والسيارات التي لم تبق إلاّ علاماتها الخارجيَّة. كلّ شيء اندفن تحت الندف التي لم تتوقّف منذ أكثر من أسبوع.

فجأة لمعت شمس حادّة انعكست أشعّتها البيضاء بقوّة على سطح الثلج، مخترقة زجاج نافذة الصالون الواسعة. سحب يوبا الستارة الخشنة متفاديًا بظاهر يده الأنوار التي لمعت في عينيه بحدّة.

غرق البيت من جديد في الظلال.

«ـ كان الخريف ينسحب والشتاء يدقّ على الأبواب بكلّ قسوته وجبروته، عندما تخلّت مي عن مقاومة الموت، في اللحظة الأولى الفاصلة بين يومي الأربعاء والخميس. بالقلم والكرّاسة النيليَّة التي على صدرها وهي تحاول جاهدة الكتابة. كانت تبدو فقط نائمة أو ربما تحاول أن تنسى مشقّة تعب اليوم كما تعوّدت أن تفعل عندما تشتدّ آلامها. وجهها كان مشعًّا وكأنَّ الموت لم يدخله أبدًا إلا/ع

قليلاً. مجرَّد غفوة وستأتي بعدها لحظة الاستيقاظ والعودة إلى الحياة العاديَّة التي افتقدتها. لماذا ننظر صوب الحيطان الباردة عندما يفاجئنا الموت، ونرفض أن نصدق أنَّ ما يحدث أمام أعيننا ليس مجرّد لعبة سخيفة علينا تحمُّلها موقّتًا، ولكنَّه فقدان لن نبرأ منه بسهولة»؟

شعر يوبا بألم حادّ وكأنَّه فقد أمّه قبل لحظات. أغمض عينيه طويلاً لكي لا يرى إلاّ ما اشتهى أن يرى فيها، ويبعد عن بصره كلّ ما خرّبه الموت: امرأة دائمة الحيويَّة، بين أروقة نيويورك وألوانها التي ظلّت سرًّا غامضًا ومغلقًا في الكثير من رسوماتها. لا أحد يعرف كيف كانت تصنع لونها الذي ابتدعته بلمسة ريشة وذاكرة مثقلة بالمرارة: فراشات القدس؟ كان حقيقتها وسرّها الجميل، وسحرها المبهر الذي رفضت دائمًا أن تتقاسمه مع أيّ شخص آخر.

«ـ أنانيَّة؟ نعم أنا أنانيَّة. هذا لوني، مليء برائحة الخوف وطعم الحجارة القديمة والتربة المسروقة. هل تعلم يا يوبا، لأجدادي سحر الكلام وأسرار الخطوط، ولي هذا الشوق الذي سحبته نحوي بالقوّة، من أرض تكاد الآن أن تموت ويقع لأهلها ما وقع للهنود الحمر. أنت تعرف سحر الألوان. كلّ شيء يُخلط بمقدار، ونحتاج إلى الكثير من الغربة والمنفى والفقدان، وعبور نفق إليس آيلند بخوف ورعب الأطفال الذين يرفضون أن يلتفتوا وراءهم، ونختبر من حين لآخر قدراتنا اللغويَّة وما يمكن أن نقوله للحرس الذي يتصيَّد أيّ مزلق من مزالقنا، وشوق كبير للألوان الهاربة من الذاكرة وطفولة قدسيَّة ممحوقة حُوِّلتْ في لحظة من اللحظات إلى نثار، لكي نتوصّل أخيراً إلى ابتداع

هذا اللون. لوني هو روحي بكلّ سخائها وجنونها. لا أرغب طبعًا في أن أكون عظيمة، بطلة أو أسطورة، فتنتهي حياتي كما انتهت حياة أليسار ملكة قرطاج. لا أرغب إلاّ في استثناءاتي الصغيرة التي أصنعها بأصابعي. تعلّمت، من جراحاتي الغائرة، أن ألعب بالنار وأنا أضحك. أضحك كبهلوان نيتشه، ولا يهمّ بعدها إن سقطت في عمق الشعلة العالية واحترقت أنا ومملكتي الجميلة. مملكة الألوان البهيَّة، التي إذا ضحكتُ، رقصت لي، وإذا بكيت ضمّتني إلى صدرها، وإذا صلّيت، توجَّهت إلى اللّه بالصراخ: ماذا تنتظر لفكّ كربتها؟ وإذا سافرت، طارت معي وهي تشدّ على كفّي كي لا تسرقني الزحمة. وإذا نمت، أيقظني جنونها للغوص من جديد في سحر اللون.

ـ صعب يا يمّا أن يعيش كلّ واحد ما عشته! لكلّ قصّته.

ـ نعم. لكلّ قصّته ولكلّ لونه أيضًا. ليس هذا فقط. وعليه أن يحبّ الدنيا إلى درجة شهوة المنتهى حيث لا قوّة أخرى تطغى على حبّه وشهوته غير جنونه المبطّن في داخله، وإلاّ لن ينصاع له الإشراق الخفيّ الذي يقوده إلى تخيُّل اللون، ليصرخ بعدها بجنون أرخميدس المسكين: وجدتها... وجدتها...وجدتها...

ـ إنَّه لونك وحدك إذن؟

ـ وحدها فراشات القدس تدفع عنّي ألم فقدان تلك الأرض التي تغيّر اليوم وجهها كثيرًا ولم يعد عفويًّا كما كان. لقد سرقوا منه كلّ شيء، حتى تاريخه الذي حوّل طعم الأشياء والأديان وأنْسَنهَا. كانت

تلك أرض اللّه الواسعة ومدينته الحالمة، لكنَّهم كلّ يوم يأكلون منها شبراً حتى لم يعد إلاّ صوتها الخفي الآتي من بعيد... بعيد جداً، وأصبح اللّه منفيًّا عن حيطانها.

ـ مدينة اللّه... تلك قصّة معقَّدة يا يمّا...».

وَرَّق يوبا الكرّاسة النيليَّة من جديد بحثًا في أسرارها المخفيَّة. كانت مثقلة بالحنين والحياة المؤجّلة. لم يبق الشيء الكثير الآن إلا البياض الذي يشكّل البقيَّة ويزحف نحو ما تبقّى من الأحرف المنزلقة التي أكل أطرافها المحو والموت. شعر يوبا بأنَّ العمر لم يسعف مي للذهاب بعيداً في أشواقها. فقد كان قلبها مليئًا بالأنوار التي لم تستطع أن تكمشها في عمق كفّها كما كانت تشتهي أن تفعل بكلّ النجوم عندما كانت صغيرة وتبعثرها كما تشاء، في الأماكن الأكثر ظلمة. الموت كان أسبق إليها من الكتابة واللون الذي، عندما أكلت أظافرها كما هي عادتها، شعرت بمرارته تسدّ الحلق. اللون المرّ. وكأنَّ يداً خفيَّة غمسته في ماء الحنظل والموت.

«ـ طبيعيّ جداً. كلّ الألوان مرة عندما يمسّها الأنين والخوف من المبهم. وعندما يواجهك المبهم فأنت لا تعرف وسيلة تجعلك قادراً على الوقوف على رجليك لتنتفض وتقول لا. ولكن هل يمكن فصل ألواني عن الخوف الذي انتابني أوّل مرّة وأنا أُختَطَف من حجر أمّي التي عشقتُ ألوان لباسها الملوَّنة، وكلّما اقتربت منها شعرت كم هي جميلة؟ أو عندما تخسر أبًا تصوّرتَه حاضرك وماضيك وربّما مستقبلك بلا أدنى تفكير؟ الألوان يا يوبا تصبح مُرَّة عندما تتوقَّف

عن رؤية السماء والاحتفاء بالنجوم. وأنا منذ زمن بعيد فقدت سمائي وتأكّدت من أنّي مثل طائر الفينيق الضائع في السماوات الحارقة، سأستحمّ برمادي ولكن لن يكون لديَّ حظّ الخروج من جديد نحو الدنيا، من خفوت الشعلة تحت الرماد. مثل هذه الأشياء تحدث مرّة واحدة، ولو كان ذلك داخل الأسطورة التي نصنعها والأوهام. نحتاج إلى خرافاتنا الجميلة لكي تستقيم حياتنا».

اندفنت الشمس من جديد في عمق غيوم شفّافة حدّت من لمعانها القويّ. أزاح يوبا الستارة من جديد. بدا عالم الثلج من وراء النافذة الواسعة كغابة أمازونيَّة بيضاء، لا حدود لامتدادها. توغّل بعينيه في عمق البياض كمن يخترق عالماً من الليونة والكثافة. عَبَرَ بعينيه الأوراق البيضاء المتبقِّية من الكرّاسة النيليَّة، التي لم تُتح فرصة لمي لكي تقول ما كان في قلبها، علّه يجد كلمة هاربة أو شوقًا خجولاً لم يخرج بشكل كامل. لم يعثر إلاّ على بعض الخربشات هنا وهناك مخبَّأة في الزوايا: خطوط مستقيمة هنا، نقاط ومربَّعات متداخلة هناك، لكنَّه عندما تأمَّلها مليًّا شعر بها تخبِّئ شكلاً لا يظهر ببساطة على الرغم من سهولته. كلمة يوسف مقطّعة... يـ....و....سـ... ف.... تنزل من أعالي الصفحة حتى أقاصيها، وتغيب نهائيًّا على الأطراف لتدور على نفسها في شكل: يوسـ...ي.

قلّب يوبا الصفحات المتبقيَّة، بدت خفيفة وكأنَّها ريش عصفور من عصافير الجنّة. ثم تنبّه للوريقات الصغيرة المبثوثة بين صفحات الكرّاسة، بعضها عاديّ، وبعضها الآخر لـمّيع مثل ورق الحلوى المذهّب

والمشمع الذي كتب على طرفه التحتيّ بخطّ عربي وإنجليزي ناعم: **مصنع أبو أحمد الحلوجي بالقدس العتيقة**، وعنوانه: **حلويات القدس، بجانب مقهى بريستول، خلف سور باب الخليل**. ثم وريقات دعائيَّة لسهرة نجيب الريحاني وبديعة مصابني، وصورة لها بلباسها الشفّاف المعدّ للرقص وبيديها الكاستانيات الإسبانيَّة. وصورة صغيرة أخرى لها، أهمّ ما يميِّزها، ابتسامتها الساحرة. كتب على قفا الصورة، بخطّ طفولي مائل قليلاً إلى الأمام: «**صورة للستّ بديعة مصابني، حفظها اللّه من أيّ مكروه. خالي هو من أعطاها لي. مصوّرها فلسطيني مجهول**».

ونصّ تفصيليّ عن الست بديعة: «**كان اللقاء في بيت المرحوم النشاشيبي. خالي شجّعني على الذهاب معه، أوّلاً لزيارتها في نزل السانِ جون، الذي كانت تقيم فيه، ثم سحبني وراءه إلى سهرتها، على الرغم من تردُّد أمّي. كان بيت العمّ مصطفى، أبو العبد، اللّه يرحمه، مليئًا بعشّاق الغناء والرقص. البيت يقع أمام فرن عمّو صبري عبد ربّه. الكثير من الفنّانين الذين مرُّوا على القدس، زاروا هذا البيت الذي استضاف الستّ بديعة وفرقتها. وقد رقصتْ في تلك الليلة كثيراً، حتى وهي جالسة. كانت آلة القانون هي رفيقها في كلّ حنينها. كنَّا جالسين على أفرشة مطروحة على الأرض، في غرفة صغيرة لم يحسّ أحد بضيقها. في آخر الليل، غنّيتُ معها أغانيَ من التراث القديم: جادك الغيث... قل للمليحة... بليال كتمت سرّ الهوى... وأغاني سيّد درويش: طلعت يا ما حلى نورها... احتضنتني وهي تردّد: يخرب**

بيتك؟ ما أحلى صوتك، وين كنت مستخبّاية؟ أوّل مخلوق يبكيني! لازم تجي على القاهرة. ما زلت إلى اليوم أتذكّر رائحة عطرها المدوخة. عرفت يومها لماذا كان يشتهي أغلب الرجال الجلوس بالقرب منها...».

أعاد يوبا ترتيب كلّ الوريقات والصور في أمكنتها، كما كانت. فجأة سقط غلاف أبيض لم يكن ورقه حائلاً مثل بقيَّة الأوراق التي كان يخاف كثيراً على هشاشتها. بدا لأوّل وهلة غلافًا فارغًا، لكنَّه عندما تحسَّسه شعر بوزنه. فتحه. مدّ أصابعه نحو الأعماق. أخرج محتوياته: صورة ورسالة وقصاصة. تأمَّلهما مليًّا. لم يبد له الوجه النسوي المختوم على الصورة غريبًا أبداً. شعر بألفة كبيرة نحوه. كانت المرأة في الصورة تشبه ممثّلات هوليوود في كلّ شيء، في النظرة الحائرة، العينين الهاربتين، تسريحة الشعر المتدرِّجة، وحركة اليد اليمنى الموضوعة تحت الذقن والتي تبيِّن أنَّ الصورة لم تكن عفويَّة. كان وجه المرأة طفوليًّا. عينان متّقدتان مليئتان بالحبّ والذكاء، وغير فارغتين كما يبدو لأوّل وهلة، إذ إنَّ زرقتهما ذوّبتها مساحات البياض في الصورة حتى بدت كأنَّها عمياء لولا الدوائر الصغيرة التي كانت تحوط البؤبؤين جيِّداً.

ظنَّها يوبا في البداية لممثّلة أحبّتها مي في طفولتها، ثم تصوَّرها لجينا، أستاذة مي وصديقة أمّها، لكثرة ما حكت عن جمالها ووجهها الطفولي، ولكنَّه سرعان ما أبعد الفكرة عندما لاحظ الكتابة الألمانيَّة الرقيقة والناعمة جدًّا على ظهر الصورة وعلى الرسالة. رأى التوقيع **إيفا كراوس موهلر**. تساءل لماذا لم تطلب منه أمّه يومًا أن يقرأها لها وهي

تعرف أنَّ لغته الألمانيَّة تسمح له بقراءة الرسائل وفهمها؟ ربّما لأنَّها كانت خائفة منها، من أن توقظ في نفسها شطط الماضي المؤلم الذي لم تكن مهيَّأة لتحمُّله، خمّن وهو يتأمَّل الصورة ويحاول أن يفكّ أسرارها. لم يمنع نفسه من التساؤل الذي كان يأكله: هذه هي إذن السيّدة النازيَّة التي كانت تحكي عنها مي بالكثير من الحزن والكثير من القلق؟

زادت شهوته لمعرفة أسرار الرسالة والنصّ المكتوب على الصورة. كان يدرك جيِّداً أنَّ مي لم تعط أهميَّة لهذه الأوراق لأنَّها كانت ترفض أن تعرف حقيقة والدها، مخافة أن تكرهه أكثر. سؤالها الذي ظلّ يؤرّقها ولم تجد له أيّة إجابة مقنعة: كيف بدَّل والدها أمَّها الجميلة والطيّبة، بامرأة أخرى، ألمانيَّة ونازيَّة، وربما متواطئة مع جهة من الجهات الغربيَّة؟

قام من وراء البيانو وتهالك على الصوفة. كان الصالون يعوم في نور دافئ. سحب قليلاً لمبة الهالوجين وقرَّبها من رأسه. وضع نظّارتيه على عينيه وحاول أن يفكّ أسرار الحروف. كانت الكتابة رقيقة جداً ومتلاصقة ولكنّ بها رائحة مغرية، تشبه رائحة المدن القديمة. لم تكن بالرسالة أيّ مساحة للبياض، يكاد كلّ شيء يتحوَّل إلى جملة واحدة. شيئًا فشيئًا استسلم يوبا لصمت الحروف وأسرارها، فترك عينيه تسبحان في عمق كلمات إيفا كراوس موهلر، المتزاحمة بقوّة وعناد.

* * *

- ٢ -

١ـ ما كتب على ظهر صورة إيفا كراوس موهلر

قد تكون هذه هي الحماقة التي تفاديتها طوال عمري، والتي قد تودي بحياتي ولكنّي لم أعد قادرة على تحمّل غيابك عنّي.

هل تدري أنَّ شوقي إليك يقتلني؟ مَن الغبي الذي قال إنَّ عواطف الألمانيَّات باردة وإنهنَّ مثل أحجار البازلت، ثقيلة وبلا صدى؟ أيّ وغد سطّر، بجهل، قانون العواطف البشريَّة، ووزّعها لا بحسب الأحاسيس الفرديَّة الأعمق، ولكن بحسب شهوات الخرائط البشريَّة الباردة التي خطّها المعتوهون الذين لا يعرفون شيئًا عن دواخل الإنسان وغاباته النفسيَّة؟ معذورون في جهلهم. هؤلاء لم يعرفوا عاشقًا مثل غوتة وشيلر، ولم يتحسَّسوا مجنونًا عظيمًا كنيتشه ولا اقتربوا من رهافة باخ.

كم مرّ من الزمن الذي يفصلنا؟ زمن بعثرنا مثل ورق أشجار هزَّتها رياح خريفيَّة عاصفة. لقد ضاعت منِّي التواريخ حبيبي، ولم تعد إلاّ علامات مرصوفة بإتقان على المفكّرات الكارتونيَّة المعلَّقة على الحيطان. كلَّما تأمَّلتها غامت وتضاءلت، ثم امّحت لتتحوَّل إلى آلام وهزّات عنيفة، تنخرني من الأعماق.

أتساءل أحيانًا، هل ما زلتَ تعرفني؟ هل مازلتُ أعني لك شيئًا عَبرَ حياتك ذات يوم لينغرس فيك كشجرة مسحورة؟

يبدو أنَّك نسيت كلّ شيء، حتى تفاصيل وجهي الطفوليَّة بدأت تنسحب. لقد تغيَّرتُ كثيرًا ولكنّ ملامس أصابع يديك ما زالت على جسدي وعلى رأس الحلمة التي رضعتها لأوّل مرّة، في الزاوية المظلمة، داخل المستشفى الألماني في القدس. كنت تمصّ وأنا أحاول أن أنهاك وأحذّرك من أن يرانا أحد، وفي أعماقي شهوة مجنونة كانت تجرفني نحوك. لكنَّك لم تتوقف وكأنَّك عثرتَ على حليب الجنّة الذي كانت خيالاتك تحفل به. ثم احتضنتني بجنون وحملتني على سرير المرضى ولم تكلِّف نفسك حتى غلق الأبواب. قلت لك أغلق الباب وأنا أتمنَّى أن تظلّ عليَّ مثلما كنتَ. لم تسمعني. كانت الساعة بالضبط تشير إلى الثالثة فجرًا وكلّ شيء خال من الحياة إلا أنا وأنت. كنت أعرف أنَّك تركت كلّ شيء من أجلي، زوجتك وابنتك، أصدقاءك وأهلك وفرقتك العسكريَّة. لا أتصوَّر أنَّ جنونًا مثل ذلك سيتكرَّر يومًا، ليس لأنَّ الليلة تلك أثمرت حبيبتي الرائعة يارا، ولكن لأنَّنا كنَّا خارج كلّ منطق مستقرّ للحياة. كان يمكن أن أُطْرَدَ

من عــملي، ولكنّي كنت ســعــيـدة أن لا أحــد رآنا. يبــدو أنَّ ليـلة البـدايات تبقى عالقة في الذاكـرة كـاللمعة الجميلة التي تستمرّ معنا حتى الموت. جمـال تلك الليـلة وأساها العـميق، أنَّها لن تتكرَّر أبداً حتى ولو شحذنا لها كلّ حواسّ الدنيا. أحسن. لأنَّها لو عادت مرة أخرى بنفس القوة، ستقتلنا من فرط عذوبتها.

ليكـن. لا أطلب منك الشيء الكثـيـر بعـدمـا خـرّبتني حـادثة فقدانك، تذكّرني فقط وقل إنَّ امرأة أحبّتني بعد أن وضعت حياتها كلّها على حافّة المخاطر الكبرى. تذكّرني بقلبك، بجسدك، بلمسك، ببصرك، بلسانك، بأصابعك الناعمة، بكل حواسّك الخفيَّة، وبعدها إذا لم نلتق، ليس مهمًّا.

شقيَّتك إيفا.

٢ـ ما كُتِبَ في الرسالة الملتصقة بها.

عزيزي حسن.

لا تؤاخذني على كلامي السابق، كنت فقط أريد تذكيرك أنّك مـا زلـت هاهنا، بالضـبط بالقــرب من نبض القلـب حـيـث لا يمكننا الكذب على عواطفنا. حبيبي الذي لم أعرفه إلاّ قليلاً وكأنِّي عرفته منذ قرن. فقد منحتَ قلبي كلّ الضمانات التي كان ينتظرها، وهذا وحده كان كافيًا لكي أسقط بين يديك كقطرة المطر الأولى المليئة بالصفاء والعفويَّة.

هل تدري أنَّ غيابك متعب، مثل الفجوة العميقة التي لا يمكن ترميمها؟ صوتك انطفأ وأبوابك مغلقة؟ لقد جربّت فتحها ولكنِّي لم أفلح، فزاد إحساسي بالاختناق والوحشة. وأخشى من الزلل القاتل، لأنَّه كلَّما زاد شعورنا بالضيق توافرت، بقوّة، إمكانات الخطأ والانزلاق المميت.

هل تدري؟ قد تكون هذه آخر رسائلي من القدس. فقد رتَّبت كلّ شيء لمغادرة المكان والذهاب إلى مدينة أوروبيَّة أكثر أمنًا، لا أستطيع ذكرها الآن بسبب عيون قتلة المخبرين والهاچاناه التي تتعقَّب كلّ شيء، مدينة أنا متأكِّدة من أنَّك ستحبّها، ليست بعيدة عن مسقط رأسي. إذا أردت أن تترك نيويورك وتأتي، فأنا أنتظرك هناك، وسأخبرك عندما أصل إلى تلك المدينة.

إلى هذه اللحظة، وبعد سنوات من انتهاء الحرب، ما زلت سجينة في القدس ولا أستطيع الخروج، لكنِّي متأكِّدة من أنِّي سأخرج قريبًا، لقد رتَّبت كلّ شيء. أشعر أحيانًا كأنِّي بمجرد خروجي من القدس، وعبوري الحدود، سأختنق قبل أن أنتهي من الكيلومتر الأوّل المفضي إلى العدم. ومع ذلك، لم تعد القدس تعرفني ولم أعد أعرفها. شيء فينا ارتبك بعمق. عيون المخابرات لا تضيع أيّ وقت في مطاردة من أسمتهم قتلة الدم اليهودي. لقد قتلوا الكثيرين ظلمًا. حتى الآن، لم يعرفوا مكاني وإلاّ لما تردَّدوا في قتلي وقتل من يؤويني. يقولون عنِّي إنِّي كنت من وراء ترك العشرات من اليهود يموتون عند باب المستشفى الذي كنت أعمل به. لم أفعل ذلك إلا مرّة واحدة، مات

على إثرها صبي كان في حجر أمّه ولم أكن أملك الدواء المناسب له، فقلت للمرأة اليهوديَّة المهاجرة، ذات الأصل البولوني: لا يوجد دواء لابنك، كرّرتها عليك أكثر من عشر مرات! عندما شتمتني وهي تستعدّ للقيام، قلتُ لها: اذهبي إذن عند بن غوريون، وخلّيه يحصل على دواء لابنك. لم تكن البلاد قبل الهجرة بكلّ هذه الأحقاد العمياء، هم من تسبّب في هذا الخراب. كنت أكره اليهود الروس والرومان والبولونيّين، ليس لأنِّي نازيَّة كما أشاعوا ذلك عنّي، ولكن لأنِّي كنت أرى فيهم أبأس المخلوقات وأكثرها عطالة من الناحية الإنسانيَّة. غطرستهم لا حدود لها. ربّما كنت مخطئة، ولكنِّي ما زلت أعتقد أنَّهم هُمْ من دمّر النظام القائم بين المسلمين والمسيحيّين واليهود، وزرعوا كمًّا من الأحقاد التي لن تَّمحيَ بسهولة. أعرف أنَّ التاريخ جبان ولا يتحرّك كعادته إلاّ بعد فوات الأوان، ولكنِّي متأكِّدة من أنَّه سيأتي يوم وتظهر فيه هذه الحقيقة للعيان. ربّما كنت مخطئة، ولكنّ أفكار هتلر المعدية أعطتني كلّ المبرّرات لفعل ذلك. ليس حبًّا في هتلر ولكن رفعًا للظلم الذي ألحق بنا. أعرف أنَّ ملفّي أسود ولن تشفع يهوديَّتي من أبي أمامهم، فهي غير محسوبة ما دام الدين مقرونًا لديهم بالأمّ. أنا لا أدري كيف أكافئ العائلة المسيحيَّة التي أعيش تحت سقفها والمستعدة للموت مقابل أن أظلّ حيَّة، مع أنِّي لم أفعل شيئًا سوى أنِّي أنقذت ربّ العائلة من موت كان مؤكّدًا، قتلته بعد يومين رصاصة طائشة في سوق القطّانين. تعبتُ وأكاد أسلّم أمري للقتلة لو يضمنون لي يومًا واحدًا من الحريَّة في القدس؟ تكاتف

ضدّي غيابك والعزلة المفروضة عليَّ. أنتظر الآن الفرصة للخروج من هذا الضيق الخانق، بعد أن قضيت زمنًا طويلاً في انتظارك. كلّ يوم أستحضرك وأسمع خطواتك بلا جدوى.

أليس جنونًا؟ أنتظرك وأعرف سلفًا أنَّك لن تأتي.

(...)

حبيبي حسن،

أعود إلى رسالتي التي ظلَّت مدّة طويلة ناقصة، ولم أتمكَّن من بعثها. أنت في ذاكرتي دومًا خيطًا من نور مفتول بأشعّة الشمس التي لا تطلّ على غرفتي الصغيرة، إلاّ قليلاً.

يبدو أنَّ مهالك الدنيا سرقت منك ذاكرة الأشياء الصغيرة. هل نسيتَ يوم ميلادي؟ في مثل هذا اليوم الشتوي انزلقت من رحم أمّي شهرين قبل الوقت وكأنّي كنت مستعجلة للوصول إليك. لم أمكث في بطن أمي سوى سبعة أشهر، وسرقتُ الشهرين من زمن لم يكن لي، ومن فضاء لم يكن من الممكن المكوث فيه طويلاً.

قلت لك عندما تريد أن ترحل نحو مدينتي تعال ولا تسأل. النمسا ليست آخر الدنيا، وفيينا ليست بعيدة عن برلين. ستجد امرأة تنتظرك بشغف عندما تستقيم الأمور ويصبح البشر بشراً. والناس ناسًا والدنيا دنيا. لولا العائلة المسيحيَّة الطيّبة التي أتراسل معها باسم مستعار، لما تحصّلت على عنوانك ولكنّي كنت مصرّة على الحصول عليه مهما كلَّفني الأمر. عندما جاءتني الرسالة التي بها عنوانك

شعرت بجنّة انفتحت ولكنّها سرعان ما انغلقت لأنّي لم أتلقّ منك أيّ جواب. ربّما لأنَّك أنت كذلك خائف على حياتك. أو ربّما أنَّك غيَّرت عنوانك لكي لا يعثر عليك القتلة.

لا أدري لماذا كلّ هذا العمى الكلّي. الحروب عمياء ويرتكب فيها الناس أبشع الجرائم. لست أنا من قاد اليهود إلى المحرقة، ولا من اقتفى آثارهم ومخابئهم ليمحوهم. الذين اخترعوا المحرقة هم من يشغّلها اليوم ضدّ الآخرين في شكل اعتذار لما صدر منهم ضدّ اليهود. يتبادلون معهم المحبّة، بعد أن اعتذروا لهم عن جريمة الهولوكوست. وهل يكفي الاعتذار عندما تكون ملايين الأرواح تتساءل فقط لماذا قُتلت؟ لا مسؤوليَّة لديّ فيما حدث ولكن لو يقدَّر لي أن أعود ثانية للمقاومة، سأحمل نفس السلاح وأقاوم الصهيونيَّة، فهي أخطر من النازيَّة. في الجوهر، لا تختلفان أبداً، العرقيَّة الكريهة والأساطير الدينيَّة العمياء واليقين المجنون بخطأ البشريَّة جمعاء في حقّ الأقليَّة.

(...) لم تعد القدس إلا ذكرى جميلة على الرغم من تعاستها. كلَّما اشتهيتك في فيينا، استحضرتك بالاستماع إلى موسيقى فاغنر، وأدفن خوفي وعزلتي في ملاحمه المذهلة، فأجدُني عالقة بيدك اليمنى، أدخل برلين وأهيم في شوارعها وباراتها قبل أن أندفن بلذّة، في مسارح بايروث التي يهدأ فيها كلّ شيء إلا الروح العالية التي تنسحب من الأجساد وتبدأ في الطوفان بخفّة على جميع الرؤوس. وقد أنسحب نحو مدينة فيمر[1] التي استقبلت حجارتها

---

١ - Weimar

السخيَّة كبار الفنّانين والأدباء والموسيقيّين والمسرحيّين. أشتهي في غفوتي أن أدفن كلّ شيء إلاّ ملامح وجهك، فهي تمنحني الرغبة العالية في الحياة والاستمرار. عندما كان كل شيء مغلقًا عليَّ، كنت أستنجد في عزلتي، في البيت المسيحيّ الطيّب، بالكتب التي لم تبرحني أبداً. كنت دائمًا أقول أكبر واق من الجنون والموت المجاني هو الكتاب. تخيَّلت حتى مشهد موتي وهم يدفعون الباب بقوّة عليّ. أن أقي صدري بالكتب الألمانيَّة التي فتحت عينيّ عليها. قرأت جنون نيتشه وهيدجر وقصائد شيلر المذهلة التي جعلتني ازداد هشاشة. وليس غريبًا أنَّ بيتهوفن الذي غنّى له نشيد الفرح في سيمفونيّته التاسعة وفردي غويسبي، كانا يحبّانه بجنون. وقرأت صديقه غوتيه الذي كتب معه كزينيس(١)، التي تضعني قاب قوسين أو أدنى من الجنون الجميل. يبدو أنَّ فيَّ شيئًا قويًّا قد تضامن مع الموسيقى والشعر ويرفض أن يموت أو يستسلم للخوف الذي يحيط بي من كلّ جانب.

لا أدري إذا ما كنت سأتمكَّن من الانتهاء من هذه الرسالة، فقد تركت ورائي مدينة حزينة تفرش يوميًّا جنائزها في الساحات العامّة، في الكنائس والمساجد العتيقة. ينزل الليل بسرعة على جراحات القدس وأنينها. لقد صارت المدينة تغلق أبوابها مبكرًا بينما الأمطار التي تنقر نافذتي المعزولة، لا تتوقَّف عن النزول. أتعلّم أيّ حزن يحدثه المطر فيَّ؟ مثلما تحدثه شفتاك وهما تمضغان بدفء حلمتي النهدين المورّدتين المليئتين بالرغبة والحياة. أراك يتيمًا داخل كلّ هذه

١ ـ Xenies (1797)

الوحشة، ياه... لو فقط كنت تدري أنَّ حبّك يكلِّفني عمري، لأنَّه مثل كلّ الأشياء الجميلة، كثير الدفق، وقصير العمر.

أضع رأسي على الوسادة وأحاول عبثًا أن أنام وأضغط كثيراً لكي لا أحسّ بكلّ هذه الشجون الطاغية. لا شيء يسعفني الآن، حتى وجهك صار يهرب منّي وينزلق كالماء. أحاول أن أضع ملامحه بين كفّيّ ولكنَّه بسرعة يتسرَّب من فجوة ما ويلتبس مع النور المتسرِّب من النوافذ الممطرة. أراك تحكي لي عن أشياء لم أكن قادرة على فهمها ولكنّي عندما فهمتها صار من الصعب عليّ اللقاء بك فقط لأقول لك كم كنتَ على حقّ، حبيبي. لقد دافعتَ عن أرضك مثلما دافعتُ عن حقّي في أن أكون بشراً وليس مجرّد قمامة يعبث بها الحلفاء كما يشاؤون. كم أشتهي الآن أن أستعيد تلك الليلة التي جمعتنا. أيعقل أن تلتبس اللحظة المعاشة بالحلم؟ كنت أفكّر فيك وبأضواء مدينتك التي سُرقت منك وبمدينتي التي أُحرقت على رؤوس ذويها. ماذا فعل المنتصرون ببرلين سوى حرقها وإبادة سكّانها؟ كان الأميركان يقولون عن اليابانيّين إنَّه لا يوجد نساء ولا أطفال ما دام الكلّ يتدرَّبون على حمل السلاح للدفاع عن مدنهم، ولا يوجد نازيون وغير نازيين ما دام الكلّ سار في ركب هتلر، وعندما اندفع الروس والإنجليز على برلين لم يكونوا أكرم ولا أفضل من غيرهم. أيّ كذبة تلك التي ينشئونها لتخبّئ التقتيل المنظّم؟ الذين دفعوا بك إلى هجر مدينتك لم يكونوا أكثر من قتلة. والذين احتلّوا برلين، تحوّلوا بفعل القوّة إلى نازيّين جدد، فسرقوا أموال الألمان ومدّخراتهم البنكيَّة بعد أن أهانوهم،

وفتحوا المحتشدات، وقتلوا الناس بالعشرات ظلمًا. في محتشد پوزن[١] ببولونيا، طلبوا من السجناء حفر قبورهم ثم دفنوهم أحياء. في أمكنة أخرى، في محتشد دارمشتادت[٢]، الضخم الذي لا يختلف في أيّ شيء عن المحتشدات النازيَّة، شنقوا المئات لأنَّهم رفضوا أن يلصقوا بأنفسهم تهمة لم يرتكبوها. أنا متأكِّدة من أنَّ الألمان سيتكلَّمون، عندما تهدأ مآسي الحرب والخوف وستكون لي فرصة أكيدة لأقول ما رأيته في القدس.

حبيبي... حسن،

أيّة امرأة ستصادفك في تلك الأرض اليابسة، في غيابي، وتعيد لك ألق كلّ ما افتقدته، قل لها أحبّك إذا أحسست بذلك، وقل لها أيضًا إنَّك تركتَ وراءك امرأة لا حياة لها إلا النور الذي يدخل من النافذة محمَّلاً بعطرك وأشواقك! قل لها ثمّة امرأة مصابة بجنون رجل لم تعش معه إلاّ ليلة واحدة تساوي اليوم عمرًا بكامله. وهل سيكون عليَّ أن أشكرها لأنَّها أعادت لك الحياة، أم أكرهها لأنَّها سرقت جزءاً من ذاكرتك الحيَّة؟ هل أخفيك غيرتي؟ أشعر بمرارة قاتلة كلّما أحسست بظلّ امرأة يعبر جسدك الذي لم يكتب له أن يرتاح قليلاً من الهموم والأشواق المسروقة. لقد اخترتَ حبيبي أصعب المسالك وأقساها. أراك تحكي عن شيء لا أفهمه، لكنّ صداه العميق يصلني قويًّا لأنَّه يدخل في المسامّات بلا استئذان. أفكِّر فيك كثيرًا وبالمدينة

---

١ - **Posen** camp
٢ - **Darmstadt** camp

التي تحتضنك الآن، وبموسيقى الجاز التي تسرقك منِّي متسلِّلة عبر الأدخنة الكثيفة للمقاهي الشعبيَّة. من هي تلك المرأة القويَّة التي أعادت إلى أصابعك الحياة وسمحت لك أن تعزف لحنًا هاربًا على كلّ تفاصيل جسدها المضيء؟ لو تعلم كم هو قاس أن تفتح عينيك على عالم لا يرحم طفولتك! أنا عاشقة لك مجنونة بك مع وقف التنفيذ، ليس لأنِّي لا أملك الجرأة، بل لأنَّ حولي في الخارج عالم يتذابح بلا رحمة. قاسية هي الدنيا حبيبي، قاسية جدًّا. ألا تظنّ أنَّه ليس من العدل أبداً أن أكون بكلّ هذا البؤس وهذه القسوة الخانقة؟ ولأنَّني لا أريد أن أحقد على حماقات اللّه، أشتهي أن تعرف كلّ شيء عنِّي وسط هذا العالم الذي يتماوج ظلمًا. أريد فقط أن أحبّك. وأن أقبل بحماقة المستشفى الجميلة التي حملت فيها منك بطفلة مذهلة أسميتها يارا لأنِّي أعرف أنَّك كنتَ تحبّ هذا الاسم؟ لقد كبرتْ وصارتْ تسأل عنك كثيراً. لقد أخرجتها من دائرة الخطر، وهي تعيش اليوم في مدينة مسالمة عند أهلي. تنمو كزيتونة قدسيَّة. لا تخف عليها، فهي جميلة وصلبة. ستراها عندما تستقيم الأمور ويكفّ القتلة عن مطاردتك وعن الركض المستميت ورائي. كلّما رأيتُ عينيْ يارا المليئتين بالنور، شعرت بأنَّ لحظة جنوننا كانت أصدق شيء في علاقتنا، وأنَّ اللّه الذي أخلى المدينة، لم يتخلّ عنّا.

أيُّها الشقي الذي نسي أنَّ جزءاً منه ينبض دائمًا بالحياة في غيابه، أشعر أحيانًا بأنِّي عبرت مغمضة العينين بمحاذاة كلّ ما هو مهمّ؟ ولكنّ أجمل لحظة مهمّة تستحقّ أن تُذكر، عندما أبدأ في

تعداد فتوحاتي في الدنيا، هي وجهك الذي لا يموت أبداً في ذاكرتي، ودهشة يارا وهي تكتشف صورتك المعلّقة في صدر الحائط العاري إلا منك. أنا أدفع حياتي كلّها مقابل أن أراك سعيداً. أن أمنحك كلّ ما يعطي معنى لحياتك. وأشتهي أن أكون أمامك شهيَّة كقطرة مطر. وأغمض عيني بحيث لا أسمع إلا صوت البحر الميت وهو يداعب قدميك بموجاته الثقيلة.

لا يزال المطر ينزل في الخارج، بارداً وقاسياً وشجيًّا، ولكنِّي أشعر بدفء خاص كلّما اجتاحني وجهك الجميل الذي لم يتخلَّص بعد من كلّ دهشة الطفولة والطيبة العفويَّة. كم أنت دافئ عندما تصوِّب نظرك نحو المبهم الذي لا يأكلك ولا يبعدك عنِّي إلا ليدخلك فيَّ بهبل المشتاق.

ها أنا ذي الآن أشعر بكلّ أغاني المدينة المسروقة تأتيني دفعة واحدة. في برلين مثل يقول: إذا أحببتَ، لا تضيِّع وقتك في تعداد الخسارات الهامشيَّة، لأنَّك ستضيع الأهم: متعة أن تحيا. وأنا أحببتك ولهذا لست ناوية على أن أخسر كلّ شيء. لقد أجّلت لقائي بك كثيراً وسألت عنك كثيراً. وصرت أعرفك لدرجة أنِّي لو كنت أريد إيذاءك ما تردَّدت لحظة واحدة.

حبيبي، كلام كثير يدور حولي، أنت تعرفه جيِّداً، أقرأه في عينيك كلّما واجهتك، ولكنَّك تخجل من أن تفتحه أمامي. هل لي أن أقول لك اليوم إنِّي لست نازيَّة ولا أحبّ هتلر إلاّ من حيث إنَّه أراد لألمانيا أن تكون شيئاً آخر أمام حلفاء فرساي القساة والظالمين الذين

ظنُّوا أنفسهم سادة الدنيا. فقد أعاد هتلر للألماني، ولو بالوهم، حقّه في أن يحلم بالقوة وينتقم من الذين وضعوه تحت أرجلهم. أنت تعرف جيِّداً ما معنى أن يُذَلَّ إنسان في تربته. غطرسة الألماني منبتها الذلّ الذي فُرض علينا من الآخرين، قبل أن يتحوَّل هو بدوره إلى طاغية صغير. هتلر ليس قائدي ولكنَّه مبرّر ثورتي على الكذبة الجدد. لم يكن المفتي، الشيخ الحسيني نازيًا إلا بالقدر الذي يقرّبه من رجل يعرف جيِّداً ما معنى أن يُذَلّ إنسان ويُسحَل على الأرض ككيس زبالة. العالم سار في مسلك غلط، وما يزال مستمرًّا فيه حتى التهلكة. القوّة مقتل الواثق من نفسه كثيراً.

اعذرني على ثرثرة ليس هذا وقتها، وعلى كلام قد لا يبدو لك مهمًّا، ولكنِّي أريدك فقط أن تعرفني جيِّداً وأن تدرك أنَّ حبّي لك كان صادقًا ولم أكن معنيَّة بأن أربح بحبّك وهشاشتك نحوي، نازيًّا جديداً يضاف إلى جيوش هتلر التي لم يكن ينقصها البشر في تجسيد جنونها.

أحبّك ولا أطلب منك شيئًا يخلّ بنظامك الحياتي. أعرف أنَّ حربك عادلة، وأعرف أنَّك لن تستطيع إنقاذ نفسك بسهولة وأصبحتَ مثلي، كلّ رهانك هو أن تعذِّب قاتلك إلى أقصى درجة ممكنة قبل أن يدركك. أملي أن تتوصّل إلى الخروج من هذه المحنة بالشكل الذي تراه مناسبًا. أمام الموت نبتدع كلّ حيل البقاء الممكنة. أتمنّى لك فقط أن تظل حيًّا. ربّما التقينا في مكان ما في هذه الدنيا التي ضاقت على ذويها؟ أنتظرك غداً، بعد شهر أو بعد مائة سنة، لا يهمّ، في أيّ أرض،

وباتجـاه أيّ بقـعـة أخـرى أرحـم، لأنَّ عـصـابات المخـابرات العـسكـريَّة استولت على كلّ شيء، حتى على الهواء والماء وقطرة الحياة.

عندما كنت في القـدس، لـم أذهب أبداً عند جينا، التي لـم أكـن أعـرف أنَّهـا مـاتت بسكـتة قلبـيَّـة، حتـى لا أحـرجـهـا وأجـرح ذاكـرة زوجتك. عصابات الهـاچاناه كـانت تطوّق كل الأمكـنة ولا تمنحنا أيّ فرصة للتنفُّس. هل عليَّ حبيبي أن أذكّرك أنَّه عليك أن تتفادى أن تقول عدوّ عدوّي صديقي. عدو عدوك قد يكون عدوّك. هتلر الذي يكره اليـهـود، ليس أكـثـر حـبًّـا للعـرب ولو أنَّ الـدعـايـة النازيَّة مـلأت الأدمغة الشعبيَّة بالكذب الجميل. أقف معك في جنونك المستحيل، لا لأنِّي نازيَّة ولكـن لأنِّي أحبّك فقط، وأشعر بالظلم الـذي سُلِّطَ على أرض لم تكن مهيَّأة لذلك. لا أعرف إلى أيّ حدّ سأظلّ مختبئة عن الأنظار حتى وأنا في فيينا، ولكنِّي أنتظرك كلّ يوم، ربّما استطعتَ أن تسلك معبراً سرّيًّا نحوي. لا أدري إذا كان العرب الآن قادرين على إنقاذ أنفسهم والخراب يزداد عمقًا بينهم. لقد انكسر هتلر ولم تبق منه إلا آلة معطّلة، وحلفاء لا هاجس لهم إلا تمزيق أوصال أرض عربيَّة جلبت الكثير من النور والعقل قبل زمن قصير. لقد دمَّروا برلين على رؤوس ذويها وقطّعوها بالمسطرة التي لا تختلف عن سكّينة حادّة. ولم يكونوا ملائكة. اسأل الألمان الذين يرفضون لعبة عقدة الذنب والكذب، وستسمع منهم الشيء الذي لم تسمعه من قبل في حياتك؟ لكلّ شعب محرقته الخاصّة. ولي ولك وللآخرين في هذه الدنيا محارق ستخرج يومًا إلى النور، وسيدرك الساسة والمنظّرون وسدنة الحكم والثقافات الصافية، كم كانوا مخطئين.

ما زلتُ أنتظرك بعد أنَّ غيرتُ اسمي إلى هيلين شميت وزوّروا لي أوراقًا رسميَّة لكي أستطيع الخروج بها عبر بيروت. ربّما استطعتُ فقط أن أنام على صدرك قليلاً عندما يصير قلبك خاليًا من امرأة أخرى ولو للحظة واحدة.

أخيرًا، لا تنس أنَّ هناك في الظلمة ثمّة امرأة تحبّك، تنسج كالفراشة، من خيط الظلام الأسود والطويل جدًّا، ونار الشعلة المتّقدة، حدادًا هادئًا وأملاً صغيرًا للّقاء بك ذات يوم. أخاف فقط من الصدفة القاتلة التي تخلط كلّ الأوراق الأكثر ترتيبًا.

أنتظرك حتى ولو كان ذلك على أكثر الحوافّ خطورة وجنونًا.

ساعدني حبيبي فقط لكي لا تأكلني الصدفة القاتلة.

حبيبتك إيفا التي تنام على انتظارك

٣ ـ قصاصة صغيرة ملصقة بالرسالة

(...) كان عليَّ اتّخاذ كلّ الاحتياطات الممكنة. لا تلمني على صمتي، فالذئب يتعقّب خطوات فريسته، خطوة خطوة.

أعود للرسالة التي كنت أنوي أن أبعثها لك قبل مدّة طويلة من القدس، قبل خروجي، ولكنّي عدلت لأنّي خفت من الموساد التي تتعقّبني إلى اليوم. أنا الآن في فيينا كما قلت لك من قبل، مدينة مريحة وبلا خوف ويمكنك أن تأتي متى شئت، وتبقى هنا. قد يكون العمر قد أذبل الجسد، لكنَّك ستجد قلبًا حيًّا بعمر اللحظة التي

تركتها فيه. عشرون سنة لا أكثر. قلب ينبض بشدّة كلّما سمع اسمك أو شمّ رائحة تشبهك. للذين نحبّهم سرّ روائحهم وجبروت عطرهم. لا تقلق، سأجد الوسيلة لتسليمك عنواني الجديد بالطرق الأقلّ خطراً على حياتي وعلى حياتك. أنت كذلك فلسطينيّ ومتّهم بعشق امرأة نازيَّة. الموساد تتّبع كلّ من كانت لهم علاقة بالنازيَّة، وأنا لديَّ ما يؤهّلني للموت ثلاث مرات: النازيَّة وحبّ فلسطين وطفل يهودي مات بسبب إهمالي، أو على الأقلّ هكذا يعتقدون، فلا أمل لي أبداً في النجاة حتى ولو اعتذرت عن جريمة ارتُكبت في حقِّي ولم أرتكبها في حقّ أحد. وسيظلّون ورائي، فقد قتلوا قبلي من هم أقلّ من ذلك كلّه. لا تهتمّ. لا قوّة تضاهي ما بداخلي الآن.

يارا بخير وتحيّيك. رأيتها في الأسبوع الماضي في مدينتها المسالمة، عند أهلي. عندما تأتي إلى فيينا، إذا استطعْتَ وإذا وصلتْكَ رسائلي، سنزورها مع بعض. جنيف ليست بعيدة.

أنتظرك، فالصباحات الجميلة لم تعد مظلمة كما كانت.

أهمس في أذنيك. أنا الآن **هيلين شميت**، هذا اسمي الجديد. احفظه جيِّداً ودعه يسكن قلبك لكي تتذكَّرني كلّما احتفت بك الأحزان والوحدة. انس نهائيًّا اسم **إيفا كراوس موهلر** الذي أثّث ذاكرتك زمناً طويلاً. إيفا ماتت منذ أن غادرت مدينة اللّه.

* * *

ـ ٣ ـ

«ـ يارا؟ هل يعقل؟ مي نجت بأعجوبة من شبح آخر مرّ بالقرب من عينيها، ولكنَّها رفضت أن ترفع رأسها نحوه أو تلتفت صوبه، في الثانية نفسها التي تفرّسها فيها وحاول أن يناديها ولكنَّها كانت قد انطفأت في الزاوية الخلفيَّة للحياة».

شعر يوبا برعشة كبيرة تصعد نحو القلب، وبحرائق ضخمة كانت تفخِّخ كلّ زاوية من زوايا جسده. لم يستطع كتم حيرته. تساءل في صمته وعزلته. أيّ جنون خلاّق هذا الذي مسّ إيفا كراوس وهي تكتب رسالتها وتقدّم صورتها لجدّه، لتذكِّره أنَّها ما زالت على نبضها الأوّل؟ ثم، من أين جاءت يارا وأين كانت مختبئة؟ هل يعني ذلك أنَّ شبحًا آخر ارتسم في الأفق وعليه أن يفهم سرّه؟ مي ذهبت وهي تولي رأسها صوب الفراغ والحيطان الصمّاء لكي لا تسمع أنينًا ينضاف إلى جرحها المفتوح. وبابا حسن داخل هذا كلّه؟ آه ماذا فعلتَ

يا جدّي؟ تنهَّد يوبا. لقد انطفأتَ بعد أن زرعتَ وراءك حقولاً من الخوف، ومن القنابل الموقوتة التي لا أحد يعرف متى تنفجر؟ وأيّ جيل سيحملها على عاتقه؟

«هيلين شميدت...؟».

لم يكن الاسم يحمل أيّ غرابة. بدا له كأنَّه يعرفه منذ زمن بعيد. تذكَّر يوبا فجأة ملاحظة مي وهي تورق جرائد الصباح: **الموساد تغتال امرأة نازيَّة**. لم يثرها الخبر كثيراً ولكنَّها علّقت بنوع من الدهشة:

«ـ أرأيت يا يوبا؟ يبدو كأنَّ الحرب العالميَّة الثانية لم تنته بعد. نصف قرن وما يزال الناس يقتلون باسمها. ما يزال حتى اليوم يدفع الناس ثمن أخطائهم وحماقاتهم. أرأيت كيف تقود الذاكرة نحو الجريمة كذلك؟ أكثر من نصف قرن وما يزال الانتقام هو السيّد. من عرف مكانها؟ من اقتفى خطاها؟ ماذا فعلت لتُقتل وهي في نهاية عمرها؟ ما هو الدرس العظيم الذي أوصله لنا القتلة بإعدامها؟ يا اللّه خلِّ البئر بغطاه، لأنِّي لو بدأت أعدّ الأخطاء، سأمرِّض نفسي وأمرِّضك معي».

لم تكن مي مخطئة في ملاحظتها التي مرّت بسرعة وقتها ولم تتوقَّف عندها بالشكل الكافي. تمتم يوبا. بدت الدهشة كبيرة على وجهه وهو يربط العلاقة بين الاسمين؟ ثم حاول إقناع نفسه أنَّها مجرد صدفة إذ لا يمكن أن تكون الشخص نفسه الذي تحدَّثت عنه جرائد نيويورك في ذلك الصباح البارد. ندم في أعماقه أنَّه لم يحتفظ بعدد الجريدة التي كانت تقرأها مي.

لم يستطع أن يخفي ذعره. هل هي صديقة جدّه؟ هل يمكن للأقدار الصعبة أن تركض وراء مي حتى وهي في قبرها؟ حاول أن يتذكّر. قام نحو الإنترنت. فتحه على محرّك غوغل بعد أن كتب اسم: هيلين شميدت. ثم توغّل عميقًا في البحث. فجأة ظهر أرشيف جريدة نيويورك تيمز[1] الذي لم تكن فيه الصورة واضحة ولكن الخبر هو نفسه، كما سبق أن قرأه، والاسم ذاته. لم يثره عنوان إحدى الجرائد النمساويَّة الذي ملأ فجأة شاشة الكمبيوتر: «**الحكومة النمساويَّة تطلب استفسارات وتوضيحات من الحكومة الإسرائيليَّة**». ثم وجد تفاصيل كثيرة في جرائد أخرى من بينها جريدة يديعوت أحرنوت[2]، الإسرائيليَّة التي علّقت على الحدث بتفاصيل أكثر، مع إظهار الكثير من صور هيلين شميدت في مختلف حقب عمرها، في المستشفى الألماني بالقدس، الذي أصبح بعد ١٩٤٨ جزءاً من مستشفى بيقور حوليم، ويقع في الصفّ الجنوبي من شارع الأنبياء، مقابل الإرساليَّة الأميركيَّة. كانت في عزّ شبابها، ثم وهي في لباس عسكري ألماني، بقبعة نسائيَّة وشارة صدريَّة نازيَّة، تحيّي ضابطًا ألمانيًّا تحيَّة هتلريَّة. الجريدة أكّدت على اسمها الحقيقي: **إيفا كراوس موهلر**؟ بدت صورتها هذه المرّة أكثر وضوحًا. قارنها يوبا بالصورة التي كانت بين يديه. اتَّضحت الملامح أكثر. نفس الابتسامة الشهوانيَّة الجميلة،

---

١ ـ New York Times

٢ ـ وتعني بالعبرية آخر الأخبار.

نفس العينين اللتين لم تتغيَّرا إلا قليلاً، ونفس الوجه المدوّر، حتى نفس العلامة بين الحاجبين. الخانة التي تطبع وسط الخدّ الأيسر والتي كانت تقرِّبها أكثر من مغنّية شرقيَّة، هي نفسها. ظلّت الخانة علامة مميَّزة لها حتى في شيخوختها.

بقي يوبا لحظات طويلة فاغرًا فمه، لا يصدِّق ما كان يحدث أمام عينيه؟ وغمرته سيول التساؤلات التي لم يستطع مقاومتها: أيّ عالم كان سيفقد توازنه، لو عرفت مي وهي تقلّب جريدة نيويورك تيمز في ذلك الصباح، أنَّ المرأة المقتولة التي تعاطفت معها، كانت هي نفسها إيفا موهلر التي رفضت أن تقرأ رسالتها؟ ثم ماذا لو عرفت أنَّها لم تكن نازيَّة، أو على الأقلّ لم تكن إيفا موهلر بالشكل الذي صُوِّرت به بين أهل مي ومحيطها المباشر؟ وأنَّ حقدها عليها لم يكن دائمًا مبرّرًا؟ ثم... يارا... هذه القنبلة الفتّاكة والجميلة؟ أين كانت متخفية داخل هذا الضجيج المستشري؟ أيّ قدر مجنون لم يظهرها إلا الآن؟

«ـ ثم من أين جاءت يارا ذات الاسم الجميل؟ هل تعرف مي أنَّ لها أختًا هائمة في مدينة ما من العالم، لم تشبع هي كذلك من وجه والدها؟ ربّما كانت اليوم في جنيف؟ لقد انزلق اسم جنيف من شفتي إيفا بدون دراية منها. خالتي يارا؟ أما زالت حيَّة؟ هل تعلم أنَّ لها ابن أخت بدأت أشباح القدس تطوّقه هو كذلك، من كلّ الجهات؟ أيّ سرّ كانت تنام عليه يمّا مي وأي خوف كان يشتعل في السرّ؟ شعور غريب من الشفقة ينتابني على جدّي الذي قضى عمرًا طويلاً ممزّقًا بين

تفاصيل حياة ضاغطة وقاسية، لم يكن قادراً على تحمُّلها لوحده، وأحلام هشّة ومنزلقة بشكل دائم، ظلّت تملأ مخيّلته المتعبة».

عندما التفت صوب النافذة وأزال الحجاب الداكن، لمعت شوارع نيويورك بشمس مسائيَّة كانت تشبه الجمرة. رأى الأطفال في أسفل البناية وهم يتراشقون بالثلوج تحت الأضواء الكاشفة. بدت له يارا قريبة منه، كانت تملأ كفّيها بكرات الثلج ثم ترميها على المارّة الذين يضحكون معها قليلاً، ثم يمرّون إلى شأنهم اليومي، غير عابئين بنطّها وركضها في كلّ الاتجاهات، وقهقهاتها التي لا تتوقّف.

أغمض عينيه لكي لا يضيع منه الألق الذي ملأه فجأة.

ترك أصابعه تنزلق على ملامس البيانو في محاولة يائسة للعثور على اللحظة الغائبة في السوناتا. فجأة بدأت الإيقاعات تندفع بكثافة لم يكن قادراً على السيطرة عليها. شعر بشيء غريب ينمو بقوّة في داخله ويدفع به عميقًا نحو موسيقاه التي ظلّ يبحث عنها في أدقّ تفاصيلها الضائعة. كان شيء مثل الطوفان يقوده نحو المهاوي الكبرى. بان له وجه مي هذه المرّة منكسراً إلى آلاف القطع الهشّة والمضيئة كنيازك تشظّت إلى ملايين الألوان والأشكال. لم يفهم الشيء الكثير على الرغم من أنَّ صورة ما كان يحيط به زادت استقامة ووضوحًا. لم تكن إيفا موهلر نازيَّة، كانت أبسط من ذلك كلّه. امرأة هشّة وعاشقة مجنونة، فتحت حولها كلّ أقواس الموت الممكنة. فهي التي كانت تداوي المرضى في المستشفى الألماني، باتّفاق مع اللجنة العربيَّة العليا التي ظلّت تتعاطف معها حتى بعد انكسار ٤٨، وهي

التي ظلّت متعلّقة ببابا حسن الذي كان محكومًا عليه بالإعدام بعد أن عُرِف أنّه كان من بين الذين نفّذوا عمليّة تفجير جريدة بلستاين بوست في أوّل فبراير ١٩٤٨.

تذكّر كلمات مي وهي لا تستطيع أن تكتم غضبها أمام الخبر:

«ـ أيّ عقل هذا الذي يقتفي خطوات امرأة تجاوزت الثمانين من عمرها لينقضّ عليها. أكثر من نصف قرن لم تكن كافية لتبريد الأحقاد؟ يبدو أنّ البشريّة ستظلّ تتبادل المواقع ليصبح القاتل والمقتول مسألة وقت وأمكنة فقط، وليست مسألة خيارات إنسانيّة».

أمّي كانت محقّة في خوفها من السقوط في حبّ إيفا، تمتم يوبا. كان ذكاء حادّ يخرج من عينيها. لم يكن شيء يخدعها إلاّ قلبها تجاه بابا حسن. لم تكن إيفا نازيّة بالشكل الذي تصوّرته، قد تكون امرأة متهوّرة وعاشقة لرجل لم يكن لها، ولكنّه كان يحبّها وإلاّ لما عشقته بكل هذا القدر من الرقّة والحنان والتضحية. لا بدّ أن يكون شوقها هو من قادها نحو ارتكاب الخطأ القاتل. المؤكّد أنّهم اقتفوا خطاها من رسالتها.

بدا له كأنّه كان يركض وراء شيء مستحيل. ضغط أكثر على الملامس الجانبيّة من البيانو بهدوء وتحكّم. بدأ تدفّق صوت ناعم كأنّه كان يأتي من زاوية بعيدة ومغلقة. زاد انسياب السوناتا ورقّتها.

حاول أن ينسى كلّ شيء وأن لا يتذكّر إلا الصفاء الهارب مثل الضوء المنزلق داخل دهاليز الذاكرة، ولكنّه شعر كأنّه يتنصّل من شيء

كان هو روح موسيقاه وما تبقّى من نبض مي. أغمض عينيه من جديد متفاديًا النور الحادّ المتسرّب من لمبة الهالوجين، خوفًا من التلاشي داخل عالم لم يكن قادراً على تحمّل كلّ هزّاته.

كلّما حاول أن يصنع وجهًا جديداً لأمّه، ملأت يارا كلّ الفراغات التي نبتت من حوله فجأة. يارا... الشبح القدسيّ الذي لم يكن في الحسبان. اسمها وحده كان كفيلاً بإثارة حنينه إلى شيء غامض.

«ـ ماذا لو عرفت مي أنَّ لها أختًا حقيقيَّة اسمها يارا، من امرأة سرقت قلب والدها في عزّ الموت والحروب الطاحنة؟».

انزلقت كلّ الإجابات بعيداً، ولم يُسمع هذه المرّة إلا عنف البيانو بنوتاته المضخّمة والحادّة في شكل متناغم بين الرهبة والخوف، بين اللذّة والألم، بين الرعشة والاستكانة التي تنحدر نحو الأعماق، خفيفة كريشة أو كلون هارب. كان عزفه قويًّا يملأ كلّ فراغات البيت وظلمته التي كانت تخترقها أشعّة اللمبة المسلَّطة على البيانو بقوّة. لم يعد للزمن قيمة. كان كلّ شيء يمرّ بسرعة. حتى أوراق التوزيع الموسيقي المختلطة التي كانت رموزها متداخلة ويصعب فكّها، تتَّضح أكثر فأكثر كلّما توغَّل عميقًا في السوناتا التي لم تعد فكرة، ولكنَّه لأوّل مرّة يشعر أنَّها كانت تشتعل في أعماقه بقوّة ككائن مليء بالحياة. تنبض كلَّما مسّها واخترق حميمياتها، وتناديه نحوها كلَّما ابتعد قليلاً عنها. كلّ الهفوات التي صاحبتها والبياضات التي كانت تخترقها، استسلمت نهائيًّا لعزفه وتدفق حنينه الذي كان قد دخل في

عناد عنيف مع الأقدار التي خطّطت لكلّ شيء، حتى لأكثر الصدف جنونًا وحماقة.

فكّر، وهو غارق وراء بيانو مامي دنيا، أن يطلق على هذه الجزئيَّة اسم: يارا، لأنَّه شعر كأنَّه كان يعزف لها وأنَّها كانت تسمعه، وأنَّ شيئًا غريبًا كان يسحبه بقوّة نحو هذا المبهم الذي لم يكن يحمل إلاَّ اسمًا مجرَّدًا: يارا. كان يرى أمه في تفاصيل وجهها التي لم يعرفها أبدًا، ولكنَّها بدت له واضحة كشمس ربيعيَّة. كانت يارا الأقلّ حظًّا من كلّ الأشباح القدسيَّة، وربّما الأكثر راحة داخليَّة لأنَّها لا تعرف شيئًا من أسرارها المبهمة بالالتباسات الكثيرة والأسئلة الخفيَّة.

* * *

ـ ٤ ـ

النافذة مفتوحة عن آخرها. يتسرَّب هواء بارد.

كانت نيويورك تطلّ من وراء زجاج الصالون، غارقة في أضوائها الليليَّة التي كانت تخترقها آلاف الألوان المشعَّة ببريق حادّ كأنجم ارتسمت بقوّة في سماء صافية.

كان الصدى قويًّا عندما حرّك يوبا أصابع يده اليمنى على مجموعة متتالية من النوتات، وكأنَّه يختتم فصلاً موسيقيًّا بكامله، أو كأنَّه يضع خطًّا نهائيًّا على حياة استمرّت طويلاً بآلامها وشقائها.

«ـ كيف مرّ الليل؟ كيف انسحبت الأشياء الجميلة بدون أن تُحدث أيّ ضجيج؟ كيف يذهب الذين نحبّهم ونحن نوهم أنفسنا، كلّما أغمضنا أعيننا، أنهم ما يزالون هناك، حيث تركناهم آخر مرّة في الزاوية المظلّلة لأحلامنا؟ كيف يتواطأ الموت والخسارات المتتالية ضدّنا؟

كيف، عندما ندرك متأخرين أنّ الذين كانوا يصبّحون علينا ويمسّون على أشواقنا، خرجوا هذا المساء على رؤوس أصابعهم ولم يغلقوا الأبواب وراءهم حتى نظلّ نظنّ أنهم ما زالوا مقيمين بيننا؟ ما أعظم حظّ الذين انسحبوا، فلن يشهدوا الجزء المتبقّي من حرائقنا المؤجّلة».

مرّ الليل كلّه في رمشة مسروقة.

غرق يوبا في العزف المتتالي وهو لا يعرف إذا ما كانت مي بالفعل قد ماتت أم هي نائمة فقط كما تعوّدت أن تفعل، كلّما شعرت بتعب الرسم وانتقاء الألوان التي تبحث باستماتة عنها؟ لا شيء أبداً يوحي أنّها ماتت. كرّاستها النيليّة لم تقل شيئًا آخر سوى الحياة في وجهها الأكثر انزلاقًا وانفلاتًا. فقد ظلّت طفلة حي المغاربة، المليئة بالرغبات المجنونة لتلوين كلّ شيء يصادفها، بما في ذلك لباس والدتها.

مرّة أخرى بدا له وجه يارا أكثر وضوحًا، متماهيًا إلى أقصى الحدود بوجه أمّه وإيفا. لا يدري بالضبط ما الذي أدخل أوبّرا نورما في الإيقاع الكلّي الذي كان ينشأ بين أنامله. فقد تسرّب وجه نورما إلى عمق الإيقاعات بوضاءته وعنفوانه، وكأنّها كانت تفرض نفسها بقوّة على السوناتا التي بدأت تتّضح مساراتها النهائيّة.

كاستا ديفا(١)! نورما؟

من أين جاءت وكيف انزلقت إلى عمق هذه الإيقاعات الخلويّة الحزينة؟ تساءل يوبا وهو يغرق في أنين النوتات الأكثر هشاشة. أيّة

---

١ ـ Casta Diva

شهوة مخفيَّة تجاه هذه المرأة المتديّنة، التي وقعت بين حبّها لبوليون[١]، الروماني الذي تركها بعد أن أنجب منها صبيين، وسقط في غرام الشابة العذراء الجميلة، أداجيسا[٢]، وبين حبّها لأرضها التي بقيت عالقة بذاكرتها؟ توسّلت إليه أن يعود إلى رشده ولكنَّه رفض، فتعلن نورما عن خطئها للملأ ويعترف بوليون بعلاقته بالشابّة أداجيسا فيحكم عليهما بالإعدام حرقًا. أيّ صدفة جعلت نورما تشترك مع أمّه في نفس الفقدان والخسارة والهبل؟ هل ننقاد نحو الأسماء والناس والإيقاعات الغامضة للحياة، هكذا؟ أم أنَّ هناك قدراً ساحراً يظهر في الأرض التي يشاؤها، وفي الزمن الذي يحدِّده؟ هل الذهاب في هذه اللحظة نحو آلام نورما التي اختارت أن تكون نهايتها استثنائيَّة هو مجرّد صدفة هاربة، أم أنَّ سرًّا غامضاً كان يقبض على خيط المصائر ويحرِّكها في الوقت الذي يشاء، وبالشكل الذي يريده؟

في إحدى زوايا الصالة المظلَّلة قليلاً، علا فجأة نحيب نورما، في سوبرانو ماريا كالاس النقيّ والحادّ، قبل أن يتماهى شيئًا فشيئًا في غلالة الموت والعزلة والخوف، وينطفئ داخل حالة الصمت التي كست المكان طوال الليل، والتي لم تكسرها إلاّ إيقاعات البيانو المتناغمة والهادئة التي كانت تصعد من حين لآخر كاسرة رتابة الليل وبياض العزلة وأنين كاستا ديفا الخفي.

---

١ - Pollione

٢ - Adalgisa

تسرّب هواء بارد بين الفجوات الصغيرة. انفتحت النافذة بكلّ عرضها، فتبدت نيويورك بكلّ ألقها وأنوارها وجبروت حضورها. كانت كأنَّها تندفع بقوّة نحوه. رأى من وراء البيانو تمثال الحريَّة بيده العليا وهو ينغمس في كتلة غيمة بنفسجيَّة مذهلة، ويظهر فقط نصف جسده السفلي، المتوغّل في البحر. لا شيء يضاهي فجر نيويورك إلاّ سعادة الطفولة عندما تستيقظ فينا بشكل فجائي. انسحب النوم كليًّا ولم يشعر يوبا بأيّة حاجة إليه. غرق بشكل أعمق في ملامس البيانو حتى شعر كأنَّ أصابعه لم تعد له، كانت خفيفة مثل حفيف الفجر البارد. تناهت إلى أنفه رائحة الحبر البنفسجيّ التي كانت تشبه عطر البنفسج البرّي الذي ينام عند أقدام جبل الزيتون، كما كانت مي تؤكّد دائمًا حتى ركَّبت فيه شهوة الرغبة في اكتشاف لذّة هذه الألوان. لم يرسم في حياته، لم يلمس ريشة من ريشاتها التي تملأ البيت، ولكنَّه كلّما رأى مي غارقة في ألوانها، تأكَّد له أنَّه لا حياة لأمّه إلا داخل ألوانها حتى أصبحت جزءاً منها، وموسيقى الأنين التي تحوطها. تكاد مي أن تصبح كائنًا من رذاذ.

رآها تجلس أمامه كما لو أنَّها عادت للتوّ من سفر طويل، تمدّ رأسها إلى الوراء بحثًا عن قليل من الراحة، أو عن إغفاءة هاربة، تنام في حضنها أختها الصغرى يارا، التي كانت ألوان القدس تنعكس، بكلّ التدرُّجات، على شعرها الأصفر الناعم، وعلى عينيها اللتين زادتهما الزرقة براءة.

قالت وهي تلملم شعرها إلى الوراء في حركة آليَّة، كغجريَّة مجنونة، تستعدّ لمعركة الغيرة الحادّة:

«ـ لا. لن أقوم من هذا المكان أبداً. ألمْ تعدني؟ إذن، لن أتزحزح من هنا إلاّ إذا سمعت السوناتا التي شوَّقتني إليها. أخشى أن يسرقني الموت ولن أسمعها أبداً. الآن، عادت نيويورك إلى ألقها الأوّل وعنفوانها، وتستطيع حبيبي أن تسترجع دفأك الجميل. يا اللّه يا عمري... يا اللّه. الأموات أيضًا يحتاجون إلى لمسة الأحياء لكي يستمرُّوا في الحلم، ولا يستسلموا لقهر النهايات. حتى وهم تحت التراب، أو في جحيم المحارق، يسمعون نداءات المدينة وأشواق البشر الجميلين. يا اللّه يا روحي... يا اللّه...

ـ يمّا... أنا...

ـ لا... لا تُتْعِب نفسك، فلن يقنعني أيّ مبرّر حتى ولو كان صادقًا. ما زلتُ هاهنا، ولو على أكثر الحوافّ أذى، حافّة الموت، أنتظرك كما عوّدتني دائمًا، لكي أقهر وحدتي. كنتَ تقول دائمًا متهرّبًا بتواضعك الفيّاض: مجرّد حماقة يا يمّا... سلسلة من الإيقاعات التي تنقصها الهارمونيا والتناغم... الآن أصبح كلّ شيء في رأسك حيًّا ومتناسقًا وجميلاً، ولا تستطيع أن تتخبأ وراء تواضعك المزمن. أنت لا تعرف الكذب لأنّك شفّاف مثل كلّ الفنّانين العظماء.

ـ يمّا...

يتذكّر جيِّداً أنَّه رأى عينيها القلقتين وهما تتغيَّران وتفقدان لونهما الأول، وكأنَّ عاصفة بدأت تمسح ما اختبأ فيهما من نور. هكذا

يحـدث مع مي عندمـا تُقـهـر داخليًّـا وتصـمت عن الكـلام. ثـم رآها تلتفت نحو الحائط بحثًا عن بياض بارد تـتماهى داخله، أو تغرق فيه للمرّة الأخيرة.

ـ طيّب يا يمّا... طيّب... حاضر...

يملأ الفرح عـينيـهـا الـواسعـتين من جـديد، وتنزل على وجـهـهـا غلالة شفّافة من النور الذي عبر كلّ ملامحها مبرزاً تفاصيل خطوطها الجميلة، على الرغم من آلامها التي كانت تحرقها من الداخل.

ـ يا اللّه يا روحي... يا اللّه... مشتاقة إلى أن أسمعك.

ـ سأحاول يا يمّا... سأحاول».

انزلقت أنامله في شكل متتابع، على الملامس بانسيابيَّة كبيرة. قبل أن تستقرّ على النوتات الحادّة. بدا الأنين قويًّا وكأنَّه صدى لآلام حقيقيَّة كانت تنحت الأحاسيس الأكثر تصلُّبًا.

ـ هل أعجبك يا يمّا...

ـ ... ...

* * *

ـ ٥ ـ

كانت السوناتا تولد بألم حارق من أعماق الروح الممزّقة. لم يكن يوبا قادراً على تحمُّل هذا العناء إلاّ بصبر لم يعهده كثيراً في نفسه.

حاول، للمرّة الأخيرة، أن يبعد عن ذهنه كلّ ما يثقل عفويّته، ويعطّل اندفاعاته العميقة. أغمض عينيه بحيث لا يرى شيئًا آخر سوى شهوة المنتهى التي كانت تلازم مي كلّما غرقت في لذّة ألوانها. لا حدّ لجبروت ألقها وزهوها، كما عاشتهما أمّه حتى لحظاتها الأخيرة.

انزلقت هذه المرة أصابعه بدون توقُّف على ملامس البيانو. لم يكن في حاجة إلى التأكُّد من مواقعها في التوزيع الموضوع أمام عينيه. كلّ شيء كان يغلي في رأسه بقوّة وبوضوح تامّ. غطّت الدقّات الثقيلة على كلّ الضباب الجميل الذي ملأ ذهنه، قبل أن تترك المسارات مفتوحة أمام النغمات الناعمة التي تلاشت شيئًا فشيئًا ليحلّ محلّها

بياض صافٍ. بياض لامع ومعمٍ للرؤية، لم يكن به إلاّ وجه مي في كامل ألقه، وشعر يارا الذي سحبته بكلّ خصلاته الحريريَّة، نافورة بحيرة جنيف التي اندفعت بمائها عاليًا حيث لا صوت يطغى على نحيب نورما الذي كان يملأ كلّ ذرّة من فراغ البيت.

كلّ شيء في المدينة كان يبدو من الشرفة، كأنَّه يهرب من شيء مجهول. كان واضحًا ومستقيمًا ومرتبكًا أحيانًا في خطوطه وكأنَّه رسم طفل صغير، يسهو بين لحظة وأخرى قبل أن يتذكَّر عمله. كانت المدينة وكأنَّها تهرب من نفسها. الأبراج العالية تجعل من نيويورك مدينة تنزلق كلّ يوم أكثر نحو السماء. في كلّ فجر تشعر كأنَّها صارت أطول من الليلة السابقة. السيّارات، حركة الناس، البنايات المتعاظمة والشوارع المتوازية، تبدو من هذه الشرفة العالية خطوطًا مستقيمة ومتناسقة كإيقاعات لا حدّ لاحتمالات ألوانها الجميلة.

عندما نظر إلى الخطوط والنوتات، كانت أصابعه قد سبقته وغرقت في سرعة الأداء. لم يكن بحاجة إلى أيّ جهد ذهني وكأنَّ كلّ شيء كان قد ارتسم في رأسه بكلّ تفاصيله الدقيقة وتلوّناته. لا شيء أقسى على الموسيقى مثل مللّ والتكرار. مثل المرأة، عندما تستعصي على الاستسلام، يجب الإصغاء لنداءات الروح الغامضة، لتفصيل صغير، يعطّلها عن المجيء، أو يقف في وجهها بعنف حواجزه اللامرئيَّة.

فجر نيويورك أصبح أكثر وضوحًا.

تنفَّس يوبا عميقًا. شعر براحة كبيرة تملأ صدره. لم ير الأدخنة التي ضيّقت أنفاسه قبل هذه اللحظة. لم ير البياض الذي كفَّن المدينة

منذ أكثر من أسبوع. حاول أن ينسى كلّ شيء، حتى نفسه. أن يتفادى هاجس الموت الذي أخطأه بالصدفة ولازمه زمنًا طويلاً قبل أن يستوعبه. لم يكن يومها يعرف أنَّ شيئًا مثل هذا يمكن أن يحدث. نصف ساعة ودقيقتان وخمس ثوان، كانت كافية لإنقاذه من موت مؤكَّد. كان في برنامجه يومها إنجاز بعض المعاملات البنكيَّة، في مركز التجارة الدوليَّة، في البرج الجنوبيّ، في ذلك الصباح الغريب. تأخّر لأنَّ قدرًا جميلاً شاء ذلك. كان عليه أن يضع زهورًا بيضاء على قبر مي، في ذلك الصباح من يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ذهب ليعتذر لمي لتأخُّره، لأنَّه لم يفعل ذلك في أوّل أسبوع من بداية الشهر كما تعوَّد أن يفعل، ويطلب صفحها عن تقصير لم يكن إهمالاً ولا نسيانًا. كلّما تذكّر ذلك، شكر الصدفة المنزلقة من قدر قاسٍ، ودخل في احتمالات جنونيَّة يحفظها اليوم عن ظهر قلب.

«ـ ثمّ ماذا يا يمّا؟ شكرًا لك أنَّك منحتني قدرًا آخر، حتّى وأنتِ ميتة لأتفادى مقتلة المجانين. كان يمكن أن أكون واحدًا من الـ ٢٩٨٦ ضحيَّة التي اندثرت في ساعات قليلة، ١٣٦٦ في البرج الشمالي الذي تهاوى على الساعة العاشرة وتسع وعشرين دقيقة بعد أن صدمته الطائرة **AA11**، على الساعة الثامنة وستّ وأربعين دقيقة بالتوقيت المحلّي، أو من بين ٦٠٠ ضحيَّة في البرج الجنوبيّ الذي سقط على الساعة التاسعة وخمسين دقيقة، أي بعد سبع وأربعين دقيقة، إذ صدمته طائرة **UA175**. أو... كان يمكن أن أكون من بين ٢٩٣ الذين اكتُشِفتْ أجسادهم كاملة، أو حتى من البقيَّة، أي من الـ ٢٠٠٠٠ من

الأشلاء وقطع العظام التي تمّ تحديد هويّاتها بصعوبة. وربّما أكثر من ذلك كلّه، أيّ أن أكون من بين ١١٥١ الذين لم يُعْثَر لهم على أيّ أثر، وغابوا وسط الرماد والأدخنة. وربما... من يدري؟ لا هذا ولا ذاك، كان يمكن أن أسافر في إطار مهامّي كما أفعل عادة، بين بوسطن في الماساشوسيتس ولوس أنجلس في كاليفورنيا، وأكون من بين ٩٢ راكباً من ركاب الرحلة **AA11**، أو من بين ٦٥ راكباً من ركاب الرحلة: **UA175**. وكان يمكن، مع الكثير من الحظّ، وهذا احتمال بعيد، أن أكون من بين الناجين الثمانية عشر، الذين خرجوا بأعجوبة من نيران البرج الجنوبي. أرأيتِ كيف صرت أحفظ الأرقام؟ أيّ حظّ سحبني في ذلك الصباح نحو قبرك يا أمّي، ثم ألصقني في الطريق السريع بسبب كثافة الضباب الذي عطّل السير، ليصنع لي قدراً جديداً لم يكن في الحسبان أبداً؟».

غاب كلّ شيء، حتى أزيز الطائرة التي رآها وهي تلتصق بالبرج الشمالي مثل لعبة الأطفال محدثة دويًّا كبيراً وحرائق مفجعة، وأدخنة خانقة وصرخات لازمته مدّة طويلة. كلّما التفت نحو الفراغ الذي خلّفه انهيار البرجين في ذلك اليوم، تذكّر بعمق أنَّ الصدفة التي يلعنها دائماً، كانت يومها رحيمة جدًّا معه.

كلّما سقطت الثلوج، عادت نيويورك إلى ألقها الأول وامّحت جراحات السنة، وكأنَّ الثلوج ليست إلا ضمادات تغطّي نزفها الصامت. كانت هادئة، وكأنَّها لم تكن المدينة نفسها التي اقتُلِعتْ عفويّتها بعنف لم تشهده أبداً من قبل، وسُرق بعض جنونها.

لا شيء الآن بعد أن انكشفت أنوار الفجر، بأشعّة أغرقت الصالون بضوئها الذي لمع بشدّة من ناحية بحيرة هودسون. كانت الثلوج ما تزال ملتصقة ببعض أسطح البنايات وساحاتها على الرغم من الأمطار التي عادت إلى السقوط من جديد ساحبة في إثرها الأوراق الميتة التي قاومت ثقل الفصول الممطرة. كان المطر يعرّي المدينة من ظلالها، والوجوه من أقنعتها الحزينة. نقراته كانت تصله متماهية مع إيقاعات البيانو التي لم يفكِّر فيها ولم يدوّنها على ورقة التوزيع من قبل.

عندما انفتحت النافذة عن آخرها لم يكلِّف نفسه عناء غلقها. كان يريد أن يرى المدينة التي اشتهاها والتي ملأته بتفاصيلها الصغيرة، في هذا الفصل بالذات: نيويورك، أوركيدا المجانين، الوردة المتوحِّشة. عندما يغادرها ولو لأيّام أو لساعات، يشعر بها معه، يسمع تقطّع أنفاسها كعشيقة في لحظة عنفوانها. يسحبها وراءه في ذاكرته وبين أشيائه الصغيرة. عندما يفتح حقائبه في المدن البعيدة، تسبقه هي بروائحها وعطرها وألوانها وفوضاها الجميلة، وشوارعها التي لا تنتهي وموسيقاها التي تأتي من المخابئ المنسيَّة وتستقرّ في القلب بدون استئذان.

«شتاء هذه المدينة وخيباتها تذكّرني بمي، يمّا التي لم تشبع قدسها ولا ألوانها ولا يوسفها الذي حركتُ مواجعه من حيث لا أدري، فظلَّت أحلام العودة معلَّقة بخيط رقيق وهشّ لم يستسلم أبداً لثقل الهموم. ولدت ذات خريف في أرض لم تملك الوقت الكافي

لمعرفتها، وجرت إلى هذه البلاد ذات خريف أيضًا، وهي لا تعرف شيئًا عنها. أصابعها ما تزال ملطّخة بالألوان بعد أن رفضت، بشكل قطعيّ، تعلّم البيانو الذي تركته لي ولخالتها. عندما أسألها تضحك: **لم أكن موهوبة مثلك ومثل مامي دنيا. في هذه المهنة إمّا أن نكون كبارًا مثلك ومثل خالتي، أو لا نكون. وأنا فضّلت أن لا أكون، لأكون شيئًا آخر أقرب إلى حساسيتي. ربما لو كانت طانت جينا عازفة، كنت ركضت وراءها لأنّي كنت ملتبسة إلى أبعد حدّ بحبّها**، وأراها في كلّ شيء جميل. حتى والدها، جدّي بابا حسن، الذي ظلّ يحمل صور تاريخه الصامت وانكساره، لم يفهمها جيّداً ولم تفهم أسراره أبداً. هو كذلك كان يخاف من أشباحه التي لم تكن تعرفها. ماتت وعلى أصابعها بقايا ألوان فراشات القدس المُرَّة. تقول إنّها محظوظة لأنَّ اللّه منحها فرصة الخروج النهائيّ في الفصل نفسه الذي تشتهي فيه الأوراق أن تحلّق عاليًا بكلّ حريَّة، ولآخر مرّة:

ـ هل تعرف ما معنى أن تعيش لآخر مرّة وأنت تدرك جيّداً أنَّك لن تعود إلى الطيران بعد ذلك؟ ما زلتَ شابًّا ويصعب عليك أن تتخيَّل ذلك كلّه. عشْ في المكان الذي أنت فيه ولا تخشَ على ذاكرتك من الموت. عندما تخسر كلّ الأشياء، ستبقى هي وستذكّرك بما عليك فعله وبالدية التي عليك دفعها مقابل التغاضي عن نسيانك لها. اعرفْ فقط كيف تواجهها بصدق، وبدون زيف مفضوح عندما تطلبك وتناديك».

لم يلتفت يوبا إلاّ قليلاً إلى شبكة الرموز التي شيَّدها على الورق. عالم آخر كان ينشأ بقوة بين أصابعه الرقيقة. كانت السوناتا تهتزّ مثل موجات البحر المرتبكة. تنزلق النوتات بين ملامسه، محمَّلة بالأصداء والأشباح التي كانت تتدافع نحوه قبل أن تنطفئ وتتحوَّل إلى مجرد أصداء عابرة ونداءات غامضة. يتلاشى الأموات مثل فقّاعات الصابون، ثم يتصاعدون في الهواء كالريش الخفيف. يتضاءل الحزن حتى يصبح مجرّد همسة خفيفة قادمة من بعيد. تمّحي حتى صورة هيلين شميت المعلَّقة بحزامها في الحمام الذي كان يلفّ عنقها كالأفعى. يتبخّر الجسد ولا يبقى إلا الحزام معلّقًا في الفراغ. يتحوَّل الحزام، في لحظة من اللحظات الهاربة، إلى حيَّة تتزحلق خارج البيت، عبر المنافذ الصغيرة، وتذهب ركضًا نحو البنايات القديمة وتتخبَّأ هناك بين فجواتها وحفرها. يغمض يوبا عينيه لكي يتفادى الضوء الذي أغرق الصالة بقوّة. تتحرَّك يارا في مكانها ثم تعود إلى نومها من جديد على هدهدة الإيقاعات الخفيفة التي تلاحقت بقوّة. وتخفت صرخة يوسف التي مزّقت صمت المكان: **أهذه أنت، تعودين الآن؟ لماذا؟... لماذا فعلتِ كلّ هذا يا مي؟ حرام عليك. كنتُ سعيدًا في هبلي ويقيني أنَّك ضعتِ في بحر الظلمات؟ أيّ ريح هبّت عليك يا ابنة أمّي؟ أيّ نار أكلتك وأيّ زمن ابن كلب ساقك نحو التيه؟** ثم تتماهى الصرخة شيئًا فشيئًا، في النداءات الكلّيَّة، وتغيب في عمق النور المتصاعد من الشروق البعيد، مع أشباح مدينة القدس. تتحوَّل مي، بكلّ حزنها، إلى ألق شفقي يخطّ في شكل دائري، كلّ أطراف السماء.

عندما التفت يوبا، وأصابعه الناعمة غارقة في سوناتا الغياب، رأى من وراء النافذة العريضة صباح نيويورك مضاء على غير العادة وغارقًا في ألق جميل تمنّى أن يحتضنه، وسماء صافية وهالة نجمة ما تزال ظلالها مرتسمة في الزاوية اليمنى من بيانو مامي دنيا، تطغى على كلّ النجوم بنورها. ثم رأى حمامة تنظر إليه بعينين دافئتين وطفوليتين، تشبه عيني يارا الزرقاوين. وعندما طارت الحمامة عاليًا ارتسم، في لمح البصر، خيط جميل في عرض السماء بألوان قوس قزح، مشكّلاً نصف دائرة امتزجت فيها آلاف التدرّجات التي ذكّرته بفراشات مي، فراشات القدس الغائبة. انسحب الموت بعدها بكلّ روائحه المخيفة، وصدفه القاتلة، مخلِّفًا وراءه عطرًا شبيهًا برائحة بنفسج جبل الزيتون البرّي الذي شمّه لأوّل مرّة وهو يعبر دروب القدس الضيّقة، وبرتقال يافا وحفيف الفراشات وهي تبحث عن أمكنتها وسط عرس من الألوان الهاربة، في خفايا المدينة القديمة، مدينة اللّه الخائفة من أنبيائها الجدد.

باريس ١٤ مايو ٢٠٠٨

الموافق للسنة الستّين، من عام الرماد

المحتويات

اللوحة للفنانة علا حجازي

مي فنانة فلسطينية، غادرت أرضها الأولى في ١٩٤٨ وعمرها ثماني سنوات، في ظرف قاهر، باسم غير اسمها وبهويّة مزوّرة، باتجاه العالم الحرّ، بحثًا عن أرض أكثر رحمة وحبًّا. في نيويورك، تفرض نفسها كفنّانة تشكيلية أميركية من الطراز العالي. عندما يباغتها سرطان الرئة، تستيقظ فيها تربتها الأولى وأشباحها الخفيّة، فتتمنى أن تعود إلى القدس، لون طفولتها المسروقة، لتموت هناك. ولكن، هل يمكن أن نعود إلى الأرض نفسها بعد نصف قرن من الغياب؟ ماذا تعني العودة عندما يقضي الفلسطيني العمر كلّه في الدوران خارج نظام المجرّات؟

«اليوم، أشياء كثيرة تغيَّرت. الدنيا نفسها صارت شيئًا آخر. بعدما هدأتْ كل الآلام والتأمتْ بعض الجروح ونسيتُ صرخة يوسي المفزعة التي صاحبتني مدة طويلة في أحلامي وكوابيسي، وانتهيتُ من تدوين حدادي كما اشتهيتُ، أصبحتُ لا أرى شيئًا سواها في قمّة ألقها كما في سنوات تفتّحها الأولى. كلّما أغمضتُ عينيّ المتعبتين من مشقّة الموسيقى والعمل الدائم، رأيتُ مي تقوم من بقايا رمادها كطائر الفينيق، وتتحول إلى فراشات لامتناهية خُطّت على أجنحتها دوائرُ لا حصرَ لها وألوانٌ بمذاق البرتقال واللوز. كلّما نزل الليل، أضاءت مدينة اللّه اليتيمة، أورشليم، المنكفئة على عزلتها وجبروتِ صمتِ موتها المتواتر».

يتنازل الكاتب عن كلّ حقوقه المادية لصالح الأطفال المرضى بالسرطان.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣–١١ بيروت